لغة أمي

FLANDERS LITERATURE

الكتاب: لغة أمي

المؤلف: توم لانواه

ترجمة: بسنت عادل

تصميم الغلاف: دار نون

تدقيق لغوي: عاشور عطا

رقم الإيداع: 2019/28185

الترقيم الدولي: 978-977-778-210-4

للنشر والتوزيع

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت: 02-338560372

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

توم لانواه

لغة أمي

رواية

ترجمة

بسنت عادل

FLANDERS LITERATURE

ن للنشر والتوزيع

حدث كل ذلك بسبب السكتة الدماغية المدمرة، التي كانت كصاعقة داخلها، تلاها تدهور مؤلم استمر لمدة عامين. كانت أماً لخمسة أبناء، وممثلة هاوية من الدرجة الأولى. كرست هذه الأم حياتها لخدمة الكلمة المنطوقة، لخدمة العمل الشاق، وتوفير الطعام الصحي في كافة الأوقات لعائلتها، ولخدمة المتعة المفيدة والنظافة العامة التي كانت -يجب أن تكون- بأسعار في متناول الجميع في كافة الظروف. مع ذلك، بمنتهى القسوة وبأشد معاناة، كان عليها أن تدفع في المقابل ثمناً لهذه الحياة، هذه الحياة التي كانت تفى بالتزاماتها بوسائل متواضعة، وبطموح بلا حدود، وبإصرار شديد وبفخر عنيد.

لقد فقدت في البداية النطق، ثم الكرامة، ثم ضربات القلب.

من يعرفها، سيظن دائما أن الأمور لم تسر على هذا المنوال. إن قلبها الهش والمتهالك، كما أشارت هي من قبل، لم يكن قادراً على الانتظار لمدة عامين. لقد توقف عن الخفقان بمجرد أن توقف الفم عن الكلام، بمجرد أن توقف الفم عن المدح أو الذم، بمجرد أن فقد الفم القدرة على التذوق، على الابتسام أو على الانتقاد. ومرة أخري، لم أتحدث عن طريقتها في الجدل، أو عن طريقتها وهي تسحب قدرا ضئيلا من الأنفاس من سيجارتها، هذا القدر الذي أصبح أقل وأقل على مدار السنين. وبالطبع، لن أذكر هنا شكل شفتيها الذي كان ينم عن التهكم، عندما لا يعجبها شيء ولا أتحدث عن طريقتها التي كانت تنم عن الاحتقار عندما ترفع زاوية فمها وترفع الحاجب المقابل وذلك عندما كانت تريد أن تعبر عن أنها لا ترى أنها يمكن أن تستفيد من الشخص الذي أمامها أي دروس مهمة تكون متعلقة بمهنته، بأساليبه التربوية، بكتبه عن الطبخ، بمفهومه عن المسرح الفعال أو برؤيته لبقية البشر.

في البداية، أود أن أحذرك أيها القاريء، إذا كنت لا تحب الكتابات التي تستند إلى الحقيقة إلى حد كبير وتسمح لك بتخيل الأجزاء المفقودة، إذا كنت تشعر بخيبة أمل من الروايات، التي في نظر الكثيرين، ليست روايات لأنها تفتقر إلى الحدث الرئيسي، النهاية السعيدة والموضوع المناسب، وبعيداً عن الملاحظات الجانبية، تفتقر إلى سرد متماسك بشكل صحيح أو إذا كنت تتأثر بنوعية النصوص التي تعد رثاء أوتحية أو قدحاً لاذعاً، والتي تتحدث عن الحياة ذاتها وفي الوقت نفسه عن شخصية واحدة، عن شخصية أحد الوالدين الأعزاء على الكاتب، فإذن.. فإذن، قد حان الوقت لتغلق هذا الكتاب.

اتركه في كومة الكتب التي وجدته من بينها في متجر الكتب، اتركه مع بقية الكتب الموجودة على رف ناديك، أو في دار المسنين الذي تعيش به، أو في مكتبتك العامة، أو في غرفة المعيشة لدى أصدقائك، أو في المنزل الذي جئت لتسطو عليه.

اشتر شيئاً آخر، استعر شيئاً آخر، اسرق شيئاً آخر.

ولا تشغل بالك بقصة والدتي.

هي
(أو سرد القصة)

لدي صورة صغيرة لها، وجدتها بعد وفاة أبي. إذا رأيتموها، ستقولون أنه ليس بالضروري أن الجمال ينتقل من الأم إلى الابن.

كانت عائلتها قبل الزواج، آل فيربياك، تتكون من مجموعة من المهندسين المعماريين والمقاولين والبنائين، وكان غالبا ما يكون الرجال في هذه العائلة طوال القامة ولكن دائماً ما تشعر بأنهم يعانون من الهزال وأجسادهم تبدو كالهياكل العظمية، أما بالنسبة للنساء، فغالبا ما تكون نحيلة ولكن دائما تكون ملامحهن حادة للغاية، وبالتالي، عندما ينظر المرء إلى عائلتها والتي بهذا الشكل، فإنه يتساءل، كيف لهذه العائلة، أن تخرج هذا القدر من الجمال والأناقة. لقد كانت أصغر الأبناء في عائلة تتكون من اثني عشر طفلاً. كان ينبغي أن يكون عدد الأطفال أربعة عشر، لكن أخاً صغيراً قد مات عند الولادة دون أن يعطوا له اسماً، وآخر عمد على حسب الأصول، ولكنه مات في مهده.

كان هناك ما يكفي من الإخوة حتى أنها لم تعاني من أى شعور بالفقد.

كانت هي الأصغر قامة والأنحف من بين إخوتها الإثنى عشر، وكانت هي الوحيدة، في سن السادسة عشرة، التي استطاعت أن تدرس باللغة الفرنسية لمدة عام كامل في دينانت، ثم بعد ذلك لمدة بضعة أشهر باللغة الإنجليزية في نورثامبتون. لقد

كانت تتقن المحاسبة وفن الإتيكيت، لقد كانت مثالية في كل شيء. مثالية مع القواعد الصارمة، الرحلات الكثيرة وبعض الصداقات إلى مدى الحياة.

إننا نتحدث هنا عن السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية، عن الأيام الأخيرة لفترة ما بين الحربين والتي كان يبدو أنها لا نهاية لها، عن فترة ازدهرت فيها "بلجيكا الصغيرة" عن أي وقت مضي. للمرة الأولى، منذ الحرب العالمية الأولى، والمذبحة العالمية التي تمت منذ بداية عام 1914 وحتى عام 1918، أصبح من جديد الفرنك الخاص بها يلقب بدولار أوروبا، وللمرة الأولى أيضاً، أصبحت أسلحتها وبيرتها الإقليمية مشهورة في كافة أنحاء العالم. كذلك نجحت بلجيكا، الوطن الأم، أن تجتاح سوق مستعمراتها الواسعة للغاية، الكونغو، والتي تعد عالم داخل عالم، بعاداتها العسيرة على الفهم ومناخها المدمر، بعدد لا نهائي من السلع الاستعمارية مثل العدادات قابلة الطي أو قرن الحذاء[1] والتي تعد سلعا غاية في البساطة بالنسبة لبلجيكا، والتي كان بإمكانها أن تدخل لمستعمرتها سلعا أكثر ثمانين مرة من ذلك. من هذه المناطق الاستوائية البرية، كانت الثروة بشكل وفير تنسكب على بلجيكا، هذه الثروة التي كانت بمثابة أصل وأساس الازدهار. فمن هذه المناطق، كانت بلجيكا تحصل على ما يلزمها من المطاط، العاج، النحاس، الكوبالت، بالإضافة إلى جبال الزنك والقصدير، شلالات الماس، بحور زيت النخيل والكاكاو، محيطات النفط، ناهيك عن الذهب والفضة واليورانيوم والأعمال الفنية من البرونز الخام وخشب الأبنوس. لقد كان ذلك مثمراً بالنسبة للوطن الأم، والذي استفاد من ذلك كثيراً، ولكن كيف! بسبب مصدر قوتها القديم: موقعها في مركز أوروبا العصبي، فقط في مفترق الطرق بين لندن وبرلين وبين باريس وروتردام.

لم يكن هناك وضع يذكر أفضل من ذلك في أوروبا كلها، ولكن انتهى ذلك عندما أتت الحرب.

---

1) لبيسة الحذاء.

وعلى الرغم من تطور طيرانها المدني، والذي أصبح باللون الأزرق والأبيض لأن الألوان الوطنية كانت تشبه الألوان الألمانية، وعلى الرغم من شبكة السكك الحديدية الكثيفة المأهولة بقاطرات قوية تم تصنيعها في الموقع، وعلى الرغم من نجاح سيارتها الوطنية من ماركة منيرفا والتي تعد "رولز رويس القارة"، وعلى الرغم من كل هذا وأشياء أخري كثيرة، فإن فترة ما بين الحربين في بلجيكا خارج العاصمة (بروكسل؟ باريس الصغيرة!)، دعنا نقول، خارج أنتويرب ولييج، ولا تتردد، خارج غنت ومونس، ولماذا ليس شارلروا[2]، فإن فترة ما بين الحربين في بلجيكا مازالت تجعل المرء يفكر إلى حد ما في البيل إيبوك[3] . كل هذا دون أن نذكر سيارات الأجرة وعربات الترام التي تجرها الخيول والملابس الفضفاضة التي كان يسهل ارتداؤها على الأقل فوق حزام الخصر، فقد كان مسموحاً لنا بفك الأزرار إلى حد ما.

ومع ذلك، كانت مازالت المرأة التي تدخن في الشارع تمثل فضيحة، ومع ذلك، فإن قاعات الرقص التي ازدهرت في كل مكان كانت لا تزال مخصصة للعمال والبلطجية، ومع ذلك، عند مدخل دور السينما، والتي أصبحت أكثر وأكثر شعبية، لا يزال الأساتذة في لباس الكهنوت، يدونون أسماء الطلاب الذين يدخلون، والذين كان عددهم أكبر بكثير من عدد الطلاب السابقين الذين كانوا يدخلون السينما في الأيام الماضية. وبالتالي، لم يكن من البديهي، أن امرأة شابة من واسلاند تحمل تعليماً دينياً، تجوب العالم بمفردها، لم تكن تنتوي في يوم من الأيام، أن تصبح راهبة مبشرة، كان جل ما تريده هو أن تتلقي دورات على الجانب الآخر من بحر المانش، دورات متقدمة لكي تطور من نفسها. وهذا قد يبدو غريبا, حتى وإن كانت فتاة ذكية، جميلة ولسانها ينطق بثلاث لغات بكل عفوية. من فضلك، يجب أن تؤيدني في الرأي. ولكن أيضا، لماذا هذه اللغات الثلاث؟ لقد كانت هي، منذ صغرها، التى أردت ذلك منذ البداية، وقد توسلت كثيرا ودافعت باستماتة عن قضيتها أمام أولئك الذين يجب

---

2) أنتويرب، لييج، غنت، مونس وشارلروا، أسماء لمدن في بلجيكا.

3) "الزمن الجميل" (وهو مصطلح يعنى فترة ازدهار البلدان الأوروبية قبل الحرب العالمية الأولى).

أن يعطوها الإذن وأمام العديد من الناس الآخرين والذين لم يكن لهم أي علاقة بهذة القضية على الإطلاق. وكان هذا منذ اللحظة التي استطاعت فيها الكلام والدفاع عما يخصها! "ما كنت أنا أفضله" هو تلك اللحظة التي كانت تكرر فيها بمنتهى الإصرار طوال حياتها، معظم الوقت، من وراء مكتبها، دائما مع قليل من الندم في صوتها: "كان جل ما أريده هو أن أصبح محامية في النقابة. ولكنى أيضا، كنت أريد أطفالا. لقد حدث ذلك من قبل. عليك أن تعرف كيف تختار في الحياة".

مهلا! من يدري؟ ربما هى من قررت في يوم من الأيام أن تصبح جميلة وأنيقة! وبالطبع، كان لديها ما أرادته، جوزيتشيا، صغيرتنا خوسيه.

وقد كان هذا يصيب الناس بالدهشة إلى حد ما. "عندما يكون لدى جوزيتشيا شيء في مؤخرة رأسها" هذه عبارة يمكنك أن تسمعها مرارا وتكرارا من قبل إخوتها الأحد عشر، في تنهد في كثير من الأحيان، في احتفالات السنة الجديدة ووجبات الزفاف، قبل أو بعد فترة طويلة من اندلاع إحدي هذه النزاعات العائلية التي يمكن أن تستمر لسنوات. ولكن يجب الاعتراف بأنه بمجرد أن تكون هناك بعض اللحظات الهامة للعائلة، فأن آل فيربياك لم يكونوا أبدا بخلاء أو عصبيين إلى حد مبالغ فيه. كانوا حريصين على تلبية كافة الدعوات، كانوا طوعا أو كرها، يبحثون عن الانسجام. كنت تراهم يجلسون على نفس الطاولة، متحدين غير منفصلين، مع نشازهم المعتاد من الأصوات العالية للمهندسين المعماريين، والدعابات الحادة للبنائين وسباب لاعبي الورق. على مدار ساعات كانت ترتفع أصواتهم بالغناء: "على ضفاف شيلدت، مخبأة جيدا وسط أعواد القصب"، يتخلل ذلك أراء قوية تقال بأعلى صوت من أحد برجوازيي العائلة الذي يقول أنه عرف كيف ينجح في الحياة.

وهذا صحيح. لقد نجحوا وأعلنوا ذلك. نعم، ألقوا نظرة على الطاولة وانظروا إليهم جميعا: ها هم، آل فيربياك، مجتمعين حول الطاولة مثل النحل على قرص العسل. كان كل منهم محاطا بأبنائه. كانوا يحملون بين أيديهم سيجارا أو كأسا من

نبيذ أنتويرب، ها هو واحد منهم يشرب شراب اللوز الذي يسمى ليونيداس وآخر يلتهم بسكويت اللوز والذي يسمى ديستوبر. ولكن، كنت تجد كل من على الطاولة مشغولا بحديث في مجال معين، الأباء لهم مجال معين، الأجداد والأصدقاء القدامي يتحدثون في موضوع معين، أما أكثر الأحاديث صخبا فكانت أحاديث الشباب، وعندما كنت تسمع لكافة الأحاديث، كنت كأنك تستمع لصوت أزيز مئات الحشرات أو الطيور في عش مشترك.

"عندما يكون لدى جوزيتشيا شيء في مؤخرة رأسها".

"من الأفضل الابتعاد عن طريقها".

ولكن لا تنخدعوا بظواهر الأمور. واعذوروني، فإني أنتقل من موضوع إلى موضوع، دعونا نعود إلى الصورة الصغيرة التي كنا نتحدث عنها منذ البداية. كانت ترتدي في الصورة، قبعة صغيرة مزينة بالريش. كان هذا يليق بها تماما، بالتأكيد [والدتي: إن الأمر، هكذا دائماً، أعطوني قبعة، وسأكون الأفضل بها حتى لو كانت وعاء زهور أو طبق طائر"]، ولكن هذا لا يعنى، أنها كانت تضع القبعة دائماً في حياتها اليومية. فقد كانت لا تفضل القبعات اللافتة للنظر.

كانت بالأحرى، تفضل العمامة البسيطة، عندما تشعر بالتعرق، كما أنها كانت ترتدي بذلة السباحة دون أدنى شعور بالانزعاج حتى سن متقدمة وكانت تعمل في حديقة منزلها الريفي. كان البيت الصغير الذي شيدناه، والذي أطلقنا عليه اسم "المنزل العائم"، يقع على مرمى حجر من مركز مسقط رأسها و(مسقط رأسي)، والذي كان يعد مكاناً غير ذي أهمية، ثم تم ترقيته في يوم من الأيام إلى رتبة المدينة الحقيقية من قبل نابليون شخصياً. كان بالفعل إمبراطوراً في ذلك الوقت.

ومنذ ذلك الحين، يوجد في سينت نيكلاس أو سانت نيكولا معظم المدارس الثانوية في المنطقة، أعلى معدل انتحار في البلاد، أكبر سوق، ويقال أكبر مساحة خالية في أوروبا كلها.

وربما، من أجل تعويض كلا من الفراغ والرغبة في الانتحار، يقام على الأقل مرة واحدة في السنة، الاحتفال بذكري التحرير، وهو مصطلح يستخدم، بين السكان، باستمرار بمعانٍ جديدة ويثير آمالاً جديدة، وعادةً يكون الاحتفال باطلاق سرب من البالونات متنوعة الحجم والألوان، في ساحة السوق الهائلة والفارغة، بعضها ممتلئة بالهيليوم وبعضها الآخر بالهواء الساخن.

ويقصد بالأخيرة المناطيد الحديثة. تكون في أول الأمر، مربوطة على الأرض، في شكل مجموعة جميلة، وبجوارها يقف راكبوها في انتظار لحظة الانطلاق. عندما ننظر لمجموعة المناطيد من بعيد، نشعر أننا أمام كتلة هلامية، غير واضحة المعالم، مثل عقدة بحرية في غاية التعقيد، وضعتها هناك العملاقة، تم فكها بمهارة ثم إعادة ربطها معا، تشعر وكأنك في بركة من المواد الصناعية، الغريبة والمتقلبة، ولكن، عندما تقترب، وتتشكل الخطوط العريضة للكتلة الغريبة أمام عينيك، تشعر بمنتهى الدهشة. إذا، لم يتم الأمر بهذا الشكل، ربما تكون واقفاً أمام بالون عادي؟ تشبه هذه البالونات ثمرة الكمثري وهي مقلوبة، مرقعة مثل كرة الشاطيء، ربما يبدو ذلك من جنون العظمة؟

صفير وهدير بصوت عال، ينفجر لهيب من شعلة تحيط بها مروحة كبيرة، مثبتة في الإطار نفسه، الموضع هو نفسه فوق سلة. في هذه اللحظة، يتوقف الأمر للأسف على مقدمة المنطاد. ترسل المروحة بميل إلى حد ما، الشرارة الأولى والدفعة الأولى من الهواء الساخن، ولكن ببطء قليلاً، الي فتحة البالون، التي يجب أن تظل مفتوحة من قبل راكب المنطاد ومساعديه. يقفون على رؤوس أصابع أقدامهم، والأذرع مرفوعة فوق الرأس، ويتشبثون بكلتا أيديهم بالحافة السلسة من الفتحة، مع الحرص على تجنب تيار الهواء الساخن، حتى لا تحترق رموشهم وحواجبهم، ربما شعر روؤسهم كله. عليك أن تكون قادراً على تقديم التضحيات من أجل هوايتك. وهكذا، فجاة، يبدأ العملاق ينتصب، ثم يرتفع ببطء وتدريجياً، ثم ينطلق إنطلاقة وحشية في الهواء الطلق. فهو يرفع رأسه أولاً، ثم ظهره، ثم الجزء العلوي من جسده. بكل ثبات وهيبة، يبدو أنه يخرج من باطن الأرض نفسها، نعم، فهو يهرب بحركة بطيئة من

سوقنا، المحاط بالناس، هم جميعا إخوة، مثل أحد المحاربين الذين لا حصر لهم الذين انتشروا من الأرض في الحقول التي نثر فيها جايسون أسنان الثعبان، الجنود الذين اضطر لقهرهم للاستيلاء على الصوف الذهبي[4]. يمكن أن نشبه المناطيد بالتيتان في الأساطير اليونانية، ولكن المناطيد، موجودة في العصر الحديث، ضخمة، ومهددة، دائماً كاملة، دائماً عالية، وهي تنتصب بالتدريج حتى تستيقظ بالكامل، وترفع السلة تحتهم، ويعد ذلك أول انتصار لها. يغني لهبهم بصوت أعلى وبمزيد من المحبة عندما تصبح أكثر قوة، وفي النهاية، تنتشر في السماء بالكامل، تلوح ببريقها وتكون بمحاذاة بعضها البعض بعناية. ها هم عمالقتنا المهيبة، يهزهم نسيم الخريف، الذى لا مهرب منه، ترتجف في الانتظار، كما بعد الولادة مباشرة، مازالت مشدودة على الأقل مؤقتاً

4) أسطورة الصوف الذهبي: الصوف الذهبي هو صوف خيالي لكبش طائر خيالي تناقلته الأساطير اليونانية. كان هذا الصوف موضوع بحث مشهور قام به البطل اليوناني الخرافي جاسون ومجموعة من الرجال تدعى بحارو الأرغو. قصة الصوف الذهبي الخيالية كانت تدور أحداثها في مملكة ثيساليا اليونانية التي كان يحكمها الملك أثاماس الذي كانت له زوجتان. إذ كان له من زوجته الأولى، نيفيلي، ولد يُدعى فريكسوس، وابنة تسمى هيلي. بينما كانت زوجته الثانية إينو تكره الأطفال، فأقنعت فريكسوس، وهيلي بـأكل جميع الحبوب التي أراد الفلاحون اليونانيون زراعتها، حتى ترضى عنهما الآلهة. وحينما فَعَلا ما طلب منهما لم يكن في ذلك العام محصول، فحدثت مجاعة رهيبة.

قام أثاماس بإرسال رسول إلى الكاهن من أجل إنهاء حالة المجاعة العصيبة، وعند عودة الرسول قدمت له إينو رشوة ليُعِدَّ تقريراً كاذباً. فقام الرسول بإخبار أثاماس أن المجاعة سوف تنتهي إذا قُدِّم فريكسوس وهيلي قربانًا للآلهة. فما كان من الملك إلا أن وافق على التضحية بولديه، إلا أن والدتهما أنقذتهما، حيث أرسلتهما إلى أرض بعيدة تسمى كولتشيس على ظهر كبش طائر ذي صوف ذهبي.

قام الكبش بالطيران فوق مضيق الدردنيل وهو في طريقه إلى كولخيس، فسقطت هيلي من فوق ظهر الكبش وغرقت، ولذلك سمى المضيق فيما مضى بهيلاسبونت تخليدًا لذكراها. بينما وصل فريكسوس سالمًا إلى كولخيس حيث ضحى بالكبش تقربًا للإله الوثني المزعوم زيوس، وعلّق صوفه على أشجار بستان هناك. ثم استولى جاسون بعد ذلك على الصوف الذهبي، وأعاده إلى اليونان.

- الجبابرة أو عرق التيتان بحسب الميثولوجيا الإغريقية، هم عرق من الآلهة الأقوياء الذين حكموا الأرض خلال العصر الذهبي الأسطوري، وهم العرق السابق للآلهة الأولمبية. اختلفت الأساطير القديمة في وصفهم باختلاف الفترة الزمنية والمنطقة التي تأصلت منها الأسطورة، إلا أنهم كانوا يعدون في غالبية الأوقات تجسيدات لقوى الطبيعة ومظاهرها المختلفة. المعنى الحرفي لاسم الجبابرة بالإغريقية هو الآلهة المجهدة أو المكافحة، وهم يعرفون أيضًا بالآلهة القدماء، أبناء الجنة، وقبيلة أورانوس.

بالكابلات مثل جاليفر لدى الأقزام[5]، ولكنها جاهزة لقفزة لا تقاوم باتجاه القبة السماوية. جيش معاصر يتكون في الغالب من ثمار التين مقلوبة رأساً على عقب - فلا يجب أن تكون دائماً كثمرة الكمثرى- وسط ألوان قوس قزح اللامعة للغاية. بالطبع، كان هناك أيضاً بعض المناطيد التي لديها شكل بيت الزنجبيل[6] أو السمندل[7]. أو حتى على شكل بيرة من علامة تجارية معروفة، والتي هي راعية لهذه الألعاب الهوائية، وذلك لأنه من الضروري، أن يدفع شخص ما الفاتورة، حتى لو كانت فاتورة الهواء الساخن.

بعد ذلك بقليل، سترتفع إلى السماء، بمنتهى الهيبة تحت المزيد من الهتافات. أما بالونات الهيليوم، فيتم وضعها في شبكة صيد كبيرة، فتبدو كسيقان ممتلئة لإحدى النساء، كأصابع النقانق الشهية، في جورب مثير، تُرمى بمنتهى السرعة نحو السماء مثل أكياس رمل نهر الراين والرمل الأصفر التي ترمى من المناطيد حتى تستطيع الطيران بمنتهى الحرية. وهذا يعنى أن محتوى الأكياس يتم رميه، في جميع اتجاهات الرياح وعلى أوسع نطاق، وتذكرني هذه الطقوس بحركة الفلاح ناثر البذور الذي كان يطل علينا من غطاء دفاترنا عندما كنا تلاميذ بالمدارس. ولكن الأمر يتعلق هنا بالرمال، وليس البذور، الرمال على الأحجار، الرمال في أي حيز خال، الرمال على الناس والرمال على الرمال.

عندما يمر إلقاء أكياس الرمال بسلام، يستريح الجمهور، الذي يظل يراقبها رافعاً رأسه باتجاه السماء، على سبيل المثال، تجنباً لأبراج الجهد العالي، يسمح برمي الكيس والرمل معا باتجاه البحر، وهو ما يعرض السيارات ورؤوس الماشية البريئة للخطر،

---

5) رواية رحلات جوليفر أشهر أعمال الكاتب جوناثان سويفت (1745-1667م)، الذي يعده الكثير أعظم مؤلف ساخر إنجليزي. تروي القصة حكاية لومويل جوليفر وهو طبيب إنجليزي بارد الأعصاب، ونادراً ما يبدي أي انطباع شخصي أو استجابة عاطفية عميقة. وهي منقسمة إلى ثلاث رحلات، كانت الأولى منها في أرض الأقزام.

6) أسم كعكة أو بسكويت.

7) حيوان مائي.

أو ربما يسعد ذلك أحد المارة الذين كانوا يشعرون بالحزن. في إحدى السنوات والتي يمكن اعتبارها سنة مشئومة، لتجنب إشعال النيران في هوائي تليفزيون، قمنا بالرمى تجاه عربة طفل، كانت فارغة، حمدا لله. الطفل الصغير، راكب العربة، كان والده قد حمله من العربة ليجعله يرى المنطاد العجيب الذي كان على شكل حيوان السمندل والذي طاف فوقهما وفي اللحظة التالية، بجانبهما مباشرة: باباتارا! دخل كيس رمل بالكامل داخل العربة والعجلات طارت من أثر الصدمة.

في المقابل، تنطلق المناطيد الآن، مع صوت عالٍ جدا لتدفق دفعات الأكسجين، لهيب طويل للغاية عبر ثقب الكرة المرئي في غاية الوضوح. إطلاق اللهيب القوى، يدفع المناطيد لملاقاة السماء. وهكذا، فإن كراتنا من الهيليوم وبالونات الهواء الساخن تطير سوياً فوق اثنين من أبراجنا المركزية، كان لابد لواحدة منها أن تحمل تمثال للسيدة العذارء، ولكن بدلا من ذلك، وفقا لطبيعة أسطورتنا الفلمنكية، والتي تحكى عن التواضع المبهر، فبدلاً أيضا من أن تحمل الديك الصغير الخفي أو التنين المجنح، فهي تحمل أحد هذه الوحوش الصغيرة ذات القشور التي تنزل بكل سرور مع رئيس الملائكة، ميخائيل.

ولكن القديس نيكولاس لم يكن معروفاً بورعه أو بتواضعه. وبالتالي، كانت مريمه ليست مستعدة على الإطلاق لأن يستشهد على يد أي شخص، وبالتأكيد ليس بكل سرور، ولو حتى على يد رئيس الملائكة نفسه. كان طولها مماثل لارتفاع منزلين، مريم هذه، وكانت ترتدي تاجاً على رأسها وتحمل طفلاً بين ذراعيها.

سيدتنا كإمبراطورة خصبة، كانت مدرعة من أخمص قدميها وحتى أعلى رأسها بالأوراق الذهبية المتلألئة. لهذا السبب، كانت في اللغة الشعبية، تدعى مريم الذهبية. إذا كان هناك ما يكفي من الضباب حولها لإخفائها عن الأنظار على الرغم من كل أوراقها الذهبية، فإن الأغنية الشعبية تقول أنها تسافر مرة أخري، وأنها تستطيع أن تحمله، بكل ما لديها من معادن ثمينة وكل وقت الفراغ الذي تملكه، ففي النهاية، هو

طفل واحد. لا يمكن اعتبار ما يحدث امتلاك سيىء، إنهما معا يمثلان عائلة واحدة. يقولون أن واحداً يعد لا شيء.

اليوم، لم يكن هناك أي ضباب، ربما، بعيداً عن هنا، كانت السماء تمطر قليلاً، تمطر القليل من الرمال الناعمة ولكن بالنسبة لباقي اليوم، فهو يبدو كأي يوم مشرق في شهر سبتمبر مع الألوان البراقة والمشرقة مثل لوحات بروغيل، والناس يصفقون ويشربون ويأكلون الهمبرغر مع حلقات البصل المقلية وصلصة الطماطم الطازجة، بينما في الأعلي هناك، فوق الخيام وفوق رؤوس جموع البشر التي تأكل، يرتفع سرب من سفن الهواء. إنها ترتفع فوق مداخن وأسقف من الخشب، فوق أسطح منازلنا العصرية وفوق شرفاتنا حيث مجموعة من الأمجاد المحلية تحرك أذرعها. لقد مرت أيضاً على بعض المزارع والمقاهي مثل تلك التى كانت تدعى جرانمات وإيميلورك، والمتاجر مثل تلك التى كانت تدعى فيوف جيوتال أند فيلز، التي كانت تبيع أكواب الكريستال والعلب المبطنة بالحرير الأزرق واقتربت من مطعم البطاطس المقلية والذي يدعى بوتفهار على اسم حمار السيرك في ألبوم بوب وبوبيت، والذي يسمى القرد الطائر.

أخذت تتطاير بطول واجهات فندقنا في المدينة الحديث نسبياً وكذلك بطول جدران السيبرج، سجننا القديم، والذي كان في شبابنا، كرمز، يستخدم كمكتبة عامة والتي تحولت بدورها على مدار الوقت، إلى تجمعات سكنية. فنحن نحول كل شيء اليوم إلى تجمعات سكنية حتى المكتبات القديمة، التي قرأت فيها يوما وشعرت بتعب في عينيك ولكن لم تشعر بأى ندم، والتي في بعض الأوقات، لم يكن موجوداً فيها، كتاب يناسب فئتك العمرية، فيسمح لك أمين المكتب، الله يبارك فيه ويبارك في اسمه وفي ذريته، أن تبدأ في قراءة الكتب من الفئة العمرية الأعلى بشرط لا تخبر أحداً، هكذا كانت تجري الأمور. تمر بهذه الواجهة المهيبة، لا تعبأ بالشعر الممزق الموجود بالمزارب ولا بالبلاط المكسور مثل قبل يوم الطوفان. وأخيراً، تقرر الذهاب إلى الفضاء اللامتناهي، المهيب والصامت، بعيداً جداً عن أسقفنا وأفنيتنا الداخلية،

بالضبط، في طريق الوصول إلى باراكلن بارك أفينيو، والذي يا لها من مفاجأة، يمتد بطول الحديقة. الحديقة المكتظة بالفعل بالسيارات التي لا يريد أصحابها أن يفوتوا شيئاً من المنظر المفضل لديهم والذي يعطيهم أملاً سرياً في حادث صغير ربما يغير حياتهم. في العام السابق، سقط بالون في بركة قصر، ثلاثة منها تشابكت في الأسلاك الشائكة وتضررت اثنتان في المجال العسكري لواستاكيرز، مما كان يعد بمثابة إنذار، فنحن نتحدث هنا عن السنوات التي بلغت فيها الحرب الباردة ذروتها.

في نهاية شارع بارك، أسفل التقاطع مع الطريق السريع من أنتويرب إلى غنت، يبدو أن القافلة الصغيرة لسفن الهواء قد توقفت للحظة. لفترة قصيرة جدا، بدت ثمرات الكمثري والتين المقلوبة وأفخاذ المرأة الشهية، معلقة في المكان، تهتز في الهواء وتتحرك مثل كرات شجرة عيد الميلاد. ثم اختارت بمنتهى العزم اتجاهها المنشود. ليس غنت أو أنتويرب. ليس هولست في هولندا، ولكن التايمز على ضفاف شيلدت.

في بدء الأمر، طارت باتجاه المركز التجاري للبلد في واس، الذي بدا، أثناء بنائه، فكرة جيدة، مع موقف السيارات الضخم والمعارض المغطاة، ولكنه، على مدار السنوات، أخذ يضخ البضائع الحيوية في منطقة وسط المدينة ككل، وكأنه وحيد وقد أصابته الرغبة المحمومة في التنافس، وكأنه لابد له أن يوفر كل ما يلزم للمنطقة بأكملها طوال حياته. ثم، وأخيراً، ومرة أخرى، مع اعتذاري على هذا الاستطراد، ولكن هذه هي الطريقة التي يقال بها ويتذكرها أفراد عائلتي وفي منطقتي، كذلك هي كلمتنا، وكذلك حال جسدنا: الوفير - يجب أن نعيش معك وأنا، على الأقل طوال مدة هذه القصة - الآن، بعد المركز التجاري، تحلق البالونات فوق قطعة من الضواحي الخضراء، حيث كانت، وفقاً لعلم الدلالة والتقاليد، مستنقعاً معروفاً بسكانه من الضفادع. لا يزال المكان يسمى بيوفوت، وهي تعنى ضفدع في لهجتنا، ومع ذلك، لابد أن المستنقع قد تم تجريفه على مدار الوقت وحلت محله المروج والحقول وملاعب كرة القدم لفريق أف سي وايت بويز التي مازالت مغمورة بالماء وتتشرب الأمطار الغزيرة التي تشتهر بها بلادنا.

تعد الجداول المائية والخنادق في بيوفوت هي أكثر عددا وأعمق من أي مكان آخر، ويحدها من متر إلى متر، ماصتنا المفضلة للرطوبة، أشجار الصفصاف، التي يستخدم خشبها لتقليم الحوافر. هذه الجداول والخنادق يطلق عليها كلوفان وليس كلومبان، كما في اللغة الهولندية الجميلة. وتحدها أيضا شفاطات المياه التي تستخدم على الطرق الترابية والتي نحاول إلى الأبد ملء ثقوبها وحدودها بالحجارة وبالرماد من أفراننا. ولكن يختفي ذلك بعد أسبوع، مثل الأنقاض من جميع الأنواع: العوارض الخشبية، قطع الجدران، أي شيء، كل شيء تبتلعه تربتنا النهمة، القادرة على طحن الكون بأكمله بفكيها بمنتهى الراحة، توجد هنا بيوت القطط، الهياكل العظمية، السيارات والأدوات الموسيقية المفككة.

ولكن على طول الطرق الترابية، لم نعد نرى شجر الصفصاف، ولكن أشقائها الأعلى، شجر الحور التي نطلق عليها الكند. فهي نحيلة ونضرة، وهي تقلب أوراقها الفضية الصغيرة، وتوجه رؤوسها بأدب نحو البالونات التي تحلق فوقها. وها هي، بين شجر الصفصاف وشجر الحور، على قطعة أرض، ترسم حدودها خنادق التصريف والطرق الترابية نعم نعم !، تقف في حديقة منزلها الريفي، مرتدية بدلة السباحة المفضلة لديها، سوداء مع خطوط بيضاء، عصابة على الرأس، تنظر إلى السماء، يديها في قفاز، حافية القدمين بجوار نار صغيرة متواضعة تطهو عليها البطاطس.

كانت تنظر بتأمل أو بإعجاب، من الصعب تحديد ذلك. ربما تستمع إلى أغنية حفيف لهيب بالونات الهواء الساخن، الجوقة المتوهجة في المرتفعات.

أو ربما، كانت تتبع ببساطة غلاف الدخان الذي كان يتصاعد على شكل دوامات إلى القمم من نيرانها الصغيرة، ثم يختفي في العدم.

أو ربما تحاول أن تقيس أحد المناطيد بعينيها وتتساءل كم عدد فساتين السهرة التي يمكن لخياطة ماهرة أن تصنعها بيديها السحرية من قماشها إذا كان ذلك في

البرنامج، كأنك تصنع شيئا عظيما من شيء بسيط مثلما فعل موليير في مسرحيته المريض الوهمي، فهكذا تجرى الأمور وخاصة في الشؤون المالية.

امرأة متأملة في حديقة منزلها المليئة بالحيوانات الرائعة، تحت السماء، أحد أيام الآحاد في شهر سبتمبر. مشهد ملون ومريح بشكل غريب.

ما لم تهب الرياح على شكل عاصفة أو تمطر بغزارة، فإن كل شيء يجب الاحتفاظ به لكي يستخدم مرة أخري في عيد التحرير العام القادم.

لكن لم يعد هذا مناسباً الآن: في هذه الرواية، لم يعد يهم الحديث عن البالونات على شكل الكمثري أو صندوق البيرة، ولكن ما يهم الآن هو الحديث عن أمي، وعن نهاية حياتها بشكل قاسٍ لا يرحم. لقد صنعت ما يكفي من التلافيف حول هذا الكتاب، سواء كان رواية أم لا. كانت هذه الرواية يجب أن تكتب منذ زمن طويل. امنحوني وقتاً مستقطعاً حتى أتمكن من شرح هذا لكم. وأعدكم أن الأمر لن يكون مجرد مماطلة بلا طائل. وإنما، سيكون الحديث عن أحد عناصر الحداد في هذا الوقت، وكيف أن في بعض الأحيان، لا تساعدنا اللغة على التعبير عن حزننا. لم يعد هناك مجالاً للنحيب. فإما أن يقهرنا الألم، أو يؤدي هذا الألم إلى شيء منتج.

وأنا متحير، فيجب أن أخضع لأحد هذين الاحتمالين.

لقد تعثرت وابتلعت المعاناة التي حاولت بجبن أن أختبىء منها، ولكن لم يكن لدى القدرة على هضمها أو حتى الرغبة في ذلك، حتى أستطيع أن أطوي شعوري بالذنب أو بالحزن طي النسيان، أو أن أغرقه في مشاغل الحياة اليومية، كان علي أن أفعل شيئاً ما أولاً. كان علي أن أحوّل شعوري بالذنب أو بالحزن إلى أي شيء، يجب أن أحول الرصاص المذاب إلى ذهب، مثلما فعل الملك ميداس[8]، لأنني على الأقل قادر على بناء أمر مستديم، بأقل الإمكانيات ولو حتى بارقة أمل، مع أني كنت أظن أنني

---

8) ملك موجود في الأساطير اليونانية كانت له قدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب.

"لن أستطيع فعل شيء". هذا هو الشيء الوحيد الذي أجيده، من الطين إلى الرخام، في تنهيدة واحدة.

ومع ذلك، لم أتمكن من فعل شيء. غارقاً في المأساة كمريض بمرض رئوي، كان الدوار يصطحبني في كل مكان، في المحلات التجارية والمدارس الرياضية والمدرجات الأدبية، بدأت أشعر بالخجل من ترددي الإبداعي، وجعلنى هذا أغرق في تردد أكبر. الملك ميداس؟ لا. يونس كان يعض على أصابعه داخل الحوت. وأيوب كان قلقاً على أرضه الشاسعة. تختنق الرغبة في التحرك بألف سؤال وسؤال. لا بد لي من كبح جماح نفسي حتى لا أجد نفسي مثل هاملت، أمير الدنمارك، وأنا أبحث في فهارس الثقافة الغربية. وكذلك، إذا حدث ذلك، سيكون الأمر سخيفاً، سيكون هروباً، نوعا من التسويف. إذا كنت تبحث عن المقارنات، فإنك ستطرح الحقيقي وتدرك أن قضيتك عادية بشكل رهيب، عادية لا محالة، ولكنها أيضاً فريدة من نوعها ولا يمكن مقارنتها. لا احتيال أكبر من معرفة الفن. لم يكن لدى يونس أو أيوب ما يفعلاه، مثلهما مثل هاملت وبقية طاقم المركب المسمي كلوتور، والذي كان ينجرف في المياه الدولية، أتعرف هذا المكتب للمرافقة، الذي يمنحك، في لحظات الأمل أو في لحظات الفشل، عاهرة ترضيك وتعطيك عن نفسك فكرة أفضل. توقف عن وضع المكياج، توقف عن إخفاء وجهك، توقف عن التظاهر بأنك الملك أوديب، أو الجندى شفيك[9]، أو سانشو بانزا [10] أو رئيسه. يتعلق الأمر بك، بك أنت وحدك. أقصد أنا. هذا بالتحديد السؤال. لماذا يجب علي أن أبدأ فجأة في كتابة هذا الكتاب؟ هناك الكثير من الناس الذين فقدوا أمهاتهم، وكان لدى معظم الأمهات مسار حياة أكثر إثارة من مسار زوجة جزار في واسلاند. هناك مجموعة من النساء الصالحات المهمات، مع أطفال رائعة ومسيرة مهنية لامعة في مومباي أو في نيويورك أو في روما أو في ريو أولى بالذكر من تلك

9) أحد جنود الحرب العالمية.

10) صديق دون كيشوت في رواية ثيربانتس الشهيرة وكان متناقضا مع دون كيشوت في كل شيء: الصفات الشكلية او المعنوية.

الموجودة في مقاطعة فلاندرز المنعزلة. دعونا نعطي صوتاً لأولئك الكائنات المحظوظة الذين هم أبناؤهم وبناتهم. دعهم يحزنون، يكرمون أمهاتهم ويحتفلون بالذكريات، في سياق جغرافي وتاريخي لا يحتاج القارئ إلى البحث عنه في الزاوية الأكثر سرية من موسوعته.

دعهم يمجدون ولكن ليس أنا.

لم يكن الضغط الأعظم الذي شعرت به، هو الضغط الذي شعرت به كالغليان بداخلي. كان الأمر تجاوز حدود القبر الذي شعرت بضغطه. الأمهات لا تصبحن أبداً مثل الآخرين، الأمهات يبقين أمهات.

لقد رأيت زاوية فمها وحاجبها في تكشيرة تنم عن الغضب والتقزز، كانت سيجارتها تتأرجح بين أصابعها، أشاحت بنظرها وصمتت مرة واحدة، صمتت وكأن صمتها ينطق ببلاغة، صمت يصم الآذان، صمت يدل على قمة الغضب، في تراجيديا كبيرة بالكاد متر وستين، أثرت خيبة أمل لا ريب فيها. كان كل يوم يمر دون كتابة قصتها، يجعلها تظهر عدم رضاها تجاه أصغر أبنائها.

"إذا احتقرت نوعاً ما من الناس، سيكون بالتأكيد هؤلاء الذين يتحدثون بسوء عن والديهم". كم مرة أخبرتني بذلك؟ بالتأكيد، كان ذلك، بعد أن تصالحت مع فكرة أن أكون كاتباً ضد رغبتها وضد إرادتها الصريحة (قالت لي: عندما سمعتني أتحدث للمرة الأولى عن مشاريعي): "الكتابة هي للكسالى، السكارى والشحاذين". بعد بضعة سنوات، كانت تطير من الفرح، فخورة للغاية حيث اتضح لها، أني أستطيع أن أعيش بقلمي، حتى أنني تلقيت جائزة، وعلى الرغم من كل شيء، لم يكن لدي مشكلة مع الشراب. "كنت أعرف ذلك دائماً. هذه الجوائز. إنه يحصل على الكثير منها". كانت تقول هذا في وجودي، وكأني غير موجود. ذلك، دون أن تفوت الفرصة في كل مرة لتوضح أنه في كلتا الحالتين، الكتابة الفنية وكسب العيش، لا علاقة بينهما.

"الفاكهة لا تقع بعيدا عن الشجرة، أليس كذلك؟ وعندما، كانت تقول شجرة،

كنا نسمعها كأنها تنطق بكلمة أم. هذا هو جوهر أي نص، خاصةً إذا كان يتم نطقه بصوت عالٍ: فالنص الفرعي يكون في كثير من الأحيان هو الأهم.

ومع ذلك، ربما يكون النص والنص الفرعي متطابقان في بعض الأحيان. بعد نشر مجموعتي الأولى، والتي تضمنت صورة لوالدي على الغلاف الأمامي، كم عدد المرات التي أصرت فيها على ضرورة أن أكتب شيئاً عنها يوماً ما؟ في حين أنذرتني بدقة أنه سيكون من الأفضل أن يؤدي هذا إلى رواية فخمة وإيجابية، كتاب بحجم مناسب، وليس مجرد كتيب صغير. فالنبل المطلوب[11]، وذلك، حيث في النهاية، كان الشعار المزدوج لوجودها:"لا تبصق في المصدر الذي تسقي منه" و"يوجد المزيد بداخلك".

كانت هذه الجملة الأخيرة يجب أن تؤخذ حرفياً. يوجد حقا المزيد بداخلك. نعم.. نعم، وداخلك أنت أيضاً. في كل منا. أكثر بكثير. دائما أكثر. "بالطبع، لقد نجحت في امتحاناتك بتقدير جيد" (فإنها تحرك عينيها)، فهذا طبيعي. يمكنك أيضا أن تحصل على تقدير جيد جداً. أخيراً، لا يمكننا الحصول على كل شيء. يجب أن نرى الجانب الجيد من الأشياء. الآن على الأقل لا يزال لديك هدف أمامك. متى ستكون امتحاناتك التالية؟" هل تصبح الحياة البشرية يومًا أكثر من ذلك؟ تكرار نفس التجارب والاختبارات والامتحانات، في أشكال مختلفة دائماً، إذا لزم الأمر في شكل كتاب. هذا الكتاب. سيرة ذاتية كلاسيكية، في نفس الوقت، لا يمكن أن تكون شيئاً تقليديا، ويجب أن تنتهي بشيء غير عادي. "أي نعم! (تلوح بيدها بانتصار فوق رأسها)، يجب أن تكون شيئاً أصلياً! شيئاً روحانياً! أنت حر تماماً في اختيارك. وطالما قال الناس، قد كان صادماً بشكل رهيب، ولكنه مؤثر للغاية. لم نكن نفكر أن هذا كله يمكن أن يخرج من هذا الـ لانوي"[12].

ومن خلال عدم الكتابة، أصبحت أكثر واعياً بتوقعاتها، التي أصبحت على مدار الوقت، ضرورة، مطالبة، حق يكفله الدستور، كل هذا كان يتغذى من ادعائها بأنها

---

11) الكلمات بالخط المائل متبوعة بعلامة النجمة كانت بالفرنسية في النص الأصلي (ملاحظة من المترجم).

12) اسم الكاتب.

ممثلة هاوية المشرب بخيبة الأمل الكامنة في حياة الجزار والتي كانت ضد إرادتها واختيارها وبترسانتها الأبدية من الأنوثة الطاغية والتي اعتادت ألا يذهب أحد ضد إرادتها.

يا إلهي الذي لا أؤمن به، كم كانت ماهرة في فن الابتزاز المنزلي. في معظم الأوقات، تجبر هذه الموهبة على الاحترام، وأحياناً تبث الخوف ولكن كانت دائماً تؤدى إلى الطاعة، فدائماً ما كان اختيارها للأسلحة ملائمًا للغاية مع أرض ووقت الخلاف الأسري. كانت خزانة أسلحتها ممتلئة وكان كل سلاح يظهر في وقته المناسب. كذبة صغيرة لصالحك أو تهديد بالانتقام. صمت مهين أو سيل من الكلمات الغاضبة. تهمس فتداعب مشاعرك الحميمة أوتشير بكل سخرية، إنك ستكون أضحوكة الحي كله والمدرسة كلها والبلد كله. لا يقل دور أهمية عن دور آخر ولا هناك جملة أكثر تأدباً من الأخري. يوجد نوع من الناس سيكونون أكثر بغضاً من أولئك الذين يكتبون بشكل سيء عن آبائهم. هم الذين لا يكتبون أي شيء عن والديهم. في حين، أنهم يستطيعون الكتابة".

حسناً، أعترف بذلك، هذه الجمل الأخيرة، هي لم تقلها أبداً. ولكنها تستطيع أن تفعل. يمكن أن تقولها الآن دونما خجل، إذا قرأت في هذه اللحظة من فوق كتفي. تصحيح: إنها تقرأ حالياً من فوق كتفي. منذ البداية. لقد بدأ ينفد صبرها لأنني حتى الآن، قد تحدثت طويلاً عن البالونات وعن نفسي، ولم أتحدث عنها بما يكفي.

عندما كانت تقرأ من فوق كتفي، كانت تتحدث بصوت منخفض ولكنه عال بما يكفي لكي أسمعها، هذا ما يمكن أن يطلق لعبة التمثيل الخفية، كان لها حضورٌ سواء في المجالس أو في الحياة اليومية، ولكن يجب أن نذكر أنها نجحت أيضاً في فن "قول رأيها بصوت عال وواضح" من فوق كتفي، فكانت تقول الآن: "ها أنت مستمر في الحديث عن نفسك". حسناً، لحسن الحظ أنك لا تقرأ ذلك بصوت عالٍ. لأن يا إلهي، يا إلهي! أين تذهب للبحث عن هذا الشرير! أوه! مثل هذا الكلام لا يقال في

العلن، فالمرء طالما كان من أهل سان نيكولاس، فلا بد أن يفهمه. أو في المتجر، ونحن نتحدث مع الزبائن. فالناس العادية، معظمهم لم يسبق لهم قراءة كتاب جاد، بالكاد قرأوا الجريدة. فيجب أن تتحدث معهم بلطف أو بمعنى أصح على قدر مستواهم، حتى لا يفهمون أنك تتكبر عليهم وسوف يذهبون لشراء ما يريدون من مكان آخر. لكن شخص مثلك! على الراديو، على التلفزيون، على المسرح.. لا، هل سبق لك أن استمعت؟ إنك لا تهتم بي. نعم، إذا اضطررت للعب دور الخادمة في مسرحية كوميدية عن الفلاحين، فأنا أستخدم لغتهم المحلية أحياناً. وأنا أحب ذلك للغاية. فأنا أجيد ذلك. أو دور جدة في مسرحية فان بياميل، هذه المرأة المسنة المسكينة. هناك، اللهجة موثرة ومناسبة للغاية. ولكن، ليس لديك! الكاتب يجب أن يكون قدوة حسنة! ماذا فعلت للحصول على درجة في فقه اللغة الجرمانية؟ لا أحد يفهم ذلك. وأنا أيضاً، لم أعد أفهم ذلك في بعض الأحيان".

إنها تقرأ من فوق كتفي بقدر ما تريد، بالإضافة إلى أنها تعطى التعليقات، لا يزال يتعين عليها أن تتحمل أنني ما زلت أتحدث عن نفسي لصفحات قليلة، فأنا لم أنتهِ، دعونا لا نخاف الكلمات، فإنها تعض يدي، حتى ينسكب دمي كالحبر على كومة إنتاجي الأدبي. كل هذه المواد، كل ما أحمله على صدري ثقيلاً بينما أكتب هذا، وهذا، وهذا مرة أخرى.

لماذا فقط قصصي الصغيرة تحل محلها، الآن بعد أن ذهبت؟ لماذا ليس هناك قصص لا تعد ولا تحصى من كل الذين عرفوها أيضاً؟ الابنة، الابن، الأحفاد، كل ما تبقى من هذه العائلة، شجرة الخبز المقلوب، مع فروع الدم التي تنمو في كل الاتجاهات صعوداً. بالإضافة إلى كافة الأصدقاء والحاميين لها، الذين كانت تمتلكهم بكثرة، فلا يمكنها أن تكون مغنية في الحياة حياة دون جمهور كبير ومخلص في مسرح كبير حقيقي، أتلك هي الحقيقة؟ ما معنى أن تكوني أم، وليس لديك أطفال إضافية خارج الأسرة، أيتام، منبوذين؟ الأصدقاء القدامى وحتى زملاء الدراسة، الذين ظلوا مخلصين إلى الأبد، حتى في الموت؟

ومهما كتبت هنا، فأكتب بأي ترتيب، بأي نغمة، سيكون ما أكتبه كذبة نبيلة أم لا، سيكون جزء، بريق من وجود كان حياتها. لماذا يضيء شعاع نوري، المحدود بالضرورة، هذا الوجود أفضل من شمس كل الآخرين؟ مع مرور الوقت، قد تكون قراءتي لوقائع ومسار حياتها محكوم عليها أن تبقي هي الوحيدة، لذا فهي ستكون الشيء الوحيد الذي سيبقى على قيد الحياة منها. على الأقل، أتمنى ذلك، أتمنى لبضع سنوات، عقد، وربما اثنين، ما هو متوسط العمر المتوقع للكتاب في أوقات يبدو أنها ابتعدت عن الكتب؟ لكن على الرغم من ذلك، خلال هذه السنوات القليلة، هذا العقد الوحيد، سيظل صوتها يتردد صداه، وسوف تلمع نجمتها، فقط من خلالي. لماذا؟ لأنني الشخص الوحيد الذي أقضي أيامي في وزن الكلمات وترتيب الأصوات. لا يمكن أن أعتبر أن ما حدث قد جعلني أشعر بالظلم، لكنه زعزعني لمدة طويلة. أعترف أنه في الوقت السابق، كنت أشعر بالحزن والانزعاج وحتى بالغضب الحقيقي عندما أفكر في غطرسة وعادات التطفل المرتفع للغاية لدى الكتاب الذين يكتبون ويجرؤون أن يطلقوا على ما يكتبون اسم "الرسائل الجميلة"، هذه الوحوش المتعطشة للدماء التي تتطفل على حياة أولئك الذين يوقعهم حظهم العاثر في أن يكونوا على مقربة من شخص يعتقد أنه كاتب. مع الكاتب من هذا النوع، ليس هناك شيء أمن، كل شيء قابل للاستخدام: الإساءات في الذاكرة، الشائعات في حيه، القيل والقال في صحيفته، في النهاية، يبدو كل شيء موجود فقط لتزويده بمادة ممتازة، موضوع من الذهب، حتى لو كان وفاة أمه. كنت أعتبر كل من يكتب بهذا الشكل، نسراً، طائر ضارٍ يتغذى على حياة الناس.

سوف ألعب دور النسر بقدر ما يريدون، ولكن ليس هنا. هذا الكتاب، لا يمكن أن يكون ولن يكون "أدباً". لا ليس هنا، أتوسل إليكم، وأطلب من نفسي، لا ليس من هذه العلب الأبدية للمفاجآت، المليئة بالأفكار، بالذكريات، بصور الاحتفالات والأعراس، بالمخطوطات الصغيرة التي تم رؤيتها والموافقة عليها وبالاستعارات المبررة فنياً. لقد تجاوزت مرحلة الأدب الكبير. وفي الوقت نفسه، صدقوني، لم يعد هناك ما

يكفي من حروف كبيرة أو نقاط تعجب أو استعارات لوصف شجاعة هذه السيدة التي ولدت في الثمانينيات، والتي عندما أدركت ما يحدث لها لم تكن تريد شيئاً أكثر من الموت، ولكن عندما وعت أنها لن تدركه، استمرت بعناد في الحياة، في التنفس حتى النهاية المريرة. لم يعد هناك سوى عدد قليل من المقاطع الصوتية التي يمكن أن تفضح بدقة اعتلال صحتها ومعركتها غير المتكافئة ومصيرها. المصير الذي يعاني منه الجميع.

هذا هو السبب، في هذا لا يمكن أن يكون أي شيء مشترك مع الفن الأدبي ولكن في الوقت نفسه، يجب أن يكون كأفضل ما يكون، كالكتاب المقدس، كقصيدة خالدة لم تكن قد كتبت من قبل. كترتيلة من تراتيل الحرب، ترتيلة محمسة وجذابة بشكل لا يرحم، كصيف أكثر خصوبة وأكثر إشراقاً من كل فصول الصيف التي مرت علينا. ومع ذلك، في الوقت نفسه، يجب أن أجعله بكل عناد: شهادة جافة، إضافة مشاهد ولوحات متجردة من كل الرتوش وكل المظاهر المعتادة، لا شيء أكثر من ذلك: "الحياة كما هي"، ناقصة، مجزأة، وفوضوية.

في الحقيقة، لم تكن هناك إلا الحروف الكبيرة والقوافي الرنانة، ولكن في الوقت نفسه، لا شيء سوى الحقائق العارية. لا شيء، ولكن في لحظة، يتدفق كل شيء بسرعة الطائرة النفاثة.

هيا إذن لنبدأ ونكتب ذلك.

إما ذلك وإلا لا شيء.

أولاً، بدأت بتأليف كتيب يحتوي على مجموعة من المقالات وخاصة المقالات النقدية. وكنت أعمل عليها مرات ومرات لتصل إلى درجة معينة من العمق، وكنت أحاول أن أعيد كتابتها بالكامل. ولكنني، لم أكن أرى سوى النيران. وقد شغلني ذلك بمنتهى اللطف، فلم أشعر لا بالضجر ولا بالملل. ستة أشهر من الفوز، ها نحن مرة أخرى بعد نصف عام. الجبن، أسلوب جيد يستخدمه الرجل لخداع نفسه.

كتبت مسرحتين طويلتين إلى حد ما، واستغرق منى ذلك أمسية بأكملها، حتى أن واحدة كتبت منهما من البداية إلى النهاية على شكل مقطوعة من 12 بيتاً، وقد فعلت ذلك لكسب المزيد من الوقت الإضافي. لقد أحببت بصدق أن أعتقد أنهما ولدتا في نفس اللحظة، وقد كانتا إعداداً مثالياً لهذا الكتاب، هذا المديح العنيف الذي يجب أن يكون كل شيء ولا شيء في وقت واحد، متدفق دفعة واحدة، على شكل رواية أم لا.

إما ذلك وإلا لا شيء.

ها هو ضعف الحيلة الرائع.

إغراء لا يخدع أحداً.

لدى أخصائي باطنة، كنت مستلقيا على أحد جانبي ليتم فحص القناة الهضمية عبر المريء باستخدام خرطوم صغير مزود بمصباح صغير وكاميرا صغيرة. أنبوبة في أنبوبة. الإنسان هو مجرد آلة تتفكك مفاصلها بسرعة كبيرة.

على جانبي، ونصف مختنق من الذعر. وذلك لأنه إذا كان هناك أي شيء ورثته عنها، باستثناء الآلام اليومية الصغيرة، فهو جلد الذات، هو شعور نفسي، يزداد يقيناً أنه إذا كان هناك نوعان من التشخيصات المحتملة حتى لشكوى واحدة، فسيكون دائماً الاحتمال الأفظع هو الأقرب إلى الصواب. في الإرث المتروك لي والذي يشكل هذا الجسد دائماً ما يمنحنى نوبات السعال والتوعكات البسيطة. ولكن في هذا الميراث أيضاً، أي في أفكاري، توجد الأم الأخري التي يمكن مقارنتها بكل المصائب التي أصابت مصر. يمكن إضافة ذلك إلى أخلاقيات العمل التي أقل ما توصف بها أنها هزلية. واحدة من تلك الصفات العصبية والتي كنت أكرهها فيها ولكني وجدتها في نفسي ولا أعرف من أين أصابتنا أنا وهي هذه الصفة، هل من ثقافتنا اليهودية - المسيحية التي كانت تدعونا دائماً للشعور بالذنب أو من الهستيريا الخاصة بطبقتنا الوسطى. قد يكون مزيجاً من الاثنين، وربما ليس من الغباء رؤية صلة بين متجر في الحي وكنيسة في البلدة، بين متجر وكنيس يهودي. على أي حال، في كل مرة لا أفعل ما أعتقد أنني

يجب أن أفعله - تصحيح: في كل مرة لا أنجز بسرعة كافية ما قمت بفرضه كمهمة، أشعر بأنني مثل جهاز كمبيوتر الذي ينشيء برامجه الخاصة ويحملها ويعيد تحميلها حتى يحدث غلق للدائرة الكهربائية - في كل مرة، يجعلني عقلي الباطن أشعر بأنني لست على مستوى الصورة التي أريد أن أعطيها لنفسي، يبدأ جفني الأيسر بالارتجاف (بالتأكيد، إنه المرحلة النهائية لورم دماغي)، إن معصميّ وكتفيّ مشلولين (بالتأكيد، هو مرض التصلب المتعدد)، تبدو أطراف الأصابع بلا حياة، أشعر فيها بالتنميل وتبدأ بالتقشير (لا، مرضي ليس جذاماً، ولكن لا يزال شيئاً مرعباً).

أستيقظ مع صداع رهيب وأنام مع إسهال مزمن، وفي الوقت نفسه، تنتج معدتي ما يكفي من الحمض لحفر ثقوب لا يمكن إصلاحها في جدارها، مثل السجائر المدخنة رأساً على عقب، في كل مكان، والتي يمكن لدخانها أن يملأ قصراً بأكمله. على الأقل هذا ما شعرت به اليوم، فقررت الاتصال بهذا الأخصائي. كنت قد خرجت من السرير وجررت نفسي على ركبتي حتى الإفطار، وكان شكلي كالزواحف من جراء آلام المعدة. حولتني رشفة واحدة من القهوة إلى جنين زاحف ملتف بالتقلصات.

في البداية، أعطاني الأخصائي، تشخيصاً كان يهدف إلى طمأنتي، ولكن تحول بعد الساعات القليلة التي تلت الفحص الفعلي لديه في العيادة، إلى عذاب غير محتمل.

تذكرت العلاجات الطبيعية التي كانت تستخدمها ضد حرقان المعدة. "حرقان؟ كانت هي دائماً ترفض الاعتراف بذلك". لا، لا، لقد دمرت معدتي تماماً، لا لن ينجح ذلك، فهذا يأتي بسبب سوء العمود الفقري والولادة المستعصية. نحن نقشر ونقطع حبة البطاطس، ثم نمضغ طويلاً كل شريحة مطهية ونبتلع هذه العصيدة الصغيرة دون أن نشرب شيئاً.

يجب أن أعترف أنني شعرت بارتياح طفيف. ذهب الجنين الزاحف، وجلس على كرسيه أمام الكمبيوتر وكتب الكلمة التي كررها الأخصائي خمس مرات: ارتجاع المريء. اثنا عشر مليوناً من العلامات. كانت إحداها تشير إلى فرقة موسيقى الروك

السويدية مع موسيقى معدلة بشكل لا لبس فيه. وفي المجمل، كانت العلامات الأخري تشير في كافة لغات الكوكب إلى أعراض الظاهرة. في الحقيقة، لا ينغلق مدخل معدتك بشكل صحيح، تشعر بالجفاف في فمك من الصباح حتى المساء، ينكمش مثل قطعة الجلد القديمة بسبب الحمض الذي خلال النهار، يتسلق ببطء مثل الصرصور في مجري الماء، ويتحرك بعنف في لهاة حلقك، خلال الليل، وذلك بفضل أوعية التواصل. من المعدة إلى الفم والعكس.

في الحقيقة، كان لساني مثل نعل وحيد متهالك في طريق مسدود. أسناني، فخري - في كل مرة في الفحص، يذكر طبيب أسناني أن لديّ طقم أسنان يمكن أن يكون معمراً ويعيش مائة عام - فجأة، بدت لي هذه الأسنان مفككة ويمكن تدميرها بسهولة، أسناني أصبحت هشة، هشة مثل البورسلين الذي غسل كثيراً، خشنة مثل حبات الكرز العطنة. إذا لم يتدخل أحد بسرعة، فأسناني، التي كانت قادرة على كسر حبات البندق، على تهشيم زجاجات البيرة المفتوحة، أمام مدعي القوة المعاصرين، ولكن ها هي الآن تستحم في حمض من إنتاجي الخاص، ولم يعد أمامها إلا سنوات قليلة قبل أن تنقسم، أن تنفجر، أن تنهار، أن يصيبها السواد، أن تتآكل، أن تتساقط واحدة تلو الأخرى، أن تتحطم وأن تتبخر. بالإضافة إلى ذلك، وكما أشارت بعض المواقع، كما هو الحال دائماً بوحشية لا تعرف الرحمة، فإن خطر الإصابة بسرطان الحلق والذي بالكاد يمكن أن يعتبر خطراً، كان يقيناً، والواقع، فإن الحنجرة لن تقاوم ذلك لفترة طويلة للغاية.

"هناك بعض الأنسجة المشوهة في المريء وأيضاً في فم المعدة"، قال الأخصائي ذلك متذمراً، بينما مازال يحدق في الشاشة أمامه ويدفع بالخرطوم الصغير المزود بالمصباح والكاميرا الصغيرة إلى عمق أكبر في الجسم، مثل أفعى لا نهاية لها، سمحت لها أن تتوغل بمنتهى الحرية داخلي. كنت أتعرق مثل لاعب الأكروبات الذي يسير على الحبل، في منتصف فقرة جديدة، متعلقا بأسنانه - أسناني! في الجزء العلوي من الخيمة.

"بخلاف ذلك، لا أرى أي شيء مذهل. خسارة بعض الوزن لن تؤذيك. يمكنني أن أكتب لك مثبطات للحمض، ولكن سيكون لديك نفس النتيجة مع حركة أقل ونبيذ أقل". بناءً على طلبي، أخذ بعض عينات من جدار معدتي، للتأكد من أنني لا أعاني من القرح، ولكن في الواقع لتأكيد ما شعرت به، والذي كنت أعرفه لفترة طويلة. كان هذا على الأقل سرطانا في المعدة في مرحلته النهائية.

يحتوي رأس الأفعى اللامتناهية، بالإضافة إلى المصباح والكاميرا، على مبضع صغير. ثلاثة أسنان معدنية صغيرة مغلقة للإمساك وقطع قطعة صغيرة من داخل معدتي. أدركت أن شيئاً ما يعضني. مثقاب، كائن في طور التحلل، يرقة في طور الفقس، كعقوبة مستحقة إلى حد ما. كنت لا أشعر بالخرطوم نفسه، فقد اضطررت إلى ابتلاع مخدر، مشتق من سم العنكبوت، يخدر المريء تماماً، بحيث لا يمكنك أن تأكل أوتشرب لمدة ساعات، وإلا فكل ما تبتلعه، سيذهب مباشرة وحرفياً إلى الفتحة الخطأ باتجاه الرئتين. وقبل أن تعرف ذلك، ستغرق في كوب من الشاي.

أنا لم أغرق، لكني شعرت بأنني أُلتهم من الداخل. كنت ما زلت مستلقياً على جانبي، كنت لا أزال أعض على شفتاي كما لو كنت أحاول أن أتمسك بالحياة نفسها، مثل لاعب الأكروبات يدور تحت قمة الكون الكبيرة، أتعرق مثل كرة الجبن في الشمس وجفوني مشدودة بشكل هستيري. ومع ذلك أرى أمامي، بعمق في داخلي، ثعبانا ميكانيكيا لا نهاية له، وحش بعيون عملاقة مع مصباح صغير، يبدأ في حك معدتي. شعرت بمخالبه الثلاثة والتي تخترق جلدي، وكان كل شيء محسوساً، اللعنة، إنني أعرف هذا الثعبان النهم الذي لا يشبع.

لقد قابلته مرتين.

في الماضي، في المنزل - كم كان عمري؟ خمس؟ سبع سنوات؟ - كان لدينا ملقط السكر الذي ظللت ألعب فيه. عصا معدنية فضية مع زر في أحد طرفيها؛ عندما تضغط على الزر، يفتح في الطرف الآخر، يفتح مخلبا بدائيا بعض الشيء، بالضبط مثل

ذلك الذي يحك في معدتي الآن، يأكل ما كان على معدتي أن تهضمه. لاذع، موجع. بالملقط الفضي الصغير، كنت تأخذ قطعة من السكر وتضعها في الفنجان. وإذا كنت فعلت ذلك في كثير من الأحيان، لم يكن للسكر ولكن لمتعة اللعب بهذا الملقط الصغير الرائع. ينتهي الأمر دائماً بأمي وهي تسحبه من يدي، صارخة في وجهي لأني لم أطعها من المرة الأولي. لم أجد هذا الملقط الصغير، عندما أودعت أمي، في نوبة يأس، في إحدي المؤسسات المغلقة لرعاية المرضى، لتقض شهور حياتها الأخيرة وسط حطام من البشر الآخرين، وسط جثث بحركات محدودة، يمكنهم فقط أن يسيل لعابهم أو يتغوطوا، كان معظمهم متعباً ومنهاراً ومقيداً، مثلها، على الأسرة، على الكراسي أو على الكراسي المتحركة. بعد هذا الانفصال القسري، انتقل والدي أيضاً، إلى دار مسنين، تقع على بعد أربعة شوارع من المؤسسة المودعة أمي بها. لقد غادر الشقة الصغيرة التي كانا يسكناها معاً لمدة عشرين عاماً تقريباً، والتي كانت تقع في الطابق الثاني فوق متجر الجزارة الذي كانا يملكانه لمدة ما يقرب من أربعين عاماً. عندما غادر، لم يأخذ أي شيء من منزلهما تقريباً.

لقد حُكم عليّ لمدة أسبوع كامل بدور منفذ الأعمال الكبرى. وكشريك في الإرث، كان علي أن أعتني بكل التركة: ما رخص منها وما غلا. كان عليَ أن أحافظ على محفوظات وأن أسجل تفاصيل حياتين كانتا متشابكتين للغاية، وأحفظ كل تفاصيل أثاث وديكور الشقة التي رأت شبابي، بكل ملحقاتها. ببساطة، أصبحت في يدي مجموعة من الأشياء المجهولة، التي يمكن استخدامها في مكان آخر أو لا، والتي تكون أحياناً قابلة للبيع، وأحياناً جيدة للتوزيع، وفي الغالب يكون من الجيد التخلص منها. ماضٍ تم محوه دون أثر. سمح أبي لأطفاله أن يتحكموا في كل شيء، كما كان يفعل في الماضي تاركاً كل شيء بين يدي زوجته. باستثناء بعض الصور وجهاز التلفاز الخاص بها، لم يكن هناك شيء يبدو أنها في حاجة إليه في بقية أيامها.

لقد بحثت كثيرا عن الملقط الصغير ولكن دون جدوى.

ثمة مخلب آخر، ولكنه كان أكبر، أبيض وأصفر برقائق وأظافر طويلة على شكل قرون. كنت وأنا فتى في عمر العاشرة، استخدمته لإخافة جارة صغيرة بعمر سنتين. ساق دجاجة قد وجدته في محلنا للجزارة. كنت قد أخفيته داخل كمي المثني، واقتربت من الفتاة، بوجه عابس، غاضباً، أصدر أصواتاً مخيفة، يسيل لعابي وفجأة، أخرجت عضوي الجديد لمهاجمة ذراعيها وساقيها المليئة بالنمش. في مكان ما في الساق المقطوع، يمكنك بواسطة أبرة، أن تربط بين وتر ما، ووتر أخر، وبهذا الشكل، بواسطة الإبرة يمكنك فتح وغلق المخلب. كانت جارتي خائفة في البداية، لكن، خوفها زاد أكثر وبدأت في إطلاق صرخات حقيقية، عندما رأت يدي الجديدة وهي تهم أن تتحرك. بعد عام أو عامين، جاءت إلى جراجنا، على بعد نصف شارع منها، حيث استأجر جميع مالكي السيارات في الحي غرفة للتخزين، في متاهة من مسارات الحصى والكتل الخرسانية بنفس الحجم، بنفس السقف مع الألواح المموجة الوردية ونفس الباب المزدوج المتهالك. في الواقع، كان هذا المجمع، مدخلاً لغرفة انتظار في محل لتجارة الأخشاب الكبيرة، مازالت تتطاير منها رائحة الديزل وخشب الصنوبر.

في الضوء الخافت لغرفتنا، أظهرت جارتنا الصغيرة نهديها الصغيرين في منتهى السرعة لأنها كانت خائفة وهذا دون أن أطلب أنا شيئاً. في الواقع، لم يكونا إلا حلمتين مشدودتين، لونهما داكن للغاية، ملمسهما حريري، ومع ذلك، نافرين وصلبين، كان اللحم حول الحلمتين متورما قليلاً ولونه أبيض مثل قبعة عيش الغراب الطازج المقطوف حديثاً ولكن مع الكثير من بقع النمش. "سيكبران فيما بعد، همست هي، مثل نهدي أختي، يجب أن تعرف ذلك".

ولقد تخبطت، وشعرت منها بكرم كبير ودهشت لذلك. ولقد لمست وأمسكت بالحلمتين، ليس بواسطة ساق دجاجة ميتة هذه المرة، ولكن بثلاث أصابع حذرة، أصابعي. وكانت مفاصل الأصابع تفتح وتغلق كفم صغير، فم صغير بأصابع يمتص ما ينتظره ناعماً وداكناً في اليسار ثم في اليمين. وكلما ازاد لمسي وامتصاصي، كلما انتصبت قبعات عيش الغراب الناعمة متمردة، وتنهدت هى أكثر وأكثر بالقرب من وجهي.

رائحة لم أكن أعرفها بعد، مزيج من اللبن واللوز، حلت محل رائحة الديزل وخشب الصنوبر وملئت المكان حولي كله.

تركت الأخصائي مع نية قاطعة بعدم انتظار نتائج القرح واختبارات السرطان والتفرغ أخيراً للكتابة. في أي حال من الأحوال لن تكشف هذه النتيجة أي شيء أكثر مما اقترحه الاختصاصي بشكل أو بآخر: الكوميديا.

فالانتظار هو الذي يعطيها القوة. بعد شهر. لم أكتب خلاله جملة واحدة من التي يفترض أن تكون بداية ترتيلة محمسة، نسخة منقحة من الكتاب المقدس، كتابة أكثر صقلاً، لا شيء وكل شيء في نفس الوقت. ومع ذلك، لا يزال هناك أمل في عدم الانسحاب ما بين كرسين وإنتاج هذا اللاشيء والكل شيء. لكن في الوقت الحالي، كان الوضع أقل من ذلك. موقف هروب غريب الأطوار، كسل من النوع الجيد. سنة كاملة، أعطى الأسباب لأمي، التي توقعت، أن الكاتب سيظل أحمقا وكسولا حتى النهاية. اثنا عشر شهراً، أربعة فصول، سنة مرت في لمح البصر.

وذلك لأنه في فترة الشتاء الأوروبي، قضيت أنا صيفاً حاراً وعاصفاً للغاية في كيب تاون، في بيت على الطراز الفيكتوري حيث أكتب هذا على جهاز الحاسب الآلي. هذه الفقرة، هذا السطر، هذه الكلمات الثلاث، وأيضا هذه، ومرة أخرى هذه، في هذه اللحظة بالذات. أنا أكتبها الآن بدلاً من العام الماضي. ومع ذلك، لازالت هنا. في هذه الغرفة، في هذا البيت الفيكتوري، مع مكتب الطفل الصغير وتراس البيت الخشبي عند سفح جبل تافلبيرج، جبل الطاولة، في حي يسمى أورنجشيت، خلال عطلتي السنوية في هذا الملاذ المؤقت للعزلة والشمس المشرقة والكتابة غير المكترثة والقراءة. وهكذا، تجنبت أن أفقد نفسي في بلدي الأصلي في كافة أوجه اللهو، والتي تخليت عنها عن طيب خاطر. لأنه من الواضح، أنني أيضاً ممثل مسرحي ضائع، مطرب فاسد وبدون فرامل. أعطوني منصةً وجمهورا، أعطوني ميكروفوناً وكتاباً، من كتبي، أو كتب شخص آخر وسأقرأه وسأذكر مقاطعه مراراً وتكراراً حتى مطلع الفجر. إن هذا يخفي،

إلى جانب الرغبة المحمومة في الحصول على الرضا، وجه اليأس القبيح، وأشياء أخري لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها، لكنني أستمر وأستمر. معركة أخرى فزت بها من أجل الكلمة المنطوقة. ها هو يوم مجيد آخر خسر دون كتابة.

ومع ذلك، كتبت في العام الماضي، مسرحية، ولكنها كانت مسرحية شعرية. أيام كنت أعدها على أصابعي كطفل يعمل بجد، ودائماً كانت نفس القصة القديمة. تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام. "إن سوء حظي على الأقل/ يبدو أنه يدوي في منتهى الانسجام". "أيمكن للأغنية أن تواسي جثة حية"؟

بالنسبة للمحتوى، مزجت بين يوربيديس وجورج دبليو بوش، طروادة والعراق، مانهاتن وطروادة، جولات مع جولات أخرى، حروب مع حروب أخرى. بالنسبة للشكل، مزجت بين الأصوات الصاخبة والأصوات الهادئة، القوافي الداخلية والقوافي الجانبية، مثل مغني الهيب هوب المتخصّص في الأغاني الاحتجاجية، الذي كان يستعد للمنافسة في بطولات سهل ميتشل، على الجانب الآخر من منطقة دوفيلبيك، القريبة من جبل تافلبيرج. تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام.

وهذا كله ما صنع من لغتي الأم بيت بوكس[13] إنساني، والتي تعد أكثر مرونة وتلويناً وخصوبة ولكن معظم مستخدميها لا يريدون الموافقة على ذلك. نحن نحسب أن الوقت/ يمكن أن يشفي أي إصابة. ولكن ماذا يتبقي لي بعد ذلك؟ / خراج متقيح.

ست نساء، ملكتان كبيرتان، وأربعة أميرات، كانت تعتني برجل واحد، القائد العام للإغريق، أجاممنون [14]. سبعة حيوات، على بعد آلاف السنين منا، آلاف الكيلومترات، في قارات أخرى وفي قرون أخرى. بينما، كان علي أن أعتني بامرأة واحدة طوال حياتي الخاصة. أدركت تماماً أني يجب أن أظل بجوارها. وبدأت أكتب وأقفي بمزيد من الغضب.

---

13) هو فن تقليد أصوات الآلات الإيقاعية والنغمات الموسيقية عن طريق الفم، ويمكن أن يتضمن البيت بوكس الغناء أيضًا أو العزف بآلة موسيقية.

14) ملك أسبرطة، الذي قاد الحملة التي ذهبت إلى طروادة لإستعادة هيلين زوجة الملك مينلاوس التي هربت إلى طروادة مع بارس.

"موسى، غن لي/ غن لغضبي المجنون".

"أعطني اليأس، الإيقاع والشعر".

"لم تمر لحظة/ لم تكن هي فيها معي".

لم يمر صيفي للكتابة بطريقة خالية من الهموم كما كنت آمل. وقد تم اقتطاع أكثر من الراحة في الصباح عند الفجر بواسطة شفرات المروحيات التي كانت تطير على ارتفاع منخفض. كل شيء في هذا البلد ضخم وعنيف، من الفقر إلى النمو الاقتصادي، من المزج اللغوي إلى حرائق الغابات. كانت المروحيات تعلن عن نفسها بأنها تحلق بالقرب من أسطح المنازل بحركة بطيئة وضجيج يصم الآذان، مثلما كان يفعل الكومبارسات في فيلم عن فيتنام، تتجه إلى خزان مياه، كبير بحجم ملعبين لكرة القدم وقديم قدم الحي نفسه: بنيت أقدم المباني من قبل الهولنديين وعبيدهم لخدمة شركة الهند الشرقية.

تحت كل مروحية معلق كيس برتقالي ضخم، يغلق من الأسفل. ومع ذلك، ثمة تسريبات، حتى من فوق، حيث تتساقط نقاط المياه بسبب الانتقال نفسه، ومن ثم يتم رش المياه على الفور من قبل شفرات المروحيات كمحاكاة لزخات المطر المحلي. وفي طريق العودة أيضاً، تسرب الأكياس المفتوحة بغزارة، يا شرفتي الصغيرة العزيزة التي غمرت بالمياه، يا على اللوحات المتدلية من السقف لفريق جاز قديم وأصبحت لوحة للغسيل. وأخيراً، ها أنا مشتتاً من جديد ومدعو إلى الكسل، أجلس في الشرفة وأقدامي على حافة السور، ومنشفة ومنظار في متناول اليد، أراقب الحركات الراقصة التي تقوم بها المروحيات طفايات الحرائق. فقط عندما لا نسمعها، فإنها تكون بعيدة، صغيرة مثل البعوض الذي يطير حول الجدار الشاهق والمرتفع لجبل تافلبيرج المقدس، تفتح أكياسها، وتلف جميعها في حركة دائرية في الوقت نفسه، حتى يندفع الماء بحركة في منتهى الأناقة لكي يضرب موضع النار. تثير هذه المروحيات بخارًا غاضبا، يتصعد على جانب الجبل، عمود من الدخان الأحمر القذر ينتهي في سحابة

تحجب لفترة من الزمن الشمس، الكرة البرتقالية خلف ستار من السخام يحوم. ثم يعود بعد ذلك، طنين المحركات، تتجه أجنحة اليعسوب نحونا من جديد، تكبر أكثر وأكثر في منظاري، نحو الخزان، نحوي مباشرة، بأكياسها التي تتدفق منها المياه، بفاكهة شجر الرماد الجبلي الغريبة الضخمة الفارغة والمتدلية. يندمج إيقاع شفرات المروحيات مع حسابي المحموم لعدد المقاطع في رأسي. تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام تا - تام.

"أعطني اليأس، الإيقاع والشعر". إن سوء حظي على الأقل، يبدو في تناغم.

حل الليل، بعد ساعات من توقف الحركات الراقصة للمروحيات كالمعتاد حيث أن نزهات الليل في غاية الخطورة.. نحن هنا نتحدث عن عام الحرائق الكبري في كيب تاون، عام هروبي الأنيق إلى الأمام خطوة، العام الذي انطلقت فيها للمرة الاولي الشائعات الحمقاء عن المياه: لأول مرة، يتم التهديد بجفاف الخزان، محترقاً بأشعة الشمس الأفريقية، مجففاً بالرياح الجهنمية للكاب تاون، هذه الرياح الرهيبة والتي تهب من الجنوب وتلسع تحت تأثير حرارة الصيف الاستوائية والمحيطات التي تحيط بالمدينة، أحدهما دافئ والآخر جليدي، المحيط الهندي والمحيط الأطلنطي.. وكانت هذه الرياح كأنها تسخر من الخير الموجود في كاب تاون، فكانت تهب بمنتهى الغضب، كانت تدمر الأسقف المتعرجة والنخل المتأرجح، كانت تمزق أزهار البوغَنْڤيليا وتنزع الكابلات الكهربائية مثل ناقلات البترول المنجرفة، كانت تصرخ أعلى من رياح الميسترال ورياح الخماسين، مجتمعة معاً، وكما لو أنها لم تعد منزعجة من المروحيات، أشعلت النيران دفعة واحدة على أربعة جبال: دوفوسيك، تافلبيرج، ليفنيكوب، وسينيالوفال، الجبال الأربعة التي تشكل الصحن الذي بنيت فيه الأحياء القديمة المعرضة أكثر للخطر في المدينة. كنت لازلت جالساً في شرفتي، لكن لم تعد ساقي متدلية على حافة السور، كنت أنظر حولي، خائفاً وقلقاً، على الظلمة التي

تلمع بالحمرة، على الندوب الأكثر دموية، في الحرارة الشديدة، وسط الهواء الكثيف والسميك بقوة، مع الضحكة الشريرة للرياح وانفجارات جذوع الأشجار التي تشتعل من بعيد. كنت محبوساً، مثل أي شخص آخر، مثل المدينة نفسها.

أبعد قليلاً من شارعنا، 12 بلوك أب، توقفت عربات الإطفاء بأضوائها الساطعة. تم هزيمة تقدم النار بدفعات المياه كما اتُفق، معركة تم خسارتها ببطء، حيث أنه في أعلى أحد المنزلين المحترقين، كان السكان يجرون الأثاث إلى الأسفل باتجاه الشارع، وعلى جانب جبل تافلبيرج كله، كان هناك جرح رهيب طوله مئات الأمتار، ممتلئاً بالفحم المتوهج كالحمم البركانية. لم أتمكن من إبعاد عيني عن الحريق، فالنار كانت بلا رحمة، مرعبة وجذابة.

وفي الوقت نفسه، كان هناك ضجيج كدقات المطرقة وضوضاء تردد في رأسي: غير مكتوب، غير مكتوب، حتى هنا.

"العالم العملاق، ومع ذلك، أبقى أنا كما أنا في كل مكان".

عائداً إلى قارتي العجوز، مع قطعة الشعر المنتهية، والبروفات الأولى والثانية، بعد ما انتهت كل حيل الهروب، وانتهت فترة الهروب الأخير، بدأت أخيراً، حمدا لله، أغنيتي اللعينة عن مصيره المرير.

لقد عدت وكلي عناد وكان هذا أمراً جيداً.

كان هذا عندما توفي والدي.

وشعرت بالانغلاق مرة أخرى.

ليس من موته في حد ذاته. كانت حزينة، لكني لم أكن أتردد وأقول لها أنها جميلة. بعد كل الأهوال التي كان عليها تحملها، كمتفرج عاجز، فقد كانت هي الشاهدة الرئيسية لانهياره البطيء، استبعد بشكل قاطع من وجودها الذي كان يمثل عنصرا أساسيا في حياتها، فبعد كل المعاناة التي أصابته، تمكن من الذهاب كما تمنى. أولاً، كانت فترة المعاناة ليست طويلة. فسرعان ما رحل خلال أسبوعين.

ليس في المستشفى النظيفة والمقبضة، التي كانت يجب أن تموت بها، وإنما في الغرفة المعتادة لدار المسنين حيث كان يسكن هو.

دون ألم، مخدراً بالمورفين، يغرق فترات أطول وأطول في النوم ثم في غيبوبة، محاطاً بالأقارب الذين يتناوبون على رعايته بالقرب من سريره. كانوا يسهرون عليه كما ينبغي، مع ترمس من القهوة وطبق من لفائف الخبز المحشوة على الطاولة، وكذلك زجاجة الجن بالليمون، فاتح الشهية، مع قهوته المفضلة، والتي كانت جميعها تمثل عزاءً رحيما خلال تلك الليالي والتي تمر بغرابة في غرفته، التي ليست أكبر بكثير من غرفة طالب، حيث يموت أحدهم، رأينا عيونه تولد وهي الآن على وشك الإغلاق بشكل دائم. بقي تلفازه مفتوح ليلاً ونهاراً، كما كان يفعل دائماً، كأنه يبث همسات لا نهائية كالتي نسمعها دائماً في كتاب التوارة. فقط قرب النهاية، تمكنا من قطع الصوت. هكذا، سلم أبي روحه إلى الرفيق الأعلى بسلام، بينما تكسب وتخسر مباريات لكرة القدم في صمت، تبدأ وتنتهي أزمات عالمية دون صوت. كانت تلقي بحنان بظلالها المرتجفة عليه.

كنت على وشك نسيان الأهم. كان محاطاً بجميع صورها التي أخذها وهو يغادر شقته. واحدة منها، كانت التي ترتدي فيها القبعة الكبيرة. عندما كنت ألعب دور الوصي على التركة، كنت أبحث عن الأشياء المهمة، وجدت هذه الصورة من بين صور أخرى في علبة بسكويت قديمة، كان غطائها أبيض اللون ومصنوع من الحديد، منتفخاً بسبب تكدس الصور. كانت قد خدشت بعض الشيء ولم تكن إلا مجرد صورة من تلك الصور التي تستخدم في بطاقات الهوية. وجدتها فيما بعد، قد تم تكبيرها ووضعها في إطار على طاولة القهوة المستديرة التي كان والدي يستخدمها، هذه الطاولة التي كان عليها يستريح لوح من الزجاج، وهي واحدة من قطع الأثاث القليلة التي صحبته إلى هذه الغرفة في سفره قبل الأخير. في كثير من الأحيان، كان ضوء لمبة ليلية يسطع بجوار هذه الصورة.

سرعان ما أصبحت هذه الغرفة مزاراً بدلاً من أن تكون مسكناً، مكاناً مقدساً للذكرى، حيث نصلي كل يوم دون صلاة لربة عظيمة لها ألف وجه. على كل خزانة، على كل طاولة، تربعت صورة لها. فوق السرير، كان معلقاً ثلاثة. صورة منها كانت مثيرة للسخرية، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين لم يعرفوا السياق. والدتي، التي تقاعدت منذ فترة طويلة، كانت منحوتة مثل ماي ويست[15]. كان هذا واحداً من الأشكال المفضلة لهذه الجماعة الدينية، التي تضم متعبد واحد فقط، الأمر أشبة بكنيسة محلية لهذا الشخص الذي كان يعوض تواضع الأعداد بشدة الطاعة. ليلاً ونهاراً، كان يقوم بحجته المتواضعة، ساحباً قدميه ليصل إلى مائدة الطعام، من الخزانة إلى طاولة القهوة، من السرير إلى الخزانة، منتبهاً إلى الطيات الغادرة وزوايا السجاد، كان يلق تحية الصباح أو يتمنى ليلة سعيدة لكل صورة من الصور الفوتوغرافية. عندما كان يحتسي الخمر كفاتح شهية قبل كل وجبة، كان يرفع كوبه أحياناً نحو واحدة من الصور وأحياناً نحو أخرى، مع الحرص على عدم توضيح أي علامة توضح أنه يفضل واحدة عن الأخرى. كان يحبها جميعا بنفس القدر.

مع ذلك، كان يشرب كثيراً أمام صورة القديسة العلمانية فوق سريره والتي تظهر معبودته في فستان سهرة لامع، أزرق قصير، مثل ماي ويست، بما فيه ذلك من حذاء أسود بكعب عال للغاية، الشعر المستعار، أحمر الشفاه والرموش الصناعية الكبيرة مثل أجنحة الفراشة. في كرسي متحرك، ولكن، كانت مازالت غير مقيدة بعد، كانت تدفع نفسها ببراعة، وبفضل صدق التعبير على وجهها، لا يمكن أن نشكك ولو للحظة في نجاحها في إثبات وجودها. كانت ذكرى لدور من أكثر الأدوار العزيزة على قلبها، في مسرحية، يجب أن نذكر، كانت تتحدث عن خرف الشيخوخة. كانت هذه المسرحية من ضمن عروضها المميزة النادرة: قدم المسرح الملكي الفلمنكي في بروكسل، على والدتي، في سن متقدمة، عرضاً كان بمثابة ولادة جديدة لها، في صورة امرأة كانت قد أعجبت بها طوال حياتها. "أمراً واحداً كان في الواقع هو العار، لغتها البذيئة (مع

15) ممثلة وكاتبة سيناريو أمريكية.

تقطيبة عابسة ما بين حاجبيها)". حتى، إنهم زجوا بها في السجن وأطلقوا عليها ماري سجق، كما كان يطلق عليها في شبابها. لحسن الحظ، لم يطلق علي أي اسم من هذا القبيل. "عليك أن تتعلم أن تسخر من نفسك، حتى ماري سجق، حتى الجزارة لا تعتبر ذلك مجاملة".

زوجته، الذي كان وجودها يشع دائماً على شكل ملاك أزرق فوق سريره، أيقونة هوليوودية محفوظة بشكل جيد، في هذه الصورة، كانت تشعر بلذة انتصار على كرسيها المتحرك، مازالت تضع المكياج، ولكن لا يزال هناك أثر للألم، مع نظرة مازالت ثاقبة ولكن حتى الآن، لم يصبها الهلع. على النقيض من ذلك، بدت على استعداد للبدء في واحد من مونولوجاتها الرائعة، والتي من شأنها أن تجعل الجمهور في تشويق بشكل دائم. كانت هذه إحدى الصور الأخيرة لها، التي تمكن أبي من تسجيلها، في اللحظات القصيرة، عندما كان يلق نظرة مبهمة على هذا العالم الذي كان يهرب منه ببطء، وهي نظرة أصبحت أقل وضوحاً في كل مرة.

غرقاً سعيداً، كان لا يزال يخرج رأسه من وقت لآخر من وسط البحر المهجور، يرى أن كل شيء جيد ويسمح لنفسه بالانزلاق مرة أخرى تحت الماء، يضعف بسعادة، باطمئنان، دون شكوى، راضٍياً ومبتسماً: انظر هناك، إنها على الجدار، خوسيتي الجميلة. أليست رائعة؟ مستعدة لكل شيء، حامية ومبتهجة. هيا، هيا يا أبي، هيا. نحن نعرف ما تريد. ألق نظرة أخيرة. ارفع مرة أخرى رأسك المتعبة. أخرجها من هذا البحر الهادئ والغائص في ملاءات السرير. لا تزعج نفسك. فهناك الآن، من يقرأ هذا ويشعر بالانزعاج مكانك، منزعجين من أجلك، من أجلي، من أجلها، عندما يمرون على هذه الصفحة. دعهم يتوقفون عن القراءة. إنهم لا يستحقون ذلك منك.

تعال، تعال. مرة واحدة فقط. انظر إلى الصورة التي غالباً ما كنت تحتفل بها عندما كنت لا تزال مستيقظاً، الصورة التي كنت تتباهى بها أمام كل العمال، أمام الراهبة المؤمنة التي كانت تسكن في نفس الطابق، يا ترى، ماذا كان اسمها؟ أمام كافة

الزائرين، واحداً تلو الآخر، كلما رأيتهم، تماماً، كما كنت تكرر مائة مرة نفس النكتة في متجرك، نفس القصة التي كنت ترويها للزبون الجديد الذي يدخل اليوم أو يدخل في اليوم التالي. هنا في غرفتك، كنت وأنت تشير إلى مكان ما فوق سريرك: "هل سبق لكم وأن رأيتم مثل هذه السيقان الجميلة؟ حسناً، إنها قصيرة إلى حد ما. ولكن بالنسبة للباقي؟ وكان بالفعل لديها سبع وسبعين عاماً!

مرة واحدة فقط. افعل ذلك.

هيا، هيا، قم بذلك.

لم أقابل أبداً شخصاً كان مستعداً كوالدي في الجولة النهائية. واضح الهدف، طامعاً في الفوز. قبل أسبوع من وفاته، ذهبت معه إلى طبيبه، في وجود صهره وحفيده، الذي كان ممرضه في الوقت نفسه، لوضع القائمة الرسمية التي تسبق المرافقة القانونية في نهاية الحياة والتي يطلق عليها في بلدي الأم مصطلحا مخففاً: "الرعاية اللطيفة". دولة قانون مع معدل عالٍ من الانتحار، تريد حقا أن تتأكد أن القادمين الجدد يرغبون بالفعل في الموت. يجب عليهم تكرار ذلك في كثير من الأحيان حتى يبدأ القادمون يشعرون بالذنب لرغبتهم في الموت. ربما، يكون ذلك هو أحد أهداف الناجين.

لن أبدأ في الغضب مرة أخرى حيال ذلك. لا أريد أن أبدو ساخراً أو يائساً. ففي النهاية، لا يكون على الناجين ما هو أصعب من الموت. ولذلك، لن أثرثر هنا عن معنى أو عبثية الاستجواب الإلزامي لنصف الموتى، والمستوحى من انعدام الثقة البيروقراطي ومفروضاً من قبل الأديان المتفسخة دون روح ولا مستقبل. أنا لست في وضع يسمح لي بمحاضرة أي شخص عن العصاب أو الحماقات التي قد تنجم عن وفاة شخص آخر. لكل واحد أمراضه. كل واحد له عالمه الآخر. والحداد يكون على الجميع.

أمام رحيله، لم يكن والدي يشعر بالذنب بالتأكيد. بدا مرتاحاً. كان يمزح مثل الصبي الذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، الذي كانه طوال حياته، مواسياً

كالمصالح الذي كان عليه منذ شبابه، وهو دائماً جاهز لتهدئة الأمور، صحيح، إنه كان يذبح الماشية، أي إنه قاتل، ولكنه كأنما أراد أن يخفف الأمور عن الآخرين الذين كانوا يتحملون أقصى أنواع الأعباء كلما أتيحت له الفرصة لفعل ذلك.

وحتى الآن، كان صحيح يتقلب في الموت، ولكن كان شاغله الشاغل هو تجنب أن نرفع صوتنا أو نسكب الدموع في النحيب. كان يحب أن يمزح وأن يمزح معه الآخرون، كأنه مزحة عمرها ثمانية وثمانين عاماً، لا أستطيع أن أصف ذلك بأي طريقة أخرى. كان الوغد الأبدي أصلعاً حتى قبل الأربعينات من عمره، وكان يناضل باستمرار ضد الوزن الزائد، لأن الحياة، بصرف النظر عن العمل وصنع الأطفال، تتكون من الأكل بسرور، وعلاوة على ذلك، الحمقى فقط، هم الذين يرفضون كأساً من مشروب جيد، سواء كان ذلك البيرة أو النبيذ أو الجن القديم.

لم يكن من نوع الآباء الذي يجب محاربته. لم يكن أباً بطريركياً يجب التخلص منه، رمزياً أو بفأس حقيقي.

وكان جسده المستدير، بارع القوام في الماضي، قد فقد وزنه بشكل كبير في غضون بضعة أشهر، وكان عليه أن يرفع حزامه باستمرار، "وإلا فإن سروالي سيقع من على أردافي". وقد بدأ لديه سرطان البروستاتا في الانتشار وتحول إلى سرطان في العظام، هاجم وأذاب نصف هيكله العظمي، ونشر الكالسيوم الذي أفسد دمه وشهيته. أثر ذلك في أشياء في المعدة وفي الأمعاء، لا تسألوني ما هي، لم أكن أريد أن أعرف. كانوا يعطونه السوائل والسكر بالمحلول الوريدي، من خلال كيس بلاستيكي صغير شفاف معلق على شماعة منتقلة، وذلك لأنه، أصبح غير قادر على تناول الطعام أو الشراب، كان كل ما يبتلعه، يتقيأه على الفور في حوض صغير من الورق المقوى المخصص لهذا الغرض. هناك أناس هم الذين اخترعوا ذلك، أبطال معاصرون، أبطال حقيقيون، حوض صغير للتقيؤ غير قابل للكسر صندوق كبير رمادي اللون، سهل الحمل عن طريق الفم بفضل شكله: على شكل كلى مجوفة مقطعة نصفين بالطول وبالطبع أكثر

طمأنة وأكثر برودة وأكثر تهديداً حيث أن المينا أو الفولاذ المقاوم للصدأ من شأنهما أن يجعلاك تفكر في كوب السم.

في القائمة الإدارية، ثمة عناصر أجاب عنها أبي بجانب السؤال الأساسي، ولكن ليس مع ابتسام بل مع تقطيبة واسعة: "لقد فتحنا فتحة صغيرة. ممنوع الوجبات السريعة. لا يتم دفع أي مصاريف في المشرحة". وعلى سؤال آخر:"حقنة صغيرة. يتم تناولها بمنتهى السرعة. ممنوع الهزار والهرج والمرج". بعد ذلك، أصبح أبي يسمع كل هذه الأمور مع ابتسامة عريضة ومن وقت إلى وقت يغمز لي بعينه.

عندما كنت أعود إليه وأسأله بعناية، وأطلب منه إجابة حقيقية، كان ينظر إلي من أسفل إلى أعلى، ذقنه على صدره، يتظاهر بالإحباط من خلال عيونه الواسعة. حتى أنه كان يومض، بعيونه البامبية الشجاعة، ويسخر مني: "لا، لن تبدأ بالمزاح؟ أنت تعرف جيداً ما أريد. ليس، عليك إلا أن تكتبه. أو أن تعود إلى أنتويربك اللعينة". دائماً نفس هاتين الكلمتين، المزاح وأنتويرب، ينطقها بلكنة أنتويرب المبالغ فيها من خلال مد الحروف المتحركة، بصوت عالٍ، شبه أنثوي، طفولي في أي حال.

كان الأمر، أشبة بطعنة في روحي. في غمضة عين، علمت هذه الحقيقة الصغيرة الفظيعة: كان كالممثل الهاوي، هنا، تحت بصري، في مواجهة الموت. إنه مرض معد، هذه اللعبة التمثيلية، هذا التلاعب، هذا الهروب. ليس فقط داخل عائلتي وفي كتاباتي. بل إنه أصاب هذا الدار للمسنين بقواعدها المفهومة ولكن الصارمة، مع الثرثرة الحذرة من قبل موظفيه ومؤامرته الكاثوليكية القديمة الصامتة: يعلم الجميع أن جرعة زائدة من المورفين في طريقها إلى الغرفة 218 ومع ذلك يتظاهرون بأدب، ويتصرفون وكأن شيئا لم يحدث، باستثناء المسار الطبيعي للأحداث. الوجوه الناعمة والأكاذيب الصغيرة من أجل الخير للجميع، "فيما بيننا"، الرحمة والرياء، الجبن صامت والشفقة صامتة. كلنا نعاني من العجز الكلي في مواجهة سر الحياة. لكل بلد مسرحه، في أوروبا هذه قارة العجائب، والكل يعمل ويهرول في هذا المسرح: إنه

مستعمرة مليئة بالممثلين الكوميديين، وكان ذلك أفضل، فهذا المسرح كان غير قادرٍ على إنشاء أي اتصال مع العالم الحقيقي، فهو دائماً مختفٍ تحت ستار من الأضواء الساطعة، في قوائم المطاعم باهظة الثمن، في الثرثرة غير المترابطة عن أحوال الطقس، عن الاختناقات المرورية وفضلات كلب الجيران. يلعب الجميع ويتحدث مئات المرات عن السياسة، عن عالم سباق الدراجات، ولكن، فيما يتعلق بالنفس الحقيقية، لم يتلق أي شخص حتى الآن النص الكامل للدور، ولا حتى أنا، مازلنا نلعب دور القرويين السذج الذين يختفون تحت الأثواب الأنيقة، ولكننا لا نملك رداً آخر سوى الكلمات البذيئة التي يستخدمها الفلاحون أو الصمت ثقيل المعنى أو الوجه المحمر خجلاً من الشعور بالخزي والعار. ولكن، لم يكن هذا كافياً، فنحن نرتجل بشكل غير متوقع النكات المسطحة، نحن نلجأ إلى الهرب بالنكات البذيئة التي نقولها بلهجة كوميدية وبصوت عالي الطبقة. مازلنا ملهمين بمسرحيات العصور الوسطى الكوميدية: مسرحية مازال الآن. شخصيات نموذجية صغيرة هنا حيث ننتظر البشر.

في اللحظة الواحدة، في الجزء من الثانية، التي كنت أتحدث فيها مع أبي عن موته القريب، شعرت بحزن شديد وأصبحت غاضباً بشكل غير عقلاني، ضده، ضد كل ما يحب، لأنه لن يكون على قيد الحياة في الأسبوع المقبل. لا أعرف ما إذا كان قد لاحظ ذلك، لكنه أصبح هو نفسه مرة أخرى، مجنوناً بما يكفي. على سؤال جدي آخر من طبيبه: "أتريد أن يتم إنعاشك، إذا أصبت بنوبة قلبية؟"، أجاب: "سيدي الطبيب، إذا كنت في مكانك، لن أبدأ في ذلك أبداً. أنت تعرف إلى أين سأذهب، أليس كذلك؟ سأكون ملعوناً، سأكون في المؤخرة".

وعلى ذلك، صادقاً وضعيفاً، عاد إلى ذلك المراهق الأبدي، الذي بدأ يضحك بشكل مكتوم. كتفيه، النحيفتين للغاية، كانا يضحكان أيضاً، وقد تبعا إيقاع الضحكة المكتومة: "هو – هو - هو". حرفياً أصبح كالزلط، آسف إذا كان الأمر يبدو سخيفاً إذا لم يبد جيداً على صفحتك: "هو – هو - هو".

كان يضع يده أمام فمه الصغير كمنقار الطائر، كما لو كان يقول كلاماً بذئياً، أمر يتجاوز حدود اللياقة. "في المؤخرة. هو، هو، هو".

صبي الجوقة الذي يخرج من غرفة تغير الملابس بالكنيسة.

كان هذا آخر عرض ناجح يقدمه، صلاته المبتهجة المبهجة، آخر كلماته الساحرة الكبيرة لطمأنة أولئك الذين أتوا ليودعونه والذين نجح في أن ينتزع منهم الابتسامة الحلوة، ولكنها تنم عن المرارة في الوقت نفسه. "في المؤخرة. هو، هو، هو"!

إلى المديرة، إلى أخصائي العلاج الطبيعي، إلى عاملة النظافة التي تحمل اسماً مغربياً، إلى الراهبة العجوز الشجاعة الصالحة التي نسيت اسمها: "في المؤخرة. هو، هو، هو".

في البداية، كان ينظر مندهشاً إلى حفيدته وزوجة ابنه، القادمين من هولندا لتوديعه نهائياً، حاملين باقات الزهور في اليد، كان قد خرج للتو من بحره للنسيان، لم يتعرف عليهما، نظر أولاً إلى الصورة فوق السرير، صورة خوسيه المنتصرة، ثم تحول إليهما مرة أخرى وفجأة أضاء نور بداخله ساحر رمادي اللون: "حسناً! تبدوان بمظهر جيد جداً، كلاكما! مظهر جيد جداً. ولكن، يجب أن تأخذا زهوركم معكما وتعودا بها إلى المنزل، فإنها ستذبل هنا، فمن يدري هنا كم تبقى من الوقت الآن. لا. يجب أن تأخذا زهوركم معكما. يجب".

وعندما كان يتلقي قبلة الوداع منهما، أخرج نصف رأسه من البحر الذي يغمرها، قبلت شفتاه الفراغ، واضعاً خده البارد على خديهما، وكان يهمس وهو حتى غير سعيد: "أنا في المؤخرة. هو، هو، هو، لكنكما تبدوان بمظهر جيد جداً، كلاكما. أنتما وليس أنا. فأنا ملعون، في المؤخرة. هو، هو، هو".

جزار بوذي يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً بضحكة مجنونة وأيضاً مائة وأربع وعشرون ساعة أخرى يحياها.

قبل عام من وفاته، اكتشف ركناً في صحيفته. كان يقرأه، كل يوم جزءً جزءً من

طرف إلى آخر، والعدسة المكبرة في يده، فلم يستطع أي شخص أن يقنعه بارتداء النظارات وهو يقرأ، فقد كان لديه بالفعل متاعبه مع جهاز السمع المساعد وطاقم أسنانه. حتى أثناء محاولة تركيزه في القراءة، والتي يمكن أن تكلفه من سبع ساعات إلى سبع ساعات وربع في الصباح، كان لا ينسى أن يلقي نظرة على شاشة التلفاز وذلك لمتابعة إعلان لأحد أنواع صابونه المفضل أو الإعادة الخامسة لمباراة التنس لجوستين هينان، بطلته الصغيرة، عندما كانت جوجو، مرة أخرى، بعد مجموعة مرعبة ومخيفة، على وشك الفوز بالمباراة، كما كان يفكر ويعرف منذ البداية، يتصل بي في منتصف النهار أو في منتصف الليل وأكون أنا في كيب تاون، في هونج كونج أو في زوول، قائلاً: "أسرع أسرع! قم بتشغيل التلفاز الخاص بك! سوف تفوز! سوف تفوز!" ويغلق على الفور حتى لا يفوت أي لحظة من مجد صغيرته جوستين. اليوم الذي أعلنت فيه أنها ستتوقف عن اللعب كمحترفة في التنس، كان يوماً أسودَ، اتصل بي هذه المرة وكان يحاول التغلب على دموعه قائلاً: "إنها ستتوقف، إنها لم تعد تتحمل كل هذه المنافسة، كل هذه الضغوط، تماماً مثل إدي ميركس، إنها توقفت في الوقت المناسب، إنها على الحق، المسكينة، ولكن مازال يمثل لي خسارة كبيرة".

فقبل عام من وفاته، اكتشف في صحيفته خبراً كنت أريد أن أخفيه عنه.

يرن هاتفي الخلوي:

- ماذا قرأت؟ هل ستكتب كتاباً عن والدتك؟
- من قال هذا؟
- إنه مكتوب في صحيفتي.
- لا يجب تصديق كل ما تحكيه الصحف.
- إذن هذا غير صحيح؟ أنت لا ترغب في ذلك أم ماذا؟
- إنها ليست مسألة الرغبة أو عدم الرغبة. لا يزال يتعين القيام بذلك.
- لكن إذا لم يحدث ذلك، فلماذا هذا مكتوب في الصحيفة؟

- هذه هي الطريقة التي تسير عليها الأمور، فهذه الأمور يجب الإعلان عنها مقدماً.

- إذن، هل هذا صحيح؟

- إنه مشروع يا أبي. مشروع يمكن أن يستغرق سنوات.

- إن هذا ليس هو المكتوب بالصحيفة.

- أنا أعلم بذلك، صحيح؟ أنا من عليه أن يكتبه.

- أعتقد أنه جميل، هذا الكتاب عن أمك.

- كيف تعرف ذلك؟ لا يزال يتعين علي أن أكتبه.

- مجرد فكرة! كتاب كبير عن والدتك.

- لا يزال يتعين علي أن أكتبه!

- ومتى سينتهي؟

منذ تلك اللحظة، وأنا أتحدث هنا منذ وقت طويل قبل موسم جحيم الحرائق الكبري في كيب تاون، كنت عندما أدخل غرفته في دار المسنين أو أقابله في المقهى والمطعم الذي يمتلكه ابن أخي حيث كان ينتظرني أو أينما رآني، كانت أول عبارة له: "كيف تسير الأمور مع كتابك؟" كانت أيضاً أول عبارة له على الهاتف، سواء كنت في كيب تاون أو في هونج كونج أو في زوول. في المرة الأولى، كنت متأثراً. في المرات الخمس التالية، كنت أنفجر في الضحك. بعد ذلك، كنت أغضب ويصيبني اليأس أكثر وأكثر، لأني أصبحت أشعر في سؤاله كل مرة بنوع من اللوم: "كيف تسير الأمور مع كتابك؟" لائحة اتهام بالإهمال وبالذنب. أصبح الاتهام تدريجياً حكماً متواصلاً. كان الحكم في أربع كلمات: "كيف تسير الأمور مع كتابك؟".

كنت أعرف مسبقا أن الجملة ستُعاد مرة أخرى، لاذعة كما الحال في كل مرة، بمجرد أن أجد نفسي وجهاً لوجه مع جلادي الجميل، الذي يكون حزيناً للحظات،

والذي لم أتمكن حتى أن أبين غضبي منه. هل كانت هناك مرحلة أخرى من المجالس، مجالس العائلة؟ قبل كل زيارة، كل مكالمة هاتفية، كنت أُبتلى بدوار متعلق بالعائلة، بسبب الهاوية التي كانت بين توقعاته وأعصابي، والجهد العالي على كلا الجانبين. مرة أخرى، كانت كل أنواع الوحوش الصغيرة تقرضني داخل معدتي. وأخيراً، بعد ما حصلت، بعد العديد من التوسلات والنهي والوعود ألا يبدأ محادثتنا أبداً بـ: "كيف تسير الأمور مع كتابك؟"، أصبح يبدأها: "إنني أعلم أني لا أستطيع أن أسألك عن هذا ولكن.. كيف تسير الأمور مع كتابك؟"، لم تكن إرادة سيئة أو رغبة في إزعاجي من جانبه، لا، ولكن كان الأمر أقوى منه. لقد كان يعاني أكثر مني.

كان نظره، الثاقب كالعادة، يحاول أن يؤكد للعالم الخارجي أن، في النهاية، كل شيء لم يكن سيئاً للغاية بالنسبة له، "الحياة مستمرة، عليك أن تتعامل معها". وكذلك نظرة عينيه المألوفة، هي التي جعلت بيتر وبول وجاك يفهمون أن الظروف الحزينة قد مرت وإنه لن يكون أفضل إلا هناك، في دار المسنين، هذا المعروف بأنه الأفضل في المدينة، مواقفه للسيارات الشاسعة وممرضاته الفائقات ومتدربينه الشباب. "لذلك، بالنسبة للطعام، إنه أمر لا يصدق هنا، إذا بدأ موسم بلح البحر، نحصل على بلح البحر هذا الأسبوع، إذا كان موسم الأصدقاء، سنحصل على أصدقاء". كان نظره الثاقب ونظرته المطمئنة تختفي بمجرد أن يراني. تطفو ذكرى هذا الجزء الصغير الذي كان موجوداً في ركن صغير في صحيفته بشكل لا يقاوم، كأن سهما اخترق صدره، ويبدأ الجلاد ينظر إلى مهتمه من جديد بمنتهى الألم وبمنتهى اليأس وأحياناً بانكسار وبعيون مبتلة: "أعلم أنه لا يمكن أن أسألك عن هذا يا صغيري، ولكن، كيف تسير الأمور مع كتابك؟".

كان يعتمد علي، ولم يكن يعتمد على شيء أقل من تناسخ صغير. ولادة جديدة لخوسيه الخاصة به، كما كانت خلال كل هذه السنوات، على خشبة المسرح وخارجها. لقد ولدتني في هذا العالم؟ وأنا علي أن أفعل نفس الشيء معها. على الأقل بالنسبة له، وحتى للعالم كله. بنفس الطريقة البطيئة التي تدمرت بها أمامه، وتداعت، وهلكت،

وفقدت قطعة قطعة، وهربت منها كلمة كلمة، علي إعادة بنائها جملة بعد جملة وصفحة بعد صفحة. أعوض باللغة عن فقدان اللغة. هذا ما كنت أسمعه في كلماته، في اتهامه المكون من خمس مقاطع بمنتهى الوضوح، مع نظرة تركزت فيها بشكل عابر كل ما يمكن للبشرية كلها أن تشعر به من فقد.

بعد ذلك مباشرة، في غمضة عين، يضيء وجهه ويستأنف من جديد مسار تأكيداته حول سعادته الشخصية. سعيد، مهووس، متحمس، كأنما ليس فقط لإقناع العالم كله ولكن لإقناع نفسه أيضاً. تعويذة لرجل واحد: "صحيح حقاً"، لا يمكن أن يكون أفضل في أي مكان من هنا، في هذه الغرفة الكبيرة للغاية، "في الواقع لشخصين"، مع الإطلالة على المساحات الخضراء وحتى النافورة، وكل طاقم الموظفين المميزين من حوله، لقد كانوا حتى يدلكون له فخذه المتألم وظهره المريض، وقد كان أخصائي العلاج الطبيعي الخاص به رجل:"ولد شجاع، يتقن مهنته بشدة وكان يعرف كيف يضحكه ولكن يد المرأة لا تزال شيئا آخر".

كان يستند على منطق في صنع الشخصية، منطق الجزار الذي ربط بين أيدى المعالجين واللحم وبين تدليك الظهر بالطعام: "عندما يبدأ موسم الصيد، كنا نأكل الحجل[16] أو الأرنب. مع التفاح المطهو، والتوت البري، والشيكولاتة بالكراميل مع زبدة المزرعة وكروكيت البطاطس الحقيقي". كان يقول ذلك بشكل حالم. ونحن نلعقها بشفاهنا. ونشرب معها مشروب الجين من فاريغيم، فاتح الشهية الأول خلال اليوم. وكان قبل الشرب، ينظر في الفراغ، في اتجاه واحدة من الصور: "في صحتك، يا زوجتي الصغيرة". دون قول أي كلمة أخرى حول كتابي.

حتى موعد زيارتي القادمة.

لم يقرأ حرفاً مما تقرؤه الآن. كان قد توفي، وما كتبته حتى ذلك الحين، قد ألقيت به بعد وقت قصير من حرق جثته، في نفس المرج الذي تناثر فيه رمادها من جرة، على بعد مترين تقريباً حيث تشتت رماده قبل عامين.

16) نوع من أنواع الطيور.

ها قد اجتمعنا أخيراً.

لقد قمت بمسح كل ما كتبته، بشكل جذري وتقليدي، قد تم حذفه نهائياً، بعد ليلة من التفكير والحزن العميق وبعدما تأملت لساعات شاشة الكمبيوتر الخاص بي كمرآة، حتى أنني لم أعد أستطيع التحديق بها مجدداً. الحذف، الدقة، نهر النسيان.

لقد بدأت في نفس اليوم في كتابة هذا، رواية لا يمكن أن تصبح خطوة في طريق الأدب وإنما خطوة في طريق اللاشيء، كتاب مقدس منقح مع كتاب مضاد في المجلد نفسه. بدءًا من الصفر، أنظر مباشرة إلى هذه المرآة الرقمية التي تظهر هذه الكلمات بخنوع بينما أصابعي تكتبها. هذه وتلك مرة أخرى. أكتبها بشجاعة ولكني أشعر بالخجل من الوقت الكبير الذي أضعته في الكثير من الجبن. منزعجاً من موقف هروبي الذي كنت أقوم به تجاه مشاريع أخرى، وأماكن أخرى، وغيرها من الكلمات التي لم تكن ضرورية. وكما ترون، حتى الآن بعد أن استأنفت المهمة، شعرت بأنني مضطر للتحدث خلال صفحات كثيرة عن أمور بعيدة كل البعد عن الموضوع الأساسي، ربما لأهرب مرة أخرى. فليكن. إن هذا حقيقي وهذه الحقيقة كبيرة للغاية يضاهي حجمها حجم منزل كبير. حتى إذا كنت سأبدأ من الصفر، فأنا مازلت أحتاج إلى تكتيكات تأخير، إلى خدع ملحمية على مليمتر مربع، إلى ممرات الطيران المليئة بالوحوش والعمالقة، إلى ماري دوبريه ونابليون، وإلى بالونات الهواء الساخن، وإلى مروحيات كيب تاون. قافلة من الحكايات المتهالكة والآلام الصغيرة المتوهجة. عرض للمعارف القديمة، المكتوب باللون المحلي والمعطر برائحة الذكريات الحلوة. يجب أن يأتي جيش لمساعدتي، يتألف من الأعمال البطولية، والكلمات المواسية لماري سوسيس، الراهبة الصالحة، لجوستين هينان - على أمل أنها ستقدم لهذا اليتيم الجديد نقطة ارتكاز للدعم والإلهام والمساعدة، إلي أنا، الذي كنت أعتقد أنني لم أكن بحاجة إلى الإلهام والمساعدة، على الأقل من الخارج، لتصفية هذا الحب ولهذه التسوية الحميمة للحسابات. إنها ستتكون من تلقاء نفسها من خلال طاقتها الأساسية.

حسنا لا. الشرنقة لا تتصدع بسهولة. التحفظ، لازال موجوداً، ويظهر مراراً وتكراراً، ولا يخففه شيء على الإطلاق. وهذا، لن أعتذر عنه. فالتحفظ يعد واحداً من البيانات الهامة، وربما حتى الموضوع الأساسي. جل ما آمله أن أعمدة أساطيري ورموزي، ذكرياتي وجروحي، التي تتقدم في دوامة تجد في النهاية مركزها، وأن كل هذا الموكب المثير للشفقة يجد محوره وأخيراً يتوقف. ولماذا ليس الآن، في خطين أو ثلاثة؟ في الهدوء المنذر للعاصفة والتي ولدت هي كل هذا.

وبالفعل. الغبار يسقط. ها هي الذروة، ها هو الجوهر، ها هو الوحي. مذهل وبسيط في جفافه. هذا الكتاب هو، حتماً، قصة هذا الكتاب، الذي لا يريد أن يدع نفسه يكتب، بينما كان الأب لا يزال على قيد الحياة.

ليس بسبب القلق من الفشل أمامه. وإنما بسبب الخوف من عدم النجاح في المهمة التي حددها لي؛ ألا وهي أن تستيقظ أمي من الموت بفضل كلماتي. في الحقيقة، كان لم يتوقف عن لعب دور الناقد الأدبي. لم يرحب بأي محاولة سواء كانت متوسطة أو ضعيفة المستوى دون أي نقد، ولكن إذا كان قد رأى معجزة رائعة، لكان تغني بها كواحدة من روائع العالم. حتى أنه كان سيعترض على أكثر عناويني، هذا الرجل الذي كان يحتفظ بنسخ من كتب اشتراها من بائع الكتب المحلي مع عشرات الاشياء الأخرى. "يمكنني صنع زهرة لهذا الرجل، بين التجار!"، وقد غلف ووزع كل شيء على شكل هدايا دوما خجل على الرغم من احتجاجاتي الشديدة على جميع الموظفين، ضد قواعد دار المسنين، في مقابل الحصول على قبلة من السيدات أو مشروب مشترك مع الرجال.

القلق من الفشل؟ السبب الحقيقي أكثر قسوة. أكتبه هنا رغماً عني وعلى مضض. انظروا، تظهر الكلمات الباردة على الشاشة وعلى صفحتكم: كان موت والدي ضرورياً، في الواقع وعلى الورق، حتى أبدأ حقاً. كان لا يمكن أن أصف حياة أمي دون حياته، والعكس صحيح. هذا هو الحال مع لعنات الحب الأبدية، هذه الحياة التي لا يمكن

أن تنفصم عن الماضي بأي شكل من الأشكال. كانا فخورين بالقول بأن كل واحد منهما لم يتبادل مع أي شخص آخر ولم ألتق بأي شخص يقول العكس أو حتى يشك في ذلك.

قبل الكتاب الذي كان ينتظر بشغف حتى يولد، كان عليه أن يتبعها أولاً. كانت نهايته واحدة من حلقات السلسلة التي كان سيود قراءتها والمشاركة بها. مع القبلات والمشهيات في المقابل. "في نخبك، زوجتي الصغيرة".

لا يزال لدى الخبراء وغير المطلعين بالأمر بعناد سوء الفهم بأن الكتابة تعني المحافظة. إصلاح ما كان قائماً، لأنه كان موجوداً. الواضح، أن الأمر هو العكس تماماً. الكتابة، هي التدمير، بسبب عدم وجود شيء أفضل. فقط بعد ذلك وبسبب ذلك يصبح ما تكتبه جزءً من الماضي. الأدب هو عدم الرغبة في السيطرة. الكتابة هي طرد الذكرى.

هيا بنا. لنأخذ استراحة. دعونا نضع صليبا كبيرا وسميكا هنا، حتى وإن كنا رسمناه بمنتهى الحنان. صليبا عليها، صليبا عليه. صليبا على حبهما، صليبا على وقتهما، صليبا على وجودهما. لوحات لركن في مدينة صغيرة، عائلة كبيرة، في منزل عند ناصية بلا حديقة، ومتجر لا يتوقف بابه عن الرنين، كانت غرفتي بالأعلى مباشرة، كانت تنتابني الكثير من الكوابيس في الصباح، كنت أجرب قطع لحم الخنزير على أصابع معظم الزبائن الذين يأتون في الصباح، هؤلاء الساديون المجهولون الذين لا يتشككون في شيء، الذين يبذرون الرعب اليومي، الذين يطرودوننا ويراقبوننا من الفجر إلى الغسق بجرسهم الجهنمي.

صليب على جميع الزبائن، على خطافات اللحم وعلى هذه القطاعة. لقد وضعت في المفرمة كل علم الحيوان البشري لشبابي، والذي يحمل فيه الحيوان الأكثر شهرة اسمي، نظارتي وعيوبي، ندوبي، تلعثمي وغضبي. عند هذا السعر فقط، ستصبح، خوسيه، ما أرادت أن تكون عليه دائماً. أكبر من نفسها، أكبر من الحياة في حد ذاتها. وهذا لأنني الذي كنت لا أستطيع أن أحكي عنها، دون أن أحكي عنه، فإنني لا أستطيع

أن أكتب عنهما دون أن أحكي عن العالم الصغير المقدس الذي أعرفه والذي حكمته هي لسنوات. ومع ذلك، في مواجهة هذه المملكة الأنثوية، لم يسعني في المرة الأخيرة سوى التسكع والتباطؤ والتراخي.

لماذا أنا؟

لماذا؟ لأن ذلك يعد نقطة فاصلة. هذا يكفي الآن. يفري ويقطع ويعري كل قطعة عظم صغيرة، ها هو قد بدأ. لا يهم أين، لكنه بدأ.

صف الآن، على سبيل المثال، بابتسامة عريضة، رعبك في هذا الوقت، ذعرك كبائع للأدب من المفترض أن يكون على قدر المسئولية أمام عملائه المخلصين. اغرز شفرة في يد هذا الرجل المحترف الذي تدعى أنه أنت في كثير من الأحيان واستمع بتعاطف، التنهد الذي يهرب من الجرح مثل الرياح القذرة اليائسة: "لعنة الله! لقد بدأت بالنهاية! كان يجب أن يكون موت الأب في النهاية! لمزيد من التماثل والكثير من الكآبة القاسية!".

أنفجر ضاحكاً عندما أتذكر لوحة الألوان وفرش الرسم التي ترسم بها عباراتك كمحترف، كما تعتقد في نفسك، القط بتسعة ذيول الذي تجلد عاهرته الأدبية لكي يصل إلى هذا المنتج الديناميكي: كتيبك الصغير الخاص الذي يحتوي على صور وعلى رسومات بيانية. هيكل الكلمات المرجعية التي من شأنها أن تشكل أملاً ممكناً في المستقبل، من يدري؟ تحفة فنية. لأن هذا يجب أن يكون الهدف، دائماً. على الأقل، ما لم نفعل ذلك. قالت مرددة: "إن المزيد بداخلك؟".

ها هي، مطبوعة بجانبي، صوري ورسوماتي البيانية. وفقا لتقديرات تمت منذ وقت طويل، في هذا الموضع من الكتاب، صفحة 61، كان ينبغي علي أن أنتهي منذ فترة طويلة من وصف مالكتنا السابقة. ديكا ليزا، ليزا البدينة، كان هذا اسمها وكان الجشع والنزوات أساس سمعتها.

كان هناك بوسو لابوريو (الكادح)، الذي كان يجب علي أن أصفه منذ فترة

طويلة. كان يعيش على بعد خطوات قليلة، "خلف الزاوية"، كما كنا نقول في منزلنا. كان رجل صلب وجاف، ينظر حوله خلسة، ويحمل على ظهره شيئا يبدو كصندوق الأحذية مكون من لحم وفقرات. ولكن، كان يبدو أيضا الأب الفخور لمجموعة من الصعاليك الذين كنا نطلق عليهم هذا الاسم، والذي كان يبدو غريباً وقاسياً في عصرنا: "البوبوس". بوبوس 1، بوبوس 2، بوبوس 3".

ويللي (لوكوردونييه) صانع الأحذية أيضاً، كان يجب علي أن أصفه من الأعلى إلى الأسفل. كان متجره على بعد نصف صف من المباني، وكان أيضاً بنتوء في ظهره، مما عزز اعتقادي في سن مبكرة، بأن واسلاند كانت مركزاً للتجارب النووية يوماً ما. كان أيضا، صاحب أقوى قدم عرجاء رأيتها في حياتي، كان يجرها وراءه وهو يسير، كان حذاؤه يبلى بسرعة، ولكن، بما أنه هو الذي يصلحها بنفسه، فإن هذا كان يخفض التكاليف. كان ويللي ليس لديه ذرية، كان لديه حاجبان شيطانيّا الشكل، فم راهب، عيون بنية اللون لغزال جريح، بيتاً يعج بالضوضاء وتشم فيه دائماً رائحة الغراء والجلد.

قم بتمزيقها. كلها. بكل فرح. صورك، رسوماتك البيانية، ملاحظاتك، خططتك. امسح، احذف، أرسل إلى نهر النسيان. كل ما يهم هنا هو أن تدير رأسك، جاهزة للتذكر. من الآن فصاعدا، عليك فقط أن تبحث عن لحظة التدفق السريع. من التصدع الذي سوف يطفو تحت جمجمتك في اللحظة التعسفية. اختر اللحظة وانقر ارتجالاً. سنرى إلى أين يأخذنا ذلك معاً.

على سبيل المثال، ابدأ بما كان يجب أن يكون البداية الحقيقية. نقطة الانطلاق من ملحمة عائلية وعالمية في الوقت نفسه. ضربة من ضربات القدر. المشهد يحدث في الشقة الصغيرة المذكورة أعلاه، فوق متجرنا القديم للجزارة. هنا، حيث عاشت ديكي ليزا ذات مرة، وحيث استقر والداي عند تقاعدهما، وحيث جئت أنا في وقت لاحق لإصدار حكم حول مستقبل كل متعلقاتهما. مع هذه الوحدة في المكان، يبدو

الديكور مألوفاً بالفعل. قطع أحجية من فترات مختلفة، تنزلق بشكل غير متوقع وبالمصادفة مع بعضها البعض. يجب أن يكون الأمر كذلك عند تشغيل موسيقى الجاز. في منتصف احتسائك الشوربة، يقع فجأة اتفاقٌ يمزق نياط قلبك، لم يتكرر ولكنه يحدث في اللحظة المثالية. قامت بتأليفه الفرصة الخيرة.

تقبله بامتنان الموسيقي المريض.

أو بالأحرى، لا. بما أننا، قد قررنا تجاهل الخطة والخطية. دعونا نذهب (مرة أخرى!) إلى مشروعنا. فبعد كل شيء، هذا ليس إلا نهاية جزءنا الأول. ها هي ذروة في الأحداث لن تضر. لوحة صغيرة حية، مميزة للبطلة، طالما لا تزال على قيد الحياة، في قمة الرفاهية، ولا تتشك في حدوث الكارثة التي ستلحق بها.

سنجدها حيث تركناها.

من جديد، نحوم حول قطعة الأرض الواقعة ما بين شجر الصفصاف وشجر الكنداد، والجداول والطرق الترابية. ها هو الأسطول الصغير من البالونات قد اختفى في الهواء، ذاهباً إلى مناطق أخرى. والآن السماء فارغة، زرقاء دون أي بقعة. ها هي مظلات وناموسيات نهاية الصيف السخية.

ها هي هنا، راكعة على الأرض، في ثوبها للسباحة، مع غطاء رأس بسيط على شعرها، تفتش في مطبخ حديقتها، بجوار كوخها الشهير تماماً والذي بني بناءً على خططها وتحت إشراف أفراد العائلة والأصدقاء، الذين كان لديهم الكثير من وقت الفراغ، وكانت مقاومتهم قليلة للغاية أمام ابتزازها المادي والمعنوي. "هل أتيت لتقدم يد المساعدة؟ لقد أتى الآخرون أيضاً، كما تعلم. ثم يكون هناك حفل شواء من الساتاي [17] والجمبري المتبل بالزيت والثوم. لكن لا، هذه الأسس يجب أن تكون أعمق! أنا أعرف ذلك جيداً، على أي حال؟ من هي ابنة المقاول، أنت أم أنا؟".

---

17) مشويات على الطريقة الإندونسية (لحم أو دجاج).

إنها تقوم بأعمال البستنة، مركزة كالعادة، دون أن ترفع عينيها. يأخذ روجيها غفوة على كرسي في منتصف العشب تحت مظلة بلاستيكية حمراء كبيرة. من راديو ترانزستور بجانبه على طاولة صغيرة، تخرج موسيقى البيل كانتو الإيطالية الجميلة، تتخللها نتائج مباريات كرة القدم والأخبار حول مربي الحمام الزاجل والمراكب النهرية. كان ينام بلا أي انقطاع، بلا أي شيء مزعج.

كان ذلك في أحد أيام الآحاد المشمسة في شهر سبتمبر، في النصف الثاني من القرن العشرين. يجب أن تكون في الستينات من عمرها. خمس سنوات أقل أو أكثر. لا يهم ذلك.

إنها هي. صنعت فقط بلغتي ولكن مازالت كما هي. كانت تقوم محصولها عن طريق الحفر بيدها العارية في الجدران الصغيرة المصنوعة من هذا الرمل، الذي يجعل منطقتنا الأم ملائمة للغاية لزراعة الهليون، ليس أكثر من ذلك، بالإضافة إلى البطاطا الحلوة.

إنها تقطع الهليون، النحيلة والشاحبة مثل أصابع عازف البيانو الميت، بعد طقوس راسخة، رقيقة تماماً، بمنتهى التأني، فهي ليست في عجلة من أمرها. تغرز يدها أولاً في التربة عن طريق دفع يدها من خلال شق صغير، أو فتحة على شكل حلمة صغيرة أرجوانية الشكل تعلو ساق الهليون، الذي ينتظر، أبيض كالحليب، في أرضنا البائسة. تبحث بيدها في الحفرة بعناية، تغلق عينيها لزيادة حساسية لمسها من خلال القضاء على المنبهات البصرية.

يبدو أولاً أنها لا تجد ما تبحث عنه.

تحفر أعمق وأعمق. للحظة، يمكن للمرء أن يخشى من أن يختفي ذراعها بالكامل داخل الحفرة حتى الإبط، كما لو كانت الأرض بقرة حامل وهي طبيب بيطري، عندما تمر يدها، تعيد بعض الأعضاء والأجهزة إلى مكانها الطبيعي، وذلك لأن النظام والرعاية مهمان في كل مكان، وحتى في أحشاء الأرض. لكن لا، إنها مازالت تهاجم

بسكين المطبخ، إرث بمقبضه العظمي وشفرته المشحذة التي أصبحت رقيقة كالورقة وحوافها على شكل نصف القمر. "(إنها قطعاً: في يوم من الأيام، سوف تكسر هذا السكين إلى نصفين على ساق ليس أكثر سمكاً من إصبع طفل)". عندما انتهت، كان العرق يتدفق بغزارة تحت غطاء رأسها. تمسحه، وهي تنهض بوجه ملطخ بظلال من التربة الرقيقة ومن الرائحة الحلوة المريرة لحصادها. كان ما حصدته موضوعاً إلى جوارها على قطعة من صحيفة قديمة. كانت تقول قاطعة: "حسنا، هذه هي القطوف الأولي، لا زالت نحيلة ومليئة بالخيوط. قد يستغرق الأمر لسنوات حتى تستطيع منافسة هليون ميشيلين[18]، الذي يعد الأفضل في كل أنحاء العالم، فنحن يجب أن نعترف أن الهولنديين والإسبانيين، لديهم قدر الرمال الذين يريدونه، ولكن... لكن هذا، هنا، كما ترون. لا يوجد هنا إلا ما يكفي بالكاد لصنع قدر صغير من الحساء. مع القليل من مرق الدجاج، البقدونس الطازج ورشة من القشدة. يوجد الكثير من المطاعم التي لا يمكن أن تعثر على مثل هذه الوجبة في قوائمها للطعام. أو لا يوجد سوى الحساء المعلب". هي تقول باستهزاء: "يمكنهم دائماً محاولة وضعي في علبة. لكن، أن أقدم الحساء المعلب، أنا، لا يمكن أبداً".

تلمع عيناها بروح قتالية من فكرة أنها سوف تعد هذا المساء حساءها الطازج، الذي سوف تقدمه ظهر الغد. ومع ذلك، تطلق أنيناً في كل مرة تنهض فيها، واضعة نصف يد على فخدها ونصف اليد الأخرى على ظهرها: "اللعنة. لم أعد أستطيع حتى النهوض. هذا الظهر. هذا الظهر. منذ عشرين عاماً، كان علي أن أكون على كرسي متحرك. ولكن إذا سارت الامور بشكل جيد، فإن هذا لن يستمر طويلاً". غير مدركة للسخرية المريرة لهذا التنبؤ.

لم يكن مرضها شيئاً وهمياً. فمنذ ولادتها، كان عمودها الفقري من أسفل الظهر وحتى الرقبة يعاني من تقوس على شكل حرف إس (S) والذي يصبح أسوأ بمرور السنين. لقد جعل هذا جسدها ينكمش أسرع من كبار السن وهي لا زالت صغيرة.

18) مدينة في بلجيكا.

ثمة تموجات يلتف حولها منحنى حرف أس (S) حول إحدى الكليتين بينما يهدد الآخر لوح الكتف في الجانب المقابل. "إذا تعثرت في أي وقت على سلم، فإن المكان بأكمله سوف ينفجر" (كانت تقول هذا، بفخر غريب).

لإنقاذ جسدها، كان ينبغي عليها ألا ترفع شيئاً أو أن تعمل وهي تميل إلى الأمام. "إذا كان علي أن أستمع إلى هذا، لكنت طريحة الفراش منذ سنوات، مشلولة من الرأس إلى أخمص القدمين. علي أن أعمل وأن أعمل مرة أخرى. هذا ما علي أن أقوله" (كانت تقول هذا بمنتهي الاعتزاز والتمرد). "فقط بهذه الطريقة تكون العضلات قوية بما فيه الكفاية لدعم الخراب، حتى لو كانت تتصدع في كل مكان". ماذا علي الآن؟، تنحني هي على ركبتيها لانتزاع الحشائش الضارة. وأيضاً، هي لا زالت على ركبتيها لتقطف زهور الرودوديندرون، مركزة وثابتة كما لو كانت تصلي.

سوف تركع في العشب بعد ذلك بقليل، مع ملعقة وجرة مليئة بمسحوق أزرق. العلاج الذي قدمه لها صانع الأحذية الحدباء لم يعمل: "ادفعي زجاجة في الحفرة، تكوني قد كسرتها من الأعلي ومن الأسفل، وستملأ الرياح النظام بأكمله من ممرات تحت الأرض بهسهسة مرعبة". لقد عادت الوحوش القذرة لتفسد العشب. يجب أن يتوقف هذا.

مرة واحدة وإلى الأبد.

لقد حفرت، وفتحت أول حفرة، وصبت بمنتهى العناية ملعقة بداخل الحفرة من مسحوقها الأزرق. على بعد أمتار قليلة من هذا، يتقلب روجيها مرة أخرى في نومه، يتنهد من الراحة، يشخر تحت ظل المظلة البلاستيكية. بعد ظهر يوم الأحد، هو الوقت الوحيد الذي ينعم فيه بالراحة. مازالت السماء زرقاء وصافية ومازال الراديو يبث موسيقى البيل كانتو والأخبار. هل سيصبح إف سي بيفيرين بطلاً هذا العام؟ لا شيء وكل شيء في وقت واحد.

وكل هذا الكلام الفارغ. بالنسبة لمربي الحمام: "بسبب الضباب في سان كوينتين،

أقل من عشرين متراً من وضوح الرؤية. أنا أعلم أنني لا أستطيع أن أسألك عن ذلك، يا بني، ولكن كيف تسير الأمور مع كتابك؟" سان كوينتين: النقالات تنتظر. لم يعد الهروب ممكناً. سد هاستير: 15 عارضة معدنية إلى الأعلى. "في المؤخرة. هو، هو، هو". احذف، امسح، إلى نهر النسيان. في سنت بافز فايف[19]: 13 عارضة معدنية إلى الأسفل. على ضفاف نهر شيلدت. مخبأة جيداً وسط الأعشاب والمستنقعات. هيا، استمر، مرة أخرى. السماء زرقاء. العالم عملاق. الحياة أيضاً.

لا ليس نحن.

حسناً، هذا يكفي.

فلنبدأ.

---

19) منطقة في فلاندر الغربية، مقاطعة بلجيكية تقع في شرق بلجيكا.

هي

(أو: الإصابة بفقدان القدرة على الكلام)

في اليوم الذي طرق فيه القدر الباب، كانا يشاهدان معا نهاية نشرة الأخبار المصورة في التلفاز ويتناولان البيتزا. هي وهو، خوسيه وروجيه، جنباً إلى جنب، مع كوب من النبيذ الأحمر، بالإضافة أيضاً إلى سلطة خضراء مكونة من بصل طازج وشرائح من الطماطم والخيار المبشور، وقد تم رش كل هذا الخليط بصوص الخل والبقدونس المفروم، فقد كانت تقول: "لأننا نأكل فقط قطعة بيتزا صغيرة، يجب ألا ننسى الفيتامينات، وبالتأكيد ليس في عمرنا، وخصوصاً في عز فصل الخريف.. روجيك! أخفض صوت التلفاز قليلاً. لا يمكننا سماع بعضنا البعض في ظل هذا الصوت العالي! علاوة على ذلك، أن التلفاز يعرض مرة أخرى نتائج كرة القدم. سوف تحفظها قريباً عن ظهر قلب".

دائماً كلمات من هذه النوعية.

المناشف المصنوعة من الحرير بسيطة ولكنها غير قابلة للتدمير، لقد جعلتها مرات الغسيل التي لا تعد ولا تحصى، ناعمة مثل ملابس نوم الأطفال. السكاكين، التي يعود تاريخها إلى تاريخ زواجهما، وهي من المعدن المطلي بالفضة، تم تنظيفها مؤخراً. تلمع الأكمام المخملية المنقوشة بشكل لم يسبق له مثيل، حيث أنها كانت تقول مشددة:"ليس لأننا في الثمانينيات علينا أن نهمل أنفسنا. فإن أسلوب الحياة والهندام والحفاظ على الأناقة يكمن في الرغبة وفي استمرار الرغبة. يدين الإنسان لنفسه بكل شيء، سواء كان خيراً أو شراً".

مخلصين لهذا الشعار، كانا يحلان معا صباح كل يوم لعبة الكلمات المتقاطعة في

جريدتهما اليومية المفضلة، هيت لاتستيه نيوس[20]، لشحذ الذاكرة وتنشيط الذهن. في حالة عدم الاتفاق، نلجأ إلى قاموس فان دايل الكبير لإنقاذ الموقف. بالنسبة إلى المسلسلات الإنجليزية والأفلام الفرنسية، كانت تلجأ دائماً إلى قواميسها، التي لا تزال مكتوبة بالتهجئة القديمة. كانت أغلفة القواميس الأمامية والخلفية مهترئة، قامت بإصلاحها بشريط عازل أسود كانت قد أخذته من مهندس الديكور في المسرح.

وأيضاً، لأنه من الضروري حماية الجسم من التآكل، فبعد حل الكلمات المتقاطعة، يستلقيان معاً، بجانب الطاولة، على السجادة الفارسية لممارسة تمارين البطن.

"كم عدد المرات المتبقي لنا؟" (كانت هذه من المرات النادرة التي يتذمر فيها).

(هي غير مبالية): "اصمت واستمر".

كانت هذه صورتهما كل صباح.

لقد حل المساء الآن وهما يتناولان قطعة البيتزا الخاصة بهما. كما هو الحال في كل ليلة، تخرج الكئوس الكريستالية من خزانة الخزف، حيث تتربع على العرش أجمل قطعهما إلى جانب أغلى الحلي والتحف التي يمتلكانها وكلها مرصوصة على ثلاثة أو أربعة أرفف زجاجية. وكذلك يوجد سرب من سمك الزينة من سلالة واحدة في حوض للسمك ممتليء بالماء بنفسجي اللون، بينما البابين والجانبين في الخزانة العالية الضيقة من الزجاج أرجوانية اللون.

كانت بلتكنات الستائر ترسم شبكة. كان الزجاج من نفس النوع، مع تموجات بصرية، هنا وهناك على شكل فقاعات غير ملونة، مثل زجاج الباب أمام النافذة الصغيرة التي تفضي إلى الشرفة، على جانب الشارع. نعم، بالطبع، الشرفة كلمة كبيرة. سطح صغير من الزنك، أصيصين للزرع، درابزين من الحديد المطاوع يشغل ربع دائرة. يحتوي باب الشرفة على نفس البلاط الصغير ذي الإطار الرصاصي، بنفس الحجم تماماً، مثل أبواب النافذة الصغيرة. فرصة غامضة أو غبية، لأنه كان لابد من وضع

---

20) الكلمة بالهولندية تعنى آخر الأخبار.

الباب هناك قبل أن تأتي ديكا ليزا للعيش هنا، وذلك قبل وقت طويل من شراء هذه النافذة الشهيرة، وتم وضعها في الشقة، حيث عاشت طالما كانا يملكان محل الجزارة.

لقد مرت الآن ما يقرب من عشرين عاما منذ أن أنهيا نشاطهما. "لا يمكنك تخيل [هي، هي، هي] والسنوات تمر بسرعة، عندما لا يكون لديك ما تفعله إلا الاهتمام بنفسك. ولكن، كيف يتم ذلك في الوقت المناسب؟ مع هذا المتجر؟ وخمسة أطفال؟ كانت فرصة أنه في الوقت نفسه لم يكن لدي الوقت للتفكير في الأمر. وكان لي المسرح الخاص بي. وهذا الكوخ الصغير. ربما، كنت قد تركت كل شيء هنا وذهبت للعيش كمتشردة تحت جسر في باريس، ربما لكنت تحررت من كل شيء، الصعاليك والزبائن. تنبيه: إن الأمر ليس سيئاً بالنسبة لي، إذا تصرفت كمتشردة. عندما نفعل شيئاً، يجب علينا القيام به بشكل جيد. حتى الهيام على الوجه أو التسول".

فرنسا بشكل عام لا تعجبها كثيراً، لكن في الدرج الأعلى لكل شيء تحبّه هناك باريس، ورمزها إديث بياف. "ما هذه الحياة التي كان يجب أن تعيشها، هذه المرأة الصغيرة الجميلة! لكن هذا الصوت، هذا الصوت! [هي، بين الاشمئزاز والنشوة] لقد غنت حتى سقطت ميتة. إن هذا ما يطلق عليه الفن العظيم. كان هناك رمز فرنسي آخر يتحرك دائماً أمام عينيها. في الممر الضيق الذي يفضي إلى غرفتهم، كانت معلقة نسخة من الجبس من قناع الموت للمرأة الغريقة السعيدة.

امرأة مجهولة تم العثور على جثتها قبل نصف قرن في نهر السين، كانت ميتة بالفعل، لكنك، كنت تستطيع أن تلمح على وجهها ابتسامة تنم عن منتهى الهناء، كالعذارء بعدما تحصل على أول ترضية جنسية لها. في جيل أمي، كانت هذه الصورة شائعة. كانت معلقة لدى معظم أخواتها وبناتهن. امرأة، ميتة غير معروفة لأحد، تتحدى الموت عشرة آلاف مرة على جدران الشقق الفلمنكية. مبتسمة إلى الأبد، على الرغم من لون ورق الحائط أو حتى شكل الزهور المرسومة عليه.

نعود إلى غرفة المعيشة مرة أخرى، لنجدهما هو وهي يضعان شريحة أخرى من البيتزا في طبقهما. فقط الزجاج الملون، في النافذة الصغيرة وفي باب الشرفة، هو الذي يعطي للديكور بعض الانسجام. لا يمكن قول الشيء نفسه عن بقية الملحقات، وخاصة الأثاث. كانت الانتقائية في دائرة الضوء، كما في كل مكان في بلجيكا، من الهندسة المعمارية إلى الدستور، من الأثاث البرجوازي إلى الأخلاق. سوف يطلق أحدهما على ذلك اسم الفوضى، بينما يرى آخر أن هذا هو منتهى الليبرالية، بينما يرى ثالث أن هذا ليس سوى خردة وأشياء غير مهمة. عند باب الشرفة، يهدئ الزجاج أرجواني اللون من حدة أشعة الشمس المحرقة. عند النافذة الصغيرة، يهدئ من كافة الأضواء بمنتهى البساطة. تقول الشائعات أن التعرض للكثير من الضوء هو كارثي بالنسبة للتماثيل المصنوعة من البورسلين، "للأواني"، كما يقولون هنا - خاصة بالنسبة للخزف الفرنسي، الطين الأبيض المكرر، المناسب "بشكل جيد للغاية"، لتقديم الوجوه الضعيفة، الأيدي الصغيرة مع الأظافر النحيلة الجميلة والجواهر، وأقل طيات من القماش القطني. ولكن هذا "هش للغاية" لأنه لن يتم وضعه في الفرن سوى مرة واحدة فقط."أيدهشك ذلك؟" (تقول هي مستهزئة)، أنت تعرف جيداً كيف هم الفرنسيون؟ غير موهوبين لكي يعملوا كما ينبغي. إنهم حتى هناك يتخلصون من الأتربة بريشة في اليد. حتى يقال على أي عمل غير متقن، أنه قد تم بالطريقة الفرنسية (لقد بدأت المعركة الفرنسية للتو).

كل من يلقي نظرة على هذه الغرفة لن يشعر أن العمل المنتهي نصف متقن على الإطلاق وأن الغبار له أدنى فرصة هنا على الانتشار. على الرغم من أنه من الواضح أن جميع "التماثيل" الصغيرة المصنوعة من الخزف لا يحق لها الحصول على الحماية نفسها. على كل ركن من أركان خزانة الملابس، على حافة كل نافذة وكل طاولة، يوجد على الأقل واحد يلمع تماماً تحت الأضواء، وغالباً ما يكون محاطاً بحليات خزفية أخرى، أو بأطباق فاكهة مع أو من دون فاكهة، بمزهريات مع أو من دون زهور، هدايا تذكارية على ورق مهترئ، صور في إطارات مختلفة الحجم، منافض السجائر من جميع الأشكال والألوان، النباتات المصغرة أو الصبار في مجموعة كبيرة من أواني الزهور التي تتراوح بين الدلفت الأزرق[21] إلى الخزف الأصلي من كولونيا. هناك أيضاً ورقة بردي محفوظة في كيس بلاستيك، هدية من أحد السائحين العائدين من مصر.

المدفأة مزينة بمجموعة من ثلاث قطع، مع التذهيب والرتوش، كتقاليد القرن الثامن عشر، التي تحتوي على العنصر المركزي، كعكة الكريمة المتحجرة، التي تحمل ساعة دائرية، وعين عملاق بعدسة واحدة والتي يمكن فتحها لضبط البندول بمفتاح لعبة. يمكننا أن ندير المفتاح في أي اتجاه والأبر الصغيرة الرفيعة لن تتحرك، فالنابض الداخلي قد حطم منذ عقود. الجزءان الآخران من هذا الثلاثي، رجل نبيل (على اليمين) وسيدة جميلة (على اليسار)، كل منهما يخرجان من شجرة، هما في الواقع مزهريات لا يجرؤ أحد على استخدامها، كي لا تنقلب كل الأجزاء إلى الأمام وتسقط من رف المدفأة على سخان الغاز الذي يشبه موقد مسدود بالجص مع مادة نحاسية.

إذا كنت تريد أن ترى خوسيه فيربيك في غضب شديد، مع إنها تعرف جيداً أنك فقط تغيظها، يكفي فقط أن تدخل غرفة معيشتها وتتنهد وتلقي نظرة على الأشياء المتراكمة لسنوات كأنك في سوق البرغوث:"أين بندقيتي؟ فأنت تشعر كأنك في غرفة تقف أمام مكان لإطلاق النار في مولد شعبي. وأنا لا أعتقد أنني سأحصل على ما يكفي من مائتي رصاصة صغيرة".

21) نوع من أنواع الخزف الذي يصنع في هولندا.

يمكن أن تقول الشيء نفسه على غرفة نومها، إذا سمحت لك هي بالدخول، وإذا لم تفعل هي ذلك عن طيب خاطر، فيجب عليك أن تحافظ على بعض من الآداب العامة والإتيكيت، الذي يعني هنا بعض الخصوصية. تقول هي مستاءة: "يجب الاحتفاظ بكل ما كان موجوداً قبل الاحتلال وعدم التخلص منه. لقد دمر الألمان الكثير من الأشياء، أكثر بكثير من زيلزات وزيبروغ[22] أو سينما ريكس في أنتويرب، بقنبلة طائرة، الجبناء. بعدهم، لم تكن الأخلاق حميدة كما كانت من قبل. وأصبح لدى عائلتنا الملكية أقل من ذلك بكثير".

تم وضع كل هذه الأشياء المثيرة للاهتمام على مناديل مطرزة أو مفارش دانتيل، ومعظمها مستدير الشكل وليس أكبر من حجم كوب البيرة. لكن بعض الأجسام الثمينة تم جمعها على أكبر مفرش على شكل بيضاوي ومنقوش بشكل تيجان على الجوانب. تم ترتيب التماثيل هنا لتشكيل صورة لمجموعة غاية في الغرابة. ثمة تمثال لراقصة باليه من البورسلين من طراز ما قبل الحرب العالمية الأولى تشبك يديها تحت ذقنها وترفع قدماً مدببة بشكل مائل بجوار صورة التقطت من مشرحة لمورد لحم خنزير مدخن كانت دراجته سحقت الشهر الماضي بحافلة في المدينة.

"هذا الرجل، كان قد أخذ للتو معاشه، (تقول هي بمنتهى الحزن). كما كانت دراجته جديدة تماماً. نحن بالفعل لسنا بالشيء الكبير". بجانب مورد اللحوم اللذيذة المتوفى موخراً، يقف غير مبالٍ، الصياد الصغير المصنوع من الخشب، على حد ما على شكل مكعب، هذا التمثال الذي جلبته هي بنفسها من اليابان. كانت هذه الرحلة الأكثر بعداً التي أقدمت عليها ممثلة المسرح والحياة المجتمعية، بفضل مشروع تبادل بين الاتحاد الفلمنكي لمسرح الهواة الكاثوليكي ونظيره الشنتو، على الأرجح في أرض الشمس المشرقة.

أهم ما يميز هذه المجموعة هي خزانة أدراجها الكبيرة، أحد الأشياء التي تحتل ركناً بأكمله، ذات شكل مسطح يبلغ طولها ثلاثة أمتار تقريباً، مع ستة أبواب مربعة

22) مدن في بلجيكا.

الشكل وذات ميزة أساسية هي المتانة. أخوها الأكبر، المهندس المعماري، هو الذي صممها ونفذها قبل زفافهما مباشرة، في السنة ما قبل الأخيرة للحرب، عندما كان البلوط باهظ الثمن ويكاد يكون من المستحيل العثور عليه. أحد الأبواب الصغيرة الستة كان مجهزا بقفل، كان مغلقاً دائماً أثناء فترة شبابي. وراء خشب البلوط الضخم هذا، كانت تختبيء الخمور الأغلى سعراً والكثير من أسرارهما الصغيرة.

كنت أعرف كيف أحصل على المفتاح وقد انتهزت المناسبات النادرة التي أتيحت لي عندما كانا يخرجان لسهرة ملكية في دار العمدة أو في الحفلة السنوية لأفراد الطبقة الوسطى المسيحيين، كنت متأكداً في هذه الأوقات، أنهما سوف يقضيان طوال الليل بالخارج. "على الرغم من كل شيء، كل نفس لديها الفرصة لوضع قدمها الصغيرة بالخارج. ويمكن أن تقوم هذه القدم الصغيرة بخطوة كبيرة للغاية" (تقول هي ذلك بمنتهى الحكمة والثقة في النفس).

"لا شيء أفضل بعد ليلة من الرقص والمرح من وجبة فطور دسمة: بيض مقلي مع لحم الخنزير المقدد، بسكويت بالزبدة لا زال ساخناً، من الخباز في الجهة المقابلة، وكوبين كبيرين من القهوة.

وبعد ذلك، نتحلى بالشجاعة ونتشبث بها بكلتا أيدينا، ونفتح محل الجزارة ونحاول إبقاء عيوننا مفتوحة حتى لحظة غلق المحل في الليل".

كانت المرات القليلة التي خرجا فيها كافيةً بالنسبة لي لقضاء الليلة بلا نوم، في مشاهدة حلقات تفصل بينها فترة ربما تقدر بنصف سنة مثل حلقات ترك فروت (الفاكهة التركية) ليان وولكرز أو بروميه جونجرين (الغجر الأوائل) لجيف جيرايرتس أو في قراءة الكتب الجريئة التي سمعت عنها الكثير، لكن ليس من قبل والدي، ومع ذلك فهما يحتفظان بها في خزانتهما السرية. لم أقم بلمس أيٍ من الأوراق الأخرى، بما في ذلك عقد زواجهما، جوازات السفر الخاصة بهما، وسجل نقدي مكتوب باليد به الكثير من الشطب والإضافات. يجب ألا تعرف كل شيء عن والديك.

مازلت لم أقل حتى الآن، عن أهم قطعة في المجموعة كلها، والتي كانت قد وضعت في وسط المنضدة الطويلة تماماً. تمثال صغير، أيضا من الخزف، ولكن هذه المرة على شكل قط نائم. العائلة المقدسة الملونة بظلال الباستيل. مريم، يوسف، وصغيرهما مع حمامة على كتفه، تنظر حولها كأنها تشعر بالذنب. "كن حذراً (تقول هي بمنتهى الجدية) لا تدع أي شخص يأخذ هذا التمثال إذا حدث شيء ما لنا. إنه إرث من جدتك. لقد نجا هذا التمثال من رحلة الهروب من فلاندرز الغربية في آخر هجوم كبير بالغاز، عندما اضطر جدك وجدتك، إلى الرحيل بأقصى سرعة مع عربتهما، وحصانهما، خادمهما، طفلهما وطفلتهما، ولم يستطيعا إلا حمل جزء قليل للغاية من ممتلكاتهما وكان هذا التمثال من ضمن هذا الجزء. إنها معجزة أنه لم يتم كسره طول الطريق مع هذا التدفق من اللاجئين المجانين، فقد تم سحق الكثير من الحيوانات والناس طوال هذه الرحلة! إنه أكبر وأقدم من أبيك، لأنه ولد بعد وصولهما هنا في شارع فيرمورجين. إذا كنت لا تجد أنه جميل، يمكنك التخلص منه، فأنا شخصياً لست مجنونة به. لكن لا تدع أحداً يأخذه منك. فهو لك".

تقف الشخصيات على قاعدة خشبية بيضاوية، تحت جرس من الزجاج يحميها من الغبار. وفي الأسفل بطبيعة الحال قاعدة خشبية أكبر، مفرش مصنوع من دانتيل "بروج" هذه المرة. فيما بعد، عندما تفرق شملهما بعد عام واحد، فذهب هو إلى غرفته الكبيرة للغاية في دار المسنين، وذهبت هي إلى مؤسستها المخصصة لاستقبال الحالات الإنسانية الحرجة، كانا يتحدثان عن المفرش الدانتيل والجرس الزجاجي أكثر من العائلة المقدسة.

لقد انتهيا تقريباً من البيتزا والسلطة اللتين تم مضغهما بشكل جيد، وهما الآن يستمعان إلى تنبؤات الطقس التي يقدمها لهما مقدمهما المفضل من الأرصاد الجوية، الشخص الذي لديه الشارب الكبير. هذا يعطينا الفرصة لرؤية بقية المشهد قبل أن تأتي اللحظة القاتلة. فالديكور هنا هو نصف القصة. ثريا بثلاثة أذرع. كل ذراع ذهبي يصنع منحنىً أنيقا ينتهي بزهرة زجاجية غير لامعة، في قلبها مصباح. هذه الأذرع

مثبتة بالخارج بحلقة، ذهبية أيضاً. في منتصف الحلقة، كأس زجاجي متلألئ رشيق، الجانب المقعر منه إلى الأعلى. وفي الأسفل، في منتصف هذه الكأس، معلق زائدة مذهبة تشبه طرف خوذة ألمانية في الحرب العالمية الأولى، لكنها مقلوبة، باتجاه طاولة الصالة المستديرة. هذه الطاولة التي يرتكز زجاجها على قاع خيزران مضفر ستكون واحدة من ممتلكات والدي القليلة التي ستتبعه في الانتقال إلى غرفته الكبيرة في دار المسنين. على الجدران يتم عرض القطع الضخمة فقط، باستثناء ساعة الحائط، وحوضين جافين للماء المقدس وفوق كل حوض، معلق فرع من السعف المجفف. فوق المدفأة، ثمة مرآة ذات حواف مشطوفة في إطار فخم، ذهبية أيضاً وعالية وعريضة تقريباً مثل المدفأة. على الجدار المقابل: سجادة منسوجة آلياً، فيها شخصان من أواخر العصور الوسطى يجريان في الغابة، وكل منهما يحمل صقراً على كفه، دون أن يريا خلفهما الأرانب البرية والغزلان الكثيرة التي تتبعهما بعيون دهشة. السجادة نصف مخبأة بأريكة ذات مقعدين، قطعة أثاث جميلة مع أقدام صغيرة من الخشب المطلي بالأبيض، مساند ذراع متموجة وحليات في طلاء مذهّب، والأريكة مغطاة بقماش مخملي أخضر اللون، في نهايته، توجد دبابيس من نحاس. الوسائد من نفس القماش المخملي الأخضر، وعلى الجزء الأعلى من ظهر الأريكة، حيث يمكن أن يستند أفراد العائلة، الأصدقاء والغرباء، هناك مرة أخرى مجموعة من المفارش. "لحماية وساداتي (تقول، باشمئزاز). لا يمكنك معرفة كل الأشياء اللعينة التي يضعها الناس في شعورهم اليوم. سأكون سعيدة حقاً، إذا غسلوها".

فوق خزانة الملابس هذه التي صممها شقيقها، معلقة لوحة لأختها الكبرى ماريا الفنانة، التي عاشت لسنوات قليلة على مقربة من هنا. "لا يجب أن تخبر أحداً بذلك (تقول هي بإحراج طفيف)، لكنني أرى دائماً أن خالتك ماريا أكثر موهبة من خالك. كان لدى ماريا يد ذهبية، كل شيء رسمته كان على قيد الحياة، أما هو فكان عليه أن يتعرق ويموت للحصول على نصف تلك النتيجة. لقد رأيناه يقسم أمام لوحاتها

الزيتية، أنها ساحرة للغاية وطبيعية للغاية. كان عليه، أن يكون رساماً للمباني، أما بالنسبة للباقي، فلم يفعل الكثير. ومع ذلك، كان هو السبب في أنها قد توقفت أيضاً. آه، إذا كانت هذه الفتاة قد استمرت في الرسم! لم تحصل على أي دعم، بالإضافة إلى أنه يجب أن يقال إنه في ذلك الوقت لم يكن شائعاً، أن تعمل امرأة في مجال الفنون الجميلة. ماریاتنا، كان بإمكانها غزو العالم. والآن، تم إيداع هذه الفتاة المسكينة في مؤسسة، فهي لم تعد تعرف ماذا فعلت أو أكلت أمس، وبالكاد تتعرف على أطفالها، أما لوحاتها، فلم تعد تتعرف عليها على الاطلاق. إذا أصبحتُ في يوم من الأيام هكذا، سيكون عليك إطلاق النار علي فوراً. ليس من الشفقة أن تترك شخصاً كهذا على قيد الحياة، هذا هو منتهى الجبن".

عمل ماريا الفنانة، موضوع فوق الخزانة ذات الأدارج الطويلة، وهو نسخة من رؤوس الزنوج لروبنز. أربعة مرات، نفس الأفريقي ولحية صغيرة وعقد "مرسوم من زوايا مختلفة" كما هو موضح في الكتالوجات. نموذج أسود، روح هائمة من القرن السابع عشر، قد تجده حكيماً في الشرق أو عبد على العديد من اللوحات الأخرى للسيد، والذي، بفضل الخالة ماريا، يصبح ينظر إلي في فترة شبابي، من زوايا مختلفة. في الواقع، عندما اضطررت إلى إصدار الأحكام على كل المتعلقات، التي كانت موجودة في الشقة المهجورة، كنت أشعر أن زوج العيون لازال يحدق في ظهري. فقد تم توجيه اتهامات كثيرة لي من قبل هذا القاضي المستقيل منذ ستة عشر مائة وبضعة سنوات.

(يصفر المشتري بإعجاب). "ليس سيئاً لأحد الهواة". لكنه أخبرني أنه كان يشتريها لأحد الموظفين الإداريين الكبار. رصين، عمل حرفي، زخارف جميلة).

فقط فوق خزانة الخزف، أخيراً، في موضع في منتهى الجرأة، وذلك بسبب فقط الوزن الهائل لإطارها الخشبي المزخرف: تأتي الجوهرة التصويرية للمكان. لوحة عتيقة على مساحة متر مربع على الأقل، ربما طبعت في بداية القرن العشرين، في استوديو روبنز. في اللوحة، الفنان يرسم ويشرح، ويقف أمام حامله، في مواجهة نموذجه،

امرأة بيضاء ترتدي قبعة من الريش. وهما محاطين بالزوار وتغطي الجدران التحف الفنية الشهيرة. "سنظل نقاتل للحصول عليها، هذه اللوحة هناك! (تقول هي بمنتهى الفخر). كان يجب أن يتم اتخاذ هذه اللوحة من أجل معرض يقام في متحف البلدية خلال الاحتفال بعام روبنز. لكن لم يكن لديهم مساحة كافية لها".

(قام دار روبنز، الذي اتصلنا به من خلال البريد الإلكتروني وقد أرفقنا الصورة في الرسالة، بشكرنا على اقتراحنا لهذه الهدية الكريمة. عرض مشتري رؤوس الزنوج ثمناً مثيرا للسخرية لهذا الغرض. بقيت اللوحة ملكاً للعائلة).

انتهت الوجبة المسائية، وتكدست الأطباق مع أدوات المائدة أعلى المنضدة، مستعدة لنقلها إلى المطبخ. تخفي أمي فمها بيدها، وهذا مجرد عادة وليس اضطرارا، فهي تقوم بتنظيف طاقم أسنانها بخلة الأسنان. "خلة أسنان مناسبة (فهي تحب أن تعلم حتى في التفاصيل). مجوفة، لها طرفان مدببان، مغلفة بورق أبيض شفاف، توضع في أنبوب على شكل ريش الدجاج أو أشواك القنفذ، هكذا يصنع الناس بأنفسهم خلة الأسنان في هذا الوقت". في التلفاز، تعلن المذيعة برنامج السهرة.

أما هو، فقد نهض، فتح باب الشرفة وسلم نفسه إلى خطيئته الصغيرة، أحد عيوبه النادرة. الفضول وحب الاستطلاع. في متجره، كان يتجرأ ويحرج زبائنه ويبدأ في استجوابهم دون تمييز، الأطفال مثل النساء العانسات، الأرامل والعاطلين عن العمل. كان لا يتجنب أي موضوع. الطلاق، المشاجرات، القيل والقال والإشاعات. يظل هكذا، حتى تصفر له خوسيه بزاوية فمها، وتضربه في قدمه، بشكل غير مرئي من تحت طاولة البيع، ليعود إلى رشده. "ما الذي لا تزال تفعله، روجر؟ (تهمس بذلك، وفي الوقت نفسه، تعطي إيماءة ودية برأسها إلى العميلة). إنك ترغم هذه المسكينة على الكلام. أنت شرلوك هولمز حقيقي، أنت".

يخرج رأسه الفضولي من الشرفة. هناك ريح، وهناك رذاذ، ولقد حل المساء، هذه ليست دعوة للنزهة أبداً. تقترب ساعة الذروة من نهايتها، عدا حول مفترق

الطرق الذي يعتبر منزلهما أحد أركانه، فعلى الرغم من وجود المتاجر في وسط المدينة وجميع محلات السوبر ماركت في المنطقة، إلا أن عدداً من المتاجر الصغيرة لا تزال تحقق نجاحاً جيداً لأنها كونت في حد ذاتها مركز تسوق صغير. خباز بجانب بقال وبائع جرائد، تبعد قليلاً الصيدلية وبائع الزهور، في الجهة المقابلة، تاجر لأقفاص وأكل العصافير وإكسسوارات الكلاب، عند الزاوية محل لتجارة الأسمنت والطوب، وإلى جانبه، يوجد محل الجزارة. نعم، لم يعد تحت شقتهما. فقد قام المستأجر السابق، دون سابق إنذار وبمجرد أن انتهى عقد الإيجار، بفتح محل جزارة بعلامة تجارية جديدة في منزل عادي على الجانب الآخر من الشارع.

في البداية، أصيب والداي بالغضب واليأس، ثم أصبحا ممتنان له. أصبح متجرهما القديم أحد عوامل الجذب التي تفيد الحي بأكمله. كما أنه موقع ممتاز لمثل هذه التجارة، في الزاوية وعلى أقدم طريق يؤدي إلى أنتويرب. في الواقع، إنه شيء مفقود دائماً. مطعم صغير للنقانق والمقليات هنا.

"روجيك! (تقول هي غاضبة) أغلق هذا الباب قليلاً. ثمة تيار هواء مجنون هنا". هذه هي الكلمات الأخيرة التي تنطق بها باللغة التي يعرفها.

"إنهم ينتظرون في الخارج مرة أخرى"، يقول ذلك مازحاً وهو يغلق الباب ويضع في الأسفل الاسطوانة المضادة لتيارات الهواء. "إنه الشيء نفسه كل ليلة في هذا الوقت. تأتي السيارات لتقف الواحدة تلو الأخرى أو تبقى في منتصف الشارع تومض مصابيحها الأربعة. وإذا نظرتِ في الأكياس البلاستيكية التي معهم، سترين أنهم لم يشتروا سوى البطاطس المقلية. بعضهم قد اشترى نصف دجاجة والبعض الآخر اشترى النقانق، أو ماذا نسمي هذا الآن؟ فنحن نبيع في هذه المطاعم الصغيرة كل شيء من البيرة المعلبة والمثلجات إلى السجائر". التفت ناحيتها متفاجئاً بما يحدث.

كانت نظرتها لا يمكن التعرف عليها. فارغة، ميتة، باردة. يبدو أنها تحدق في شيء ما خلفه. شفتاها تنفرجان ثم تنقبضان، تنفرجان ثم تنقبضان. كما لو أنها تستعد لكي

تبصق شيئاً سميكاً. يتدفق اللعاب من فمها. تسقط أول قطرة من ذقنها إلى ركبتيها. لم تكن معها المنشفة الخاصة بها. يداها كانتا ترتعشان فوق المنضدة.

ناداها: "خوسيه"، كان لا يعرف ماذا يفعل، ثم تقدم خطوة واحدة تجاهها. هناك شيء ما خاطيء"؟

وعلى الرغم مما كان يحدث، تنظر إليه بكلتا عينيها.

نظرتها لم تتغير.

ظلا ينظران إلى بعضهما البعض لبضع ثوانٍ. ثم أمسكت به من رقبته. وبصوت لا يشبه صوتها. أطلقت صرخة مليئة بالاشمئزاز والغضب المحموم.

أبداً لم يشهد أحد، لا من العائلة أو من الجيران، والداي يتشاجران أو يتجادلان بصوت عالٍ، كان أبناؤهما وأحفادهما يعرفون ذلك جيداً. ورغم ذلك، كان يمكن أن تتشاجر خوسيه بأعلى صوت مع كل الناس إذا لزم الأمر، ضابط الشرطة، مخرج، شريك في العمل، أحد الأبناء أو الأحفاد. ما عدا معه. فهو لم يبد أي مقاومة. فقد كان يفضل أن يترك العاصفة تمر من فوق رأسه حتى يهدأ الطرف الآخر في نهاية المطاف.

فالغضب لم يكن مناسباً بالنسبة له. كان ببساطة، غير مؤهل لذلك. استياء، غضب، خيبة أمل، كان يتحمل كل هذه الامور بمنتهى السلبية، مع كرامة مجروحة يمكن أن تجدها عند أرستقراطي قديم، سجين بريء أو ممثل شعب مضطهد. كان هناك شيء بسيط للغاية يصل إلى درجة التسامح والسذاجة يسيطر عليه. لم يكن يحب على الإطلاق الصخب والمشاكل، الأصوات الحادة والعنيفة والعداوات. في بعض الأحيان، كنا نخشى ألا يجد مكاناً له في هذا العالم الممتلئ بالحيوانات المفترسة آكلة اللحوم. كان يحض على التصالح بنظرة عتاب وديعة، يليها تنهد عميق وإيماءة من رأسه المستديرة.

ثم، بعد ذلك، كان يبتعد ويذهب إلى متجره يحشو النقانق أو يجوب الأرض، حتى تمر العاصفة ويهدأ الجميع.

أفترض أن التصالح الحقيقي بينهما كان يتم في السرير. من خلال المناقشة وأمور أخرى. فقط وراء الباب المغلق لغرفة نوم الوالدين، العاطفة كانت أكثر سطوة من الغضب. وقد ولد أول أبناؤهما في نفس العام، في أواخر الحرب العالمية الثانية، الأول في شهر يناير، والثاني في شهر ديسمبر. "لطالما أردناه حقاً (هو مع عيون ضاحكة صغيرة). أنت تعرف أن هذا قد تم لأننا ما زلنا شباباً"! "لقد قرأنا في مكان ما (تقول هي غير مبالية)، أن هذا ليس خطراً طالما قمت بارضاع الطفل من ثديي. ومع ذلك، أصبحنا أكثر حذراً بعد طفلنا الثاني".

في الوقت المناسب، تغتنم الفرصة للانتقام على أساس تكافؤ الفرص. فهي تنتهز فرصة وجودهما خارج المنزل، للعب الورق عند بعض الأصدقاء أويتسكعان بعد بروفة المسرح، بغض النظر، ها هو يشرب كثيراً ويبدأ في وصلة الفكاهة. يبدأ في إلقاء النكات البذيئة، دائماً هي هي ولنفس الأشخاص، فهذا يعد علامة من روتينه اليومي وراء طاولة البيع. الفرق هذه المرة، أنه بعدما انتهى من وصلة الفكاهة الخاصة، سمح لنفسه بأن يغمز غمزة كبيرة لأجمل امرأة في الجمع، بعد والدتي بطبيعة الحال.

كانت في هذا الوقت تقول بمنتهى العزم والإصرار أنه قد حان الوقت للعودة إلى المنزل. يجيبها بشكل قاطع أكثر وأكثر، أنه قد انتهى من مشروبه الأخير. في النهاية، كانت هي تضطر إلى الركوب خلف عجلة قيادة السيارة، وهي التى كانت تفيقه وتخرجه من سكره عند وصولهما إلى المنزل. كانت تفعل ذلك فقط، حتى لا يرى الزبائن والجيران زوجها على هذه الحال، التي نسميها لدينا "نصف عقد زواجها". وإلا لكانت تركته بكل سعادة في سيارته فوكسهول كريستا حتى الصباح الباكر، رأسه مقلوبة، وفمه مفتوح ويشخر بصوت عالٍ. لكنه كان مضطراً إلى قضاء بقية الليل في الطابق السفلي على الأريكة. وبالمثل في الليلة التالية، وفي الليلة الثالثة. طوال هذا الوقت، كانت بالكاد تتحدث معه. ما الذي كان يزعجها أكثر؟ لم يكن واضحاً. هل كان ذلك بسبب عرضه الكوميدي الذي قدمه أو لأنه كان يخالفها ويزعجها على الملأ، إني أسألكم عن هذا بالفعل. لذلك تركته يعمل بمفرده لساعات في متجره.

إذا كان هناك بالفعل عدد كبير من الناس، في أوقات الذروة في فترة الظهيرة أو في وقت متأخر من بعد الظهر، عندما تتدفق ربات البيوت نافذات الصبر وعمال مصانع الملابس في المنطقة سريعوا الغضب، أو إذا كان أولئك الذين ينتظرون في الصف، قد بدأوا في السعال وفي التململ كجمهور المسرح، في وقت طويل للتغيير، يأتي إلى غرفة المعيشة، متوتراً وتائباً ومتوسلاً لكي تأتي وتساعده. "الناس لا يفهمون ما يحدث. يسألون الآخرين من بعدك".

ودون الإجابة، ظاهرياً، تستمر في تقليم أظافرها، في تشذيب حواجبها أو في قراءة صفحة الوفيات في الجريدة للمرة العاشرة. لمدة ربع ساعة، تترك زوجها وزبائنها ينتظرون طويلاً وهم يشعرون بالتذمر، ثم تدخل فجأة إلى مكانها خلف طاولة البيع. مع ابتسامة فولاذية وصوت حجري.

بعد ثلاثة أيام من التكفير عن الذنب، تتنازل أخيراً وتستمع له. إن جلسة المحكمة تعد لا شيء بجانب هذا. هي: الأيدي مربعة، الشفاه مشدودة، النظرة قاتلة، تلين أبطأ من ذوبان الثلج في الثلاجة. هو: متوسل بتواضع، مدافع، يعد بطبيعة الحال أن هذا لن يحدث مجدداً، قائلاً عددا من الكلمات أكثر بكثير مما يستخدمه في يومه المعتاد. في مجمله، يعد هذا مشهداً مثيراً للسخرية، لا علاقة له بجسامة خطأه مطلقاً كما إنه انتقام غير مناسب فى الساحة المنزلية.

ربما يكون هذا المشهد جزء من المداعبات والتمهيد لما سيحدث بعد ذلك. في تلك الليلة، سنذهب للنوم مبكراً، ليس فقط بسبب الأطفال.

بعيداً عن هذا الطقس النادر، كان سرعان ما يعود إلى السكر، وهي كانت تسامحه بالكاد، وبعيداً عن قصصهم اليومية والمشاكل التافهة التي كانت تحدث بينهما، لم يبد لي أي مشهد يدل على وجود توتر عنيف في علاقتهما. تظل الأطباق سليمة، الأكواب سليمة والأصوات منخفضة. في بعض الأحيان، كنا نعتقد أن الأمر يمكن أن يصل بينهما إلى حد الاشتباك بالأيدى، ولكن هذا لم يحدث قط. فهي لم تكن تسمح بذلك وهو

كان يحاول بقدر الإمكان ألا يفكر في الأمر. قد يجعلنا نضحك، عندما، كان يأمرنا، في حالات نادرة وفي أغلب الأحيان بتحريض من زوجته، كعقوبة تربوية، بتقليد القرود، وفي الحقيقة، لم يكن شيئاً غريباً في هذه الأسرة المكونة من سبعة أشخاص، وكلهم محشورون في منزل ضيق للغاية. ومع ذلك، كنا نراه نحن كالقرد.

لاحتواء غضبه وتحويله إلى أمر منذر، كان عليه أن يستخدم كل قوته، ليكون ضد طبيعته السلمية بشكل غريب. كان قادراً على قطع رأس طير بدم بارد، وبضربة حادة من يده كان يكسر عنق أرنب ويعلقه وتكون رأسه متدلية للأسفل بكل لامبالاة، كما كان يمكنه أن يسلخ الأرنب ويقطعه إلى أربعة أمام زبائنه وهو يتحدث عن سوء الأحوال الجوية في الربيع هذا العام. في متجره للجزارة، كان لا شيء يهزه، لا الصرخات الأخيرة الذي يطلقها خنزير من الألم، ولا صوت قعقعة السلاسل التي يرفعون بها ثورا ميتاً بالكاد، وعليه أن يقطعه من الحلق إلى الفخذ. أما معنا، فكان عليه أن يبدي بعضا من العنف. كان عليه أن يظهر أن له بعض السلطة الجسدية حيال مراهق وقح، وفي الوقت نفسه، هو طفله الخاص.

كان يصلب كتفيه ويرفعهما لدرجة أن رقبته كانت تختفي، كان يدفع رأسه المرتجفة إلى الخلف، كنت ترى عبوسه فيما حول رموشه وحاجبيه، وخصوصاً إذا ضغط بلسانه بقوة ضد شفته السفلية فتفتح هذه الشفة ويظهر اللسان الوردي خلفها: كان هذا ما نفعله، إذا أردنا تقليد قرد. فيما عدا أننا أيضاً كنا نقوم بثني ركبنا والتأرجح والقفز في دوائر مع وضع الأيدي تحت الإبطين لدينا وإصدار الأصوات المنبعثة من الغابات البكر.

شمبانزي. هكذا، كنا نرى أبي وهو في قمة غضبه. وفي الحقيقة، كان غضب غير قابل للتصديق بالنسبة لنا. والصفعة القاسية التي كانت تلي ذلك، كانت غير كافية لردعنا ولا تقضي على مرحنا بشكل قاطع.

فقط ولمرة واحدة، تحول هذا المرح إلى دهشة وخوف من حدوث أضرار. بين

الأطفال الخمسة كان جاي الأوسط، وكان أيضاً الأجمل، الأكثر ممارسة للرياضة وأيضاً الأكثر صعوبة في التعامل، كان معشوق كافة الفتيات الصغيرات في الحي وكل ناديه، اكسلسيور لكرة القدم، كان أحد مشجعي فريق البيتلز منذ البداية، ومن ثم عشق الشعر الطويل فوق الأذنين. فلمرة أخرى، أظهر الجانب الأكثر تمرداً داخله.

لم يكن يحتاج الكثير لكي يتمرد.

لقد احتج على منعه من الحصول على مصروف جيبه بسبب درجاته الدراسية المتدنية. رفض الاعتراف بأن علبة السجائر التي تم العثور عليها في حقيبته، كانت تخصه. أنكر بمنتهى الوقاحة، أنه قد شارك في عراك في المدرسة أو أنه أزعج أخته الصغيرة، الهوايتين المفضلتين لديه. وكان يرفض باستمرار أن يكون له دور، مثل الجميع، في أنشطة المتجر. على العكس من ذلك، كان يطالب بحقه في الاستيلاء على الراديو الترانزستور من نوع شواب لورينز الجديد، لكي يجلس به بالخارج على حافة شرفة الحمام، مقصورته التشريفية أمام مشهد الشارع، حيث يشاهد من هذا المكان، الحياة المفعمة بالأحداث للمدينة عند الغسق، أحدث طرازات السيارات والجمال الأنثوي النادرة ويصفر من المتعة، كما كان يفعل عمال النسيج، الذين يكونون في أحيان كثيرة، أكبر منه بقليل.

لم يكن أخي هو الشخص الوحيد الذي يحب أن يتأمل الأحوال في الشارع في نهاية يوم العمل في الحي. فقد وضعت العديد من ربات البيوت إلى جانب بابهن المفتوح كرسياً على الرصيف، مستنداً إلى الحائط، وكن يحدقن في الشارع بأذرع مطوية أو يقمن بأعمال الحياكة بمنتهى السلام، وبعضهن كن يحتسين كأساً من ترابيست، وكلهن كن يدردشن بلا انقطاع. كن يذهبن بعض الأحيان من جانب إلى آخر، واضعات اليد على الفم كمكبر الصوت عند مرور حافلة أو شاحنة. لدينا، لم تكن الشائعات يهمس بها وإنما كانت تقال بصوت مسموع للغاية.

في غضون ذلك، كانت المصانع تخلو ممن يعملون بها في عرض موسيقي فوضوي،

دون وجود مخرج. مستنفدون، بزيهم الأرزق، العمال، متجهمون أو على العكس، مبتهجون ومتحمسون، يغادرون مصانع الغزل، ورش تجميع الخيوط، الصباغة، النسيج، وجميع أماكن الحياكة الوطنية، فخر وثروة المدينة الصناعية في ازدهار متأخر. في الواقع، بكل صراحة ووضوح، يبين عمال النسيج أنهم أقل وعياً وعلماً بهذا: من دونهم، لن يكون هناك ازدهار في حياة رؤسائهم وبالتالي، يجب ألا ندفعهم كثيراً حتى لا ينفجرون في إضرابات عشوائية. في الحقيقة، هؤلاء العمال يشكلون الجزء الأكثر فظاظة من بين زبائننا.

كانوا يصنعون الكثير من الضجيج عند توقف الحافلة أو عندما يبتعدون، أو كانوا يلوحون ببطء على دراجات قديمة بلا أضواء، تقريبا كلهم يدخنون مثل الأتراك، كلهم تقريبا لديهم حقيبة بالية تحتوي على صندوق غداء أفرغ اليوم، ترمس فارغ، زجاجتين أو ثلاث من البيرة، فارغة أيضاً.

يمر بهم الموظفون دون إلقاء أي تحية، يسارعون في الخطى، يسرحون في أبراجهم العاجية، الرجال يرتدون القمصان مع قبعة ومناديل والنساء يرتدن التايرات والكعوب العالية. في بعض الأحيان، عند عبور الشارع، تتأرجح كعوبهن على الأرصفة غير المتساوية، فيفقدن تعجرفهن في الوقت نفسه مع توازنهن. كان هذا يضحك ربات البيوت وكذلك العمال الذين يكسبون رزقهم في ورش النسيج وتجميع الخيوط، حيث يكون العمل أكثر دقة ويكون الراتب أعلى أحياناً من رواتب رجالهن في الفروع الأخرى. كانت حالات الطلاق شائعة، مما زاد من سمعة عدم التدين في المدينة الشابة. كن يسرن دائماً في مجموعات، في معاطفهن ذات اللون الأزرق الفاتح، كن أكثر الأفواه الثرثارة في مصانع النسيج، كن مثيرات للاستفزاز مثل زملائهن الرجال، والذين كن يجبنهم بصوت التيك التاك من كعوبهن بشكل مبتذل، ما لم يكن هن من يبدأن بالصياح والصفير بمجرد أن يمر رجل وسيم. بعضٌ من هؤلاء النسوة كن يدخلن بأقصى سرعة إلى متجرنا لإجراء آخر عملية شراء، لشريحة لحم يعددنها في المساء أو لأي شيء يمكن أن يملأ صناديقهن للغداء في اليوم التالي.

عند مرورهن، كن يحييهن أخي. كان يعرف معظمهن بالاسم. كانت كل هذه النسوة يعرفنه. واحدة منهن تقرصه فى خده. وأخرى تقدم له سيجارة. يرفض وهو يحمر خجلاً. ولكن، عندما كان ينظر لها في عينيها بمنتهى الجرأة. كنت ترى كازنوافا في طور التعليم.

رفض أن يكون الترس في آلة الأعمال العائلية. وذلك، لأن هناك دائما آلة التقطيع أوكومة من الأطباق التي تحتوي على الدماء والتي يجب غسلها، أوهناك كوركيت البطاطس، الجبنة أو الجمبري، التي يجب لفها باليد على الطريقة القديمة وخبزها مرتين، أو هناك توصيل للمنازل حتى بالنسبة لمائتي غرام من لحم الخنزير بالعظم أو شرائح لحم الحصان المدخنة، والتي يجب أن يقوم به أحد أبناء المنزل على دراجة قبل الذهاب إلى المدرسة، في حي بعيد إذا لزم الأمر (لأنها دائماً ما كانت تلوح بأجندة المواعيد) "يجب أن نفرح في كل مرة يكون لدينا عميل جديد"، "لا أحد أقل أو أكثر منا"، "أمام طاولة البيع، كلهم متساوون". رفض جاي، والذي يمكن أن يعد قطعٌ للانسجام الأساسي في الطبقة الوسطى، كان من أهم أسباب توبيخه. ما لم يشفع له أيضاً، أنه كان يقف في الحراسة في الخارج، كان بالفعل الأكثر شعبية ولكن في الدائرة الحميمة، كان في معظم الاوقات، شخص لا يطاق. كان دائماً ما يبحث عنها، ليستفزها! كان من الضروري تقديم مثال لتفادي خطر ثورة عائلية معممة.

الاستيلاء على الردايو الترانزستور من ماركة شواب لورينز، كان يمكن، أن تفعل ذلك بنفسها. ولكن كل ما في الأمر، أنها كانت تعتقد أنه من الأفضل أن تدار الشؤون العائلية من قبل شخصية الأب.

كل العيون مثبتة عليه، الأب في مئزر الجزار ويجر قدميه من ناحية، وابن متمرد لم يعد يريد ارتداء السراويل القصيرة لمدة شهر، إلا في ملعب كرة القدم من ناحية أخرى. في دائرة السباحة في واسلاند، كان أيضاً بطل، والأمل الكبير في الحصول على الميداليات. خلال المسابقات في حمام سباحة البلدية، في هذا الجو من الأصوات

المدوية والصاخبة وروائح الكلور النافذة، يردد اسم "جاي" قبل إشارة البدء، لتحفيز وتخويف المنافسين.

"أخبر والدتك بأنك نادم"، يقول الأب مستاءاً أكثر منه غاضباً. "لا أعرف لماذا"، يجيبه الابن وهو ينظر لها، بعنادها وبجمالها. وبكلامها، فإنه يضيف كل هذه الأمور في مرافعة، في مرافعة أكثر منه اتهام ضد هذا الظلم البيِّن الواقع عليه في هذه البيئة المحبطة. لم تكن تترك له الوقت الكافي لكي يتدرب. لا ينبغي لأحد في فصله أن يغسل الأطباق بقدر ما يفعل. كان زملائه يسخرون منه، لأنه قبل أن يذهب إلى المدرسة، كان عليه أن يحمل رطلا من النقانق إلى "واحدة أو أخرى من هؤلاء النساء العجائز"، واللاتي فوق كل شيء، كن يداعبن شعره، عندما يسلمهن البضاعة. هنا في هذا المنزل، في هذه العائلة وفي هذه التجارة، كنا نسيء معاملته، كنا نستغله، كنا نعتبره مجرد موظف صغير. علاوة على ذلك، يجب أن نزيد من مصروف جيبه أو عليهم بالفعل، أن يوظفوا خادما حقيقيا.

في الوقت نفسه، أصبحت أمي أكثر تهاوناً، أصبحت تبقى في السرير فترة أطول من زوجها، تأخذ كل وقتها لتناول الإفطار قبل أن تأتي وتساعد في المتجر. وكانت تهدر وقتها مع وحشها المسرحي، فلم يعد قادرا على أن يذهب إلى تدريب السباحة أو تدريب كرة القدم.

هذا هو مربط الفرس. سخط الجزار الوديع والحليم يتحول إلى غضب حقيقي. تتسع عيناه، نعم، ها هو لسانه السميك وردي اللون، يظهر ويدفع شفته السفلى، وجهه يلتوي ويصبح قرمزياً، قناع المصارع الشرقي في تناقض مذهل مع المئزر الأبيض. ها هي الصفعة تأتي. أكثر عنفاً من أي وقت مضى.

هذا هو السبب في أن الجزار لا يثق في يديها المرتجفتين والمعتادة على استخدام السكين. وبالتالي، بحث عن شيء رمزي، لكنه بريء، شيء قادر على تحييد العنف

بمحتواه المثير للسخرية ووجد طبقاً. ليس حتى بكبير. طبق صغير للحلوى. للإستخدام العادي. بحافة متموجة. طبق من النوعية التي نأكل فيها "الأرز باللبن". حان الوقت لإطلاق النار على رأس ابنه، واستعاد ما يكفي من السيطرة على غضبه إن الأمر لم يتعد ضربة خفيفة أو تلويح بالإصبع بالمعنى الاستعاري. عقوبة تذل أكثر من أن تعنف ويرجع ذلك إلى تفاهة الشيء الذي يحمله.

ومع ذلك، فقد انكسر طبق الحلوى إلى نصفين تماماً وأدى ذلك إلى حالة من الخوف الشديد بشكل عام. سقط نصف منهما منقسماً إلى ألف قطعة على أرضية ورشة العمل.

للحظة، متحدين بدهشة، الأب والطفل يتأملان في نصف الطبق المتبقي في يد الأب الضارب. ثم يرفع الابن يده ويضعها على رأسه وهو يصرخ بأعلى صوت، ركبتاه تخونانه، يئن، ينظر حوله مثل الخروف على طاولة الذبح ناعتاً أبيه بالمجرم.

وتجدر الإشارة في الحال إلى أن الأب المكلوم قد عانى من سوء حظ بعد ذلك في الإمساك بالطبق الذي انكسر إلى نصفين قبل ذلك بقليل، وإنها، الأم المقتصدة في الأسرة حاولت إصلاحه باستخدام الغراء والذي أثبت عجزه في مواجهة الماء الساخن. (فقالت ساخطة): "هذا النوع ليس حقا غراءً لكل الأشياء، كما يعدون". وبعد ذلك بدأ صغار العصافير الآخرين يسخرون لما يفعله ذلك الصغير النائح منضمين لأبيهم وتاريكين ذلك الهزلي الكوميدي. على المدى الطويل، قررت هي أن تضع الحادثة طي النسيان، آمرة الابن بالتوقف عن الأنين والتقاط الشظايا، الأمر الذي لن يمنع، متمرد المولد هذا، من الاستمرار لفترة من الوقت في التذمر والشكوى من الصداع والعنف الأبوي. بالموهبة المسرحية أيضاً، هو ابن أمه.

بعد سن البلوغ العاصف والزواج غير الغائم، عاد مطلقاً ومسالماً، ليتصالح معها. إيطالي بالغ يعيد اكتشاف الماما، ويميز فجأة ما بينها وبينه من روابط أكثر من الاختلافات. في المدينة التي سيعيش فيها، على بعد سبعين كيلومتراً، سيصعد أيضاً

على خشبة مسارح الهواة، في أدوار البطولة. فيما عدا ذلك، بقي كما هو منذ ذلك الوقت، مشع، يشاهد العالم يقترب منه، يجلس على عتبة النافذة من الحمام والرادايو الترانزستور من ماركة شواب لورينز إلى جانبه وموسيقى الستينيات حوله وفي رأسه. زير نساء، كثير الهزار، ساعٍ وراء المتعة، دي جي حتى يوم وفاته. في يوم، في الصباح الباكر، غفا على عجلة سيارته الهوندا سيفيك، انحرف، ابتعد عن الطريق واصطدم بشجرة. كسر في الرقبة، النهاية.

بالكاد، اثنان وثلاثون عاماً.

بعيداً عن طبق الحلوى الصغير، لم تستخدم أدوات المائدة في أي مناوشة في منزل الزوجين لانوي. حتى هذه الأمسية الشهيرة. كان كلاهما، قد بلغ الثمانين من العمر، بعد وجبة عشاء بسيطة مكونة من البيتزا، أمسكته من رقبته. دون سابق إنذار، الرغوة في الفم، كانت تصرخ بلغة غير مفهومة.

الآن حان دور طبقين وكوبين من الكريستال. ها هي تسقط من المنضدة وتداس بالأقدام في المواجهة المأساوية ما بين المحبين الأبديين.

إذا استطاع على الأقل فهم ما كانت تقوله، لكان استطاع فهم ما يحدث لها. لكنها، تتقيأ فيضا لا يمكن كبته من الأصوات المتشنجة، قطع من الصوت الخام، من الانفجارات المفاجئة تليها صرخات طويلة، نحيب عنيف، لسان تجري عليه القصص والكلمات غير المفهومة مع الصفير، كل هذا ممتزج داخل خليط بربري لا يوصلنا لشيء. تشعر حيال الأمر أنك أمام لغة جديدة تماماً، وضعت هي للتو مفرداتها وقواعدها، دون أن تدرك ألّا أحد آخر يمارس لغة الجحيم هذه.

ممارستها تمثل وجودا ديماجوجي[23] لمواجهة ذروة الغضب. صوتها حاد يدل على شعورها بالإجبار، بالألم، صوت مستعد للانكسار، ووجهها شاحب، محموم ومغمور بالعرق. من الواضح أنها تشعر بألم شديد، لكنها تواصل بعناد خطابها المهدد. كانت

23) بمعنى استغلال الناس عاطفيا لتحقيق هدف ما.

تلوح بإصابع الاتهام لزوجها، كما لو كان قد ارتكب خطأ أمام عينيها. ولكنه، كان لا يفهمها، فيزيد ذلك من غضبها. وكلما توسل وطلب توضيحاً، بدا أنها تفهم أقل لغة زوجها.

فيزيدها ذلك غضباً على غضب.

فما عليها إلا أن تقفز وتمسكه من رقبته، وهي مستمرة في صراخها ورطانتها المسعورة. يحاول أن يحرر نفسه منها دون أن يؤذيها، ولكنها تتمسك به أكثر، ساخطة، تمسك به من يده، وكلما قاومها أكثر، زاد زئيرها وصراخها العالي. فينتهي بهما الحال، ملتحمين، غير قابلين للانفصال، متشابكين في رقصة تانجو خانقة وبشعة. كلبين بعد محاولة تزاوج فاشلة، وواحد منهما يحاول تمزيق الآخر.

ملتحمين في حضنهما البشع، يرقصان الفالس بكل ما أوتيا من عنف أولاً ضد جزء من دولاب الخزف، ثم ضد حوضهم الأرجواني المليء بأسماك الزينة الهشة. كل أنواع الأشياء تتكسر في الداخل. بعد ذلك، اصطدمٌ بكل ألم لطاولة غرفة الطعام - قطعة أثاث متينة صممها أيضاً أخوها الأكبر، المهندس المعماري. خلال السنة الأخيرة من الحرب - كانا ينامان كل ليلة بين القدمين الهائلتين لهذه الطاولة، تحت هذه اللوحة المطمئنة السميكة للغاية. قاما تحت هذه الطاولة بصنع سرير يومي مع وسائد وبطاطين ملفوفة، ملجأ مؤقت في الأسفل، من البلوط والصوف، في هذا المكان، أرضعت أول طفل لها، وكان هذا المكان يجمع بينها وبين زوجها، الذي كان لا يهمها أن ينام فوق أو تحت الطاولة، المهم أن يكون بالقرب منها. حتى أن زوجها، قد وجد الأمر ممتعا ومثيرا، ها هما كل يوم يصنعان سماء جديدة لسريرهما تحت الطاولة. ولا شك أن طفلهما الثاني قد صمم تحت هذه الطاولة.

في الصباح لم تكن تحب أن تترك هذا العش الآمن. "وإذا كنت قد استمعت، (بعد مرور عدة عقود، وفي كل فرصة) كنا سنبقى بشكل دائم تحت طاولتنا، وحتى بعد فترة طويلة من التحرير (تقول هي ذلك، مستخدمة هذا التدفق الرائع وغير

المتقطع من الكلمات الرنانة والدقيقة في الأيام الخوالي، اللغة الشاعرية التي أتقنتها لسنوات وسنوات، لغتها قبل هذه الأمسية القاتلة، لغة نفسي من قبل، المصدر الأقدم، لغتي الأم، الحمض النووي اللفظي كان هي، هي، هي). كنت أود العيش تحت هذه الطاولة حتى الإجلاء التام للألمان. كنت هنا أقوم بغسل الغسيل، بغسل المواعين بالإضافة إلى الطبخ، فلقد كنت أخاف حقا من القنابل الطائرة. كنت أستطيع أن أرى بأم عيني الخراب الذي كانت تخلفه. لكن حذار، نحن نسمعها قادمة. من بعيد. صوت طقطقة، مثل دراجة نارية في شارع مهجور. وطالما سمعنا ذلك، كان كل شيء آمناً، ولكن الويل عندما يتوقف ذلك! أولاً، هناك هذا الصمت المطبق الذي يدفعك إلى الجنون، ثم أسوأ من ذلك، الأزيز الذي يرتفع صوته أكثر وأكثر، كان ذلك مثل التدمير الذي تستسلم له المنازل، صوت صليب يسقط على مدرسة، على شارع، على حي وحتى على مدينة بأكملها، إذا كانت هذه المدينة لازالت موجودة. في شارع غاسو متر، شخص ما سقط في منتصف الليل. عشرات من بيوت العمال، لم يتبق منها سوى جبال من الأنقاض، المليئة بالجرحى الذين يئنون والجثث التي سحقت. رأيت على الرصيف أمامي قدماً صغيرةً لامرأة ممزقة، دون حذاء، بجانب يد رجل يرتدي دبلة الزواج، كانا ينتظران بجانب الجثث التي كانا ينتميان إليها، على افتراض أنها وجدت في هذه الخرائب. كنت أنظر إلى تلك القدم الصغيرة الوردية بجانب تلك اليد بدبلة الزواج وأفكر: ماذا لو سقطت قنبلة على كوخنا؟ حسناً، لم نكن في أي مكان أفضل من تحت طاولتنا. البلوط الفلمنكي الصلب! سطح سميك مزدوج! حتى لو سقطت خمسة طوابق على رؤوسنا، سنبقى على قيد الحياة رغم كل شيء، سنكون آمنين إلى الأبد".

الآن الزوجان العجوزان، المتحدين في رقصة موتهما القاتلة، يسقطان بكل ثقلهما عليها. تهتز الطاولة إلى حد ما. ولكن في المعركة، الأطباق وكؤوس النبيذ هي التي تم اجتياحها. لقد تفجرت إلى قطع سحقت تحت النعال والشباشب. ضوضاء قشعرت النخاع العظمي. ضوضاء لم نسمع بها هنا أبداً.

أخذ يتوسل لخوسيه لكي تتوقف. تأوه، وطلب منها تفسيرا. أخيراً، سجين بين ذراعيها، يفعل ما تكره في رجل طوال حياتها. بكى. تدفعه بقوة فولاذية، بقوة جامحة لأولئك الكيانات خارجها، تشتمه بلا انقطاع بلهجتها الجهنمية، التي لا يزال لا يفهم كلمة واحدة منها، ولكن كان من السهل عليه أن يشعر فيها بكل وزن الاتهام: أنه لم يعد يهتم بها، أنه يخونها، ويعذبها بسبب عدم فهمه، بأفعاله، وحتى بوجوده.

فجأة هدأت. كان هذا الهدوء غير متوقع مثل الانفجار الذي حدث في الوقت السابق. صمت مقلق، مشؤوم. تجلس، نظرتها ثابتة مرة أخرى، تلهث من الألم، تمضغ شيئا ما وهميا، تكاد لا ترى زوجها أو تشعر بوجوده، لا تول اهتماماً للأطباق والكئوس المكسورة، مشهد، كان سيصدمها حقاً في حالتها الطبيعية.

استغل هذا الهدوء الغريب للاتصال بابنهما البكر، دون أن تراه. وتكلم معه همساً، حتى لا يثير غضبها هذا بلا كلمات مرة أخرى.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها استدعاء أحد الأبناء الكبار لحل أزمة منزلية حادة. كانت أحدث هذه الأزمات، هي التي حدثت بسبب حادث تراجيدي كوميدي قد وقع في حمامهما الصغير، الضيق للغاية.

ومع ذلك فقد حذرهم الجميع في ذلك الوقت.

عندما حان الوقت للتقاعد وتسليم المجزرة، وفي ظل الدهشة الكبيرة من قبل الأصدقاء والمعارف، لم يذهبا للعيش في دار واسعة مريحة، تديره إحدى شركات التأمين الصحي أو في شقة أكبر مع مصعد واحد على الأقل وحديقة. بغض النظر عن عدد الناس الذين عقدوا المجالس والمفاوضات مع الزوجين، إلا أن الجميع سكتوا بعد ذلك حيال الصمت الحزين لروجيه، والذي اقتصر اعتراضه كالعادة في تنهيدة، ثم رفع للأكتاف و"حسنا، ما الذي تغير؟" إن خوسيه، لا تضعف روحها المعنوية أبدا: لم يكن بوسعهما أن يقضيا أيام شيخوختهما أفضل من هنا، في هذا الحي المعروف، في ركن

الشارع المألوف هذا وفي هذا الطابق، حتى لو كان مسكناً ضيقاً أكثر من المنزل الذي كانت تملكه مؤجرتهما السابقة ديكي ليزا.

كان يصيبها الغضب في كل مرة يصرح فيها شخص، بأنها سوف تلعب نفس الدور الذي كانت تلعبه في السابق ديكا ليزا، دور الراعية والعشيقة لكل من يمر بالطابق الأسفل. لا، لن يكون لهذه المرأة علاقة بها، فهي زوجة صالحة. إنها ليست إلا مالكة العقار فقط.

ربما كان ذلك بالضبط هو الدافع وراء عنادها. انتقام من امرأة ميتة كانت تضايقها كثيراً خلال حياتها، وليس من قبيل المبالغة، يمكننا أن نقول أن ديكا ليزا كانت شخصا مزعجا ومشاكسا. كانت بدينة مثل كتلة من الزبدة وكانت وحيدة، رغم أنها لم تكن تعيش بمفردها. كانت وحدتها في رأسها.

كان جسدها عريضاً أيضاً. بدا وكأنه يريد أن يملأ كل الفراغات، تلك التي في ذهنها وتلك الخاصة بمحيطها. عندما كانت ليزا تجلس على كرسي، كان جلوسها بلا شكل، فائضا ومعلقا حول المقعد.

كان جسم ليزا دليل على رعب الفراغ. كما عانى وجهها من قوانين الجاذبية والميل إلى ملء الفراغ. الشفاه، زوايا الفم، الخدود، الحواجب، الجفون، الدوائر السوداء تحت العينين، فصوص الأذنين، الذقون، كان كل شيء في ليزا غير متناسب ومتشابك ضمنياً. صدرها لم يكن استثناء، بطبيعة الحال.

كانت الشائعات تقول أنها جاءت من عائلة ثرية في بروكسل، كانت قد ابتعدت عنها بسبب الشراب، أو علاقة مخزية مع شاب، أو إدمان القمار، أو مزيج من كل ذلك. أما الشائعات الأكثر لطفاً وكآبة، فكانت تقول بوجود زواج غير سعيد بسبب حالتها ولا شيء أكثر من ذلك. لم أستطع أن أعرف أبداً من كان هذا الرجل العجوز الغامض الذي كان يسكن في شقتها والذي كان يرتدي قميصاً قذراً وبنطلوناً بسوستة تصل إلى مستوى الركبتين. هل كان ذلك العشيق الذي كانت في العلاقة المشينة معه،

أو زوجها من الطبقة العاملة أو مدير الفندق الذي نشأ في حياة ميسورة سابقة ثم أصبح مجنوناً؟ ربما، كان شقيقها أيضاً. لم أكن أعرف أبداً ما إذا كان سيتحدث معها أحياناً أم لا. كانت هناك رائحة قاسية من الكراهية في الهواء، ممزوجة برائحة السيجار باهظ الثمن المدخن منذ مدة طويلة مع غضب متبادل تصاعدت أبخرته حديثاً.

تتمثل ليزا في ذاكرتي كوحش أسطوري برأس امرأة وجسم طائر ومخالب حادة كما في الميثولوجيا اليونانية، لم أتجرأ أبداً على النظر إليها، كانت تخيفني مثل الساحرة التي أراها في كتبي الملونة وفي كوابيسي. حتى الأنف المعوج كان موجوداً. ومع ذلك، متهوراً وميتاً من الفضول، أصر أن أنزلق وراء أمي في كل مرة وهي تصعد الدرج إلى مخبأ ليزا الضيق لكي تدفع لها الإيجار. وذلك، لأن جحيمنا كان موجوداً في الطابق العلوي.

كان الدرج ضيقاً وشديد الانحدار، مع منعطف حاد في المنتصف وفي الجزء العلوي الباب الذي يغلق بالمفتاح. على درجات السلم، كانت هناك سجادة تراكمت عليها الأوساخ منذ سنوات، وبالكاد كانت قضبانها النحاسية تثبتها في مكانها، وهنا وهناك، كانت هناك أجزاء قد انفصلت عنها، كما كانت توجد تمزقات كثيرة بها على شكل عمودي. نظرت أمي إلى السجادة نظرة استنكار كلما صعدت درجة من درجات السلم، بينما تغوص أكثر وأكثر في الظلام، حتى تصل إلى باب ليزا، فتقرع الباب، بصوت أعلى وأعلى، حتى نسمع على الجانب الآخر صوت ترباس يئن ومفتاح يدور في القفل.

ليزا، كانت كما تفعل دائماً، ترتدي الملابس الواسعة ذات اللون الغامق، لم تلق أي تحية، تجر قدميها مرتجفة، حتى تعود إلى كرسيها المعتاد. تترك نفسها تسقط وهي تطلق تنهيدة حادة على كرسيها، أمام طاولتها المغطاة بمواد ترقيع الملابس، أكوام الأوراق، منافض السجائر والأكواب نصف الفارغة. "ما الأمر هذه المرة؟". كانت

تعرف جيداً سبب مجيئنا، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من إزعاج أمي. تجلس هذه الآخيرة على الجانب الآخر من الطاولة، عيونها في عيون ليزا. لم تعدني إلى الطابق أدناه، بل على العكس، سمحت لي بأن أتسلق ركبتيها، ربما على أمل أن تشتت انتباه ليزا بوجه طفل فضولي وقلق.

لكن ليزا واصلت النظر إليها من خلال نظارتها المستديرة بزجاجها السميك والقذر، ورأسها الوحشي الذي تتصارع عليه خصلات شعرها الرمادية وصوتها الحاد كانفجار الزجاج: "اذهبي إلى الجحيم، السيدة لانوي، ماذا تريدين هذه المرة؟".

كانت تتصبب عرقاً ولكن تحاول أن تظهر قوية. كانت تمتلك هذا المنزل بشكل شخصي، وكانت قد سمحت لجزار شاب باستئجار جزء منه، وبالتالي، هي تملك في قبضة يدها مستقبله ومستقبل أسرته، وهي لا تفوت شهراً إلا وهي تهدد بأن قبضتها هذه ستتحول إلى قبضة مدمرة، وهذا ليس إلا لمتعة تدمير رخاء شخص آخر ليس إلا. وكانت تعلن دائماً عن وصول أب غامض تمكن من الحصول على الإجازة المهنية في الجزارة وكان يبحث عن مكان مناسب لبدء مشروعه الخاص. لمصلحة أفراد العائلة، سُمح له بالتخلص من المستأجرين الذين كانوا أجانب بالكامل، بالإيجار أو من دونه. هذا ما يقوله القانون وسنفعل خيراً إذا لم ننس ذلك أبداً. لم يكن من الممكن الاعتماد على أي تساهل. الدم هو الدم. يجب أن يعرف الجزار ذلك، أليس كذلك؟

رفضت دفع أكثر الإصلاحات التي لا غنى عنها، وحاولت رفع سعر الإيجار بشكل تعسفي، واحتفظت بالمبالغ الممنوحة في إطار الضمان بحجة وجود عطل في المياه غير موجود أو إزعاجات تسببت فيها رائحة نفايات اللحم، والتي كانت تصر على رفعها مرتين في الأسبوع في الصيف، على الرغم من أنها كان من الممكن لها أن تتحقق بعينيها من ذلك، لو كانت سحبت نفسها إلى الشرفة الضيقة والتي بالكاد، يمكنها أن تدخل جسدها فيها.

في المرات القليلة التي وقفت فيها، تتأمل شيئاً أو شخصاً ما، كانت مثل ملكة

الحشرات، التي تخرج من مخبأها تحت الأرض، تستنشق الهواء النقي وعينيها تومض في وضح النهار، كان الدرابزين الحديدي المشغول على شكل نصف دائرة يذكرك بأقواس القماش القطني، وهو بالكاد يكفي لاحتواء خصرها وفخذيها. لقد كانت معجزة أن تستطيع أن تستدير لكى تعود وهي تعرج قليلاً.

لقد كذبت حول الجرذان التي قالت أنها تسمعها تحت السقف المعلق تحت سقفها وقد قالت أن الرقابة الصحية من خلال مكالمة هاتفية بسيطة، يمكن أن تأتي وتختم البيت كله بالشمع الأحمر وإنها ستجعلنا نتحمل الخسارة، إذا لزم الأمر من خلال دعوى قضائية. كانت تخترع المشترين الذين يعرضون عليها ثروات لإزالة المنزل واستبداله بمبنى سكني حديث للغاية مع مصفف شعر في الطابق الأرضي، وهي، ديكي ليزا العظيمة، يصبح لديها شقة علوية مشمسة في الطابق الثامن، مع بلكونة رخامية وشرفة واسعة مليئة بالشجيرات والزهور، وها هي، في نهاية المطاف، محتفى بها، مقدرة أخيراً بقيمتها الحقيقية، لم يتم عرقلة رفاهيتها مرة أخرى بسبب الديون المزمنة والمشاجرات العائلية التي لا نهاية لها والأبناء المجرمين والمستأجرين الجاحدين، الذين لا يشكرونها أو يقولون أنهم يدينون بسعادتهم المادية لاهتمامها، لاهتمامها هي فقط، ديكا ليزا. أي بمنتهى البساطة، هي طيبة حقاً ومفيدة للعالم. والدليل على ذلك هو أنها ستقبل مرة أخرى هذا الشهر إيجارنا البائس، وهو مبلغ زهيد للغاية، على مضض بطبيعة الحال، وفي مقابل التوقيع على إيصال كان على والدتي أن تنتظره، وهي غاضبة لوقت طويل، لأن على المؤجر أن يدخل المبلغ أولاً في سجلين نقديين، أحدهما قانوني، والآخر أسود اللون، وبمبلغين مختلفين.

جالساً على ركبتي أمي، كنت أشعر أن جسدها كله يرتجف. ارتجاف شخص يحاول أن يتماسك حتى لا يقفز ويخرج من المعسكر، يطلق صيحة ويهرب. كنت أدرك أن هذا ارتجاف كان ينم عن الشعور بالعجز. أنا أيضاً، كثيراً ما كنت أعاني من ألم مقاومة عدم الانفجار، في وقت الفسحة أو في الطريق إلى المدرسة، عندما كانوا يضايقونني بمقلب ما. كان ضباب أحمر يسقط على عيني والغضب الذي يأخذني

يتحول على الفور إلى أفعال. أحياناً، كنت أدبب بقدمي على الأرض، وأحياناً أصرخ أو أشتم أو تفلت أعصابي دون أى ضبط. طبيعة قابلة للاشتعال وفعل لا ينضب، مرض متوارث في العائلة مثل أي مرض آخر. "عندما يضايقونك، عليك أن تتعلم عدم الإجابة (كانت تقول ذلك بلهجة العليمة بشؤون الحياة). أفضل وسيلة للدفاع هي أن تكظم غيظك، حتى لو كلفك ذلك جهداً كبيراً. من خلال سكوتك، يمكنك أن تزعج من يضايقونك أكثر".

كنت أود أن أصدقها، ولكني رأيتها تضع القليل جداً من نصائحها الجيدة موضع التنفيذ. كانت ترد على الجميع. إن هذا يخرج بشكل طبيعي، كان هذا ينجح وكان هذا يجعلني فخوراً بها. كانت قوية جداً في العراك وتمارس هذه الموهبة ضد أي شخص في أي مكان، في الشارع، في متجرها، وكانت هذه الموهبة تعطيها حرية في مجالس إدارة المسرح البلدي. قلة من الناس هي التي امتلكت قدر ما كان لديها من هذه الموهبة المرتبطة باللسان. ربما، كان هذا ما يصدمني عندما أراها تحاول أن تكبح نفسها وهي ترتجف وأمام من؟ هذه المرأة البشعة، تلك الكرة من شحم الخنزير.

كنت أنظر إليها نظرة تنم عن خيبة الأمل. وهي صامتة كالقبر. كانت حتى لا تنظر إلي. تظل عيونها مثبتة باتجاه مالكتنا. شديدة وواثقة من نفسها، كانت ترفض تهديدات ليزا وتستنكر رائحتها الكريهة باستخدام الدفاع السلبي الأكثر فتكاً بين النساء: التعاطف الذي يتم إظهاره على أوسع نطاق. أما ما كان أكثر إهانة فهو أن يصمت المرء في وقت يجب أن يتحدث فيه، أو أن يبقي رأسه منحنياً بشكل جيد، أو أن نحمل على ركبتينا طفل بريء نداعب شعره من حين لآخر بلا مبالاة، موقف لا ينم عن شيء، لا عن قذف أو عن إهانة، ولكن يمكن أن يفسد مزاجها وابتسامتها.

هيا، يا ليزا، هلمي وأزعجينا، هلمي وحاولي أن تستعرضي مهاراتك أمامنا. وكل ما نفعله نحن، هو أن نعطيك إيماءة لطيفة من رؤوسنا، ولكننا نجدك في حالة يرثى لها.

فقط عندما أغلق الباب خلفنا، سحبتني من يدي كما لو كان علينا فعلاً أن نهرب من الجحيم، جحيم متواضع، وها هي قد بدأت في العودة إلى حالتها الطبيعية. في الدرج الخطير بالفعل، سمعتها تلعن بصوت منخفض، ولكن من كل قلبها. من باب إلى آخر لم يكن هناك أكثر من ثلاثين خطوة، ولكن وقت الوصول آمنين وسالمين إلى متجر الجزارة، أصبح مزاجها الغاضب معتدلا ومتفتحا من جديد. فقط، تذمرت بصوت منخفض، لأن الجدران والأسقف، التي دفعت لها مرة أخرى الكثير من الإيجار، كان لها آذان. ربما كانت ديكا ليزا الآن مستلقية على وجهها في مطبخها الصغير، وكانت أذنها ملتصقة بشمع الأرضية القذر، لا، لم يكن من الضروري أن نعطيها متعة الابتهاج بسخط مستأجريها.

بدلا من المالكة، كان رجلها هو الذي يحصل النقدية.

هي: "إنه أمر لا يمكن تصديقه، إن هذه الكتلة من الدهون لن تكف عن هراءاتها".

هو: "لا تأخذي ذلك على محمل الجد. إنها ليست إلا امرأة عجوز حزينة".

هي:"إنها كلبة سادية عجوز تستحق شقاءها".

هو: "حسناً، لقد انتهى الأمر. ستشعرين بالسكينة لمدة شهر".

هي:"أتريدني أن أخبرك، بالنسبة لي هي تغسل شعرها بشحم الخنزير".

هو: "لقد قلنا أننا لن نقول أشياء سيئة عن الناس".

هي: "لا، لكن هل سمعت ذلك من قبل؟ وأمام من؟ أمام أصغر من لدينا هو الذي لا يزال لديه شعور جيد تجاه العالم".

هو: "لذا اتركيه هنا في المرة القادمة".

هي: "لا، يجب أن يتعلم أن يرى العالم كما هو. أنت أيضاً، يجب أن تصطحبها إلى المجزر".

هو (بتنهيد): "كيف للمجرز أن يكون له علاقة بديكا ليزا؟".

هي: "ليس لها مكان هناك. ألا نستطيع تعليقها على الخطاف رأسها إلى أسفل!".

هو: "لقد قلنا أننا لن نقول أشياء سيئة عن الناس".

هي: "لكن لماذا لا تزال تدافع عنها؟ إنها دائماً نفس الشيء معك. عندما يصبح الأمر مهماً، فأنت تقف مع الجانب الآخر. في هذا المنزل، زوجتك هي التي تفعل كل شيء على الدوام. دائماً، ما تقع كل الأمور علي".

هو (بتنهيد): "هل تريدين مني أن أذهب لأدفع في المرة القادمة؟".

هي: "أنت؟ أنت؟ أنت لست ندا لهذه البقرة الكبيرة، بابتزازها وأنينها. ستقع في فخها. حتى لو ضاعفت قيمة الإيجار، سأراك راكعاً أمامها كما تركع في الكنيسة، لتشكرها على ما تفعله بنا".

أرادت أن تضيف الكثير من الأشياء، لكنه ابتعد بالفعل، يهز رأسه ويتنهد. وصمت بدوره وفاز بدوره. ولكن، كان يرى الأمر يمكن أن يكون أي شي آخر إلا أن يكون نصراً. كان يشعر بالخجل والتعاسة أكثر من الانتصار.

كان الاعتذار في وقت لاحق غير وارد بالنسبة لها. إنها لم تفعل ذلك أبداً. هذا أيضاً، يجب أن يدون، من قبيل الأمانة. خوسيه فيربيك، كانت تملك لساناً جيداً، ولكن، إذا أصبح الأمر يتعلق بالاعتذار، فإنها تعتمد على قوة الصمت التكتيكي. إن العمل الشاق في محل الجزارة مع مضي الوقت من شأنه بطبيعة الحال أن يجعله يغفر لها.

وبالفعل، كان زوجها من السهل التلاعب به من قبل زوجته. كان ذلك يتم بمنتهى السعادة، فهي تقوده إلى التصالح دون كلام، والغفران من دون اعتراف. كان يعلم، أو يشعر أن ندمها كان صادقاً. كان هذا كافياً. كانت هناك بالفعل كلمات كافية على هذه الأرض. ولكي أكون صادقاً تماماً، ينبغي أيضاً الإشارة إلى أن أي شخص يكون في حاجة أو في ضائقة، حتى ديكي ليزا، يمكنه أن يلجأ إلى خوسيه الرحيمة.

كانت إذا ظهر شخص أمام طاولة البيع شاحباً، نحيفاً، أو مصاباً بسعال شديد، كثيراً ما تعهد نفسها، وإن حتى لم تسأل الشخص بنفسه، بأنها يجب أن تعد له مرق الدجاج الطازج أو عصيدة مع كُرُنْب بروكسل واللفت ولحم البقر، أو حتى مشروب الأعشاب المصنوع في البيت، والذي يغلب عليه المذاق المر لجذور الهندباء المجففة والمقطعة التي كانت قد جلبتها بنفسها من حديقة كوخها بجانب التلال الرملية الصغيرة التي لا تريد أن تختفي.

كانت مساعدة ليزا الأكثر وضوحاً. مرتين في الشهر، تأتي راهبة من الصليب الأصفر والأبيض إلى منزلها للقيام بشيء لم تستطع الممرضة القيام به لوحدها. كانت هذه الراهبة توقف حصانيها الأصفر والأبيض أمام بابنا، لكنها لم تدخل المحل. كانت تقف أمام أحد نوافذ العرض الكبيرة، بغطاء رأس رشيق على رأسها، مرتدية اللون الرمادي والأبيض تحت معطف أزرق فاتح، في انتظار أن نلاحظ وجودها. تومىء بعد ذلك بإيماءة متحفظة لوالدتي والتي، بخجل غير معتاد، تخلع مئزر الجزارة وتنزلق عبر الباب الخلفي. في هذه الأوقات، لم يسمح لي بالدخول إلى الجحيم في الطابق العلوي.

فهذه الأوقات، كنا بالكاد نتحدث. الثلاث المعنيات بالأمر، يعرفن الروتين ويعرفن دور كل منهن في كل هذا. كانت ديكا ليزا جاهزة بالفعل، جالسة على كرسيها المفضل، الجزء العلوي من جسدها عاري. وأمي واقفة على كرسي حمام متين خلف ليزا، محنية على الكتف الضخم الأول ثم على الكتف الآخر، لكي ترفع الثدي الوحشي الأول ثم الثدي الآخر. تساعد ليزا أيضاً دعم صدرها بكلتا يديها على قدر ما تستطيع، بسبب ضيق التنفس وقلة قوتها. تتلامس يديها مع يد أمي في هذا العمل، مما يزيد من إحراج ليزا اللعينة. كانت كل ما تفعله هو أن تتنهد وتتذمر. فلا مكان هنا للكلام اللاذع أو اللعنات. أمي، منحنية على رقبة العملاقة، تمسك أنفاسها بقدر ما تستطيع، من وقت لآخر تنفث بسرعة ثم تستنشق. عن طريق الفم المفتوح، وليس عن طريق الأنف، لتتجنب الغثيان. خلال هذا الوقت، تقوم الراهبة، لا مبالية، بمهمتها بنظرة فارغة، محايدة، ليست لطيفة ولا مستنكرة. تفرك بشدة بفوطة صغيرة جلد ديكا ليزا

الأبيض والدهني، الناعم والمغطى بالأوردة الزرقاء: الرخام الناعم. تشطف الفوطة على فترات منتظمة في وعاء مجاور لها، وتعصرها بكلتا يديها، تضع عليها صابون سنلايت بغزارة ثم تعود إلى عملها.

كان صوت فرك القطن المبلل على الجلد وصوت اندفاع الماء في الوعاء المصنوع من الزنك، في تلك الأيام، الأصوات الوحيدة في هذا الجحيم المتواضع، إلى جانب صوت التيك تاك الذي يصنعه بندول الساعة الأصم. بالنسبة للباقي، كان الصمت الشديد بين النساء، النساء اللواتي يعرفن ما يمكن أن يحدث للجسم، يعرفن كيف يجب غسل هذا الجسم، وكيف يذوب من عدم الرضا أو من التراخي، كيف لهذا الجسم أن يولد أسوأ أنواع المعاناة والتشنجات وكيف يمكن أن يصبح بارداً ومتصلباً مثل البازلت الأبيض عند غسله للمرة الأخيرة.

عندما تعاود أمي الظهور بعد ذلك في متجر الجزارة، تكون هذه المرة أقل عدائية بكثير من يوم دفع الإيجار. أول ما تفعله عند دخولها إلى المتجر، هو أن تغسل يديها طويلاً، ثم تضع مئزرها بحركات دقيقة ثم تقوم ببعض المهام غير المجدية تماماً، تحرك بكلتا يديها شريحة من اللحم تنقلها من طبق ملطخ بالدم إلى طبق نظيف، أو ترتب حول أو تحت شريحة لحم أكوام البقدونس، ثم نسمعها تهمس إلى زوجها: "امرأة مسكينة على أية حال. إنها حقا في حالة سيئة. لا أحد يعرف المدة التي ستستمر فيها هكذا، إنها أقل حتى من أي شخص آخر. إنها تشعر بالخوف. إنها في غاية القلق. نحن نشعر بذلك جيداً. يأتي وقت لا تعد الحياة فيه تستحق العيش. للجميع". بعد ذلك، شاعرة بالإرهاق، تذهب لتزين أرجل الدجاج المشوي بأزرار زخرفية مصنوعة من ورق أبيض مطوي.

في أحد الأيام، وُجدت ديكي ليزا أخيراً مستلقية على بطنها في مطبخها الصغير، وجهها على مشمع الأرضية القذر، طريحة بسبب أزمتها القلبية، ومخنوقة بقيئها. وقد اختفى رجلها أو خادمها إثر ذلك، انتقل إلى منزل جديد، أو ربما مات أيضاً.

في الطابق السفلي، لم يكن هناك إحساس بالراحة أو الابتهاج المهووس. لكن الذعر، كان هو الشعور الأعم. إلى من يجب أن يُدفع الإيجار الآن؟ بعد كل هذه التهديدات أو هذا الإزعاج؟ على ما يبدو، أن منزل ليزا، الذي كانت تملكه بشكل شخصي، سيطالب به العشرات من الورثة. ما هي مشاريعهم؟ هل لديهم مشاريع بالفعل؟

من بين هؤلاء الورثة، لوسيانكي، التي كان أطفال الحي يطلقون عليها المنغولية أو لوسيان الصغيرة المجنونة، وكان هذا يضحكها كثيراً لأنها كانت تحظى بشعبية كبيرة بين الفتيات الصغيرات.

كان لديها رأس مستدير وكتفين عريضتين مثل خالتها ليزا، ولكنها كانت في نصف حجمها فقط. كانت بالكاد تبلغ من العمر عشرين عاماً وكانت تعاني من متلازمة داون. إذا ما طُلب منها، فإنها سترفع تنورتها فوق رأسها وتقهقه، وتظهر سراويلها، مثل السراويل القصير لألعاب الجمنازيوم، لونه أبيض ولكنه قذر ومزين في الجزء الأسفل بالدانتيلا بشكل مبتذل. ربما كانت ركبتيها وفخذيها بلون الورد أقوى من ركبتي وفخذي لاعب كرة القدم. كانت ترتدي نظارات على أنفها، كان زجاجها يضاعف من حجم عينيها. على فمها، الذي كان يخرج منه لسان ثقيل باستمرار، تطفو ابتسامة بلا انقطاع، مما جعلك تشك في أنه، إلى جانب المتلازمة، لا يمكن أن تكون من عائلة ديكي ليزا.

إذا سألنا لوسيانكي عما تريد أن تكون في وقت لاحق، فتجيب: "كندا". وإذا سألناها عن أي فصل من فصول السنة تفضل؟ تجيب: "كندا". أي أيس كريم؟ "كندا". أي لعبة؟ "كندا". تخلت عنها إحدى بنات أخوات ليزا، التي هاجرت مع طفليها الآخرين وزوجها إلى الأرض الموعودة التي تحمل هذا الاسم، وهي دولة ترحب بحرارة بجميع العمال الجادين وعائلاتهم، بشرط ألا يكون لديهم عيوب وراثية.

كانت لوسيانكي تعيش لفترة قصيرة مع خالتها ليزا، حيث عملت كمدبرة منزل، وتلقت ليزا إعانة شهرية في المقابل. شعور بالذنب كان يتطاير عبر المحيط الأطلسي. كان لا يمكن أن نعهد إلى لوسيانكي بمهمة أكثر تعقيداً من وضع الغسيل في الغسالة.

ومرة أخرى، كان من الضروري مراقبة ذلك، وإلا فتحت الجهاز قبل أن ينتهي من دورته في غسل الغسيل. ذات مرة، كادت أن تفقد ذراعها لأنها أرادت أخذ أحد السراويل الداخلية لها دون أن توقف الجهاز. ومرة أخرى، أخطأت وهي تغسل بعض الأطباق أيضاً، حيث استخدمت بدلاً من المنظف الصودا الكاوية التي كانت تستخدمها ليزا لتنظيف الأنابيب والمراحيض. عندما أدركنا الخطأ، كان جلد لوسيانكي قد تآكل بالفعل فوق مرفقيها. بدت يداها مثل اللحم النيىء. ذرفت أعينها الكبيرة للغاية الدموع، لكن ابتسامتها استمرت، حتى عندما حدثت المشادة الكلامية، تلقت كل هذا بإجابتها المعتادة وقالت بكل فخر: "كندا".

لم تكن كندا، بل كانت مؤسسة. رخيصة جدا لليزا للحفاظ على بعض الإعانات من الخارج. ولكن، لا تزال لوسيانكي تستحق بعد ذلك، أن تذكر في وصية ليزا.

كان هناك وريث آخر ذو أهمية أكبر، هو ابن ليزا نفسها، والذي كان يحمل لقب إلفيس. لا، لم يكن يغني وليس له سوالف، ولكن، كان عنده شغف خاص تجاه الموستانج والمرسيدس القديمة. كان لا يستطع دفع ثمنها، لكن ذلك لم يمنعه من شرائها. كان يعرف كل سعاة المحكمة بالاسم. كان رأسه أكبر رأس فيهم وكان رأس أصغر واحد منهم تدخل فقط في القفاز الذي يرتديه. لم يجرؤ أي منهم على مواجهته دون وجود اثنين من رجال الشرطة. على الرغم من هذا إذا حدث، فهذا يعنى أن الثلاثة سيدخلون في عراك.

لم تفتح أمه له أي باب، لا الباب في الأسفل ولا باب شقتها الموجودة بأعلى الدرج. تتعرف عليه من طريقته في طرق الباب وكل الضجيج الذي يفعله، وهو يعلم مقدماً بأن أمه، لن تقرضه مليماً واحداً "هذه العاهرة". في منتصف الليل، كان يلكم بقبضته المصراع الخشبي لغرفته الوحيدة في الطابق الأرضي، غرفة الغسيل الصغيرة بجوار السلالم. بعد ذلك، يقف في وسط الشارع، يلوح بنفس قبضته باتجاه الطابق العلوي، وهو يعرف أن ديكي ليزا، مرتجفة، تستمع إلى لعناته وإهاناته.

لم تبد أي إشارة للحياة حتى لا يبدأ ابنها، المجهد من الحرب، فجأة في قيادة سيارته موستانج بكل تهور، وفي أحيان أخرى، يشاهدها نصف الحي، ما بين النوم واليقظة، تستقر في الشرفة، لتستمتع إلى الضجيج خلسة. فقط ليزا لا تظهر نفسها.

كان إلفيس على علاقة بامرأة صغيرة تبلغ من العمر ستة عشر عاماً وقد حملت منه ذات مرة في المقعد الخلفي لسيارته المرسيدس كابريوليه، وقبل الولادة مباشرة، أخذها في سيارته المرسيدس باغودا إلى قداس الزواج. كان في حفل الزفاف، عشر مدعوين فقط، ولكنه، تحول إلى عراك عام. عندما كانت ابنتها الكبرى في الثالثة عشرة من عمرها، دخل سريرها واغتصبها، ثم بدأ في تقبيلها كما كان يفعل مع والدتها. ذهبت الفتاة إلى الشرطة وذهب هو إلى السجن. ثلاث سنوات في السجن، بسبب سجله الدسم. عندما خرج من السجن، أسرع بسيارة أجرة إلى منزله وإلى أسرته الكبيرة، فوجد زوجته مع صديقة لها تساعدها في القيام بالأعمال المنزلية، فعلى الفور، أجبر المرأتين على مشاركته في سريره، ثم جلد كل منهما بوحشية بدافع الانتقام. هذه المرة لم تكن هناك شكوى. رحلت الابنة الكبرى إلى الخارج. تمارس بناتها الأصغر سنا فقدان الشهية مع اقتراب سن البلوغ.

كان إلفيس يحلم بأن يعمل كملاكم أو مسئول عن قاعة رقص، ولكنه عمل بالتناوب في أعمال البناء أو في أرصفة موانيء أنتويرب. كان يبدو أن لا شيء قادر على لمسه أو قهره. حتى جاء يوم، وفي ظل أحوال جوية سيئة، في موقع البناء، استدار وتلقى في وجهه خطاف الرافعة. لم يكن من الممكن تنفيذ الهجوم بشكل أفضل، وقد ظل مقتنعاً بأن الأمر كان متعلقاً بتصفية الحسابات إلى حد ما.

انغرس خطاف الرافعة في فمه وتسبب في كسر كل أسنانه الأمامية. في الوقت نفسه، بدأ الخطاف في الارتفاع بأقصى سرعة. عادة، في الأحوال العادية، كان خطاف الرافعة ربما يخترق دماغه أوربما قطع رأسه نصفين كالثمرة الناضجة. لكن، في حركة عكسية، تشبث الفكّان الكبيران لإلفيس بالخطاف. حاول النهوض بقدر الإمكان،

حتى لا يتسبب وزنه في وفاته. لكن خطاف الرافعة لا يزال يزرع في فمه بشكل لا رجعة فيه.

إلفيس، الذي كان يكافح مثل سمكة، رفع بمقدار ستة طوابق ثم ألقي مع ألم كبير. عندما وصل إلى المستشفى، كان قد فقد عشرين من أسنانه ولترين من الدم. فيما بعد، لم يستطع أن يسترد ثقته بنفسه على الإطلاق.

لوسيان الصغيرة كانت في مؤسستها. كان إلفيس مستلقياً وفمه مفتوح في المستشفى، إذن، من سيأتي لمعاينة الشقة نيابة عن كافة الورثة؟ عائلة ليزا من بروكسل. في جاجوار تومض و"تلمع" منذ حوالي سنة.

زوجين من العمالقة المنتفخين خرجا منها. المرأة الفظة، مع أنف معوج على الصدر، نسخة

أصغر من ليزا. زوجها كان محاسباً بحملات، بنظارة ذات إطار عاجى، بقميص مقلم وكان لديه سعال عصبي. كانا يشمان، يبحثان عن المال القديم. دخلا بشكل مهيب إلى محل الجزارة في الوقت الأكثر ازدحاماً في اليوم، لكنهما كانا يتركان الجميع يمرون قبلهما. إن وجود هؤلاء الأجانب ذوي المكانة الجيدة والذين لا يطالبون بشيء أثر على الأجواء والتي عادة ما تكون مرحة. سكت الناس، متشككين. ومع ذلك، استمر الزبائن في التدفق. تجلس أخت ليزا، وهي بالكاد أنحف من أختها المتوفاة، وهي تتنفس بصعوبة وتنظر نظرة متحدية على أحد المقاعد المخصصة لكبار السن والنساء الحوامل.

تبادل روجيه وخوسيه نظرة قلقة. كان كرسيهما مقعدا مربعا صغيرا من الفورميكا الملونة الذي يستند فقط على ثلاث أرجل فولاذية رقيقة مطلية بالكروم.

إذا حدث حادث، سرعان، ما يصبح أحد الورثة منزعجاً إلى حد ما. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المرأة، التي تحمل حقيبة تمساح على ركبتيها المهتزة، تميل بظهرها على الرف الأكثر ضعفاً. الخضروات المعلبة في الجرار الزجاجية، من العلامة التجارية الألمانية

باهظة الثمن. إذا تراجعت قليلاً إلى الخلف، سيكون الضرر لا يقاس. في الأسبوع الماضي مرة أخرى، صيدوني بيك – دي - ييفر (شفة الأرنب)، التي كانت ثملة منذ الصباح الباكر، وكان بإمكان كل الزبائن رؤيتها من خلال فاترينة المتجر، كأنها مشهد على شاشة السينما، تخرج من المقهى المقابل وتعرج باتجاه متجر الجزارة، مهددة بمنتهى الغضب بمظلتها المغلقة أي سيارة أرادت مطاردتها من على جسرأنتويرب مستخدمة الأبواق، في الأسبوع الماضي، صيدوني، التي كانت متجهة إلى مخرج المحل وهي تترنح، خبطت بحقيبة التسوق المملوءة الخاصة بها هذا الرف الألماني المذكور. أربع عبوات من الفطر واثنتين من الفاصوليا البيضاء مع صلصة الطماطم، سقطت أرضاً محدثة صوتاً مثل الألعاب النارية دون فرح في حركة بطيئة. رفضت صيدوني سداد ثمنها، بل على العكس، فقد احتجت بصوت عالٍ، رافعة حذائها الجديد وحقيبتها البالية التي كانت مغطاة بصلصة الطماطم، ناهيك عن مظلتها التي لا يمكن فصلها عنها. كما هو الحال دائماً، هذه المرة أيضاً، لأنها كانت ثملة، كان علينا أن نسألها مراراً وتكراراً عما تريده بالضبط، قبل أن نتمكن من فك اللغة الخاصة لهذه بيك – دي - ييفر (شفة الأرنب): "سددوا أنتم بأنفسكم ثمن جراركم المكسورة. يجب ألا ترصوا الأشياء بهذا الشكل على الرفوف. يمكنني أن أموت ولكني لا أخدع أرملة مسكينة وأحتال عليها من أجل بعض الجرار الصغيرة البائسة. عليكم أن تشعروا بالخجل حيال ذلك".

في اليوم التالي، جاءت صيدوني ودفعت الثمن، مع العديد من الأعذار كمكافأة للجميع لكي يتخلوا عن تفسير لغتها بطريقتهم الخاصة. في النهاية، لم يكن أمام الجزار وزبائنه إلا أن يهزوا رؤوسهم أمام امرأة نادمة بشفة أرنب وهي تطلق ألغازا غير مرتبة ولا نهاية لها.

يظل الكرسي الصغير بثلاثة أرجل المطلي بالكروم متحملاً حتى يتم تخديم جميع الزبائن ويذهبوا. تنهض أخت ليزا بصعوبة، تسند مرفقيها على طاولة البيع، ويحيط بها زوجها، تبدأ في استجواب شامل للمستأجرين المعروفين. تجيب أمي، باردة وهادئة، يحيط بها زوجها.

- متى تحدثتم مع ليزا للمرة الأخيرة؟

- عند دفع الإيجار، منذ عشرة أيام.

- هل سمعتم أو رأيتم شيئا مريبا قبل الموت؟

- لا أستطيع أن أقول هذا، سيدتي.

- هل سمعتهم صوت الاصطدام بأرضية المطبخ؟

- في هذا الحي نسمع كل أنواع الأشياء، سيدتي.

- هل سمعتهم ليزا تصرخ، أو تنادي؟

- لا. وإلا كنا أسرعنا بمساعدتها، أليس كذلك يا سيدتي؟

- هل سمعتم أو رأيتم شيئا مريبا بعد ذلك؟

- مثل ماذا يا سيدتي؟

- هل رأيتم شخصا يعبث بقفل باب الشارع، ينزلق إلى الداخل؟ هل سمعتم خطى، ضربات، صرخات، لعنات؟

- لا يا سيدتي.

- هل أنتم متأكدين؟

- من المؤكد طبعاً، مثلما أن إضافة اثنين على اثنين، تعطينا أربعة.

- يا سيدي هناك؟

(هو تفاجأ، فتلعثم قليلاً):

- نعم نعم! بالطبع، بالتأكيد، سيدتي.

- أيضاً، كما أن إضافة اثنين على اثنين، تعطينا أربعة.

- عفوا سيدتي.

(هي شاعرة بالاستياء، وتتحدث بلهجة جافة، تلقت ضربة في قدمها من روجيه تحت طاولة البيع).

- إذا قلت نعم، نعم وليس لا؟ حسناً. هل تريدين شيئاً آخر؟

راضية إلى حد ما، تركت أخت ليزا بطاقتها على طاولة البيع وطالبت بأن يتم الاتصال بها على الفور إذا تذكروا أي شيء مريب حدث. بعد ذلك، غادرت محل الجزارة دون حتى شراء أي شيء، تتبعها الحمالات والقميص المقلم، وأخذت بنفسها تعبث بباب ليزا بمفتاح عمومي حتى استسلم القفل.

بعد فترة وجيزة، الجدران التي لم تكن عازلة للصوت، جعلتنا نسمع صوت صرخات وضربات ترتفع أكثر وأكثر. يبدو أنها تمر على ما هو من خشب في الشقة. أشارت الصرخات التي أصبحت فجأة أكثر عنفاً إلى أنه حتى الطوابق الموجودة تحت مشمع الأرضية لم تكن بمنأى. من وقت لآخر كان بوسع المرء أن يسمع صوت يد متلهفة في الأسقف المعلقة، وصوت الجرذان وهي تهرب.

استغرقت أعمال الهدم أكثر من ساعة وأُجريت بكثافة كأنها تتم بيد المحترفين في هذا المجال. أخيرا خرج المدمران، يتنفسان الصعداء، يصلحان هندامهما، في اللحظة التي كان فيها روجيه، كشيرلوك هاوي، بالتحديد وبالصدفة يكنس الرصيف. أومأ لهما بتحية مهذبة من رأسه ولكنه لم يتلق أي نظرة أو أي كلمة.

قبل أن تغلق أخت ليزا باب الجاجوار مباشرة، سمعها تقول بمنتهى الغضب لزوجها: "يا الله، لقد أنفقت كل ما لديها على سيارات المرسيدس والموستانج التي امتلكها ابنها المغفل".

كان فقط بمناسبة البيع العام، بعد أشهر، عندما رأى روجيه مجددا المدمرين العارضيين. كانا يجلسان في الصف الأمامي، ومرة أخرى، لا يلقيان أي نظرة أو يتحدثان مع الجزار الذي كان يستأجر، منذ سنوات، إرثهما مقابل ثمن باهظ ويأمل في شرائه اليوم بسعر مقبول.

كما إنه مجبر على الجلوس بجابنهما. لم يعد هناك مقعد خالي في الغرفة الخلفية المزدحمة في مقهى هيمويرك في الميدان الكبير. حتى أنهما تظاهرا بعدم رؤية يده ممتدة. وقد افترض أن ذلك حدث عمداً، ليجعلاه يفقد تركيزه ويهزان إرادته. كان يرى أن العاصفة قادمة. هذا البيع العام سيسفر عن شهداء. الغرفة الصغيرة يتصاعد فيها الدخان، والصخب يرتفع كل دقيقة. عش الدبابير يطن بالتهديدات، وعلى استعداد للانفجار بالكامل.

كان وحيداً، مرهقا ولا يشعر بالراحة. ومع ذلك، فهو ليس في منطقة مجهولة. المكان بمثابة قاعة للحفلات، ولائم الزواج، والولائم الكنسية والمناولة، وكذلك أيضاً غرفة لبروفات جمعيتهم، الدائرة الملكية المسرحية سان جينيسيوس. على الأقل في المساء عندما لا تكون محتكرة من قبل قوات الهواة المتنافسة، أو المعلمين الذين يمتدحون نظاماً غذائياً معجزة وأتباعهم بأعداد متزايدة، أو المعالجين بالصلاة كلهم يقدمون نفس العرض الديني.

كان يفضل أن يجلس هناك مع خوسيه، فقط أمام هذه المنصة المألوفة التي تعد المكان المفضل لزوجته، والتي يجلس أمامها في الوقت الحاضر، كاتب عدل، دلال وسكرتير، على طاولة عادية، يناقشون فيما بينهم الترتيب الذي من خلاله ستعرض مختلف المباني والأراضي التي يجب بيعها. كان يفضل أيضاً أن يترك مهمة المزاد لزوجته. خوسيه التي تعرف كل شيء تتقن هذا المجال أيضاً أفضل منه، ذلك الفن المبتذل ولكن الأكثر تكراراً في مجال مساومات البيع والشراء. لعبة البوكر ليست إلا مجرد لعبة. ربما يكون هناك خدعة ولكن لا يصبك هذا بالشلل بسبب الألم من فقدان ماء الوجه واحتمال الخسارة.

بانتظام، كل يوم اثنين، وهو أهدأ يوم في الأسبوع في تجارتهما، تذهب مع صديقة أو زوجة أخيها إلى قاعة مزاد في أنتويرب، حيث يتم تصفية الممتلكات المنقولة عند الموت والإفلاس. يتم عرض الأثاث والقطع الكبيرة بشكل منفصل. يتم بيع المواد

الصغيرة على شكل مجموعات، يتم تجميعها معاً عن طريق الصدفة، وتعبئتها بلا مبالاة في الصحف القديمة ثم تُحشى في صناديق للقبعات، لحاملات المظلات أو لشماعات الملابس، والتي من الممكن أن تكون هي نفسها جزء من المجموعة التي تباع.

وبانتظام، تعود إلى المنزل بواحدة من هذه الباقات المفاجئة. معظم الوقت، يكون هناك ثلاثة من هذه الباقات. (أخذت أحك أنفي، لقد كان الدلال يعتقد أني أقدم عرضاً وهو يقدم الجوائز. ماذا عساي أن أقول؟ أنا لا أريد ذلك، لدي بالفعل اثنين. ولكن شكل التعامل هذا لا ينفع مع هؤلاء الناس في أنتويرب). فقط عندما نصل إلى المنزل، ونقوم بفك وتفريغ حامل المظلة، نعرف إذا كنا قد أخفقنا أو إذا كان النجاح إلى جانبنا. بالنسبة لخوسيه التي تعرف كل شيء، كل النجاحات تتساوى. معظم التماثيل والمزهريات الصغيرة ومنافض السجائر في غرفة المعيشة وغرفة النوم خرجت من سوق البرغوث هذا، والتي تكون لعبة الحظ جزءًا منه. هذا هو السبب في أن كلها تقريباً بها عيوب أو ضربات أو شقوق، ندوب أشياء مستعملة في نهاية الحياة. لفترة من الوقت، ومع ذلك، فإنها شكلت مجموعات صغيرة من الإرث. بعض الحدود لحيوات ماضية. مجموعات تم تجميعها بمحبة، والحفاظ عليها من شتات الأشياء بواسطة ملاك حارس كان يمر بالصدفة في أنتويرب. لأن الاحتفاظ كان أحد الأنشطة التي كانت فيها خوسيه فيربيك الأكثر موهبة. كانت ترفض ممارسة فن وزن الأشياء. "إن هذا يدهشك من جانبي؟ (هي، كفيها في الهواء، رافعة كتفيها، تحرك عينيها). لقد عشت حرباً وسمعت والدي يشتكيان من أخرى. كنا لا نرمي الأشياء بهذه السهولة بعد ذلك. كان الأمر بالمثل حتى بالنسبة للمسامير والدبابيس. حتى إن كانت ملتوية أو غير حادة، يتم الاحتفاظ بها. لا يزال من الممكن استخدامها، حتى لو لإصلاح لعبة. أو طاقم أسنان، إذا لزم الأمر". من بين كل مجموعة من القطع، كان هناك حامل مظلة مزين بالعصي التي لم يستخدمها أحد مطلقاً.

في هذا النوع من غرف المزادات، عندما كان الأمر يتعلق بإجراء معركة لفظية

للحصول على صندوق قبعات ممتلىء بالخردوات، يكون لدى خوسيه أعصاب من فولاذ. هنا، رفع المراهنات يعد أمر مثيراً، دليل على الجرأة، عمل شجاع، الدور الأول في مجالس الواقع.

في مقهى هيمويرك، لم يكن المزاد يتعلق بحامل مظلة ولكن بمستقبل سبعة أشخاص، والذين علاوة على ذلك، يمثلون عائلتها. هنا، على وجه التحديد، في هذه الغرفة الصغيرة حيث اعتادت أن تجرب ما يجول في خاطرها بكل حرية، أن تبتكر بدائل في الكلاسيكيات مع أو من دون موافقة مخرجها، في هذه الغرفة الصغيرة بالتحديد، التي تجرأت فيها على رفع صوتها أو تغييره دونما أي حرج، كانت دائماً من أوائل الذين يعرفون النص، ولكنها، كانت تتلعثم قليلاً من المفاجأة وتتردد ذاكرتها قليلاً، على وجه التحديد في هذه المملكة التي كانت لها، بين هذه الجدران الأربعة حيث كانت دائماً تحتفظ بكل شيء تحت السيطرة، قد أعلنت انسحابها. كان عذرها: "يجب أن يفتح شخص ما المتجر".

السبب الحقيقي: أنها لم تكن نداً لمواجهة الواقع. ها هي ميزة المسرح. هذا هو المكان الذي يمكننا فيه تكديس المشاكل والكوارث، مواجهة الانتحار والقتل والزنا، والتفكير في الإبادة الجماعية، ارتجال السجود والركوع، لك كل ما تريد ولكن.. لكن على الأقل يعرف الجميع إجاباته ومكانه، وما هو مطمئن، أن النهاية محددة سلفاً. في معظم الأحيان، تكون النهاية سعيدة. "ولم لا؟ الناس يحبون هذا. لا يجب أن تكون المسرحية حزينة بالضرورة حتى تكون جيدة".

وبالتالي، الوجود خارج المسارح يعد الأكثر خيانة. بالذات بالنسبة للبشر الذين لديهم خيال حي وقدرة هائلة على وضع أنفسهم في جلد شخص آخر. لأنه لا يوجد تعريف موجز أكثر من ذلك نستطيع أن نقوله عندما نصف ممثلة. أو على نحو ذلك: "بسرعة وبمنتهى العنف يغمرها التعاطف". ما كان ينقصها فقط لعب بعض الحيل في العديد من المجالات. وخصوصاً، أنها تحب أن تظهر قوية دائماً.

لم تكن تهتم بكرة القدم كما كان الحال في الأربعينيات من القرن الماضي، ولكن في يوم من الأيام ذهبت لمشاهدة مباراة حيث كان ابنها يلعب في موقع الهجوم (ابنها الأجمل، الأكثر ممارسة للرياضة وأيضاً الأكثر صعوبة في التعامل). في الشوط الأول للمباراة، جالسة في المدرج، كانت تشارك في كل تمريرة خلال ركل ظهر أو رقبة أولئك الذين جلسوا أمامها. شعرت بالآلام في رأسها في كل مرة كان فيها شخص ما على الأرض، يطلق كرة عالية من جبينه، وصرخت حتى عندما أطلق أحد اللاعبين الكرة بعنف فخرجت خارج المستطيل، كما أنها شعرت بوخز في قلبها، عندما أطلق ابنها الكرة بالقرب من المرمي ولكنه لم يحرز هدفا فُسخر منه وشُتم بالسمكة الفاسدة.

تابعت الشوط الثاني في الحانة. دون رؤية الملعب، كلتا يديها على الأذنين، القلب ينبض ويقترب من الغثيان بسبب التوتر الذي تعاني منه. "لكن أين كنتِ؟"، صاح بها ابنها الأكثر صعوبة في التعامل، فقد كان قد أحرز هدف الانتصار في اللحظة الآخيرة، وهذا بعدما هدأ التصفيق الذي استقبله به الناس عند دخوله. قال عبارته بصوت عال بحيث يمكن للجميع سماعها. "أنا لا أفهم شيئاً في هذه اللعبة"، كانت تكذب، "لكنني كنت سعيدة للغاية بك وبفريقك". "إذا كنت سعيدة حقاً، فابقي في المدرج في المرة القادمة. أنا، أذهب إلى مسرحك ولا أمشي بالرغم من أنني لا أفهم شيئاً". لم تعد أبداً لمشاهدة مباراة معه."قلبي لا يستطيع الصمود. وهو لا يحب ذلك، على ما أعتقد".

وعندما بدأ أبناؤها الأكبر بالخروج، في أي ليلة لم يعودوا فيها في الوقت المحدد ويكونوا فقط متأخرين ربع ساعة، تبدأ في الشعور بتصاعد نبضات القلب والغثيان. لا عراك في المقهى ولا حلقات من مسلسل رعب يمكن أن تضاهي ما يدور في خيالها في هذه اللحظة. أصبح أبنائي فاسدين، لقد ضاعوا إلى الأبد، ولن يعودوا مجدداً. "تعرف الأم ذلك، تشعر الأم بذلك". بعد ربع ساعة أخرى، تصبح نصف مختنقة من الذعر. وكانت تتمكن من إقناع روجيه بالاتصال بالشرطة، وبجميع المستشفيات في المنطقة.

كان معه المستشفى الثاني على الخط، عندما دخل أبناؤه المفقودون، منتشين وثملين، ولكنهم، سرعان ما أصبحوا متجهمين عند رؤية أبيهم، المحبط، وسماعة الهاتف في يده، وأمهم، التي كانت تعاني من ضغط بارد على جبهتها، تستلقي بالكامل على الأريكة، تجول وتثور، واصفة عذابها المميت في جمل قصيرة وفي لوم شديد، وتؤكد أنها كانت تعاني من اختناق حقيقي، لكن لا أحد يعرف ما إذا كانت تمثل أو تقول الحقيقة. أو ربما دخلت بشكل مقنع إلى دورها لدرجة أنها عبرت جدار الواقع، مثل الطائرة التي تعبر جدار الصوت. من خلال أدوار المرض، أصبحت مريضة بالفعل. لكن الجميع لاحظوا أنه، في وقت قريب، لم يعد للضغط سبب إضافي. وحتى إذا ولد من جديد، فالأمر متعلق هنا بالموهبة.

بيت ليزا كان في آخر مجموعة عرضت بالمزاد. أصبحت الغرفة الخلفية في مقهى هيمويرك نصف فارغة بالفعل. من المقهى، نسمع بوضوح صوت الضحكات، الشتائم، فرقعة سدادات زجاجات الشمبانيا والأوامر الصارخة. وأخيراً، يقرأ الكاتب وصفاً موجزاً للعقار. "الممتلكات الاستثمارية"، "المباني التجارية"، "الموقع المميز"، "جسر أنتويرب"، "التركة غير المقسمة". سعر كاتب العدل منخفض للغاية. وعلى الرغم من أن خوسيه قد أوصته بعدم فعل ذلك. كان روجيه أول من رفع يده.

من يظهر جشعه يظهر ضعفه. ولكن، كان هذا أقوى منه. هو جشع. هو ضعيف. يود أن ينتهي كل هذا بالفعل. مع أو من دون منزل. ماذا يفعل هنا؟ الآن، قلبه النابض هو الذي يدخل السباق. سوف ينتهي الأمر بشكل سيء، سترى.

لكن الصمت هو ما كان سائداً بعد عرضه. معظم الناس الحاضرين يعرفونه ويفهمون رغبته، ويحترمون طموحه، ويريدون أن يتركوا له متجره. أو ربما يحتفظون بنساتهم للمجموعة الأخيرة، أهم ما يميز اليوم، فيلا على طراز الآرت ديكو على مستنقع واسمونستر. الأوقات صعبة في المضاربة العقارية. المعدلات أيضاً في ارتفاعات تاريخية. لا يمكنك شراء كل شيء في مثل هذه الأوقات، لذلك إذا كان عليك أن تختار

ما بين فيلا تاريخية وبين منزل يقع في زاوية متهدم قليلاً، وربما يحمل الأمر مشكلة بسبب وجود عقد إيجار تجاري.

أشار الدلال بمطرقته عليه: "رسا المزاد على هذا السيد، في الصف الأول". ولكن، أخذ يتفحص الصفوف التي كانت قد خلت بالفعل، بينما في صوت رتيب كان يكرر المبلغ المعروض. أربع مرات.. ست مرات.. ثماني مرات. متي سيضرب مرة أخرى بالمطرقة؟ ومع ذلك، فمن الواضح أنه لم يظهر أي اهتمام مرة أخرى. عشرة مرات.. اثنتى عشرة مرة. لا يزال الدلال يشير بمطرقته إلى مقدم العطاءات الوحيد، كما لو أنه كان يعطي ميكروفوناً إلى وزير تم مفاجأته.

لا تتحرك الآن. حذرته خوسيه من ذلك. لا تيأس. لا تسعل، لا تطرف بعينيك، لا تضطرب فوق مقعدك. تحمل العذاب كما لو كان المسار الطبيعي للأحداث. في الحقيقة، إن الأمر كذلك. يستمر الدلال في تكرار العرض. أربع عشرة مرة. خمس عشرة مرة. الغضب يرتفع في صوته المكسور في التكرار. ألقى بنظرة جانبية تجاه كاتب العدل. أومأ هذا الأخير بإيماءة غير محسوسة من رأسه. لم يتم سحب المجموعة بعد. مازال البيع مستمراً. هل يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة؟ ترفع اليد مرة واحدة فقط ومستقبلك سيكون مضمونا إلى الأبد؟

إنها المرأة التي تجلس إلى جواره، بصوت ديكا ليزا، هي التي كانت تثير أوهامه. حتى أنها لم ترفع يدها. لقد أضافت مبلغا كأنها تنبح كالكلب، بنسبة عشرة بالمائة أعلى. وفجأة، أطلق العنان. على اليسار، على اليمين، وراءه، تعلو الأصوات في كل مكان، ترتفع الأصابع التي تشير وتهتز الأيدي لجذب الانتباه، الكل تخلى عن تعاطفه تجاهه، ها نحن نشم رائحة صفقة جيدة في الطريق، وإلا لماذا ستقوم امرأة غير معروفة بالمزايدة مرة واحدة بنسبة عشرة بالمائة؟ يشير الدلال بمطرقته نحو العارضين الجدد كما لو كان يباركهم بمَرَّشَة الْمَاء الْمُقَدَّس لكرمهم، وفي كل مباركة، كان السعر يرتفع بأرقام صحيحة، كإضافة حقيقية.

إنه لا يتوقع أن يخبره أحد بأي شيء، يفكر به ويعول عليه. لا يوجد سوى مزايد واحد يتجاهل كل ذلك بشكل منتظم، إلفيس. وهو يقف في مؤخرة الغرفة، نصف رأسه مخبأ تحت ضمادة. كان غير قادر على الكلام، لكنه كان يرفع في كثير من الأحيان، إصبعه الكبير الذي يشبه مخلب الدب، كان يلوّح بشراسة على أمل توسيع إرثه برفع المبلغ، بأصوات غير مفهومة تخرج من بين ضماداته.

لم يباركه الدلال ولو مرة واحدة، ولكن يعود بعد كل جولة في المزاد، يشير بإصبعه تجاه الجزار الذي يجلس في الصف الأول، ضارباً بعرض الحائط كل نصائح زوجته، في كل مرة، يومىء برأسه أو يرفع ذراعه قبل أن يكون ضرورياً وحتى مرة واحدة، كأنه يفعل ذلك لكى يتخلص من عاره الخاص، كأنه يرفع فوق رأسه إبهاما منتصرا، إذا رفعت إبهامك! فهذا معناه كل شيء على ما يرام، فلابد أن يكون الإبهام مرئيا بوضوح من كل الخصوم على أمل ترهيبهم واستعادة الثقة في نفسه.

إذا انتهى بهم الأمر وهم يشعرون بالخوف وقد صمتوا، فإن هذا سيكون جيداً فيما يتعلق بسعر المنزل. لقد تضاعف في بضع دقائق. واحدة من أعلى تقارير اليوم. فقط الرجل بالمطرقة لا يبدو متأثراً. وهو مستمر بشكل لا يطاق في الإشارة لمن حوله بمطرقته، دون أي مباركة حتى في حالة اليأس، حتى وقعت مرة أخرى على الجزار. "لقد رسا المزاد عليك مرة أخرى، يا سيدي". في المرة الأخيرة، حدق ببصره في جميع الصفوف. حتى إلفيس لم يعد يحرك مخلبه في الهواء بعد الآن. "لا أحد؟ حسنا! مرة واحدة".

مرة أخرى، في جزء من الصف الأول، صوت مماثل لليزا يتردد مجدداً في الغرفة الصغيرة. هذه المرة للحصول على عرض منخفض بشكل يبعث على السخرية بالمقارنة مع عشرة بالمائة من قبل. مثل هذا النهج غير معتاد في هذه المرحلة من البيع. في كل مكان، نسمع ضحكات ماكرة ومرتابة. حتى أن الكاتب لم يستطع كبت ابتسامة ظهرت على وجهه وقد أومأ بإيماءة من رأسه. تأمل كاتب العدل يديها المزينة بطلاء الأظافر.

"المزاد رسا عليك، يا سيدتي"، يقول الدلال وهو يكرر بدقة هذا المبلغ الجديد الذي لم يتوقعه هو نفسه، بكل احتقار. "لا أحد؟ لا مرشحين؟". نظر إلى أبي بشكل أبوي.

كانت خوسيه قد حذرته من ذلك أيضاً. لا يمكنه العودة الآن. كان ينبغي أن ينتظر بعض الجولات في نصف هذا المزاد الهائج. "دعهم يصدقون مرتين أو ثلاث مرات أنك قد سحبت كل الأوراق الخاصة بك. امنحهم الفرصة لعد أصابعهم وبنساتهم. دعهم يتشككون". الآن، قد فات الأوان للتسبب في المشاكل، إنه يعلم ذلك. سوف يدفع أكثر مما خطط، أكثر ما يستحق المنزل بالفعل. وإلى جانب هذا النوع من الابتزاز، الذي يتحمل اللوم عليه بسبب قلة خبرته، يجب عليه إخفاء الإذلال بضرورة تقديم عرض أعلى من جارته، حتى لو رفع سعره فقط بمبلغ رث. "سيدي؟ عرضك الأخير؟ نفس المزايدة القوية". لم يعط موافقته على الفور إلى الدلال. مال أولاً نحو أخت ليزا وتحدث معها للمرة الأخيرة في حياته: "سيدتي، إذا عرفت ليزا ذلك، فإنها سوف تتقلب في قبرها".

في هذه المرة، لم تجب أخت ليزا، وإنما أجابه القميص المقلم والنظارات ذات الإطار العاجي: "لقد ساعدت في حشو ليزا في نعشها. كان من الصعب علينا إغلاق الغطاء. إنها لم تعد تستطيع أن تتقلب مجدداً".

"مرة. مرتين. تم البيع! إلى السيد لانوي، هنا في الصف الأمامي".

قبل العودة إلى أملاك المالكة السابقة، أمرت خوسيه المتطلبة بإجراء بعض التعديلات الصغيرة وإضافة بعض وسائل الراحة لم تكن موجودة من قبل. "هناك ثلاثة أشياء فقط يجب على المالك أن يكون منتبهاً إليها (تقول ذلك وهي معتدة بنفسها وكأنها محدثة نعمة إلى حد ما). الصيانة، ثم الصيانة والصيانة. يجب أن يبدأ الأمر من هنا: في سقفك، لا يجب أن يكون هناك أي تسرب. بدلا من طبقة البيتومين، نضع طبقة من الرصاص على الأقل. بالنسبة للباقي، يجب على المالك تحسين وترتيب كل ما يستطيع. كل قطعة نقدية خمسة فرنك ستنفق سيتم تعويضها مائة ضعف في وقت لاحق. كل ما سيدفع هو استثمار. كل شيء".

في الحقيقة، لم يجرؤ أحد على تشكيك في مزاعمها. على الأقل ليس بصراحة أمامها. ولا حتى مع رؤية البوابة الجديدة التي وضعتها على الدرج. تم استبدال السجاد بنوع أنظف وأكثر متانة. وقد تم استبدال القضبان النحاسية المكسورة، ولم تعد الفروق في الدرج الضيق تمثل خطراً على المتقاعدين الجديدين، اللذين يتعين عليهما صعوده ونزوله عدة مرات في اليوم.

تم طلاء كل أعمال النجارة، بما في ذلك درابزين الدرج، بلون أخضر فاتح مما قد تجده في المعجنات الإيطالية أو في الأكلات المكسيكية. عزز الورق المطلي الشكوك حول الاستثمارات المنتجة دائماً. على خلفية من فحم الإنتراسيت، نمت أزهار مورقة يبلغ قطرها مترا واحدا، كانت أوراقها ملونة أبيض فاتح وأخضر زاهي، ومتاعها [24] باللون البرتقالي الغامق وسداتها[25] باللون الأصفر الكناري. لقد حولت هذه الأزهار الدرج الضيق إلى غابة بكر مشرحة للنفس. حتى السقف، تم تغطيته بالسجاد. "يجب مجاراة العصر الحديث! إن كل شيء يتغير! يجب مسايرة الوقت" (كانت تقول ذلك وهي في منتهى الغضب من قلة الحماس لمبادرتها). من يحب الإعجاب بالأناقة، يمكن أن يتجه إلى الدور الأرضي ليشاهد الصوان من الخشب المصقول بزخارف من النحاس الأصفر والتي قالت هي نفسها أنه "تقليد متأخر لعصر لويس الخامس عشر". على الصوان، يوجد شمعدانان يذكرانك بالنزعة العسكرية البروسية. كانا عاريين من كل زينة، داكنيّ اللون ولهما أربعة فروع. ومن هذين الشمعدانين، يخرج برعم مركزي يقف عليه نسر صغير. يمكنك رفع الحيوان عن طريق الأجنحة وقص الشموع من الجانب الأسفل قبل إعادتها إلى عش النسر. فقط، لم يكن أحد يضيء الشموع هنا أبداً. بين الشمعدانات، تمثال نصفي من التيراكوتا[26] لامرأة ذات أنف مكسور تحدق أمامها بنظرة مرهقة. أمام الأثاث سجادة فارسية صغيرة، محاطة بأزهار الغابات

24) العضو الأنثوي في الزهرة.

25) العضو الذكري في الزهرة.

26) الطين المحروق.

البكر، صورة لشخص تبدو عليه سمات الأعيان ولكنه مجهول تماماً، النظارة على الأنف والأطلس تحت الذراع. لقد استطاعت الفوز بعد معركة في صالة مزادات أنتويرب بالشمعدانات، بالصوان، بالتمثال وبالسجادة الصغيرة في نفس الوقت.

"كل هذا في نفس اليوم (تقول هي بمنتهى الفخر)، وبسعر رخيص".

كان كل من يدخل إلى هذه القاعة للمرة الأولى، يتساءل عبثاً أين سيجلس، في رواق المعابد اليونانية التي تسبق صحن الكنيسة أو في بهو بيت الدعارة المبالغ فيه من القرن الماضي.

ولكن، الشخص الذي كان يعرف القاعة والدرج مع المالك القديم، كان يبدي تفهمه وحتى كان يومىء برأسه إيماءة تدل على الموافقة. أرادت خوسيه المفرطة في النشاط، أن تقطع كل علاقة مع الماضي. كان تدخلها مأساويا أكثر من جمالي. أرادت أن تمحو على جميع المستويات وزن الذاكرة السيئة لمن سبقتها. وبالتالي، يجب أن تكون الألوان والزخارف أكثر جرأة."الانطباع الأول هو الأهم. وهذا يصلح مع المحامين، مع الممثلين الصامتين والروحانيين".

الحمد لله، لم يعش الجميع وفقا لأهوائهم، وإلا فإن معظم الزوار لم يذهبوا أبعد من الردهة. وهذا سيكون أمراً مؤسفاً حقاً. وقد تم إصلاح بقية المنزل بشكل مناسب ومريح بعد الاقتحام المدمر الذي تم من قبل عائلة ليزا. وعلى الرغم من ذلك، دعونا نعترف بذلك، فقد كان كل شيء غير مريح وغير متجانس، وذلك وفقاً لمعايير وتقاليد شعبنا. إن هذا هو ما نحن عليه، شكراً جزيلاً، لقد وجدنا الراحة في هذا المنزل سواء في عادات الطهي أو في الجلسات الحميمة.

المشكلة الحقيقية الوحيدة كانت الحمام. وهي المكان نفسه الذي سيأتي إليه الابن الأكبر، بعد سنوات عديدة، لمساعدتهما لأول مرة في ظروف مؤلمة ولكنها أيضا مأساوية. كان الإنقاذ يعلن بداية الفصل الأخير.

لم يكن هناك حمام في هذا الطابق من قبل. لا دش، لا حوض للاستحمام، لا شيء.

في الأوقات الأقدم، كنا نغتسل يومياً أمام الحوض في الغرفة، واقفين وفي أيدينا المنشفة أو الإسفنجة، أو على مدار أسابيع، في المطبخ، واقفين في حوض نصف ممتلىء. لفترة طويلة، على أي حال، كان يمكننا أن نملأ أو نفرغ الحوض بأنفسنا. لهذا السبب، كانت ديكا ليزا تنتظر نصف عارية على كرسيها مجيء راهبة الصليب الأصفر والأبيض التي كانت تأتي لتحميمها مع خوسيه المتطوعة. هذه اللعنة، ذكرى العملاقة العارية والصامتة، فيما هو غرفة معيشة خوسيه الآن، يجب أن يتم محوها هي الأخرى. جنباً إلى جنب مع الاحتمال المرعب في أن نجد أنفسنا يوماً في نفس الوضع الذي كانت فيه ليزا: أن تنتظر، عاجزة مرور امرأة تشفق عليها فتتكرم وتأتي لتحميمها من الرأس إلى القدم، مرتين في الشهر، لا أكثر. حضورها لهذه الجلسات بشكل متباعد عزز من معاناتها. وهي لم تكن بحاجة إلى الكثير ليتم ترويعها بفكرة سوء النظافة. أثار اشمئزازها من الروائح المركزة الهوس بداخلها، تحولت حاجتها إلى النظافة إلى فوبيا من الأمراض المعدية، ومن المؤكد أن الأفكار الثابتة لا تميل إلى التراجع مع تقدم السنين.

كانت عيناها، التي اعتادت على وجود البنائين والمهندسين المعماريين، قد وقعت على الممر الصغير الذي يفضي من غرفة المعيشة إلى غرفة النوم. ولقد حكمت بأنه واسع بما يكفي ليتم تقسيمه إلى قسمين باستخدام ألواح من الجص والسجاد المقاوم للماء. سيتم العثور بسرعة على باب مستعمل وستكون هناك مساحة كافية لحوض الاستحمام الثقيل الذي أرادت إحضاره من الطابق الأرضي، لأن المستأجر الجديد لم يكن مهتماً إلا بالمتجر. "إنه يريد أن يعيش في مكان آخر (هي، لا تفهم، بل ومنزعجة منه قليلاً). لم أكن لأفعل ذلك أبداً. أفصل بين السكن والعمل!؟ هذا أمر حسن للعمال في المصانع. لكن ليس للطبقة الوسطى، الجميع يعرف ذلك".

يمكن وضع حوض الاستحمام المطلي بالمينا، الذي عفا عليه الزمن ولكنه مازال صلباً، بمحاذاة الجدار الموجود بالفعل. على الجانب الآخر، ثمة مساحة كافية ما بين حوض الاستحمام وجدار الجص، لوضع حوض صغير، والذي يجب أن يتجاوز صنبور

حوض الاستحمام ليجد مكانه في الغرفة الصغيرة الجديدة. "اسمع، هل بإمكاننا وضع موقد، وثلاجة، وطاولة، ودُش، وسريرين، وخزانة معاً في مكان واحد؟ هذا يمكن القيام به بالفعل. بسهولة" (رافضة بلفتة آخيرة كل الاعتراضات التافهة من وجهة نظرها).

وعلى الرغم من أن "عمير" السباك، كان يتقاضى أجراً ضئيلاً نظير قيامه بهذه الأعمال، إلا أنه لم تكن لديه الشجاعة لكي يعارضها، وخصوصا في وجود شهود.

- هو: "أنا آسف يا عزيزتي. هذه الغرفة الصغيرة ضيقة للغاية على حوض الاستحمام الخاص بك".

- هي: "أنت مخطيء. لقد قمت بقياس كل شيء ورسمته هنا".

- هو: "أنت المخطئة. حوض الاستحمام أوسع من رسمتك".

- هي: "أنت المخطيء. أنت تحسب حافة حوض الاستحمام من هذا الجانب".

- هو: "لأنني يجب أن أقوم بتقطيعه. ولكن سيؤثر ذلك على حوض الاستحمام بأكمله".

- هي: "ليس عليك تقطيعه. وإنما عليك تعشيقه".

- هو: "تعشيقه"؟

- هي: "في جدار الطوب".

- هو: "فتحة بطول الجدار؟"

- هي: "كما بالنسبة للأسلاك الكهربائية، ولكن على نطاق أوسع".

- هو: "هذا لا يصلح. جدارك صغير للغاية".

- هي: "لقد قمت بقياسه. إنه سميك بما يكفي".

- هو: "إذا قمنا بتعشيقه، سيكون هناك تسرب دائماً".

- هي: "لذلك عليك فقط أن تطليه بهذا المنتج الجديد".

- هو: "السيليكون؟ سينتهي الأمر بأنه سيتفكك".

- هي: "حسناً، سأقوم بذلك بنفسي".
- هو: "أنا لا أحب هذا على الاطلاق".
- هي: "وهذا ما أريده".
- هو: "بهذا الشكل، سيكون العمل غير متقن. وبالتالي ليس صحيحاً ولا يعول عليه".
- هي: "إذا كنت لا تعرف كيفية القيام بذلك، عليك فقط أن تعطيني قطاعتك".
- هو: "هذا مستحيل. فالأمر خطير للغاية. لكل شخص مهنته".
- هي: "هل أنت ابن المقاول أم أنا؟".
- هو: "هل أنت السباك أم أنا؟".
- هي: "هل أنت المالك أم أنا؟".

كانت صداقتهما على المحك، ولكن خوسيه فربيك يجب أن تحصل على ما تريد. بالرغم من قناعته وأخلاقياته المهنية، عمير السباك، والذي كان يعمل في هذه المهنة لأكثر من ثلاثين عاماً والذي لم يفعل أي عمل ضد إرادته. ولكن، بعد برهة من الوقت، اعترف بلطف قائلاً: "ربما أنت على حق يا خوسيه". لقد كانت الضحكة المنتصرة حقًا لخوسيه هي التي أساءت لصداقتهما. وليس حقيقة، أنها كانت على حق.

لمدة خمسة عشر عاماً، تم استخدام الحمام الذي كان بحجم الكرفان دون مشكلة، هذا إذا استثنينا الكدمات الزرقاء في ركبة هذا أو تلك أثناء الاغتسال أو حلاقة الذقن أمام الحوض الصغير، فيسقط أي منهما فجأة ويجد نفسه محشوراً في المساحة الضيقة ما بين حوض الاستحمام والجدار.

ومع ذلك، عند ظهور الأمراض البسيطة مع تقدم العمر والتي بسببها يجب علينا أن ندفع استهتار الماضي، ظهرت قواعد جديدة في استخدام أصغر غرفة موجودة في شقتهما. حوض الاستحمام العزيز، الكبير والعميق، فقد الاعتماد عليه. إنه عميق

بالفعل والمينا زلقة للغاية. وبما أنه يفتقد هذه الحافة الشهيرة، التي توارت بمهارة وتم تعشيقها بالكامل وبنظام خاص مع مفاصل سيليكون جديدة، كان يفتقر الجانب الذي يمكن أن يتم الاستناد عليه. مقابض دقت في الجدار؟ لذلك كانت خوسيه صعبة المراس عنيدة للغاية. "مقابض؟ إنني أقل من ثمانين عاماً. إنها جيدة لكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة. ونحن لا هذا ولا ذاك".

ومع ذلك، في المرة الأخيرة التي أخذت فيها حماماً بالفعل، تمكنت من الخروج أخيراً من الحوض بعد ما تركت المياه تملأ حوض الاستحمام وتفيض منه، ثم جلست القرفصاء جوار الجدار المغطى بالقرميد، مثل ضفدع نصف مغمور يستعد للقفز الخلفي المحفوف بالمخاطر، ثم بمساعدة روجيه من الخلف، وجدت نفسها عالقة ما بين الجدار وحوض الاستحمام، تركت زوجها يرفعها من الأبطين حتى تتمكن في النهاية من وضع الأرداف على حافة حوض الاستحمام التي تم الاحتفاظ بها. بعد ذلك، تمكنت من الالتفاف بمنتهى الحذر، رافعة ساق ثم الأخرى على الجانب الزلق، مما يعرضها إلى خطر السقوط إلى الخلف خلال تلك المناورة الأخيرة وانزلاق ساقيها مرة أخرى في أي فراغ موجود في الحمام أو ما هو أسوأ، تصطدم بالجدار وتنكسر رقبتها أو عمودها الفقري الضعيف بالفعل، والذي لا يستطيع تحمل مثل هذه القفزات ليتحطم لألف قطعة مثل قطع الأحجية التي تقع على منصة البهلوان.

أخيراً، قررت أن الاستحمام سيتم على النحو التالي. أولاً ملء حوض الاستحمام بشكل كامل. ثم، مع حركة مائلة، نستقر، نصف واقفين، نصف جالسين، على حافة حوض الاستحمام. ويجب أن نتفق بشكل واضح على أن ذلك لا يتم بجانب صنابير المياه، ولا بجانب مقبض الدش، ولا بجانب بالوعة تصريف المياه، ولكن بجانب الحافة!، الحافة الأوسع. ثانياً، يجب التأكد من الجلوس بشكل آمن، ثم لف بمنتهى الحذر ربع لفة رافعاً ساق فساق لتغمرهما بالماء وإذا لزم الأمر، يمكن الاستعانة بالأيدي ووضعها تحت كل ركبة، لتتمكن من رفع كل ساق. ممسكاً بيد شريكك، يمكنك عندئذ الوقوف في حوض الاستحمام ولكن بحذر! بمنتهى الحذر! لتغتسل أو

لتساعد في الاغتسال معيداً بذلك في الواقع إجراءً من الأيام الخوالي: الوقوف في حوض الاستحمام. ولكن الاستلقاء في الماء أصبح أمراً لا يمكن تصوره.

"لا يمكننا الحصول على كل شيء. الأمر ليس سهلاً، لكن لا بأس".

أعرب روجيه عن أسفه للراحة القديمة في وضع الاستلقاء، لكنه تكيف مع القواعد الجديدة. فالوقاية خير من العلاج. ثم في يوم من الأيام، كان جالساً بأمان على أوسع نقطة في الحافة، كانت الرغوة تغمر ساقيه حتى الركبتين. لكنه لم ينجح في الوصول إلى إسفنجة الاغتسال الخاصة به. لم تكن خوسيه حوله، ولم يرد أن يناديها، لذلك، مال إلى الأمام في محاولة لالتقاط الإسفنجة، لم ينجح، مال إلى الأمام أكثر.

ليس بعد. مازال هناك سنتيمتر صغير غبي ناقص. مال إلى الأمام أكثر. التقط إسفنجة الاستحمام بأطراف أصابعه. وفي الوقت نفسه، شعر بأنه ينزلق.

حاول استعادة توازنه، حاول التشبث بشيء ما، ولكن يديه التي تتحسس طريقها لم تكن تقابل سوي المينا، البلاط الأملس، السيليكون، والهواء.

وهكذا، شاعراً بالعجز، انزلق أكثر وانحدر: طفل كبير يسقط من المزلقة في حمام السباحة الممتع، نصف مقلوب إلى الخلف، الساقين في الهواء والأرداف إلى الأمام. جسده هيج الصابون وجعل من الرغوة موجة تتدفق خارج حوض الاستحمام. وها هو يبتلع الكثير من الماء.

عندما دخلت عليه الحمام وجدته على هذه الحال: على مؤخرته في حوض الاستحمام، يعطس ويسعل، يفرك عينيه، يحاول أن يظهر من تحت جبل الرغوة البيضاء التي بدت مثل قماش شفاف لتنورة كبيرة للغاية. وقد أضحكها ذلك. شاعراً بالارتياح لأنها لم تغضب بسبب وجود الماء على سجادتها وبسبب أنه مازال حتى هذا الوقت في الحمام، ضحك معها.

بعد خمس دقائق، توقفت الضحكة. لم يستطع حتى أن يستدير ليأخذ وضع القرفصاء مثل الضفدعة الذي فعلته زوجته من قبل. لا سيما، مع هذه الساق التي

لم يعد يعتمد عليها كما كان من قبل. أصيب العام الماضي، وتضررت واحدة أو أكثر من أعصاب ساقه، خضع للعلاج ولكن دون جدوى. عندما كان يضطر أن يمشي، كان يجر ساقه، لا شيء خطير، لكن، لا توجد طريقة لإخفائه، فقد لاحظه الجميع. أما بالنسبة لها هي، فقد جعلها ذلك تشعر بالقلق وبالانزعاج. "انظر إلينا قليلاً. نصف حدباء ومريضة تماماً. يمكننا أن نذهب ونستقر جميعاً لدى ويلي الاسكافي، فهو أيضاً أحدب ولديه قدم عاجزة. لكني ولدت هكذا، أما أنت فلم تولد بهذا الشكل. ما عليك فقط سوى أن تكون لديك الإرادة ومستعد للقيام بالتمارين التي علمك إياها أخصائي العلاج الطبيعي. حسناً، افعلها، إذن! لا يستغرق الأمر سوى خمس دقائق كل يوم". (لكنه لم يفعل تمارينه مطلقاً، كما كان يرفض ارتداء الأحذية الطبية التي تساعده على تقويم العظام، فقد فضل محاربة مرضه بتجاهله، فهو كجزار يعرف لغة الجسد، اللحم والأوتار، يعرف جيداً أن لا شيء يمكن أن يفعله لتعود ساقه كما كانت من قبل)، "قدمي المجنونة"، هذا هو التنازل الذي فعله لتخفيف وطأة الواقع، اختار اسما لطيفا صغيرا لإطلاقه على قدمه "قدمي المجنونة" لوصف مرضه الذي لا يمكن علاجه. في الشارع، كان يتلصص في نوافذ المتاجر، ويرى نفسه يسحب ساقه رافعا كتفيه: "قدم مجنونة، وماذا في ذلك؟ هناك أشياء أسوأ في الحياة. طالما كانت لدينا الصحة".

ولكن حتى هذه اللحظة، مازالت هذه القدم المجنونة تعيقه وتتسبب له في أضرار كثيرة. إنه الآن، لا يستطيع أن يستدير أو أن يرفع هذه الساق اللعينة. وليس لدى خوسيه ما يكفي من القوة في ذراعيها العجوزين لكي ترفعه، حتى لو كان قد سقط في المياه التي تساعد على طفو القوارب المصنوعة من الفولاذ. لم تستطع أن تسيطر أو تمسك بجسده العاري، والذي أصبح زلقاً أكثر بسبب رغوة الاستحمام. وسرعان أيضاً ما غطته الرغوة الثلجية التي تذكرك بغابات شجر الصنوبر، وقد أصبح الأمر حالياً لا يطاق ومثيرا للأعصاب. أصبح الأمر كما لو أنها يجب عليها أن تسحب

فقمة من الماء، لتضعها في مكان جاف ولكن هذه الفقمة تنزلق من يديها وتسقط مجدداً في الحوض. أصابها اليأس، أصابته التعاسة، وكلاهما أصابه الغضب.

هي (بشكل قاطع):"سأتصل بأكبر أبنائنا".

هو (مضطرباً، وهذا يعد أمراً نادراً): "انتظري، انتظري خوسيه، دعيني أجرب مرة أخرى".

خلف ظهره، كانت قد غادرت الحمام بالفعل، وتركته وحيداً. يتنهد في ماء حمامه الذي يبرد بسرعة.

بعد نصف ساعة، وتحت عين خوسيه، استطاع الخروج من حوض الاستحمام بمساعدة ابنه البكر. عارياً، محرجاً، شاعراً كأنه الطفل الذي كانوا يعطون له ببرونة في الماضي أو يضعون له الحفاضات النظيفة، تحت طاولتهم المصنوعة من البلوط الصلب، سماء سريرهم المؤقت الآن، يرهف السمع في صمت الليل خوفاً من القنابل الطائرة. وسمح لهما بلفه في المنشفة وتدليك جسده، تماماً كما فعل مع كل من أبنائه الخمس، عندما كانوا صغاراً، كان يلقي بهم على كتفه، ويدفنهم من الرأس إلى أخمص القدمين تحت المنشفة، كما كان يفعل مع ربع خنزير قد وصل طازجاً، ويدخل إلى المتجر بهذا الطرد الصارخ والذي يجعل اللعاب يسيل ليسأل زبائنه المسليين إذا كانوا يريدوا قطعة طازجة، "ليس هناك أشهى من ذلك"، ثم يبدأ في جرد الأرداف من العظام ويعطيهم باليد طبقاً ممتلئاً بالشرائح المصنوعة بحب.

وفي صمت، سمح لهما بلفه في رداء الحمام. وترك الثلاثة هذه المساحة الصغيرة للغاية، التي كانت تمثل مجال خوسيه الخاص، فعلى الرغم من ضيقها، كانت تحتوي على الخزائن الصغيرة والرفوف، المليئة بأشيائها الخاصة، علب مساحيقها الصغيرة، المراهم والكريمات، زجاجات الكولونيا وعينات العطور، علب أدويتها وحبوبها الخاصة بالقلب وبالكبد، زجاجات مزيل العرق وطلاء الأظافر الصغيرة، علب كحل العيون الصغيرة، أحمر الشفاة والمسكرة، كل مستلزماتها من أمواس، مقصات وملاقط.

لم يحدث أي شيء عند خروجه ولا هو ألقى أي نظرة على الأرض. لكنه رفض أن يتبعهم إلى غرفة المعيشة ولو حتى من سبيل فتح الشهية وتناول الطعام معهما.

ذهب إلى غرفة النوم ولم يظهر حتى في المساء.

هو الابن نفسه الذي سيتم الاتصال به بعد بضع سنوات، هذا الابن الذي لم يكن يعرف إلى أين يذهب أو لمن يلجأ في هذه الحالة، حيث بدت خوسيه فجأة وقد فقدت رشدها بعد وجبة المساء. إنه نفسه لم يكن يصدق أن هذه السيدة التي كانت تهمس في الهاتف الخلوي مع ابنها البكر، على مسافة آمنة من مجال رؤية زوجته، هي تلك السيدة الجالسة الآن على كرسيها، تمضغ شيئاً غير موجود، شاحبة، لديها نظرة زجاجية والعرق يتدفق على جبهتها.

لقد قال إنها هاجمته بلا أي سبب. حاولت خنقه. وإنه قد تم كسر بعض الأكواب والأطباق في المعركة. إنه لم يجرؤ على تركها بمفردها وإن لم يكن قادراً حتى على السيطرة عليها. إنه لا يعرف من أين تستمد كل هذه القوة. ولا سيما أنه لا يفهم ذرة مما تصرخ به.

ولقد فاجأها رنين جرس الباب ودخول ابنها عليها وأخراجها من غيبوتها. ها هي تواصل عنفها، من جديد ضد زوجها، وليس ضد ابنها ولو مرة. كان يجب على هذا الابن أن يرمي نفسه بين والديه لحمايتهما من بعضهما البعض. كانت لا تخضع لأي منطق، ولا لأي رجاء بالتوقف.

عندما فقد هذا الابن كل حيله وأصابه اليأس، استدعى سيارة الإسعاف. في الحقيقة، لم يهدئها دخول المسعفين على الإطلاق. حاولت هي بكل الطرق صدهما ودفعهما بعيداً عنها. اضطرا في النهاية لحقنها بمنوم حتى يتمكنا من أخذها.

ثم تم تنبيه بقية العش بما يحدث.

في كيب تاون أيضا رن الهاتف.

بعد يوم من استدعائي، وصلت إلى زافنتم، مطار بروكسل.

وبعد ساعة واحدة، وصلت إلى مسقط رأسي.

كانت في العناية المركزة، عيناها تطلقان الشرر، بعد ليلة من الراحة القسرية، ولكنها، كانت مازالت تعوي مراراً وتكراراً بلغتها غير المألوفة، بلهجتها الشيطانية الجديدة. تقيدها أربطة كبيرة بإحكام إلى السرير الحديدي في العيادة. كانوا يحكمون الأربطة بشدة حول كاحليها وفخذيها وحوضها وكتفيها. ومع ذلك فهي لا تزال تحاول التحرر. إنها تحرك جسدها العظمي في كل اتجاه، تحاول أن تقاوم به كل الأربطة. إنها لم تكن تريد أن تحك الأقطاب الكهربائية جلدها، وحتى الإبر أو الأنابيب الصغيرة في ذراعها. لقد نزعت كل شيء عدة مرات. لهذا السبب، "لحمايتها من نفسها"، يتم تقييد ذراعيها أيضاً، كل منهما على أحد جانبي السرير. عن طريق المعصم والكوع وأعلى الذراع. مع أربطة أدق، بدت وكأنها تنشر جلدها. جلدها الذي كان لونه مثل لون مساحيق التجميل، ممتليء بالتجاعيد لامرأة عجوز، جلدها الناعم كالحرير الرقيق، كمخطوطة مفرودة قديمة. يمكنك أن ترى على هذا الجلد، اللون الأرزق والخدوش من أثر الأربطة التي استخدمت من قبل. بدت كالشهيد، الذي لا نعرف له اسماً. في كل حركة يوجد ألم.

وعلى الرغم من ذلك، مازالت تكافح، وتحرك جسدها يميناً ويساراً بكل قوتها، عنيدة، متمردة، تنبح في اتجاه كل الناس، الأطباء والممرضين، تنبح على كل من تلمحه أو تستشعر وجوده، كل هذا في سيل متواصل لا ينقطع، وأحياناً من بين كلماتها، تسمع مقاطع بالفرنسية أو بالإنجليزية، أو شيء كتعويذة، كصيغة، كأمر، كشكوى: "أبين بتيه"، "ولو حتى قليلاً". اثنين من الكلمات النادرة التي عادة ما تخرج من فمها، والتي تعبر عنها كما كانت من قبل، على الرغم من أنها أحيانا تصرخ بقوة لا تُطاق وبنغمات مختلفة تتوالى بلا انقطاع. مستاءة، راجية، محتقرة، متألمة ومتوحشة. "ولو حتى قليلاً". كل سجلها الماضي يمر، في إجابة مكونة بالكاد من كلمتين. أما، ما كان مفجعاً أكثر، أن كل ذلك يذكرك بالأغنية البهيجة التي تحمل نفس الاسم، والتي سمحت لهولندا بالفوز في مسابقة الأغنية الأوروبية في نفس العام الذي ولدتني فيه.

أغنية "ولو حتى قليلاً"، والتي ما كانت تفسرها كمحترفة في المجال، والتي كانت ترى فيها ربما أغنية متواضعة، ولكنها تفوز دائماً في أي سباق للأغاني، بفضل كلماتها التي كانت معجبة بها، فعلى الرغم من أنها كلمات بسيطة إلا أنها مفعمة بالقوة. "لماذا لا تكتب شيئاً من هذا القبيل؟ شيئا يمكن لرجل الشارع أن يغنيه؟ لم لا؟ لا شيء يهم الفنان الحقيقي أكثر من ذلك. وعلاوة على ذلك، هناك الكثير من الأموال التي يمكن كسبها بسبب هذا". تيدي شولتن، 1959، كان، ولو حتى قليلاً. على شاشة محببة أبيض وأسود، كان يظهر ذكياً ومرحاً. في ألوان المستشفى الخام، في ضوء النيون، كانت هي عبارة عن سلسلة من الثورات، وسوء الفهم، والغضب، والألم. "ولو حتى قليلاً".

ثم بدأت مرة أخرى في التلعثم وفي التذمر، مثل الذئب الصغير، اللعاب على شدقيه.

فقد القدرة على الكلام.

إنها لم تلاحظني بعد، الحمد لله. ليست لدي الشجاعة لكي أنظر إليها، لم أجرؤ على لمسها، كان يجب علي أن أهدأ أولاً. من الصدمة ومن اللوم الذي عانيت منه.

في كيب تاون، لم أتمكن من فهم جميع الآثار المترتبة على مكالمة هاتفية مذعورة من منزل والدي. لم أصدق أن هناك شيئاً كبيراً قد حدث. وطوال الرحلة على متن الطائرة، كنت أشعر بالغضب مقدماً. "إنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء بشكل طبيعي، هذه المرأة؟ إنها دائماً نفس الأوبرا، نفس الحركات المسرحية، نفس الابتزاز المستمر. دائماً التلاعب والضغوط والمناورات على جميع الجبهات". في الوقت نفسه، بينما كنت في الهواء على ارتفاع عشرة آلاف متر فوق سطح الأرض، كنت أشعر بالانزعاج والاستياء بسبب كوني متشككاً لهذا الحد. هل بإدانتها مسبقاً، هذا يجعلني لا أنخرط في أحداث هذه الأوبرا السخيفة؟ لا يمكن أن يكون هذا مظهراً جديداً لكوميدياها المعتادة، أليس كذلك؟ إنها لا يمكن أن تتجرأ وتذهب إلى أبعد من ذلك؟

لم تكن هذه أول محاولة لها. خوسيه فيربيك، التي ظهرت هكذا، باسمها قبل

الزواج، على كل الملصقات المسرحية، وحتى إن لم تكن المسرحية نسوية، الكلمة التي كانت تعتبرها إهانة، فهذه الكلمة ليست إلا سراباً وهي لم تكن بحاجة إلى التحرر وكلمة "التحرير" لم تكن بالنسبة لها سوى للتعبير عن الأنين والاعتلال الصحي، وبالتالي، لم تتراجع خوسيه فيربيك أمام أي شيء في حياتها.

في كل مرة، كنت أغادر فيها لفترة طويلة، وبالتأكيد إذا كانت وجهتي كيب تاون، كانت تتخيل كل عام أنني أخطط وأقوم بالإجراءات الرسمية لكي أعلن استقراري هناك يوما ما، كحقيقة واقعة، ها أنا مقيم بشكل رسمي في بلد آخر، في قارة شاسعة ومتعطشة للدماء قدر الإمكان بعيداً عن موطني، عذراً، بعيداً عنها قدر الإمكان، ففي كل مرة، أكون فيها على وشك الذهاب الى السفر، تعود هي إلى المشهد نفسه. تتصل بي بإلحاح ومن المفضل لديها أن تتصل في منتصف الليل. لا تزال هناك أوراق تحتاج إلى ترتيب. بشأن وصيتهما. أو بشأن وصيتي: هل كتبتها؟ لا. هل هذا ينم عن المسئولية، لماذا تتصرف بهذا الشكل؟ "هل هذا ما ربيتك عليه وعلمتك إياه؟" صرخات حادة على الطرف الآخر من الخط، والتي تنتهي بالتأكيد، على أنه بالرغم من وداعنا أمس، إلا إنه من الضروري أن أعود مرة أخرى لوضع بضع نقاط على عدد قليل من الأمور.

لم أكن أريد ذلك، لكنني ذهبت هناك.

مرة أخرى، دون أي تأخير، كان علي أن أمضي قدماً في شراء الكوخ الخاص بهما وقطعة الأرض المجاورة، لأن معاشهما كان أقل من المتوقع وأنا لم أكن أكسب قليلاً في حياتي، أليس كذلك؟ وحتى إذا كان ما أكسبه قليلاً، فيجب أن أكون صادقاً وأعترف أن الفضل في هذا الأمر يعود إليهما أيضاً، أليس كذلك؟

من ناحية أخرى، كان والدي المسكين واحداً من هؤلاء المستقلين الصغار الذين لا حصر لهم والذين يحصلون على معاش زهيد. إنهم "المهترئون الجدد في المجتمع"،

وكانت هي، بوضعها الرسمي كمساعدة لأحد المستقلين، تعامل أكثر سوءاً من قبل السلطات، "إنها مهترئة بين المهترئين".

لقد كانت سعيدة، لأنها عملت فترة قصيرة في شبابها في هذا المصنع الذي يملكه جوت لوكيرين، فدون هذه الفترة، كان معاشها سيصبح "حفنة من الفول السوداني". لكن يا إلهي، كان الأمر كما لو أنها لم تكن موجودة،"كما لو أنني لم أحقق شيئاً في الحياة". "جزارة لمدة أربعين عاماً وأماً لخمسة أطفال، وإذا سمحتم، جميعهم استكملوا الدراسة وحصلوا على شهادات وكلهم ناجحين، وهذا كله بفضل من؟".

علاوة على ذلك، كان عليهما أن يشتريا "هذا المنزل الحقير واللعين لديكا ليزا"، هذا الشراء الذي جاء متأخراً جداً في مسيرتهما المهنية، مع تكلفة عالية للغاية ورهن عقاري ثقيل ومرهق للغاية. صحيح، أنهما كانا لا ينقصهما شيء، ولكن، لا نستطيع أن نقول أن شراء مثل هذا المنزل كان نوعاً من الترف. باختصار، ألن تكون فكرة جيدة أنه قبل مغادرتي إلى كيب تاون، أن اشتريت لهما كوخهما في بيفوت؟ إنها لم تكن تنتظر مني أن أتحطم بطائرة البوينج التي أستقلها، بل على العكس، فهي لا تريد أن تفكر في ذلك، وإلا فإنها كانت ستأتي إلى المطار وستنام على المدرج طوال رحلة الطائرة. ولكن حمدا لله، إنني بشرائي لهذا الكوخ، كنت عندما أعود، سيكون لي على هذا الجانب من الكوكب مكان لقضاء وقت ممتع، مع بعض الخضرة والكثير من الهواء النقي. في الحقيقة، كان هذا ضروريا لي للغاية وخصوصاً في الآونة الأخيرة، عندما كنت مرهقاً ولست بصحة جيدة، الهالات السوداء حول العينين، والشعر الرمادي يملأ كل رأسي "حتى أصغر أبنائنا أصبح لديه شعرٌ رمادي". ولكن حسناً، لم يكن الأمر مفاجأة بالنسبة لي، فأنا لم أخرج بما فيه الكفاية، كان الجانب السيىء من وظيفتي هو أنني دائماً جالس على مكتبي أو على كرسي مخملي، متصلباً دائماً، على مؤخرتي، أنقب عن الأفكار في عقلي ثم هناك أمر آخر يوثر علي أيضاً ألا وهو نوعية الأوكسجين في أنتويرب، يا إلهي، يا إلهي! إنها تحت كل شيء، إنه لا يزال يكتب عنها في الجريدة الأسبوعية، ومع ذلك لم يكن حتى الآن، أنتويرب، "أنتويرب الخاص بك"،

من الواضح إنه على الجانب الآخر من شيلدت، شكراً لك يا الله، نهر، يحمل كل الأوساخ والأتربة، نعم، نعم، عالياً في اتجاه السماء، من المعروف أن الماء لديه قوة طافية، إنه يشكل حاجزاً، لذلك يمكنك اكتشاف المزيد من الأشياء في الطابق السفلي في الصحراء باستخدام عصا الساحر، ظننت أنني لا أعرف ذلك؟ إنني لا أقرأ الصحف بما يكفي، ربما! ولكن ماذا سيحدث، إذا مررت تحت شيلدت نفسها؟ أستطيع الآن أن أكون هنا في غضون ربع ساعة، في حديقتي الخاصة، آخذ حمام شمس، إذا كانت لا تمطر، أستطيع أن أجز العشب الخاص بي، وأن أزرع نبات الهليون كما أريد في الموسم المناسب، حيث تظهر الفراولة بشكل جيد في الوقت نفسه، طالما تركتها العصافير وطائر العقعق هادئة ولم تسرقها بمناقيرها الصغيرة، وفي الصيف، يمكنني الذهاب والتقاط ثمار التوت في الأنحاء حتي يصبني المرض، وفي الربيع يمكنني أن أقطف زهور الصفصاف وفروع الالزان لأضعها في مزهرية في المنزل "إن هذا الكوخ مزخرف بشكل رهيب، وبالتأكيد في الدور العلوي في أنتويرب مثل منزلكما، الذي يشبه هذا النوع من أقفاص الأرانب مع الجدران البيضاء".

هيا، بماذا أفكر؟ ألن تكون فكرة رائعة؟ ماذا؟ شراء مثل هذا الكوخ؟ حسناً! "لن يكلفك هذا شيئاً وفي الوقت نفسه يوفر لك مزايا عديدة. في أيام الأحد، ستتمكن من زيارة عجائزك الصغار، وخلال عطل نهاية الأسبوع الطويلة ستكون قادراً على النوم، ويمكنك بسهولة أن تدعو كل معارفك إلى حفلة شواء صغيرة، وإذا كنت تريد، يمكن لوالدك أن يحصل على اللحم بسعر جيد من أحد أصدقائه من مورديه القدامي، أما السلطة والحلوى، سأكون أنا مسئولة عن تجهيزها. هيا، ما رأيك؟ إنك لن تقول لا، أليس كذلك؟ ولكن شراء مثل هذا الكوخ! لمرة واحدة، اجعل والدتك سعيدة بدلاً من أن تجعل جمهورك سعيداً دائماً! من دوني، لن تكون هنا من أجلهما".

في اللحظة الأخيرة، قبل كل رحلة، نفس الكلمات، نفس الشعور بالضيق، نفس المشاكل والتي تنتهي بـ: كيف تملك الجرأة للتخلي عنا هنا. عذرا: للتخلي عني هنا. لا، ليس الآن، أبداً. ابق.

لم يكن لدي أدنى رغبة في شراء هذا الكوخ. لكني، اشتريته على أي حال. وبناء على نصيحة والدي، بعته على الفور بعد وفاة خوسيه. لم يعد يريد الذهاب إلى هناك. ولا حتى أن يلقي نظرة ولو حتى صغيرة. على الحديقة، التي يصل عشبها إلى الركبة الآن، إلى زهور الرودودندرون التي أصبحت متوحشة الآن، إلى حديقة الخضار التي تجتاحها حالياً النباتات الشوكية والحشائش البرية، على الشرفة المفتوحة مع عمودها الخشبي الذي بدأ يدب فيه العفن. "لم أعد أستطيع أن أرى شيئاً. الأفضل أن تبيعه يا بني. بهذه الطريقة، شخص آخر على الأقل سوف يستمتع. لن تكون هناك تحية أفضل من ذلك لوالدتك".

كانت هي، هي بالتحديد من حُرمت من الكلام! هي على وجه التحديد، التي كانت عنيفة مع أبي؟ لا، لم يكن الأمر مجرد مزحة. عالٍ في الهواء، محلقاً فوق كينشاسا والكالاهاري، مخدر بالخمور، التي احتسيت منها كمية كبيرة للغاية، أشعر بالقلق والانزعاج، كان هذا الخاطر يأتيني كثيراً. مربوطا بلا خيط، ما بين الحلم والكابوس، إلى ذكرى مريرة وحلوة في الوقت نفسه، ذكرى تعد بالنسبة لي من أكثر المشاهد جرأة في حياتي. كانوا يبحثون عن: ممثلة ومخرجة لمشهد ابتزاز عائلي مبتذل. الأداء المسرحي لم يكن مستبعداً.

كنت في حوالي السابعة من عمري، وفي أحد الليالي، وفي وقت متأخر جداً من الليل، أنتفضت من على سريري، بسبب سماعي لأصوات عالية ومتحمسة وكذلك لصوت أنين وشكوى تأتي من الدور الأسفل. في حالة عدم توازن ما بين النوم والتثاؤب، وبعين مغلقة، حاولت نزول الدرج متلمساً طريقي بقدم تلو الأخرى. كان شديد الانحدار، مثل جميع السلالم الموجودة في هذا المنزل. لكن بالإضافة إلى ذلك، كان بدرجات مائلة، مع جدران عارية في الجهة اليمنى واليسرى بدون نوافذ أو قضبان.

تتم تغطية الدرجات بسجادة زرقاء داكنة، حيث يمكننا أن نلمح بسهولة كل أنواع الوبر والشعر. بالتناوب، كل منا عليه أن ينظف السجادة مرة كل أسبوع بالمكنسة

الكهربائية، مع استخدام أصغر فرشاة للتنظيف يمكن أن توضع في ماسورة المكنسة. مع العلم جيدا أنه بعد نصف ساعة، بمجرد أن يتسلق شخص ما الدرج، وحتى إذا قام بمسح حذائه أو شبشبه بشكل جيد في سجادة جوز الهند بالأسفل، سنعود مجدداً إلى العرض نفسه. على السجادة، سوف نرى مرة أخرى الوبر، الشعر، الغبار والفتات. تستقطب الكهرباء الساكنة للنسيج الاصطناعي كل شيء، حتى بذور الهندباء في الصيف، المظلات الصغيرة التي تحملها الرياح من كل اتجاه من المناطق المحيطة.

وكلما نزلت الدرج، تزداد الأصوات حدة، مما جعلني أتردد، أبقى بلا حراك لفترة، ولا زلت أشعر بالنعاس وإحدى عيني مازالت مغلقة، وبالعين المفتوحة الأخرى، أمعن النظر في الشيء الذي يمكن مشاهدته هنا: أنا في المرآة بارتفاع رجل. مثبت على الجدار فوق الباب الذي يغلق الدرج. إذا فتحناه، نرى الجزء الداخلي من غرفة الصالون الصغيرة، إذا دفعنا رأسنا إلى اليمين، نرى غرفة المعيشة الضيقة. هذا هو المكان الذي نجد فيه طاولتنا، مخبأنا الحربي الضخم من خشب البلوط الذي يحتل جانباً الآن من الجدار تحت النافذة الوحيدة الموجودة في الغرفة، بحيث نأكل كل وجبة من وجباتنا أمام حركة الحياة، حركة المرور على جسر أنتويرب. لا يفصلنا سوى زجاج وستار من الشاش المموج عن السيارات الصاخبة وراكبي الدراجات والشاحنات والحافلات والمارة الذين يمكن لنا أن نستمع إلى كل حرف يدور في محادثاتهم. خاصة، إذا اقتربوا من حافة نافذتنا لتناول البيرة والطعام، مما يحجب رؤيتنا قليلاً، رؤيتنا المحتجبة بالفعل. لكن التجسس على مناقشاتهم يعوضنا عن النقص.

ها نحن في نهاية المساء، وقد نزل المصراع الأسطواني بالفعل منذ فترة طويلة بصوته الرتيب، وسجادة السلالم الزرقاء تدغدغ أقدامي العارية، وأنا مازلت أتامل نفسي في المرآة، مع بيجامتي التي اختفت خطوطها بالفعل بسبب عدد مرات الغسيل، إرث يتوارثه الأخ من أخيه والأخت من أخيها. "البيجامة هي البيجامة، يا صغيري (تقول هذا وهي تمرر إبهامها وسبابتها لتقيم في البيجامة الأجزاء التي أصبح فيها القماش أقل سمكاً). عندما تصبح عليك أصغر، سأصنع منها خرقا لتنظيف الغبار".

على الجانب الآخر من الباب، هدأت الضوضاء. لم أعد أسمع إلا تنهيد ونحيب بصوت منخفض. اختفيت تدريجياً من المرآة أمامي، وسمحت لنفسي بالانزلاق إلى الأسفل وفتح الباب الذي يغلق درجنا بمنتهى الحذر. من خلال الفتحة، استطعت أن أرى اللوحة التي كان يمكن لماريا الفنانة أن ترسمها في يوم من الأيام:"الأم المتألمة محاطة بأسرتها شبه كاملة".

كانت مستلقية على الأريكة مرة أخرى، جفونها مشدودة بشكل واضح، ضغط بارد على جبينها، وهذه المرة في ثوب النوم تحت رداء الحمام المفتوح. فمها مع زوايتين متدليتين كان يمتص الهواء بشراهة وبصوت مسموع. يرافق كل نفس، أنين بصوت مرتفع، وبعد عدة مرات من التنفس، كانت تطوح رأسها يمنياً ويساراً على الوسادة، كما لو كانت تحرر نفسها من خاطر سيئ، يعود إليها باستمرار ولا يتوقف عن تعذيبها. بيد تعانق المكان الذي يوجد فيه قلبها، والأخرى ممدودة في الهواء، كف اليد مرفوعاً، نحو لا أحد على وجه الخصوص، إنها إيماءة تدل على طلب المساعدة بشكل عام: "حبة أخرى.. سريعاً! حبة صغيرة من الدواء الذي يسمى كارتر.. قلبي.. قلبي المسكين". كان كلامها مفهوما تماماً، على الرغم من التنهدات، ضيق التنفس، الأنين بصوت مرتفع وتطويح الرأس يميناً ويساراً.

حول الأريكة، يقف ثلاثة أبناء، ابنة والأب. كانت الأصغر من بين الواقفين جميعاً، أختي التي تبلغ من العمر إثنا عشرة عاماً. هي الوحيدة، التي يبدو عليها الاستعداد للانفجار في البكاء. لدى الآخرين، يهيمن الانزعاج (ابنها الأكبر سناً)، هز الرأس مع شعور بالعجز (الزوج) وكراهية المراهق الأكثر وضوحاً (لدى ابنها الأصعب في التعامل). هو وحده يركع أمام الأريكة المجاورة لها. الدموع التي كان يحاول كبتها، كانت تعبر عن الغضب الخالص. قبضاته البالغة من العمر ستة عشر عاماً كانت مشدودة للغاية. "تعال يا ولدي"، يقول الأب، بنبرة هادئة ولكن حازمة، قل إنك ندمت على ذلك. اطلب الصفح من والدتك".

ولكن ابنهما الأصعب في التعامل لا يجيب. كان يهز رأسه بعناد لها وينظر في عدم التصديق مثله مثل إخوانه: ولكن كيف تجرؤ؟! كل من الغرفة، يعلم أنها تريد أن تظهر بمظهر حبيبة العالم كله، إنها تريد أن تبين من هو القائد هنا، تريد أن تحافظ على سلطتها وذلك بفضل الطريقة التي تستخدمها بشكل أفضل: الخيال الحي. وفقا لمنطقها الخاص، إذا ادعى المرء أن شيئاً ما يمكن أن يكون حقيقة، فإنه يتوقف عن كونه كذبة.

"هيا يا فتى. تأخر الوقت. اطلب منها الصفح". مرة أخرى، لا يهز ابنهما الأصعب في التعامل رأسه، ولكن يطوحها يميناً ويساراً، كما كانت تفعل هي منذ قليل على وسادتها. التقليد بمثابة الاتهام. الإجابة على هذا التحدي وعلى هذا الاستفزاز أتت سريعاً. أطلقت صرخة جمدت نخاع العظام مع وضع يدها بمنتهى العنف على قلبها: "روجيه! روجيك! حسناً روجيه!".

"لا تبدو بخير؟"، يتساءل روجيه، وهو منحني عليها، ممسكاً في يده كوبا بلاستيكيا ممتلئا بالماء وباليد الأخرى، حبة كارتر الصغيرة. العلاج المعجزة الذي سمح لخوسيه أكثر من مرة بالإنقاذ بأعجوبة من السكتة القلبية. مع حركة غير منضبطة على ما يبدو ولكنها نفذت بشكل مهيب للذراع، تتطوح الكوب والحبوب من يد زوجها. ينسكب الماء على رداء حمامها، يسقط الكوب أرضاً، ويطير العلاج المعجزة في الجهة الأخرى. "بسرعة! اتصل بالدكتور هيلبوت! أو لا! لا! استدع سيارة الإسعاف، هيا، قبل فوت الأوان، هيا بسرعة"، يلي ذلك تأوه متقطع مع صوت إيقاعي يرتفع أكثر وأكثر.

وعند هذا الحين، لا أحد يصبح قادرا على المقاومة. حتى ابنهما الأصعب في التعامل، يجب أن يعترف بالهزيمة. يبكي الآن من إحباطه بسبب هزيمته، ويطلب الصفح من أمه. ولكن، تستمر هي فيما تفعله، كأنها لم تفهمه. وبالتالي، عليه أن يطلب منها الصفح مرة أخرى.

(ومع ذلك، فالأمانة تقتضي أن نقول، أنها خلال حياتها، قد عانت من أزمتين قلبيتين حقيقيتين. مرتين بعد إجراء عملية، هذا صحيح.)

"في مرتي الأولى لم يكن أحد يصدق ذلك. لم ير أي من الأطباء في مستشفي واسعة ذلك، قالوا إنهم فقط قرأوا عن هذه الحالة في الكتب (تقول هي ذلك بفخر غريب، وكأن أمراضها تعطيها مكانة مميزة في المجتمع). أما في مرتي الأخيرة، فكنت أعاني من انسداد. لم أكن أستطيع أن ألبي احتياجاتي بنفسي.

كان عليهم معالجتي بجهاز خاص. كان هذا الجهاز يقوم بعملية توسيع وهذا مؤلم للغاية. في الواقع، لقد أنجبت خمسة أطفال. حسناً، ولكن دعوني أخبركم: إن الولادة بمثابة لعبة الأطفال مقارنة بعملية التوسيع هذه. استيقظت، على بطني بطبيعة الحال، وعلى الرغم من التخدير، شعرت بالألم على الفور، هنا وبوم، بوم! أشعر أن قلبي يتوقف عن الخفقان. إنني مستعدة على القسم بذلك. إنه يرفض أي جهاز. وأنا لم أعد مهتمة. كل ما فعلته هو أنني غرقت في الابتسام. شكراً لك يا رب شكراً لك! أي شيء بدلاً من هذا الألم في العضلة العاصرة. ولكن، مهلاً، ماذا تريدون حقا؟

صدموني بالصدمات الكهربائية، قاموا بتدليك القلب، كادوا أن يكسروا ضلعا، كل هذا مع الهزة المقدسة. وفي الوقت نفسه، كانوا يتحدثون. حول عائلتي، حول روجيه. حول مسرحية عائلة فان بيميل، التي كنا نتدرب عليها وكنت أمثل فيها دور مزارعة عجوز، يا له من دور جميل. ولكني لم أفقد شجاعتي، كما هو الحال دائماً، وخرجت من كل هذا".

لا مجال لتقوم الممثلة الشهيرة بتقديم عروضها المسرحية أفضل من مرضها. كان لديها ألم حاد في العين؟ لمدة أسبوع، تحملت إغاظتنا لها. "ربما ستغلق عينك مثل مؤخرتك"، "ربما، سيكون لديك قروح على شبكية العين، تجعلك تغمزين إلى جمهورك!" حتى عادت يوماً إلى المنزل مرفوعة الرأس بعد زيارة طبيب العيون."هذا

الرجل الطيب، لم ير أو يقرأ شيئاً من هذا القبيل، قال لي (دائماً بنبرة الفخر نفسها) لا تسألوني كيف، ولكن بذرة صغيرة من بذور الفراولة قد استقرت في الزاوية الصغيرة في عيني، وبما أن المكان هناك حار ورطب، أصبح لديها جذور، الأمر حدث كما أقول لكم تماماً. كانت البراعم الصغيرة على وشك الدخول إلى الجسم الزجاجي في العين.

هل سمعتهم عن ذلك من قبل؟ الفراولة كانت تنمو في عيني. بينما في حديقتي تتعفن بدلا من أن تنضج".

(حساسية في الحلق؟ في هذه الحالة، لم تكن حبة الفراولة الصغيرة هي المسئولة، ولكن شعر القط كان هو السبب. حتى وإن لم يكن لدينا قط في المنزل. ولا حتى كلب. فإنه في منزلنا، غير مسموح لنا باقتناء أي حيوانات أليفة. منذ نعومة أظافري، لم أكن أعرف لدينا سوى الحيوانات الميتة والمتقطعة. حب الحيوانات؟ نقوم ببيعها من الأغنام إلى الحصان، معبأة بعناية ودائماً، لكل مائة جرام أو أكثر، لدفع ثمن ملابسنا ودراستنا، ناهيك عن الخبز اليومي. ثمة ندم؟ كل يوم جمعة، نعطي لزبائننا حافظة مضاعفة لنقاط الادخار في فالوا، على أمل أن العدد المتبقي من الضفادع على قيد الحياة، يقنعهم بعدم أكل السمك الميت في ذلك اليوم، ولكن بأكل لحم الخنزيرالميت، بأكل لحم الحمل الميت، بأكل لحم الدجاج الميت، أيا كان. لا شيء يتفوق على ملذات الجسد).

(لا. لقد كذبت بشأن الحيوانات الأليفة. قضيت السنة الأولى من رياض الأطفال لدى راهبات كانت أغطية رؤوسهن وملابسهن سوداء في كنيسة ظهور السيدة العذراء، الراهبة ترسيسيا والراهبة جنفياف، فقط وجوههن وأيديهن لم تكن مغطاة. قالتا أن أجراس عيد الفصح جلبت الكتاكيت من روما. اثنان لكل طفل صغير. على مضض، سمح لي والدي بالاحتفاظ بالمخلوقين الصغيرين في صندوق أحذية بجوار موقد الفحم في غرفة المعيشة. في الأيام الأولى، كان هذان المخلوقين عبارة عن كرتين من الزغب الأصفر، يزقزقا بمنتهى اللطف، ويقفزان بهدوء متخبطين بشكل هزلي

على جدران علبة الأحذية الخاصة بهما، ثم يسقطان مرة أخرى، وترتفع أقدامهما البرتقالية. بعد أسبوعين، أصبح حجمهما لافتا للنظر للغاية وأصبح لونهما شبه أبيض، كانا يركضان ويقرقران على سجادتنا الفارسية، كانا يبحثان عن ديدان وهمية، وكان من المستحيل علينا إعادتهما إلى صندوقهما النتن. حتى أن أحدهما ظهر أمام طاولة البيع، وكان مذهولاً تماماً، مما أثار متعة العملاء. في كل خطوة حذرة، كان ينطلق إلى الأمام، ثم يلقي برأسه إلى الخلف. حتى إنه أخذ يبحث عن الديدان في الأرضية المكسوة بالبلاط، مظهراً هذه النظرة البلهاء والفارغة التي تكون لدى الدجاج البالغ. ثم وصل إلى قدمي والدي ونظر إلى العملاق ذي الوجه الحليق مع مئزره الأبيض، حاملاً في يده سكينا للتقطيع. في اليوم التالي، اختفت الدجاجتان الصغيرتان مع صندوق الأحذية الخاص بهما. احتجاجاً على ذلك، رفضت تناول مرق الدجاج لمدة شهر كامل). (تصحيح: لمدة أسبوع، لا شيء كان أفضل من مرق الدجاج الطازج).

(في المرة الثانية التي توقف فيها قلبها، كانت مسنة، وكان ذلك بعد جراحة في الركبة. أصرت على وجه التحديد على عدم الخضوع للتخدير الكامل لأنها علمت أن هذا هو السبب في أول سكتة قلبية لها. على أية حال، كانت تشك في الجراح الشاب الذي كان لا يريدها أن تنظر إلى جهاز التصوير بالأشعة السينية الخاص به، فقط طلبت ذلك تطبيقاً لأحد أقوالها المأثورة المفضلة:"عندما تعتني بنفسك، تتحسن الأمور. إنها ركبتي، وليست ركبته".

قبل أن تتمكن من التذمر، كانت نائمة تماماً بدلاً من ممارسة التخدير الموضعي. "استيقظت على ظهري هذه المرة، وأدرك أنني قد خدعت من رجل العصابة هذا مع سماعته وكذلك لدغت من نوبات غضبه. وبوم، بوم، توقف قلبي. أقسم لكم على ذلك. إن الأمر بسيط للغاية، إنني لم أعد أتحمل ذلك، الظلم والخداع. كان عليهم أن يعدوا عيادتهم على قدم وساق، وضعوني على السرير، وبقية الوقت، كنت أدخل المصعد، أخرج من المصعد لأجد نفسي في طابقين أعلى، أذهب إلى العناية المركزة مرة

أخرى، أتلقى الصدمات الكهربائية مرة أخرى، يحدث تدليك للقلب، يتحدثون معي لمدة ساعة، كل برامجهم اليوم انقلبت رأساً على عقب.

بعد ذلك، عندما استعدت عافيتي، قالوا إن هذا لم يحدث من قبل، سكتة قلبية بعد عملية بالمنظار في الركبة! لقد حذرتكم، بالرغم من كل شيء، لقد قلت لكم. ها هو رجل العصابات يأتي إلى غرفتي وهو في منتهى الهدوء، من المفترض أنه قد أتى لكي يعتذر. بدأت بالصراخ على الفور. خارج غرفتي يا سيدي العزيز! كن سعيداً لأنني لا أملك المال الكافي. وإلا كنت سأقاضيك ولا أترك شعرة على جمجمتك".

شاعراً بالخجل وبالعجز، أقف بجانب سريرها في وحدة العناية المركزة. مازلت بملابس السفر، ولم أستطع أن أسترد عافيتي بعد من الصدمة الأولى. ألعن كل خلية في جسدي، الجسد الذي صنعته هي. لأنني تجرأت على افتراض، ولو لثانية واحدة، أن هذه المرة أيضاً واحدة من ألاعيبها وحيلها، واحدة من الدسائس البشعة التي تقوم بها طاغيتنا الصغيرة. الطاغية، المكبلة بالأصفاد، تنظر إلي بعيون مليئة باليأس وبالانتظار. كانت نظرتها المجهدة تتجه نحو الأشرطة التي تجعلها سجينة، إلى الأربطة التي تقطع ذراعيها، وإلى إبرة المحلول المنغرسة في طية كوعها الناعمة. لم يكن من الصعب تخمين ما تريده. لكنها لا تستطيع أن تقول ذلك. كان من المؤلم رؤيتها هكذا، متسلقية هنا وفي غاية المعاناة، ولكن ما يخرج من فمها، أحياناً في لهجة الغضب، أحياناً على شكل توسل، كان يمثل إلى حد ما جريمة. لماذا يجب أن تكون هي الضحية لهذا المرض؟ هي التي تعاني من هذا العجز الصارخ. ليس من قبيل الصدفة، أن يطلق على الوطن اسم البلد الأب وعلى اللغة اسم اللغة الأم. الوطن، بوسعنا مغادرته وحتى الانتقال منه إلى الجانب الآخر من العالم. أما اللغة، فلا نستطيع التخلص منها قط. إن هذا على الأقل ما اعتقدته. حتى رأيت أمي بعيني تفقد لغتها وبالتالي لغتي. منذ ذلك اليوم، وأنا أيضاً أصبت بالخرس، كنت أستطيع أن أكتب ما أريد، طالما أردت ذلك، أينما أردت ذلك، ولكن كيف لي أن أجد كلمات أقل قساوة للتعبير عن هذا النوع من الرطانة الغاضبة؟ أي نوع من الكلمات يمكن أن أضعه لمحو ذلك وإخفائه

عن ذاكرتي؟ كيف لي أن أنسى هذه الفضيحة، هذا العار، كيف يمكن أن يكون ذلك موجودا فيما يجرؤ الكثيرون على تسميته بالخالق وينسبونه إلى الكائنات العليا؟ هي، من بين جميع النساء. وهذا، من بين كل الأهوال التي يمكن أن تحدث. لا أعرف ماذا أقول. لم يعد لدي لغة أخرى غير لغة الإيماءات. منهاراً، مع شعور بالجبن اللانهائي، وضعت يدي على جبهتها وارتجفت عندما شعرت بعرقها البارد.

هي، رغماً عن ذلك، كانت أقل انهياراً أو ضعفاً. حتى وإن كان جسدها تعوقه الأشرطة، فكان فمها مازال يتحرك، يخرج بكل شجاعة لغتها البربرية العنيفة، وهنا وهناك، تظهر كلمة إنجليزية أو كلمة فرنسية من بين التأتأة التي تقطعها مراراً "قليلاً؟ قليلاً! قليلاً" أسطوانة مشروخة. ها هي كالشخص الغريب الذي يلتمس طريقه مع الكلمتين الوحيدتين اللتين تستطيع النطق بهما في الأرض المحرمة المليئة بالصم. ها هي تحاول من جديد نزع أربطتها. لا أعرف ماذا أفعل. فقد استنفدت لغتي من الإيماءات بالفعل. ولكن لم تفقد هي لغتها، أوه لا. كانت أداتها الأساسية هي النظرة. كانت نظرتها تقول الكثير. تذكرك نظرتها بالوعد الضمني الذي قطعته على نفسي ولكن دون أن أثير اعتراضها في كل مرة كانت تعود مع روجيه من الزيارة الأسبوعية لأختها المريضة. سابقاً، كانت ماريا الفنانة، أما الآن، فهي ماريا المثيرة للشفقة. ماريا المجنونة. ماريا التي تسأل في كل مرة عن مكان ابنها الصغير.

فضيحة أخرى ممن نجرؤ ونسميه بالخالق.

تذكير تاريخي متواضع: كان لدى ماريا الفنانة أربعة أطفال أصحاء، ابنان وبنتان، وكذلك زوج لديه طموحات فنية محبطة. منذ فجر التاريخ، انعكس هذا الإحباط على النسل، وخاصة الابن المتوسط. كان هنا اسمه أندريه، أندريك، ويسمى أيضاً بصغيرنا. في السادسة عشرة من عمره، كان طوله مترا وتسعين، كان الأطول في الفرقة، ولكنه أيضاً الأكثر ظلاماً والأكثر تعاسة. تم الإعلان عن أول حالة اكتئاب أصابته. وقد بقي اسمه صغيرنا.

منذ أن كان صغيراً جداً، لم يكن نشازاً في التشيلو على الإطلاق، مما كان يبرر تنبؤات أبيه: في النهاية سوف يبرز الفنان الذي له الحق في أن يكون من ذريته. ولكن عندما، كان في الثانية عشرة من عمره، عند المناولة الأولى له وحيث أنه كان قادراً على الذهاب إلى الكلية، غير أبوه المحبط رأيه. لن يصبح ابنه موسيقاراً مشهوراً. سيصبح كاردينالا.

"بعد اليوم الأول في الكلية، عاد صغيرنا إلى المنزل" يقول الأب بكل فخر للزبائن الذين يطلي لهم الواجهات والذين ينظرون إلى ساعاتهم بينما هو يحاول أن تكون لديه معهم علاقة حميمة. "أما هو فقد كان يضحك فقط: إنها اللاتينية يا أبي؟ روزا وروسام وروساس! هل هذه هي اللغة السرية الشهيرة لباباوات وعلماء العصور الوسطى؟ لعبة الطفل، هذا ما كان صغيرنا يقوله باللاتينية"! ولكن في نهاية العام الدراسي، رسب الكاردينال المستقبلي وتشاجر مع والده وفارق منزل والديه حتى نهاية أيامه. لا، لن يتخلى عن التشيلو. لقد تزوج، أسس أسرة وشارك في الأعمال التطوعية ويبدو سعيداً رغم ميوله الاكتئابية. وقد ازدادت هذه الميول الاكتئابية عندما فقد أبوه عقله وتوفي وأصيبت أمه بالجنون. في إحدى الليالي، وكان في الأربعين من عمره، كتب رسالة وداع إلى عائلته وقد استخدم فيه اقتباس من مسرحية أوديب الملك لسوفوكليس. لقد ترك قوس الكمان لابنته الثانية، التي كانت تشاركه حب الموسيقى. ذهب إلى الحديقة، جلس، سكب على نفسه البنزين وأشعل عوداً من الثقاب. بادرة كبيرة في بلد كل شيء فيه صغير. أصبح محاطاً بالنيران بالفعل، وأخذ يدور في دوائر حول نفسه في الحديقة وكان مترنحاً، وفي هذا الوقت، لمحه أحد الجيران والذي كان يركن سيارته. في الوقت نفسه، الذي رأته فيه عائلته من نوافذ غرف الطابق الأول، كان مستلقيا على العشب ومازالت النيران تنهش فيه. أصغر أطفاله، ابنه الوحيد أسرع إلى الخارج وهو يحمل بطانية. احتجزه الجيران، لتجنب رؤيته المشهد عن قرب. عندما وصلت سيارة الإسعاف، أخذنا زوجته بعيداً. زوجها مصاب

بحروق جسيمة كما أنه يعاني من الاختناق، إنه يعاني من ألم فظيع ولا يمكن فعل أي شيء من أجله. فقط جرعة زائدة من المورفين يمكن أن تجلب له الراحة. إذا وافقت، بالطبع. وافقت وقالت نعم دون أي كلمة. بعد الجنازة بوقت قصير، انتقلت هذه العائلة المكلومة. إلى مسكن لا يحمل آثاراً لهذه الذاكرة. هذه الحديقة. هذه الحديقة.

"يا سكان مدينة طيبة، مدينة آبائي، انظروا: ها هو أوديب، الذي قام بفك رموز الألغاز الشهيرة، الذي يمتلك كل القدرات والذي يحسده كافة المواطنين على السعادة. انظروا إلى موجات السوء التي كنت غارقاً فيها. لا يمكن أبداً أن يعتبر بشري سعيدا إلى أن يرى يومه الأخير، أي قبل أن يصل إلى نهاية حياته دون مواجهة المصائب والمحن".

"ولكن أين هو صغيرنا؟" تسأل ماريا المجنونة في كل مرة تزورها أمي. "لم أره منذ شهور. وأخيرا، أين هو الآن"؟ تسأل السؤال نفسه لجميع الناس في المؤسسة. ويجيب الجميع بنفس الإجابة. "كم هذا حزين يا ماريا. كان هنا هذا الصباح. لقد نسيت مرة أخرى! لكن هل ترين الزهور هناك؟ هو الذي أحضرها لك. ألا تتذكرين؟ كنت تتحدثين معه عن المطر والطقس الجميل. أو "لقد اتصل بالهاتف، لكنك كنت نائمة. إنه يرسل لك صباح الخير ويقول أنه يفكر بك طوال الوقت. ألا تتذكرين؟".

عندما كانت تعود أمي من زيارة لأختها، يكون لصوتها نبرة غريبة، ما بين الحزن والتمرد. "أيجب من جديد الكذب على أختي وخصوصاً حول شيء أساسي للغاية هكذا. والحالة التي وصلت إليها، هذه الفتاة المسكينة! إنها حياة لم تعد حياة". ثم تلتفت نحو من حولها، زوجها، ابنتها، أبنائها.

نحوي أيضاً. وأكثر من مرة: "إذا حدث لي شيء ما مثل خالتك ماريا، فأنت لن تؤذيني. لا تخنقني ولا تضع السم لي؟ سوف آتي للانتقام منك في كوابيسك. ألا تعتقد أنني جادة؟ سأكون هنا. وسوف أذكرك بواجبك".

والآن أنا هنا، في العناية المركزة، بجانب فراشها الحديدي، يدي المتخاذلة على

جبينها الجليدي. لا، لم أخنقها أو أضع لها السم. كل ما أفعله هو مقاطعة صمتي، ظاهرياً، للحظة. باللغة التي تعلمتها منها، حاولت أن أقدم لها الأكاذيب القديمة. "لا بأس يا أمي. اهدأي. كل الأمور ستكون على ما يرام".

(فجأة تذكرت كلمات الأغنية التي تغنوا بها في مسابقة الأغنية الأوروبية، في كان. لم أكن أفكر في الأمر، لا، ليس الآن، ليس هنا، ليس هذا! لكني لم أستطع أن أمنع نفسي:"لقد ندمت على ذلك.. لكنك تعرف ذلك جيداً.. نحن ننسى أحياناً.. بسرعة إلى حد ما.. وعود الحب الصغيرة.. في وقت قريب يحل بعد قليل.. سأعطيك وعد الحب الخاص بك").

وأخيراً، ارتخى جسدها، لكنها التفت بعيداً عني وأدارت رأسها وهي تتنهد. وقد أصبحت صامتة أيضاً. ولكن فقط عندما أعتقد أنها تستعد للنوم، للقبول، للاستسلام، مما يمنحني الغفران، فأغفر لنفسي نسيان واجبي، أيضاً، للحظة وجزئياً، خرجت من صمتها.

رأسها مازال في الاتجاه الآخر، تغني وهي تنتحب وتئن بأغنيتها التي لا تزال تتكون من مزيج غير مفهوم. ولكن لا يزال بإمكاننا فك شفرة بعض الكلمات مثل: "قليلاً". "دعها تذهب"، التي كانت تقولها فجأة بنغمة هادئة.

كانت ممثلة يوما ما وكانت ممثلة دائماً. "دع هذه المسنة المسكينة تذهب"، كانت تقول ذلك بمنتهى الوضوح. وكانت تقول أيضاً: "لا بأس". حتى أنها كانت تحاول أن تهز كتفيها الهزيلتين.

"لا بأس".

"دعها تذهب".

لم ندعها تذهب إلا بعد ذلك بعامين.

Http : //fr.wikipedia.org/wiki/Cerveau #Le_ cerveau_ humain

الدماغ (باللغة اليونانية: في الرأس) هو العضو الرئيسي في الجهاز العصبي المركزي وهو موجود في الرأس بمنأى عن الجمجمة. يعالج الدماغ المعلومات التي تأتي من الحواس، يتحكم في العديد من وظائف الجسم، بما في ذلك وظيفة الحركة الطوعية، وهو يمثل مقر الوظائف المعرفية. (...) يتكون نسيج الدماغ من الخلايا العصبية، العصبونات، التي تلعب دوراً رئيسياً في معالجة المعلومات العصبية وما يسمى بخلايا الدعم التي تضمن الأيض الدماغي. (...) يتحكم الدماغ وينسق معظم الحركات والسلوك واستتباب الوظائف الداخلية مثل معدل ضربات القلب، وضغط الدم، ودرجة حرارة الجسم. (...) يتلقى الدماغ إشارات من الأعصاب ذات الصلة. تمثل لعبة استقبال وإرسال الإشارات (بعد دمجها) الوظيفة الرئيسية للدماغ، مما يفسر وجود الأحاسيس، والحركة، والذاكرة، وكذلك الوعي في الوقت نفسه. (...) تقوم بعض أجزاء الدماغ بشكل أكثر تحديداً بإدارة جوانب معينة من السلوك أو الفكر. لكن هذا التقسيم الوظيفي ليس صارماً، بل سيكون من الوهم حقيقة تعيين وظيفة معقدة مثل الذاكرة، على سبيل المثال، لمنطقة معزولة. ومع ذلك، من الممكن رسم خريطة للقشرة الدماغية بالمناطق وفقاً لتداخلها في جوانب مختلفة من الإدراك: الوظائف الحركية، الرؤية، إنتاج اللغة. تحدث الأنشطة المعرفية العليا (الذكاء، التأمل) غالباً في معظم الأجزاء الأمامية من الدماغ: الفصوص الجبهية..

لننسى التعريف أعلاه. الدماغ نفسه يملي علينا عيوبه. وفوق كل شيء، فإن المادة الرمادية لدينا هي قوة متغيرة، هي فرن صخري في درجة حرارة الجسم، يمكن أن يذيب الذاكرة، والأحاسيس والخيال ويحولها إلى مفاهيم علمية أو شعر تجريبي، أو إلى كوابيس أو إلى خطابات حب، حنين أو رغبة، باختصار، إلى كافة أنواع الإنجازات. تلحم دماغنا التي تشبه القرنبيط الرطب ورمادي اللون بشكل حميمي بين المشاهد الأكثر تنوعاً. ليست هناك حاجة إلى وحدة المكان أو الزمان أو الفعل، يمكن لكل تسلسل أن يتطور إلى أي مجموعة، مجمعة في ومضات أقصر حتى من ومضات

المصباح المستعمل الذي ينطفئ فجأة. التحليل والفن التصويري، الدادائية[27] والجدلية، هذه هي الفوضى التي تمثل الحلم الرائد لكافة المبدعين في الفنون، والفيلم والرواية. انظروا إلى دماغي في الوقت الحالي. فجروه بكلمة، أشيروا إلى شيء ما وستجدون رأسي ينفجر في رقصة فرنسية في عدة اتجاهات. جلبة سمعية وبصرية دون اتفاق نهائي، عالم من الجاز الحر وشلال من الفرص والمعاني في الفن التصويري الحديث مع الروائح المناسبة والفرقة الموسيقية التي تناسب ذلك. السيدات والسادة! أهلا بكم في استعراضنا الكبير للخلايا العصبية! الانفجار بلا نهاية!

أعطوني مثالاً، أنا سآخذ أي مثال، بما أننا في الجزء المظلم من الأعراض والطب، أعطوني طاولة صغيرة يكون عليها مرض من أمراض طفولتي. أهم أداة منزلية لحفل رعاية المريض. حتى أنه لا يجب أن يطلق عليه اسم "البرعم"، حتى لو كان لديه شيء من أشياء الطفل القديمة. فقط تذكروا ذلك.

ومن هنا سنذهب، جوني. اذهب! اذهب! اذهب.

لم يكن الأمر أكثر من علبة خشبية مطلية باللون الأبيض. لكن في الأسفل، على الجانبين، كان هناك لوحان صغيران يمكن تفكيكهما وتثبيتهما بزاوية تسعين درجة. وهكذا! أصبحت الصينية طاولة صغيرة يمكن وضعها فوق بطن الطفل المصاب بالإنفلوانزا حتى لا يضطر إلى ترك السرير للحصول على بعض الراحة. يمكنه حتى استخدام هذا اللوح لوضع الجريدة إذا أراد حل الكلمات المتقاطعة، وبفضل الحافة الصغيرة المرتفعة، لا يخشى أن يتدحرج قلمه ويسقط من المنضدة الصغيرة إذا غلبه النوم.

كانت طاولتنا الصغيرة مطوية ومخزنة حتى يعاني شخص ما من حمى كافية

---

27) دادا (بالإنجليزية: Dada)، هي حركة ثقافية انطلقت من زيوريخ (سويسرا)، أثناء الحرب العالمية الأولى، كنوع من معاداة الحرب، بعيداً عن المجال السياسي، وإنما من خلال محاربة الفن السائد. يطلق عليها أيضاً (الدادائية)، وقد برزت في الفترة ما بين عامي: 1916 و 1921. أثرت الحركة على كل ما له علاقة بالفنون البصرية، الأدب، الشعر، الفن الفوتوغرافي، نظريات الفن، المسرح، والتصميم.

لإعفائه من الذهاب إلى المدرسة. وقد سمح للشخص الذي كان طريح الفراش بصولجان على شكل ترمومتر بالبقاء في ملابس النوم الخاصة به، إلا أنه يجب أن يبدل ملابسه الداخلية بملابس مصنوعة من القطن بدلاً من الفانيلا أو الصوف. ثم قامت الأم ـ الدجاجة بنفسها بجعله يستقر على الأريكة، الأريكة نفسها التي كانت تستلقي عليها بانتظام مع الضغط البارد على جبينها.

ثم تمشط لك شعرك، وتقيس درجة حرارتك بنفسها تجنباً للغش وتبدأ في الاعتناء بك. تحصل على أنعم وسادة لكي تسند ظهرك، تحصل على أنعم لحاف، والطاولة السحرية الصغيرة فوق البطن وآخر عدد من القصص المصورة في متناول يدك ("الرعب"، رأت صيدوني عمة بوب وبوبيت فأراً).

ويسمح لك بتناول الطعام عندما تريد، ولكنك يمكن أن تخضع لأي نظام غذائي يضعه أي شخص موجود في جناح خوسيه الممرضة. بأي حال من الأحوال، غير مسموح بتناول القهوة، ولكن الشاي مع العسل والليمون. غير مسموح بتناول خبز الجاودار مع الشوكولاتة المخبوز في أدينكيركي[28] أو الجبن الطازج من هولست[29]، وإنما شرائح رقيقة من خبز التوست أكسبو مع شريحة من لحم الخنزير المملح والمدخن أو مع شريحة من لحم الحصان المملحة بشكل خفيف، والتي تأتي طازجة يوماً بعد يوم من المتجر. ومن وقت إلى آخر، يحصل المريض على قطعة من بسكويت ديلاكر أو حلوى كواليتي ستريت. يستحق المريض كل العزاء ويبدأ هذا العزاء بالحلويات.

على هذه الأريكة، نصف المدفون تحت الطاولة الصغيرة، تعرفت على الأكاذيب الأكثر قدماً والتي لم تكن أكاذيب بعد في هذا الوقت: "لا بأس يا عزيزي، لا تقلق. من الطبيعي أن عضلاتك تؤلمك وأن يصبح جبينك ساخناً. بعد الغد، سينتهي كل شيء. تناول الدواء مع رشفة من الماء ونم قليلاً، سوف أجلب لك الحلوى بعد قليل، أو هل تفضل كرات لحم العجل المفروم من لدى والدك"؟ أن تكون مريضاً، معناه أن

28) قرية في مقاطعة دي بان في غرب بلجيكا بالقرب من الحدود الفرنسية.

29) مدينة بمقاطعة زيلند جنوب هولندا.

تكون ذا سيادة مطلقة أمام محكمة حريصة ومهتمة وتحافظ على تقاليدها الخاصة في الذوق.

حتى الآن لا أستطيع شرب الشاي بالليمون وبالعسل دون أن أشعر بالراحة.

ولكن بمجرد اختفاء الحمى؟ تزال الطاولة الصغيرة، تختفي الوسائد وتعلق الامتيازات. "خذ حماماً واستعد للذهاب إلى المدرسة. ولا تتأخر، فلا يزال لديك نصف رطل من النقانق لتسلمها إلى السيدة ساميلز".

اذهب يا جوني! لماذا! (تسير سيارة رياضية في ميشيل فيلانت).

ضجة! (انفجر مختبر البروفيسور كومولوس).

بطبيعة الحال، كان من الأفضل تجنب الإصابة بالحصبة وسيلان الأنف. كان شعار العائلة: ابق قوياً، وأفضل وسيلة للقيام بذلك هي التغذية. الرجل هو ما يأكله. لذلك كان الطعام المعلب شيئاً يتم بيعه للآخرين فقط، وأنك إذا تناولته، فأنت تتناوله بأقل قدر ممكن، وكان الأمر نفسه ينطبق على الأطعمة المجمدة. النضارة أكثر من أي شيء آخر بالنسبة للفاكهة والخضراوات وللبقية، تأتي مقاومة الأمراض من اللحوم واللحوم وأيضاً اللحوم. في الصباح، في الظهيرة، في المساء، سواء كان ذلك نقانق أو مع العجائن أو نقانق لحم الخنزير أو "شرائح من اللحم البقري المطبوخ على الطريقة البلجيكية". إذا كانت قطعة من اللحم البقري مهددة بعدم بيعها في الوقت المناسب، فقد يتم تناول شرائح اللحم المحمر ليلاً ونهاراً. دائماً ما تكون شرائح اللحم غير ناضجة جيداً وبها آثار للدم، لأن القوة الحقيقية تكمن في الدم، لذلك، كنا نقول أنه "دائماً ما يكون لدينا عصير".

("ولكن في النهاية، يا طفلي، أنت تترك الأفضل! (هي، إلى أحد أصدقائنا، مندهشة، حيث أنه كان ابن أول نباتيين في مدينتنا) تناول شطيرة مزدوجة واغمسها في العصير. لن تأكل أي شيء لذيذ بهذا الشكل طوال حياتك! (الولد لم يجرؤ على العصيان، ولكنه، كان يخفي دائماً عن والديه اكتشافه المبكر لعصير لم يكن جزرا أو تفاحً).

بالإضافة إلى التغذية، كانت أفضل حماية هي الملابس المناسبة. "الوشاح أفضل من البرد"، خاصة في السنوات الأولى، كانت الحناجر، الرؤوس، الأيدي العارية والصدر العاري تعني خطر الموت، ناهيك عن الظهر العاري بكليتيه الهشتين اللتين يمكنهما في أي وقت أن تصيبك بالبرودة. اذهب، جوني، اذهب!

على الرغم من كل هذه الاحتياطات، تمكنت من الإصابة بالسعال الديكي خلال السنة الأولى من حياتي. كانت نوبات السعال والبلغم عنيدة لدرجة أنني بقيت هناك، تقريباً رأسي مرمي إلى الوراء، فمي مفتوحا على مصراعيه، لا مزيد من التنفس، لا مزيد من علامة على الحياة، الوجه بنفسجي بالفعل والجسم الصغير متوتر من الرأس إلى أخمص القدمين. ما كان يمكن أن يساعدني بالفعل هو هزي بقوة أو الوقوف تحت صنبور الماء البارد. وقد تم إنقاذي مرة، لأن جميع أفراد الأسرة كانوا يركلونني من واحد إلى الآخر مثل كرة السلة، دون مراوغة، لحسن الحظ. مرة أخرى، كنت وحدي مع أخي الأكبر كجليسة أطفال. "لم أستطع رميك بعيداً حقا نحو الجدار. ومع ذلك، لقد أنقذت حياتك. لقد امتصصت المخاط من أنفك، فتمكنت من التنفس مرة أخرى".

لكنني لم أشف. في النهاية، تولى الأدميرال الجدير بالثناء، أدهمار، زوج أمي بالعمودية، جيرالدين، هذه المسئولية. بصفته مديراً لشركة ويسلانديا لجميع المنتجات المنزلية، والرئيس اللامع لنادي الرالي المحلي، استفاد من اتصالاته العديدة وذهب إلى نادي الطيارين الهواة، من أجل الحصول على علاج كان العالم الطبي يشكك فيه وينصح ضده. لقد أدخلوني في طائرة مروحية، وقد جعلوها تحلق، وكافة النوافذ مفتوحة، لتصل إلى ارتفاع عدة مئات من الأمتار، حيث يكون الهواء أكثر كثافة وأكثر نقاءاً ومع ذلك غني بالأكسجين.

"يمكنهم الكذب والاحتجاج كما يريدون، هؤلاء السادة الكبار في المستشفى الجامعي (تقول هي ما بين الغضب والامتنان). بدأ هذا الرجل الصغير في التنفس

على الطائرة لدرجة أنه كان متعة حقيقية، وفي الأيام التالية لم يكن لديه أي نوبة سعال مرة أخرى، فقط أنفه كان يسيل قليلاً. إنها النتيجة التي تحسب، وليس لقب الطبيب".

اذهب إلى جوجو، جوني: رورررررررررررر! (هاجم باك داني بالسيارات الجيب).

لكن كان الخوف قد استقر في القلوب. كطفل، رأيت الموت بأم عيني، لذلك فأنا أستحق اهتمامً مضاعفا. وبالطبع لا أتذكر السعال الديكي، إنها قصة عائلية ملفقة.

في المقابل، ما يلي هو واحد من ذكرياتي الأولى.

كنت أتمشى مع والدتي، وهي ممسكة بيدي، ولكن، كان في الخارج يوجد جليد، ثلج، برودة، لا يهم، المهم أن الهواء كان بارداً، فكنت أشعر وكأنني أتمشى على سطح القمر. معطف كبير من الفانيلا، ملابس داخلية حرارية، جوارب من الصوف الأسكتلندي، بنطلون طويل ضيق يغطي القدم، قميص منقوش بالمربعات، بلوفر بياقة مدورة، وفوقه سترة واقية مبطنة بشكل مزدوج، تم شراؤها كبيرة أكثر من اللازم لكي أستطيع ارتداءها عندما أكبر، وسوستتها "سحَّابها" مغلقة، كما نقول لدينا حتى الذقن. على الرأس، غطاء لونه أحمر لامع، في القدمين، أحذية ذات نعل مزدوج وفي الأيدي قفازات جلدية مبطنة بفرو الأغنام، المجموعة كلها تنتهي بوشاح طويل ذي لون زاهي ملفوف ثلاث مرات حول الرقبة ومعقود بقوة في حالة، إذا كان هناك، إعصار وحشي من شأنه أن يندلع. لنفس الغرض، على الرغم من غطاء الرأس الذي أرتديه، فإن غطاء السترة الواقية قد تم خفضه ليغطي الجبين وأربطته معقودة بشكل قوي تحت الذقن، على طريق مشد خصر المرأة، عقدة مزدوجة لمنع أي إطلاق غير مرغوب فيه.

بسبب كل هذه الملابس، شكلت ذراعي تقريباً زاوية مستقيمة مع جسمي. ذقني لا تتحرك وبقية الوجه مضغوط ويمكن بالكاد التحرك. إذا كنت أريد أن أتقدم خطوة للأمام بقدمي اليمنى، يجب أولاً أن أميل بالجسم إلى اليسار. الرجل الصغير ميشلان

في نزهة. لو يحدث وتنقلب بي السيارة، سأقفز من المصدّ "ممتص الصدمات" من الجهة الأمامية، وأخرج سليماً معافى. الدمية العملاقة في اختبار التصادم. جاهزة ضد كل شيء.

ضد كل شيء، إلا انفجار غير متوقع من بيت جرمين، شقيقة والدتي الكبرى ومخترعة "الحكي التلقائي". هي لا تضيع الوقت، تهاجم من البداية، هذه الـ بيت جيرمين. إنها تضع حقيبة التسوق الخاصة بها بشكل استراتيجي، وهي تبعد ما بين مرفقيها لتخرج من غطائها البلاستيكي والذي دائماً ما تحتمي به، وهي بهذا الشكل، تمنعنا من المرور في الممر الضيق الذي يخرجنا من الورشة إلى الشارع. في الوقت نفسه، تفتح النار بشكل مباشر، على الرغم من أن والدتي يبدو عليها أنها تستعد للخروج، ومع ذلك، تستمع خوسيه بكل اهتمام إلى القصة المفصلة للأسبوع الذي قضته بيت جرمين، والتي تعمل عملها بكل حماس وبشكل دؤوب في الفيللا وفي خدمة أرملة مدير أفضل مصنع في أوروبا للمناشف الإسفنجية، مناشف الحمام، البشاكير، أثواب الحمام وبياضات الأسرة ذات الجودة العالية.

بعد وفاة المدير الحبيب، بسبب أزمة قلبية وهو يتزلج على الجليد، لقد ظل الرجل يصعد ويهبط دون توقف لمدة نصف يوم على كرسيه، لذلك، فقد أرسلته إلى المشرحة دون ذوبان، ذهبت الأرملة للعيش وحدها في ويلريج، في فيللا رائعة ذات سقف من القش، مع ملعب تنس غير مستخدم وحمام سباحة تالف، فيللا، والتي كان تصل إليها بيت جرمين، مدونة الوقائع وناقلة الأخبار الرائعة في الحافلة المحلية، التي اضطرت وفي أكثر من مرة إلى أن تلتف وتدخل في منعطفات واحد وثلاثين مرة بسبب ازدحام المرور في زفانخيت وسوق خيري في ضواحي بريفيان[30]، إلى آخره.

في الوقت الذي تنتهي فيه من رفع غطائها البلاستيكي الشفاف، أشعر بالفعل بالقطرات الأولى من العرق التي تنزل على طول العمود الفقري، والتي تدغدغ مؤخرتي. الحكة خارجة عن الموضوع مع سترة واقية مبطنة بشكل مزدوج وكل

30) مدن في بلجيكا.

الملابس التي تحتها. لن أكون قادراً على الوصول إلى الأرداف. وعلاوة على ذلك، فإن العرق الأصم بالفعل في كل مكان آخر. ومما يجعلني أشعر بالرعب أيضاً، هو أنني أرى أمي تجلس بمنتهى الراحة، متكئة على ساق واحدة، مسترخية للغاية، وقد نسيتني تماماً، حتى أنها فكت أزرار معطفها لتمنح الوقت والاهتمام لأختها، والتي كانت بمثابة أماً لها، فلقد ماتت أمهما وهي شابة، ونتيجة لذلك، أخذت بيت جيرمين على عاتقها مسئولية أخواتها في آل فربياك الأصغر منها، لدرجة أنه عندما طار آخر الطيور من العش، لم تكن قد وجدت زوجا، على الأقل حتى بلغت من العمر السبعين عاماً، ولكن هذه قصة أخرى، والتي لحسن الحظ، لن أرويها هنا. إلى آخره، إلى آخره. في هذه الاثناء، كنت أبدأ أنا في الانصهار، أنا حالياً مستعد لمواجهة كل الأماكن الباردة والعواصف الثلجية ولكنني مازلت في الداخل، في ممرنا الضيق، منسياً من الجميع. العرق يتدفق الآن من جمجمتي، تحت المعطف وتحت غطاء السترة الواقية، ليصل إلى قميصي الصوفي. أسراب من القطرات على جبيني، واحدة منها سقطت في عيني، في القفازات، كانت يداي غارقة. كنت أود أن أشير إلى ذلك، لكنني لا أستطيع تحريك الذقن. حاولت أن أتكلم ولكن كان كلامي غير محسوس وكان يضيع في التدفق الذي لا يتوقف من قصة بيت جرمين، والتي وصلت الآن إلى صباح يوم الإثنين، ونحن يوم السبت، بعد الظهر، أي أن القصة قد بدأت للتو.

في النهاية، مرضت بالحرارة، ووقعت على ظهري مثل سلحفاة تستسلم إلى العناصر الأربعة والنسر الأصلع. وأصيب كل من حولي بحالة من الذعر: "ضعوه على الأريكة! اخلعوا عنه ملابسه! اذهبوا للبحث عن ميزان الحرارة! وطاولة المريض الصغيرة! أسرعوا"!

جوني، أنت لست ملاكاً. (اذهب، اذهب، اذهب.)

بيننا، ما الذي تغير؟

"أقوم بصنع صور للفلمنديين المعروفين، باستخدام العنصر النيىء لطبقهم

المفضل، إن الأكثر غرابة هو الأفضل على الاطلاق" قالت إيزابيل، المصورة الكاتالونية التي عاشت في أمستردام لمدة عشرين عاماً وانتقلت مؤخراً إلى أنتويرب. سألتها بصراحة حتى أعرف إذا كانت قد صنعت نفس الكتاب في هولندا، فانفجرت ضاحكة. "هذا حقيقي" قالت هي ذلك وهي تهز رأسها.

- أنا: "ماذا تقصدين؟".
- هي: "اذكر لي طبقك المفضل".
- أنا (دون تفكير): "المخ المشوي مع صلصة التارتار".
- هي: (تضحك بصوت عالٍ): "تستطيع أن ترى!".
- أنا: "ماذا تقصدين؟".
- هي: بمجرد تجاوز الحدود الهولندية في روزندال، تبدأ أمريكا الجنوبية".
- أنا: "أمريكا الجنوبية؟".
- هي: "على الأقل نابولي. برشلونة. سان جاك دي كومبوستيلا".
- أنا: "من أي وجهة نظر؟".
- هي: "من كل وجهات النظر!".

بعد عدة أسابيع ارتديت البذلة الرسمية من أجلها وجلست في مقعدي الوثير، وهو مقعد فخم مزخرف مصنوع من الخشب الأبيض وعليه وسائد وردية اللون. مثل هاملت في مونولوجه الأكثر شهرة، أكون أو لا أكون، كنت أنظر إلى يدي اليمنى من الأعلى ومن الأسفل، والتي لا أمسك بها الجمجمة الفارغة المستخرجة حديثا ليوريك المسكين، وإنما جزء من مخ خروف، قد تم شراؤه طازجاً من لدى الجزار التركي الموجود في الزاوية. أجريت بحثين عنها، أخبرتها بذلك، بينما هي تفحصني من خلال عدستها، قياسا لتأثير الضوء، خاصة في انعكاس نظارتي. لم تجب. سألتها: "ألن يكون من الرائع البدء بوضع وصفة هاملت جانباً؟".

للأسف، يوريك المسكين، علقت هنا تلك الشفاه.

لقد قبلتها ولكني لا أعرف كم مرة فعلت ذلك.

أين مشاعرك الآن؟ وثبك فرحا الآن؟

أغانيك؟ لحظاتك القصيرة من المرح؟

لقد هزت رأسها علامة على الموافقة، إنها لا تصغي حقا، إنها تقيسني بالنظر كما لو كنت مجرد تمثال. عنيداً، مازلت أواصل، لأن اقتراحي الثاني كان يتعلق بالوصفة نفسها. إنه سيكون أمرا مثيرا للاهتمام طباعة الوصفة المكتوبة من يد أمّي في أحد كتب الطبخ الخاصة بها، التي كانت تكتبها في الدفاتر المدرسية الكبيرة مع غطاء القماش، الورق المسطر والحواف الحمراء.

من دون إجابة، بدأت أخيرا بتصويري. ("هل يمكنك أن تنظر إلى يدك اليمنى أكثر من ذلك بقليل؟"). على دفعات، أخذت أتحدث معها بالتفصيل عن الوصفة، وأنا بمنتهى اللهفة، على الأقل، تحدثت إليها عن الوصفة على الأقل منذ البداية. (اسلقيه في ماء مملح قليلاً. اشطفيه واتركيه يبرد. قشريه بعناية حتى لا يكون هناك أي أغشية أو أي عروق واضحة. اغمسيه في صفار البيض وفتات الخبز الأبيض. اقليه بالزبدة المملحة قليلاً حتى ينضج. قدميه مع الليمون والبقدونس والخبز المحمص الطازج وصلصة التارتار).

لكني، أصبحت عالقاً في المنتصف. متأثراً، مضطرباً وأشعر بعدم الراحة. النظرة المطولة لهذه القطعة من المخ آلمتني في قلبي. هذه الأشياء اللزجة الصغيرة، بلا شكل، الرطبة، الهشة للغاية والضعيفة للغاية. إنها على استعداد لأن تصبح سائلة، إنها تسيل تقريباً من خلال أصابعي. في الغالب، كنت قد نسيت كيف كانت رائحتها. رائحة الأرض، رائحة الدهون. ("هذه قطعة ملك الشجاعة! (إنها، قاطعة كما هو الحال دائماً، في مطبخها الصغير، ملوحة بملعقة خشبية). فقط طحال العجل هو الأكثر فائدة، والألذ أكثر. والكلاوي البيضاء بلا شك. ولكن إذا كنت لا تحب الكلى، فأنت لا تحتاج

حتى إلى تجربة كرات اللحم الضأن").

"ها هي! تصيح إيزابيل. هذه النظرة! ابق هكذا!".

("للأسف، أيها المهرج المسكين. علقت هنا شفتاك،

اللتان قبلتهما لا أعرف كم مرة).

أين نكاتك الآن؟ وثبك فرحاً؟

أغانيك؟ لحظاتك القصيرة من المرح؟").

"نعم! حافظ على الوضع! لا تتحرك!".

سورابايا جوني،

لماذا أنا غير سعيد؟

ذكرى قديمة أخرى لا تخص أمي. هذه المرة كان والدي الذي أمسك بيده يدي. قد كان الوقت الذي كان فيه الموت لا يزال يتمتع بشيء مثير وجميل للغاية. ربما، كان عمري لا يزيد عن ثلاث سنوات. كنا في مجزر البلدية الجديد، وكان كل شيء مغطى بالبلاط الأبيض. وقد أخذت بقرة إلى مكان الذبح من قبل أربعة رجال في أحذية مطاطية ومآزر ملطخة بالدماء. حيا أحدهم والدي باسمه، بينما اكتفى الثاني بنظرة متجهمة وحافظ الاثنان الآخران على اهتمامهما بالبقرة. كان الحيوان يرتعد في جميع أنحاء جسده، مع قشعريرة طويلة رأيتها في وقت لاحق في خيول الشرطة التي رافقت موكبنا السنوي العظيم. ولكن لديها، كانت الجوانب والبطن لا ترتجف من الخوف، ولكن من الالتهابات بسبب الذباب الزيتي الكبير، الذي تجذبه بكثرة رائحة زهور البيجونيا وروث الخيول.

تهز البقرة رأسها ببطء إلى الخلف وإلى الأمام، وأحيانا ترفع رجلها اليمنى وأحيانا رجلها اليسرى من أرجلها الخلفية. في كل مرة، يسقط الحافر على الأرضية المكسوة بالرخام وينزلق قليلاً. الرجال الذين يمسكون بالحيوان ينزلقون من وقت إلى آخر،

على الرغم من الأحذية المطاطية. على الأرض، يتقاطع تتابع دم مختلط مع الماء باتجاه فتحات التصريف. الرجل الذي قال مرحباً لأبي يمسك بأداة تشبه المسدس والمثقاب. وقد وضعها بالقرب من جبين الحيوان وضغط على الزناد. سقطت البقرة بهدوء وقد ثنيت أرجلها الأمامية. نظرتها بالكاد تغيرت.

ومن ثم بدأ الرباعي العمل. في حركة بطيئة، تتدلى البقرة من الخطاف، رأسها إلى الأسفل، وتخرج أحشاؤها من بطنها المشقوق بالسكين، وهي ملفوفة في غشاء شفاف، ينفجر عندما يلمس البلاط. ثمة شيء حار قد امتزج برائحة الدم. بعد ذلك، انشغل الرجال بالتقطيع. في وقت لا يذكر، قطع الحيوان أربعة أجزاء علقت على أكثر من خطاف. واحد تلو الآخر، يغادر الغرفة، وهم يمرون بأناقة حول مكان تعليق الخطافات، بينما يقوم شخص ما بالفعل بغسل الأرضية برش الماء. مراراً وتكراراً، يجب أن يخدش جانب النعل، حتي يتم إزالة كل شيء متشبث بعناد ويجب أن يذهب إلى فتحات الصرف.

في ذلك المساء، انتظرت لحظة من عدم الانتباه من الأسرة لأصعد على كرسي وأنظر في قدر كبير كان والدي يعد فيه النقانق السوداء. ولهذا السبب ذهبنا إلى المجزر للبحث عن دم الخنزير الطازج في جرة مماثلة لتلك التي يستخدمها المزارعون لنقل اللبن. لقد أدخلت يدي حتى المرفقين في العصيدة. بصل، لحم خنزير مقدد، دم في طريقه إلى التخثر وفتات الخبز. أخذت أهز كلتا يدي بسعادة، منتشياً بالرائحة ومفتونا بمكونات الخليط. "لكنني أريد أن أساعد"، قلت بعد لحظات، عندما تم رفعي من الكرسي وتم توبيخي. كان من الصعب عليهم نزع العجين البني المحمر من ذراعي. وقد غمغمت: "لقد كان جاهزًا تقريبًا"، وكنت أشعر بالفخر أكثر من اللحظة السابقة. "مجرد نقانق".

هكذا يذهب جوني. المزيد فيك! احذف، امسح.

إنها لا تزال مع افتقارها إلى القياس الملعون. أكثر! دائما أكثر! شاهدوا أطباقها الباردة. شاهدوا خبزها المحمص الصغير.

- هي: "خبز محمص صغير، خبز محمص صغير؟ والدتك لا تعد الخبز المحمص الصغير. والدتك تعد زاكوسكي"[31].

- الكل: "ما هذا؟"

- هي: "زاكوسكي! [هي، بيد على الخصر، ويد على الرأس، مثل راقصة روسية] آخر الصيحات في المقبلات".

والحقيقة، لا يمكن لأحد أن يتهمها بأنها غير جديرة بأن تكون جزارة في منطقة شعبية، كهدف في الحياة ومصدر للدخل. ولكن في أنشطتها اليومية، كانت تفتقر إلى الفن الخالد الذي كانت تسعى إليه بشدة في هوايتها.

إن افتتاح صالة عرض مستورد السيارات الأمريكية الفاخرة سيعطيها الفرصة للتألق في النهاية من خلال التعبير الفني في حياتها المهنية. لقد أفلس متعهد الطعام الذي كان يجب عليه أن يعد حفل الاستقبال عشية يوم الافتتاح. في حالة من الذعر، جاء تاجر السيارات لزيارة محل الجزارة الأقرب إليه.

- "يمكنك التعامل مع طلبية بهذا الحجم، سيدتي؟".

- هي: "ذلك يعتمد على حجم طلبيتك يا سيدي؟".

- الموزع: "ألفين من الخبز المحمص الصغير".

- هي: "أنا للأسف، لا أصنع الخبز المحمص الصغير".

- الموزع: "ولكنهم أكدوا لي أنه نعم".

- هي: "أنا أصنع زاكوسكي".

- الموزع: "ما هذا؟".

31) كلمة بالروسية تعني الوجبات الخفيفة.

- هي: "زاكوسكي! ألفين، غدا الساعة الثامنة عشرة سوف يتم ذلك".

تم تعبئة جميع أفراد العائلة، تم إلغاء كافة الأذونات، تم إيقاف كافة التمارين وتم تأجيل كافة البروفات. مع العلم أنه هزم مسبقاً، حاول الزوج بالرغم من كل شيء مناشدة العقل والمنطق في هذا الموقف. "ألفان، خوسيه. لمرة واحدة، ألا يمكن لنا أن نرضى ونكتفي بشيء بسيط؟ مثلث دائري صغير من العجين مع قطرة من الخردل؟ شريحة صغيرة من سمك السلمون المدخن مع القليل من الليمون؟ إن هذا من أجل الأكل فقط، بعد كل شيء. طالما، كان الطعام جيدا في النهاية!".

هي: (بغضب حاولت إخفائه ولكنها فشلت): "كل ما لديه اسم وسمعة في المدينة سوف يكون هناك، كل الطبقات الراقية والغنية ستكون هناك. حسنا، سيكون الطعام على مرأى ومسمع منهم!".

بعد عمليات الشراء الضخمة والتنفيذ التي دامت لساعات، تأتي عملية الإنتاج الحقيقية، تحت القيادة الحصرية للأم - الدجاجة ووفقاً لمبدأ العمل التسلسلي. يجب على كل قطعة خبز محمص أن تأخذ جولة حول طاولة العمل الكبيرة، في نهاية الجولة، توضع في أطباق كبيرة من الألمنيوم، المبطنة بمفارش ورقية بيضاء ساطعة اللون والتي تنتهي حافتها بدانتيل مثقوب. على أحد أركان الطاولة الكبيرة، توجد المحطة الأولى من جولة الخبز المحمص الصغير، والتي فيها يتم أخذ الخبز المحمص الصغير من قبل الشخصيات الأقل فنية، الابنين الكبار. ومع ذلك، كان الأمر يتعلق هنا بخطوة أساسية: التأكد من أن الخبز المحمص الصغير لم يصبح طرياً بعد حشوه.

أنتم ستجلسون أمام وعاء كبير من الخزف، يحتوي على بضعة كيلوجرامات من الزبدة، خرجت من الثلاجة في الوقت المناسب لضمان سهولة "انتشارها"، فأنتم عليكم وضع الزبدة في كل قطعة من قطع الخبز المحمص. دون استخدام السكين. بخلاف ذلك، فأنكم ستقومون بكسر قطع البسكويت الصغيرة من خلال التحكم السيء بأداة فرد الزبدة. فقط، عندما يكون الخبز المحمص جافاً من جانب

واحد، يمكنك فقط إضافة المكونات الأساسية، المختارة بعناية ليكون هناك العديد من الألوان والأطعمة. أما الخطوة الثانية، فتقوم بها مجموعة بربرية ذات ثقافة متوسطة، أولئك الذين يتميزون بالأصابع الأطول والصبر الأقل، أي الأب وأحد الأبناء المراهقين. أما المراحل الثالثة والرابعة والخامسة وأحياناً السادسة، فهي من عمل المجموعة الثالثة، وهي مجموعة تضم الأبناء الصغار والأشخاص الأكثر هندامة ورقياً، ومن هذه المجموعة الأم مع تصاميمها الفنية الشخصية، وقد انضمت لهذه المجموعة بيت جيرمين وويسكي، الصديقة المتواجدة في المنزل دائماً، والتي كانت خلال النهار، تعمل سكرتيرة في متجر للصباغة في الحي القريب، وكل ليلة تذهب إلى النوم في شقتها، ولكن في الصباح والمساء، هي في الواقع عضوة إضافية في الأسرة، وبهذه الصفة، لا تتردد في تقديم يد العون في أي شيء، طالما كانوا لا يعرضون فيلماً جديداً في سينما ريكس أو بالاس أو سكالا أو في إحدى دور السينما المجاورة السبع الأخرى. لكل منا هوايته الخاصة وأبقار (المجزر) ستخضع لحراسة جيدة. ولكن، كانت هذه المرة مخلصة لوظيفتها. تضيف المجموعة الأكثر رقياً الحشوات المختلفة لكل قطعة من قطع الخبز المحمص. هذه الحشوات ربما تكون متناقضة بشكل مدهش في اللون، ولكن من حيث الطعم، فيجب الحفاظ على الانسجام فيما بينها. بالنسبة للخبز المحمص مع الكافيار الأسود (بالطبع، يعد هذا النوع من الأنواع ذات الأسعار المعقولة، بيض سمك السلمون المرقط) يتم وضع البقدونس المفروم على الحواف الأربعة. ثم يعلو الذهب الأسود اللامع بشريحة صغيرة من الطماطم المقشور، مثلث صغير من الليمون المصفر وقليل من بياض البيض المسلوق على شكل فتاتيت. تحذير! على كل قطعة من الخبز المحمص، يجب أن يكون التزيين بنفس الحجم وكله في مكان واحد.

بالنسبة لشريحة البيض المسلوق: في البداية، يجب ألّا تكون شريحة البيض أكبر من الخبز المحمص نفسه، لذلك يجب أن يتم قطع طرفي كل بيضة، أي فصل البياض عن الصفار واستخدام البياض فقط، وتفتيته إلى قطع صغيرة باستخدام الشوكة التي

بهذا الشكل، تكون صالحة للاستخدام في الحشو. في منتصف كل حلقة صفراء زاهية، نضع، مثل الظل في فن البوب، الأنشوجة الملفوفة مع براعم شجر القبار في منتصفها. ثم نرش كمية صغيرة من الكاتشب على اليسار وكمية صغيرة من المايونيز على اليمين.

يحاط اللحم الأحمر لقطعة السمك السلمون المدخن أولاً بإطار من الكراث المفروم الناعم. فوقها، نضع القليل من الثوم المفروم مع شريحة رقيقة من الليمون والقليل من صفار البيض المفتت.

جبنة جودا، عجينة الحجل، جبن الكممبير، لحم الخنزير بارما، سلطة الجمبري، سلطة الكابوريا، الرنجة الحلوة والحامضة، إلى آخره. كل هذا غني ومزخرف بشكل متسق. على الصحاف أيضاً، يجب أن يتم ترتيب الخبز المحمص في تناسق تام، صف بعد صف. وإذا كان الترتيب على إحدى الصحاف على شكل رقعة الشطرنج، فربما على صحفة أخرى، يكون الترتيب بشكل متداخل أو بشكل أشرطة ملونة أو على شكل مربعات. لا يمكن أن يكون هناك صحفتين متشابهتين، على العكس، يجب أن تكون كل منهما في حد ذاتها عملاً فنيًا صغيرًا يسلط الضوء على جوهر زاكوسكي وطعمه الشهي.

إن المشكلة الوحيدة التي جاءت لتعطيل عملية الإنتاج جاءت من الابن الأصعب في التعامل، حيث استغل لحظة من عدم الانتباه ليصنع من الخبز المحمص الصغير الأبيض والأسود والأحمر (الكممبير، وبيض سمك السلمون المرقط، والفلفل الحلو) شكلا بدا كعلم منصوب عليه الصليب المعقوف. بالنسبة للباقي، كان العمل المجهد يحدث بالترتيب الصحيح وبالمرونة المطلوبة، كما لو كان الجميع على دراية بما كان على المحك. تقدم مالي مؤكد، سمعة راسخة بالتأكيد وقبل كل شيء شرف العائلة وإنتاجيتها الرائعة. تم احترام المهلة الزمنية وهي التسليم الساعة الثامنة عشرة بدقة وفي جو من النشوة. كان لكل شخص، حتى الشباب، الحق في الحصول على كوب صغير من النبيذ الفوار، الذي كان المشروب الروحي المحلي، الذي كان يتم شراؤه من سوبر

ماركت غراند بازار، الست زجاجات بسعر ثلاثة، لذا "سيكون من الغباء أن تحرم نفسك من ذلك".

"ضعوا الصحاف هنا"، قال ذلك بعد بضعة دقائق، كبير الخدم في حفل الاستقبال، الذي كان من بروكسل وكان يرتدي بذلة سهرة ويضع منشفة على ذراعه الأيمن. كانت صالة مضاءة بشكل رائع باستخدام لمبات أمريكية، لكنها كانت مهجورة، باستثناء رئيس المكان وزوجته، وحفنة من الخدم الصامت بالإضافة إلى عدد قليل من الجيران قد وصل عددهم إلى الواحد والثلاثين. يمكننا أن نقسم أننا كنا في مراسم دفن وليس في حفل استقبال.

"إذا كنتم تريدون، قال كبير الخدم بابتسامة ماكرة، لا تقلقوا. سيكون هناك أكثر من كافية".

أمي التي ارتدت ملابسها ووضعت ماكياجها بأقصى سرعة: "عليّ أن أبدو جيدة في وسط كل هؤلاء الأشخاص الأنيقين"، كانت تقول ذلك، وهي جالسة في غرفة صغيرة مجاورة لقاعة العرض، وهي تشاهد كبير الخدم من بروكسل الذي يملأ فمه بحفنة من الزاكوسكي، وبالتالي، مدمراً انسجام صينية بأكملها.

- هي: "ربما طلبوا المزيد من المقبلات؟".

- هو (يضحك بفم ملآن): "أتمنى لهم أن لا".

- هي (تنظر حولها): "هل ضيوفهم متأخرون؟".

- هو: "الضيوف؟ لقد نسي هؤلاء المعتوهون إرسال دعواتهم".

هي، مرة أخرى. (اذهب). كانت باروكية[32]، حتى في زاكوسكي، كانت غير قادرة

32) الأسلوب الباروكي مصطلح يطلق على أشكال كثيرة من الفن الذي ساد غربي أوروبا وأمريكا اللاتينية. والعصر الباروكي بشكل عام هو الفترة الممتدة من أواخر القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن الثامن عشر في تاريخ أوروبا. الباروك هو اصطلاح مستعمل في فن العمارة والتصوير معناه الحرفي شكل غريب، غير متناسق، معوج. وقد ظهر هذا الفن أول مرة في روما في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر الميلادي. ويتميز الأسلوب الباروكي بالضخامة ويمتلئ بالتفاصيل المثيرة.

على تحضير طبق بارد دون تغذية تطلعات عالية. على فراش من الخس والجرجير، كانت قد وضعت لفائف من لحم الخنزير، الهندباء المطهوة، قطع الدجاج، وشرائح من السلامي والطماطم محشوة بمايونيز الروبيان الرمادي، كما لو كانت لتخلق طبيعة ميتة لا تزال تطمح في أن توضع في متحف بدلاً من طاولة احتفالات شخص مجهول.

يمكنها رسم أشكال جريئة لا نهاية لها باستخدام شرائح من لحم العجل المشوي، ولحم الخنزير مع العسل أو لحم الخنزير من أردين، مستبعدة، بسخط، البقايا والتي كانت تخصص بعد ذلك للخبز المحمص وشطائر الأسرة، بينما، من ناحية أخرى، كانت تعبر عن انتصاراتها بإيماءة راضية. كانت تقدر بشكل خاص لحم الخنزير المدخن، بلونه الأحمر الرخامي وحوافه الدهنية المزخرفة، والتي تعرف أن تحولها إلى قطع لحم على شكل ورود لا تنسى، جديرة بالظهور في المجلات الاحترافية. لكنها، لم تكن تنتظر عرض صورها في كتب الطبخ باهظة الثمن. كانت أعظم مكافأة لها هي الابتسامة الكريمة لعملائها الأوفياء، الذين شكروها مقدماً على الاستقبال الناجح لأحد أصدقاء كورتريك أو غنت الذين كان من الصعب إقناعهم.

ما كان يجعلها أكثر غضباً كان السؤال الحذر من قبل زوجها أو أحد أطفالها: لماذا نبيع هذا رخيصا إلى هذا الحد؟ لماذا لم نتقاض أي رسوم إضافية مقابل كل ساعة قضتها أو نقضيها هناك؟ لقد كانت تحسب فقط "المواد الخام"، كما كانت تحب أن تطلق على مكوناتها. ربما بسبب الجناس أو ببساطة الصوت الفرنسي للتعبير. كانت تجيب كل الأسئلة بهزة من كتفيها. كانت الإجابة واضحة مثل وضوح النهار: الفن أولا وقبل كل شيء في جميع الأوقات، وحتى أنه يكون له معنى إضافي عندما تقدمه مجاناً.

البوهيمية، النسخة العائلية.

هي أيضاً. كانت تكوي الملابس واقفة، وأنا، بمجرد أن أصبحت قادراً على القراءة، أجلس على الطرف الآخر من الطاولة مع كتيبها في يدي. كان نصها مسطراً، أما بقية

الأدوار فكنت أقوم أنا بها. جدول متعدد لطاقم الممثلين قبل الرسالة. الكي؟ تم القيام به. الدور؟ تم حفظه. أصغر واحد في أبنائها؟ تحت جناحها ويحسن لغته.

وتصيبه العدوى في بقية حياته بحب الأدب المسرحي. مثل الآخرين الذين يصيبهم حب كرة القدم أو البولو.

هي، مرة أخرى. في الصورة بالقبعة الصغيرة التي تحدثت عنها بالفعل. تم تصويرها من قبل مصور محلي، وليس كاتالاني، إذا كنت أتذكر بشكل صحيح، في البهو القديم في مسرح البلدية، بعد دور أشرقت فيه، وهي مسرحية في زي لا أتذكره. لا أعرف متى كان الأمر كذلك، لا أعرف أكثر من هذا: لقد كانت ترتدي صدرية ضيقة، وتقريبا مشد وتحته تنورة واسعة مع كتل من الحرير والتول، وبعد هذا الشيء الاستثنائي الأول، كانت قد جاءت مباشرة إلى البهو مع شركائها لحضور حفل الاستقبال، دون أن تخلع ملابسها أولاً أو تزيل مكياجها في غرف الملابس التي توجد تحت المسرح. لقد أخذت لها العديد من الصور، لأن زيها كان له مثل هذا النجاح، "قل، تبدو حقًا مثل البارونة". في إحدى الصور التي رأيتها أيضاً، رأيت نفسي مرتدياً لنفس المناسبة، مثل شاب نبيل من نفس الفترة، جوارب طويلة مع الأربطة تحت الركبة، قميص أبيض مع الكشكشة مع شريط ستان منقط معقود تحت الرقبة. تراجعت في منتصف التنانير المطوية ونظرت بجرأة إلى العدسة. في هذه الأثناء، نظرت حولها، متجاهلة المصور متعمدة، تدردش مع شريكها، ترفع ذقنها الدقيق، تحمل كأسا من عصير التفاح في يد، وسيجارة مفلترة في اليد الأخرى. شامخة وغير مبالية. لكنها تمكنت من الجلوس معي على وجه التحديد على الأريكة الطويلة الوحيدة التي كانت موجودة مباشرة تحت الثريا الكريستالية الضخمة، التي كانت تمثل كائنا ضخما كان قد سيطر على الغرفة بأكملها. لقد رأونا من بعيد. لا يمكنهم أن يتجنبونا. جاءوا للتحدث معنا كما جاءنا الجمهور. لم يكن الملك ابن عمي.

(تم تنقيح صورة لها في زي المسرحية من قبل المصور لجعلها تبدو أكثر قدما.

حافة شبه ضبابية، الغموض الفني. بعض الخدوش بجانب وجهها، والتي عن طريق الصدفة كان لها تأثير لطيف. قديم بشكل غير حقيقي، مربع صغير في ملبس المسرحية. الصورة التي أجلس فيها على ركبتيها، لم أجدها بين مجموعة من الصور الأخرى في علبة البسكويت المعدنية القديمة، عندما قمت بعمل الجرد ومشاركة كافة الأغراض التي كانت موجودة في شقتهما الصغيرة. ربما لم تكن موجودة أبداً، إلا في محطة توليد الكهرباء في مخي).

هي، إلى الأبد. في السبعينيات، دخل المسرح الطليعي في مرحلة متواضعة من مسرح الهواة، على الأقل طوال مسرحية كتبها صحفي محلي، نجل عضو غير نشط في الجمعية. حسناً، بروح العصر، كان الامر يتعلق باتهام اجتماعي عنيف بعنوان "الحكم". كنت إلى حد كبير الشخص الوحيد الذي أعجبني ذلك.

لعبت بمفردها السلطة القضائية وكانت، للقيام بذلك، ترتدي حلة من الجوت وشارة من الألوان الثلاثة البلجيكية على الكتف. كانت التجاعيد الموجودة في وجهها واضحة للغاية، وجعل الماكياج خديها مجوفين، وكانت عيناها مطلية باللون الأسود الثقيل، ولكن تسريحة شعرها هي التي تسببت في ضجة كبيرة. كان الشعر الرمادي المصبوغ واقفًا حادًا، حول رأسها كلها. محاكاة ساخرة لا إرادية لتسريحة شعر الراحلة ديكي ليزا.

طوال المسرحية، واصلت الضرب بمطرقة قاضٍ على الطاولة التي تقول خلفها كلمة الحق، صارخة في مواجهة كل أولئك الذين يدلون أمامها بالردود والأحكام والتي قالت هي بنفسها أنها لم تفهم إلا نصفها فقط.

("أنا بالفعل لست مولعة بكل هذه الرمزية، بكل هذه التعقيدات (تقول أمام طاولة الكي وتكرر: "كان الدور الأصعب الذي لعبته طوال حياتي كلها"). في لحظة ما، كنت أصرخ في أحد المتهمين: أزل العصابة عن عينيك يا سيدي. ولكن لا، فهو يحتفظ بها! لذلك، فإني سألته: أترى الحقيقة الآن؟ صاح: نعم، سيدتي القاضية! مع عصابته

دائماً أمام العينين! (تنهيد) ويندهشون عندما تكون صالتهم فارغة").

لم تحقق المسرحية أي نجاح. لكن مصورا، آخر، وهو أكثر اهتماماً بالتعبيرية الأصيلة مقارنةً بالمزيف القديم، قد التقط لها صورا خلال البروفات. من منظور "الضفدع"، حتى بدت نظرتها وتسريحة شعرها أكثر بشاعة. كانت المطبوعة صعبة ومتناقضة، وقد زادت من تعبير وجهها القاتم. فاز بمسابقة مع هذه الصورة وعرضت لسنوات على نطاق واسع على أرفف متجره.

("أنا سعيدة لأن الناس لا يتعرفون علي (تقول هي باشمئزاز). وإني مندهشة أن متجره لم يخسر بعد. أيضع شيئاً كهذا على الرف! مما يثير اشمئزاز الناس الذين يأتون لطلب صور للمعمودية أو لحفل الزفاف").

إنها لا تزال ودائماً. في الليل، مع نظارتها للقراءة، تقسم من بين أسنانها، منحنية على دفاتر حساباتها، التي تملأها بنفسها قبل أن تعطيها للمحاسب لمراجعتها. "ما يمكنك فعله بنفسك، افعله بنفسك". على أي حال، لقد درست سابقاً مبادئ المحاسبة، درجة متقدمة، وقد ذهبت من أجل ذلك حتى دينانت ونورثهامبتون. كانت لا تزال ترسم الخطوط باستخدام المسطرة، كما تعلمت في المدرسة. وكانت تعيد الصفحة بأكملها مرة أخرى إذا كان الخط متعرجًا جدًا بأشكال على ذوقها. كانت كتاباتها هي نفسها كما في كتبها للطبخ. موظف لدى كاتب العدل. ثابتة، متساوية مع أناقة عفا عليها الزمن. "من كتاباتها، يمكن للمرء أن يعرف إلى أي درجة كانت هي شخصا عنيدا".

هي ونحن. في جزء من خزانة ملابسها القوية التي بقيت تحت القفل والمفتاح معها، حيث تحتفظ بالمشروبات الروحية غالية الثمن والجانجرين من لدى جيف غيرايرتس، كان هناك خمسة مظاريف يحمل كل منها اسم أحد أولادها. بجانب الاسم المكتوب بالحبر، كان مكتوبا بالقلم الرصاص، المبلغ الذي تعتقد أنها تحتاجه في الشهر من أجل المصاريف المدرسية، الملبس، مصروف الجيب والمصاريف الصغيرة

الإضافية. في بعض الأحيان، عندما يصر المورد على أن يتم الدفع له فوراً عند التسليم، كنا نجدها، بنظرة قلقة، وهي تفتح باب الخزانة أمام الجميع وهو أمر غير عادي ومقلق. للحظة، مديرة ظهرها للجميع، تقلب بمنتهى العصبية في أوراقها ومذكراتها باستخدام قلمها الرصاص. وأخيراً، تغلق الخزانة ونسمعها في المتجر تخبر المورد: "سيكون الأسبوع القادم، سيدي".

(هي وأنا. كنا لمرة واحدة فقط سوياً على خشبة المسرح. في مسرحنا التابع للبلدية. في "هم جميعا أبنائي" لآرثر ميلر. كان عمري عشر سنوات وكانت لدي جملة يجب أن أقولها. أما هي، فكان دورها من ضمن أدوار المسرحية الرئيسية. كنا نجتهد لنكررها أمام طاولة الكي، لكنها تقول إنه بمجرد أن أكون في غرفة البروفات، سأستمع للمخرج.

وعند التحية بعد الأداء، يجب ألّا أقترب منها لأمسك بيدها. ويجب أن أبقى على الجانب الآخر من المسرح وأمسك بيد الشخص الذي يقوم بدور أبي في المسرحية. لقد علمتني أن المسرحية الجيدة يمكن أن تستمر قليلاً بعد النهاية، عندما يدوي التصفيق وينحني الممثلون معاً. لا يجب أن نلقي الجمهور على الفور في واقعه. يجب أن يستمر العرض لأطول فترة ممكنة.

قالت: "ليس سيئًا"، جاءت مباشرة لي حالما أُغلقت الستار وتوقف التصفيق بالخارج. لقد انحنت أمامي، وتفحصتني بابتسامة من الرأس إلى أخمص القدمين كما لو كانت تتحقق من أنني مازلت كما أنا. قامت بضبط تسريحة شعري بشكل غير ضروري بيد واحدة، ومسحت من على خدي بإبهام رطب باللعاب بقعة وهمية صغيرة، ثم نقرتني نقرة رقيقة على خدي.

"لكن عليك حقًا أن تتعلم التعبير بشكل أفضل، وإلا فلن تحقق أبدًا أي شيء").

هي، إلى ما لا نهاية. كانت قد تقاعدت بالفعل ثم فجأة: في النهاية جاء التتويج. الدور الصغير الشهير في المسيرة المهنية. لعب المسرح الفلمنكي في بروكسل مسرحية

"بنات الملك كونغ" لتيريزا والسر. كان الحدث يحدث في ملجأ للمصابين بخرف الشيخوخة. مدفوعاً بشعور إنساني غريب أو استياء من الالتزام بالشفاء من الحطام البشري دون أمل، تقرر ثلاث ممرضات قتل مرضاهن واحداً تلو الآخر، بعد أن يجعلنهم يتنكرون للمرة الأخيرة في شكل إحدى أيقونات هوليود. يمكنها أن تموت وهي متنكرة في شخصية ماي ويست. إن هذا لشرف، وجدت هي ذلك. لكنها شعرت أيضاً أن لديها نصاً صغيراً للغاية. يحدد الدور أنها لم تكن قادرة على الكلام.

ولكن هذا لم يمنعها، في المساء الأول من عرض المسرحية، أن تستثمر بشكل خاص في اللغة الفوقية. كان هناك مشهد صغير واحد فقط حيث تكون بمفردها على خشبة المسرح. كانت تجلس على كرسي متحرك. كانت تدفع كرسيها إلى طاولة صغيرة، تدخل شريط كاسيت في القاريء الموجود هنا، تضغط على الزر وتنظر إلى الغرفة. يمكن اعتبار نظرة الشخصية نظرة شخص حالم. ولكن نظرة الممثلة كانت تقصد شيئاً محدداً. كانت تحدق في ابنها، المعروف بأنه روائي وكاتب مسرحي، والذي كان حاضراً بشكل استثنائي في تلك الليلة، قبل أن يغادر إلى الخارج، مرة أخرى. كان ابنها الأوسط، لكنه يبلغ من العمر بالفعل اثنين وأربعين عاماً. كان يقف بهدوء في وسط الجمهور لأنه كان يعرف كل حيله. بلا جدوى. كانت تثبت نظرها عليه، حتى يدير كل المتفرجين أخيراً رؤوسهم نحوه ويدفعون بعضهم البعض. أليس..؟ لكن، ماذا لو! إنه هو!! لكن لماذا تنظر إليه هذه المرأة هكذا؟ "في الشريط المسجل، يخبرها ابنها على المسرح بصوت يمكن أن يكون محاكاة ساخرة لصوتي: "مرحبا يا أمي. هذا أنا. آسف. لم أستطع أن آتي هذا الأسبوع. لكنك تعرفين السبب. العمل، العمل، العمل. حسناً، سأحاول أن أمر الأسبوع القادم أو الأسبوع الذي يليه. اتفقنا. هيا وداعاً يا أمي. إلى اللقاء. إلى اللقاء!".

إنها لا تزال تحدق في منتصف القاعة.

لفترة طويلة حتى بعد الضغط على زر التوقف.

هي، في أحد أيام الآحاد، الذي كان حاراً للغاية في فصل الصيف. القنوات الصغيرة التي كانت تحيط بأرضها، كانت جافة تماماً. كانت مغطاة بالعشب الجاف والبراعم التي لا تحمل حتى ثمرة التوت. لم تعد تريد أن ترى ذلك بعد الآن. كانت تهمهم، تتذمر، تغضب: "وإذا اشتعلت النيران في ذلك. إذا ألقى مار أحمق بعقب سيجارة مشتعلة؟ المكان كله سيحترق وكوخي أيضاً! لا يمكن البقاء بهذا الشكل". لذلك، أشعلت هي بنفسها النيران في العشب. كانت ترتدي حلة الاستحمام، كانت تنظر باهتمام إلى المشهد الذي أمامها، كان كلا مرفقيها يستريحان على مقبض مجرفة، عند قدميها دلو من الماء، في حالة نشوب حريق، هل يجرؤعلى رفض الخضوع لإرادتها على أي حال. مع تنهد غاضب بصوت مسموع، وسرعة الحريق في التربة الرملية، أصبح نصف فنائها الصغير فجأة وسط النيران.

صرخت طلباً للمساعدة، بحركة كبيرة، أخذت تضرب عشوائيا بمجرفتها على أعلى النيران، وفي حالة من الذعر، أسقطت دلوها، الذي لم يلمس مائه حتى مصدر النار. هرع الأصدقاء والمعارف، الذين كانوا يلعبون الورق أو يتجاذبون أطراف الحديث، لمساعدتها، حاملين المجارف والبطانيات والأحواض والمزهريات المليئة بالماء. لم يتمكنوا من السيطرة على النار. لقد أصبحت أكثر ذعراً. "كوخي! كوخي!" كان يجب عليهم أن يتحفظوا عليها حرفياً حتى لا ترمي نفسها في ألسنة اللهيب الذي كان يمكن أن يصيب قدميها العاريتين. كانت تريد إصلاح غبائها عن طريق استخدام جسدها الضعيف، هي التي حملت في يوم من الأيام مقلاة محترقة خارج منزلها، مما أدى إلى إصابتها بحروق من الدرجة الثانية والثالثة في ذراعيها ووجهها، وكادت أن تفقد كلتا عينيها. ("سأفعل ذلك مرة أخرى دون تردد. لقد أنقذت منزلي بيدي. هناك الكثير من الناس الذين يمكن أن يدعوا ذلك؟").

وقال البستاني الذي كان هناك، والذي كان أحد أبناء عمومتها وكان يدعى جوست: "دعو البيئة تحترق". "يجب علينا أولاً الحد من الحريق في مكان آخر". ووضح لنا كيف نفعل ذلك: على طرفي القناة الصغيرة، استخدموا مسحاة الكتل

الكبيرة، الأرض أعلاه، واستمروا في اتباع خط النار باتجاه الوسط. خلال هذا الوقت، يمكن إخماد النيران والشرر عن طريق الضرب بالفروع الكبيرة المورقة، التي كان قد قطع بعضاً منها باستخدام سكين الجيب الخاصة به، وبعد ذلك، لا يزال بإمكان المساعد أن يسكب فوق النيران دلوا من الماء، إذا لزم الأمر، الذي جلبته السلسلة البشرية، لأن ذلك لا يزال أمر لا غنى عنه. هيا! إلى العمل! إلى العمل!.

بعد ساعة، تم إطفاء النيران. أصبحت متفحمة: حواف الثلاث قنوات الصغيرة وعشر شجيرات وعشرين شجرة صغيرة، ولكن، قد تم إنقاذ منزل عطلة نهاية الأسبوع الصغير. لقد أصبح المدعوون في غاية الإرهاق. أما هي، فكانت كأنها لا تعرف الكلل ومتحمسة للغاية. لقد أخذت تصب للجمع البيرة والنبيذ الأحمر البرتغالي وتحصل من مخزونها على جميع حزم رقائق البطاطس المحمصة والفول السوداني التي يمكن أن تجدها. كانت راضية ومعجبة بنفسها إلى حد ما: "أترون، لقد كنت على حق! هذه القناة الصغيرة المليئة بالعشب الجاف! إنها تمثل خطر الموت".

لقد وجدت بعد ذلك أنه كان من الغريب أن يهرب كافة المدعوين بأقصى سرعة.

هي، هي، هي. الكثير من الضوضاء المجتمعة، دوامة من الصور والمشاهد. كانت تنبع من تلقاء نفسها، لكن، يمكنني أيضا استدعاءها في اوقات الفراغ. كل ذلك، بفضل مليارات الخلايا العصبية وملايين الوصلات في رأسي.

لا أستطيع تذكرها فحسب، بل أستطيع وصفها أيضاً. يمكنني أن أقدمها على طاولة الاحتفالات. يمكنني كتابتها على جهاز الحاسب الخاص بي بكلمات مثل هذه، وفي كلمات أخرى، وكذلك في كلمات أخرى. وأنت، أيها القارئ، يمكنك قراءتها. كما تظهر على شاشتي، هنا والآن، أثناء قراءتك لها في هذه الصفحة، الآن، "الآن". بكل سهولة وبطلاقة، في حركة تلقائية على ما يبدو. ومع ذلك، كل ما تحتاج إليه هو جلطة دموية، أصغر من القملة، تمر عبر مجرى الدم إلى عقلك، فتحجب وتقتل مركز الكلام لديك - وهذا لا يستغرق أكثر من بضع دقائق - وها أنت، يصيبك النسيان إلى الأبد.

جلطة صغيرة، وتتحول هذه الكلمات أمام عينيك إلى كتابة مسمارية مزعجة، إلى ساحة معركة من الشخبطة غير المفهومة. جلطة صغيرة لدي أيضاً ولا أدري ما فائدة لوحة المفاتيح هذه تحت أصابعي. هذه الشاشة، هناك؟ كنت أنظر إليها باهتمام وأسأل نفسي من كتب هذا النص ولماذا كان من الضروري للغاية استخدام هذه الأشكال التي تبدو سيريالية وغامضة. خربشة دجاج. نقوش رونية. كل منا لديه الجلطة الخاصة به وها نحن الآن غرباء إلى الأبد. منقطعين عن كل شيء له علاقة باللغة.

في البداية، تبدو إعادة التأهيل ممكنة. يعطينا الفريق الطبي هذا الأمل بناءً على الإحصاءات العديدة والمسح الدماغي.

"مثل هذه الهجمات، التي يليها فقدان القدرة على الكلام، أكثر شيوعاً مما تعتقد وأسهل علاجا مما تخشاه. ستكون حالة والدتك أكثر خطورة في حالة السكتة الدماغية، ونزيف الدماغ بسبب الوريد الصغير الذي ينفجر. تجلط الدم يرجع إلى انسداد الوريد وفي هذه الحالة تعود القدرة على التحدث بسهولة أكبر، حتى في المستوى السابق. لحسن الحظ، تجلط دمها ليس من النوع الثقيل. لم يكن هناك شلل نصفي، ولا حتى فقدان جزئي للبصر. والعدوان المتقطع، الذي في الحقيقة، موجه في الغالب ضد أقرب الناس، سوف يتلاشى وربما يختفي لأنها ستمتص الصدمة.

ومع ذلك، لا ينبغي التقليل من خطورة الوضع. نظامها العصبي بأكمله معطل، على الأقل مؤقتاً، ولا يمكن لأحد أن يتوقع إلى أي مدى ستكون إصابة الدماغ دائمة أم لا. يمكنك مقارنة هذا بفيروس في القرص الصلب بجهاز الحاسب الخاص بك. لا تعرف أبداً المستندات والبرامج التي لحقت بها الأضرار أثناء العملية. إن الممارسة هي التي سوف تعلمك. في غضون ذلك، من الأفضل وضع المريضة في مؤسسة متخصصة حيث يقيم مسنون آخرون مصابون بالمرض نفسه. مصير مشترك يخفف من الشعور بالعجز ويشجع على إعادة التأهيل. الأدوية المناسبة، جلسات العلاج المكثفة وفترات الراحة سوف تتكفل بالباقي".

تقع المؤسسة في بيفرين. على بعد عشرين دقيقة بالسيارة من المنزل الأبوي. يبدو الأمل الذي تم إحرازه في أننا ندرك وإن حتى قليلاً كان مبرراً. لقد قل الاشمئزاز الذي كانت تشعر به تجاه المستشفيات ودور التقاعد (كل هؤلاء العجزة) بشكل ملحوظ أو ربما أصابتها بعض اللامبالاة؟ ربما تشعر بالارتياح خاصة لأنه لم يتم تقييدها مجدداً.

لقد تحملت دون تذمر بعض الحكايات السخيفة من قبل الممرضات. "كيف تشعرين هذا الصباح؟ هل تبولتي اليوم؟ هل تناولتي حساءك أم ترغبين فقط في القليل من البسكويت؟".

كانت تتعب بسرعة وتنام كثيراً، ولكن عندما تكون مستيقظة، تتعاون بكل إرادة لديها في كافة جلسات العلاج. بسبب الملل؟ أو لأنها تأمل حقاً في التحسن قريباً، هناك المزيد فيك، هنا أيضاً؟ كانت تحاول بعناد ولكن دون نجاح كبير لتشكيل الكلمات مع أحرف سكرابل الكبيرة، حتى يتغلب عليها الصداع النصفي، فتنهار على سريرها. لقد ملأت بالقلم الرصاص دفتراً بأكمله، ونتيجة لذلك، فهي تعاني من نوبات من الصدع النصفي لأيام طويلة. هذا لا يعطي شيئا أكثر من الخربشة. طفلة أمية تدعي كتابة معاهدة. وستبقي هذه المعاهدة في طيات دفترها الوحيد.

لقد أحضرنا الصحف والمجلات. من أجلها، هي التي لا يمر أي صباح دون أن تقرأ الهيت لاتست نيوس (آخر الأخبار)، على الأقل الافتتاحية، الأبراج ودون أن تحل الكلمات المتقاطعة في هذه الصحيفة. كانت تتصفحها للحظات، ثم يصيبها الملل، فتتركها جانباً وتدخرها للقراءة. وبنهاية الأسبوع، لم تنظر حتى إلى النسخ الجديدة. لم يحقق معها التلفزيون أيضاً أي نجاح. كانت تحدق فيه، مثل شخص ما صادف قناة صينية، حيث تواصل الرؤوس المعروفة اللعب دون ظهور أي ترجمة مثلما كان يحدث في الماضي. لفترة طويلة من الوقت، يبقى جهاز التحكم عن بعد دون مساس وجهاز التلفزيون مغلق. أو يتم تشغيل جهاز التلفزيون طوال الوقت ولكن هي

لا تعيره أي اهتمام. إذا قام أحد ما بغلق التلفزيون، فإنها تبدو قلقة، تبحث عن شيء ما دون جدوى، يبدو عليها عدم الفهم والتذمر. وإذا قام أحد ما بتشغيله مرة أخرى، فإنها تصبح غاضبة للغاية، وتنتزع من يده جهاز التحكم عن بعد وتغلق هي التلفزيون بنفسها.

كان يبدو عليها أنها لا تزال تتعرف على كل من يأتي للزيارة. عندما يأتي أحد لزيارتها، كان وجهها يضيء وتأخذه من يده إلى طاولتها الصغيرة حيث توجد صحفة وجبة الإفطار الذي حرفيا لم تمس منه شيئاً. تفتح له الشطيرة وتبين له ما فيها وهي تربت بإصبعها على جبينه. "قليلاً"! وقبل أن يكون لديه الوقت ليوضح لها أنها على حق، تأخذه مرة أخرى من ذراعه إلى الحوض وتظهر له متذمرة قطعة الصابون التي استهلكت تماماً أو المنشفة، مما يجعله يفهم أنها تريد استبدال منشفة جديدة بهذه المنشفة في الحال. إذا جاء نفس الشخص للمرة الثالثة في الأسبوع على التوالي، وكان قد علم أن المناشف النظيفة على رف في خزانتها الصغيرة وحاول أن يوضح لها ذلك، فإنها تنظر إليه بعين تملؤها الدهشة واضعة يديها على ردفيها، وكأن هذا الشخص قد قام بخدعة ما لاستحضار المناشف التي لم تكن موجودة قبل أن يأتي ويحضرها. ولكن، بعد ذلك، تبدو عليها السعادة. وتستبدل المنشفة على الفور وتعطيه منشفة أخرى في يده. "قليلاً"!.

في كل زيارة، توافق على أن تجلس إلى جوار الشخص الذي يزورها لتتصفح معه ألبوم صور مكون لها خصيصاً. كان هذا الألبوم يحتوي على صور كل من تحب من زوجها، إلى أبنائها وأحفادها. الهدف من ذلك، هي أن تشير بإصبعها على كل فرد وتقول اسمه ولقبه. مع كل اسم، كان تهز رأسها، تهز رأسها، تهز رأسها. من وقت لآخر، كانت تشير إلى شخص بعينه وتهز رأسها مرة أخرى بقوة توحي بالجدية التامة. كانت لا تكرر الأسماء مطلقاً. كانت لا تحاول حتى. لا شيء يدل على أنها تدرك ترابط هذه القائمة بأكملها. الصورة الوحيدة التي كانت غير موجودة بالألبوم كانت صورة ابنها الأصعب في التعامل، والذي توفي قبل عشرين عاماً. أردنا أن نوفر عليها هذا

المصدر من الألم الذي لم يجف. لا شيء يدل على أنها لاحظت غيابه في سلسلة الصور.

الغريب في الأمر، أن ما كان يشعرها بأنها على قيد الحياة، كان العلاج بالتمارين. أراها تفعل ما لم تفعله مطلقاً، وهي ترتدي بدلة رياضية باللون الأزرق الداكن وزوج من الأحذية الرياضية البيضاء. كانت تلف ما يعادل عشرات الكيلومترات على الدارجة الرياضية المنزلية، ببطء وبأقل قدر من القوة، للتحرك دون أي هدف آخر غير الحركة. حتى أنها أصبحت تشارك فيما كانت تكرهه من قبل. التمارين الرياضية الجماعية. كان يتم تقليد التدريبات التي أظهرها المساعدون الشباب بشجاعة من قبل تلاميذهم الأكبر سناً، لكن الحركات كان يتم بترها حتماً، كما لو كانت تظهر مدى التدهور الكامل الذي يمكن أن تمثله الشيخوخة.

كان أحدهم لا يمكنه رفع ذراعه أعلى من الكتف، وآخر لم يكن قادراً على ثني ركبتيه وثالث لا يستطيع النهوض دون مساعدة بعد التمرين على الأرض. كان هناك عدد قليل من الذين يشكون. عندما كانوا يشكون، كنا لا نفهم ما يقولون.

وفقا لخيط وجودها كله، كانت أيضاً تختار أعداءها بنفسها، وتكوّن صداقات جديدة لبقية حياتها. في هذه الفئة الأخيرة، أي في الصداقات، كان لا يوجد أي رفيق معاناة. هؤلاء، كانت تتجاهلهم أو تتجنبهم. كانت تتوافق فقط مع أي شخص يتمتع بالحيوية وأصغر منها في العمر بحوالي نصف قرن على الأقل. هكذا، كانت المرافقات تنقسم إلى مجموعتين. هؤلاء اللاتي ترفع أمامهن رأسها عالياً وهؤلاء اللاتي ترتمي في أحضانهن، واللاتي تضحك معهن وتسمح لهن بالمساعدة وبالمزاح، هؤلاء اللاتي تتركهن يدخلن غرفتها بشكل مفاجىء، وهي تتسامح في ذلك، هؤلاء اللاتي تسمح لهن بتوجيهها في متاهة لغتها المفقودة، فخرها القديم. في وجود هذه المفضلات، يصبح لديها شيء طفولي ومتفتح القلب، كما لو كانت إقامتها في هذا المكان ليست سوى دورة أخرى من دوراتها المتقدمة، في فترة تدريب مكثفة، في وسط دائرة من الصديقات اللاتي سيلتزمن بنفس القواعد الملتزمة بها هي.

قريبا سوف تأتي العطلة الصيفية. عند سماعها تضحك ونرى الكثير من صديقاتها الإناث، ونراها تسير في القاعة وهي تعطى ذراعها لأحد المعالجين، يمكنني أخيراً التصالح مع فكرة أننا لم نستمع إلى نحيبها عندما كانت في العناية المركزة: "دعو السيدة العجوز ترحل. فهذا غير مهم".

أما بالنسبة للأفراد الآخرين من الموظفين، أعداءها، المختارين لأسباب غير مفهومة، فهي تقدم لهم تلك الألغام التي تتسم بالاحتقار بصراحة، وبالكراهية غير المنتهية، وبهذا المظهر، الذي يجعلها على الدوام، قبيحة للغاية وأحياناً بغيضة. (كان شقيقها الأكبر يحتضر، المهندس المعماري الذي صمم ونفذ خزانة ملابسها القوية وطاولة تخزين خشب البلوط الصلبة في السنوات الأخيرة من الحرب. رفضت أن تزوره الزيارة الأخيرة. كانا متخاصمين منذ سنوات، لقد جرحها، لقد قال شيئًا خاطئًا عن أبنائها، ما قاله بالضبط لم يعد مهمًا منذ فترة طويلة، ولكنه قد قاله، وهذا يعد كافياً. "ليس معنى أن هناك شخص ما يتحضر، أن نقف حول سريره ونبين له العاطفة بشكل منافق. الحقيقة هي هي حتى في الموت").

أصبحت بالكاد تستطيع أن تكتب كتابة أقرب إلى الخربشة، ولكن فيما يتعلق باللغة، فإنها لا تزال تحرز بعض التقدم. بعض الكلمات المعزولة تعود إليها، لكن لا يزال هناك الكثير من اللغتين الإنجليزية والفرنسية. (المعالج: "قد تكون الخلايا التي تسجل فيها معرفتها باللغات الأجنبية أقل تأثراً. على أي حال، فإن عقولنا تحفز خلاياها غير التالفة بحيث تتولى أكبر عدد ممكن من المهام. تحاول الوصلات العصبية إيجاد كل الحيل والوسائل الممكنة").

الخليط اللغوي الذي يخرج من فمها كان يصبح أكثر إيقاعاً وأكثر إبداعاً، ولكن دون اكتساب معنى كبيرا. لكنها تمكنت من التواصل بشكل أفضل وأفضل. هناك ثلاث لغات أخرى لم تفقد إتقانها. الإيماءة، لهجة الصوت، تعبيرات الوجه. في كثير من الأحيان، كانت لا تحتاج المزيد لكي تعوض رطانتها المحمومة. ("ممثلة حقيقية؟

[كانت في الأيام الخوالي، تبدو متعبة قليلاً]. يمكنه لعب دفتر الهاتف، إذا لزم الأمر. معذرة! يمكن للممثل الحقيقي أن يصدم ويؤثر دون نص").

لقد اكتسبت شهرتها كممثلة شبه كوميدية. إنها تنتظرك في غرفتها، والباب الكبير مفتوح على مصراعيه، وهي تلوح لك من بعيد لكي تتعجل وتأتي إليها سريعاً. قبل أن تغلق الباب، سرعان ما تلقي من وراء ظهرك نظرة قاتمة على الرجال المسنين الثلاثة الذين يعانون من الخرف، والذين يظلون طوال اليوم المقدس جالسين في الممر المجاور لغرفتها. ثم تستدير باتجاهك وتبدأ في تقليد الثلاثة. إنها تقلدهم في طريقة أفواههم الملتوية، في نظرتهم التي يبدو من خلالها بياض عيونهم الميت وفي التشنجات اللاإرادية التي تصيبهم بسبب نوبات مرضهم. إنها تمثلهم كالقرود الثلاثة: "أنا لا أسمع أي شيء، أنا لا أرى أي شيء، أنا لا أقول أي شيء". كانت تقلد مشيتهم المترنحة بأسلوب الكوميديا المرتجلة[33]. إنها ترفع يدها بإيماءة معينة كأنها تحاول أن تمسك شيئا ما في الهواء، لكي تظهر أن الثلاثة على عكسها "غاغا"، أي يعانون من جنون حاد. إن ذلك حتى لكلمة يمكننا نطقها:"غاغا"! كان شعورهم بالمجد والعظمة، أكثر ما يثير اشمئزازها فيما يتعلق بهم. ثم بعد ذلك، تصفر على ظهر يدها، وتنتج ثلاثة أصوات مختلفة، بنغمة مختلفة، صوت لكل قرد، ثم تقوم بالضغط على أنفها وتحدق بعينيها بطريقة توحى بالاشمئزاز واخيرا تقوم بإيماءة وكأنها تشم رائحة كريهة. وفي النهاية، تنفجر ضاحكة للدلالة على أن العرض قد انتهى. وسرعان ما يلاحظ أنها تقوم بهذا العرض بشكل متكرر. إنها تقوم بها هذه المرة، والمرة القادمة وإلى ما لا نهاية.

كانت تبدأ في تقليد الجميع، من موظف الصيانة وحتى المدير، ولكنها كانت

33) الكوميديا المرتَجلَة؛ الملهاة المرتجلة: Commedia dell'arte: شكل مسرحيّ إيطالي ازدهر في أوروبا ابتداءً من القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر واتّسم بالارتجال انطلاقاً من حبكة مسرحية مكتوبة. تطوَّرت الكوميديا المرتجلة عن المَيسم أو التمثيلية الإيمائية. ومن مزاياها أن ممثليها كانوا يؤدّون أدوارهم وهم مقنَّعون. موضوعها السائد حبّ جارف يجمع بين فتى وفتاة، حتى إذا حال الأهلون دون زواجهما مدَّ إليهما الخدم يدَ العَون وكانت النهاية السعيدة.

تفضل تقليد المرضى الذين تكرههم. إنها تسلي الكثير من الناس، مما يجعلها سعيدة بشكل واضح، ولكن كان هذا يثير غضب البعض الذي لا تعيره هي أي اهتمام. لم يحاول المعالج وقفها. "الأمر الأساسي بالنسبة لها هو أن تتواصل. أما الباقي فسيأتي مع مرور الوقت". في غضون ذلك، تثبت الوقائع أنه كان على حق: وعامة كانت نوباتها العدوانية تكشف لنا الكثير من أسرارها.

في المقابل، كانت تبدو غير متوافقة مع زوجها روجيه إلى حد كبير. كان لا يزال يخاف منها، وكانت هي تشعر بذلك، مما كان يجعلها غاضبة وتتعامل معه بحذر وشك. نظراتها القاسية التي توجهها له تجمد لك الدم في العروق. لكن في اللحظة التالية، تجدهما سمنا على عسل، وتراها تداعب رأسه الأصلع في منتهى الأمان. ومع ذلك، يبقى عناقها مع الجميع شيئا نادرا ومتزمتا للغاية. إنه علامة لا تجد لها مكاناً، فجوة في مفردات لغتها من الإيماءات. العناق، ماذا يمكن لذلك أن يعبر؟ تتدلى ذراعيها بطريقة غير لائقة ومحرجة على طول جسمك عندما تقول لها وداعاً، تصبح نظرتها غائبة جدا في هذه اللحظة.

عندما كانت تسخر من والدي، وهو ما كان يحدث بانتظام، فسرعان ما تظهر الابتسامة الصفراء على وجهها. تُظهر لزوجها إصبعاً وتقوم بتحركات رقص سعيدة، كما لو كانت لتوضح معنى التعبير: "عندما لا تكون القطة هناك، تلعب الفئران". "نعم. نعم"، تضيف هي، مع إشارة ذات مغزى لأولئك الذين بجانبه. إنها تظهر له إصبعها مرة أخرى. "نعم نعم! ثم تقوم بالرقص قليلاً في دوائر كما يحدث في الكرنفال وتقوم بإيماءات متكررة من اليد اليمنى أمام الفم، كما لو كانت منتشية حتى الثمالة.

ولكن ما أثار غضبها بشدة وجعلها عصبية للغاية، هو اليوم، الذي ظهر فيه والدي، بناءً على نصيحتي، بالملابس الرياضية، للمشاركة معها في جلسة التدريبات الرياضية الجماعية. ("لن يكون الأمر سيئاً بالنسبة لقدمك المجنونة، يا أبي". لقد انتزعته من فوق الدراجة الرياضية، حيث امتلكتها مرة أخرى قوتها الشيطانية،

وأخذت تصرخ مرة أخرى بلغتها الجهنمية الأكثر وحشية. يجب أن تسيطر عليها المساعدات، لأنها تريد أن تقفز عليه، حتى لو كان مستلقياً على الأرض. لم تهدأ إلا بعد أن غرب عن وجهها.

ذهب ليرتدي ملابسه على عجل في غرفة زوجته، كان يشعر بالصدمة في داخله، وكان يخشى أن تدخل عليه الغرفة فجأة وتصيبه مرة أخرى إحدى نوبات غضبها. لقد دخلت بالفعل، ولكنها كنت متفاجئة به حقاً، كما لو أنها لم تره منذ أسبوع. أخذا ينظران إلى ألبوم الصور معاً، يجلسان جنباً إلى جنب على حافة السرير. كان يشير إلى كل صورة، ويذكر أسماء أولئك الذين سكنوا حياتهما. كانت تهز رأسها مراراً وتكراراً، بلا كلل، حتى حان الوقت له للعودة إلى المنزل. أخذها بين ذراعيه وقبلها. إنها تترك ذراعيها معلقة بشدة، وتصبح لديها هذه النظرة الفارغة مرة أخرى. ثم، أمام بابها، وهو يتحرك بعيداً، كانت تتبعه بنظرة متأملة. في الخارج، بالأسفل، كان لا يفتح باب سيارته على الفور. يجب عليه الانتباه إلى السيارات التي تمر بأقصى سرعة على الطريق القديم في أنتويرب، والذي يكون دائماً نشطاً للغاية بالقرب من ميدان بيفرين الكبير. لقد ألقى نظرة إلى الأعلى، باتجاه نافذة غرفتها. كانت هذه المرة هناك. وقد لوحت له بيدها. إنها لا تفعل ذلك دائماً. لماذا اليوم وليس المرة السابقة؟ أخبره الجميع أنه يجب عليه أن يتعلم ألا يشغل باله كثيرا بذلك. لوح لها بيده في المقابل، ثم سار بالسيارة وانعطف باتجاه الطريق الدائري المسمى شاتو تير فست، وعندما مر مرة أخرى بالقرب من مؤسستها العلاجية، ألقى نظرة أخرى باتجاه النافذة. كانت لا تزال هناك، لكن لا يوجد شيء يشير إلى أنها لاحظت وجوده. على أي حال، لم تلوح بيدها.

بعد بضعة أشهر، قال المعالجون إنها مستعدة للقيام بنزهتها الأولى. كان هذا الوقت الذي بدأت فيه بإظهار طاقم أسنانها ثم فمها، وتبدو عليها الكآبة التي تظهر أنها تعاني كثيراً، ثم بعد ذلك، تظهر طاقم أسنانها مرة أخرى. كان من الواضح أنها تريد الذهاب إلى طبيب الأسنان. ستكون هذه هي المرة الأولى التي تخرج فيها من جدران المؤسسة. والمرة الأولى التي ترى فيها الحي الذي عاشت وعملت به طويلا.

تعال يا جوني. تعال احفر في ذاكرتي. خذ مقود سيارتي وأرشدني، رافقني في الرحلة التي قمت بها في فصل الشتاء. أخبرني كيف كنت جالساً بجوار المرأة دون كلمة، المرأة التي جلبتني للحياة وربتني، المرأة التي منحتني إرثاً من لغتها وأمراضها الجسدية الصغيرة، التي علمتني أن أحب الهندباء وبلح البحر وهوغو كلاوس[34]. ("أقصد، في مسرحياته المبكرة وعندما لا يكون هناك الكثير من الصور العارية، لأنه يحب ذلك، حسنا، هذا ما يسمى بالعبقرية لدينا". [هي، في بعض الأحيان كانت متزمتة للغاية تجاه الكلمات المباشرة].

تبدو مسافرتنا ضعيفة، أصغر من أي وقت مضى، قلقة في بعض الأحيان ولكنها فخورة. وأخيراً، كانت قادرة على ارتداء ملابسها مرة أخرى بأناقة قدر الإمكان. لم تضع المكياج، ولكنها ارتدت أحد معاطفها المفضلة، وهو قصير إلى حد ما وياقته من فراء الثعلب. على الرأس قبعة صغيرة للغاية، ولكن لا شيء مغال فيه، وذلك لإخفاء شعرها غير المصبوغ وغير المصفف جيداً. في يديها، من دون خاتم أو ساعة، كانت تمسك حقيبة جلدية مسطحة، وهي شيء لافت للنظر، كانت ترتديه ذات مرة فقط في ظروف استثنائية، مثل الأعمال الفنية. اليوم، كانت تتشبث بالحقيبة كأنها تتشبث بلوح النجاة في وسط محيط من الصور المتحركة والأصوات التي تصم الآذان. تتجه عيناها باستمرار من اليسار إلى اليمين، تقفزان باتجاه السيارات التي تأتي أمام راكبي الدراجات الذين نجتازهم. من الحديقة في هذا الجانب إلى السكك الحديدية في الاتجاه المقابل. يداها تداعب الحقيبة بعصبية. تك، مفتوحة. تك، مغلقة. ولكن الحمد لله، إنها صامتة. ليس مضطراً لسماع لغتها الجهنمية. إنها حتى تسود كقاعدة من قواعد الحياة الطبيعية.

تعال يا جوني. خذنا إلى طبيب الأسنان هذا. الطريق سوف يأخذنا إلى الحي القديم. أره وأرينا أراضي الهنود. دعينا نفكر مرة أخرى في كل ما كان يحدث في

---

34) هوغو كلاوس هو كاتب سيناريو، وكاتب مسرحي، وشاعر، وكاتب، ومخرج سينمائي، ورسام، ومترجم، وصحفي، من بلجيكا، ولد في بروج، توفي في أنتويرب، عن عمر يناهز 79 عاماً.

هذه القرية المغلقة داخل المدينة الأكبر. في هذه القرية الصغيرة المستقلة، التي يصل حجمها إلى خمسة شوارع، حيث تشغل الأمهات مقاعدها على الرصيف، كل عام في أول شعاع من أشعة الشمس، يستقبلن الربيع ويستمعن إلى كل القيل والقال. الحي الذي كان فيه محل جزارة وعائلة مكونة من سبعة أفراد كان رزقهم يأتي من عمال مصنع الجوارب ومن مجموعة من الجيران في الأحياء المجاورة.

("الأدوار الصغيرة، لا وجود لها" (تقول هي ذلك كلما أفلت منها دورٌ كبيرٌ). إن الأدوار الصغيرة هي التي تحدد الأدوار الكبيرة، أكثر من الأدوار الكبيرة نفسها، ودور صغير كهذا يناسبنا جيداً. علاوة على ذلك، متى يكون الفلمندي عظيماً؟ دائماً في التفاصيل والاكسسوارات. لا عيب في ذلك. يجب أن نكون ما نحن عليه، وإلا فإننا نجازف ألا نكون أحدا"). الآن، لا أحد يجلس أمام بابها.

مصنع الجوارب ذهب أو أفلس، أما فيما يتعلق بالجيران القدامى، فلا يختلف الأمر كثيراً. لكن من يدري؟ ربما يعطي مشهد شوارعنا، المألوفة ولكن المقفرة حالياً، مسافرتي شيئاً تتشبث به. ربما تحدث البلاط وواجهات الطوب إلى ذاكرتها. ربما ستجد بعض المقاطع الصغيرة، كلمتين قديمتين، ربما بفضل ما سوف يذكرها به هذا المشهد.

تعال يا جوني.

اذهب.

بالإضافة إلى بوسو الكادح، وصديقه في الحظ العاثر ويللي الإسكافي، وديكي ليزا وابنة أختها لوسيانكي لا مونجول (المنغولية)، كان هناك نيكي بارشيمين. ("اتصل بنيكي، إن نيكي هي التي تستطيع التعامل مع الأوغاد"). لم تتزوج قط، وعاشت بشكل غير مباشر أمامنا وكانت دائما تقسم بسيجارة سانت ميشيل فيرت، الأقوى، من دون فلتر، من فضلك.

كانت كلمة بارشيمين (لفافة الرق) تشير إلى وجهها ويديها، وإلى التجاعيد العميقة والبقع البنية التي ميزتهما. لم نرَ قط بقية نيكي، لذا كان يطلق عليها نيكي

العنكبوتة. كانت دائما ما تقف في مدخل بابها وهي تمسك برداء حمامها الأرزق بإحكام تحت ذقنها لإخفاء جسدها العجوز وخاصة رقبتها التي تشبه رقبة السلاحف. كنت تشعر أن هناك ميكرفون مثبت في فمها، فكانت تستطيع أن تستدعي اللبان عن بعد للحصول على طلبها. وكان هذا هو الحال أيضاً مع بائع السمك المتجول أو بائع الحساء أو بائع القشدة المجمدة أو السنان. كان هناك دائماً شخص يرن على بابها، رجال في سن معينة، معظمهم كان يبدو عليه الحزن. لم يكونوا يبقون طويلاً.

تحت رداء حمامها، ومع ذلك، تظهر ساقيها عارية. ملطخة بأوردة زرقاء ومصابة بتورم غير صحي، مع ضمادات بشكل دائم حول ربلة الساق أو الكاحل. ولكن القدمين كانتا دائماً محشورتين في أحذية مصنوعة من جلد التمساح ذات كعب عالي. "من دون الحذاء ذي الكعب العالي، لم أعد أشعر أني امرأة".

كان صوتها أجشاً، وصوت ضحكها مجللاً وكانت جملتها الشهيرة المفضلة. "لقد أعطيت الكثير من المتعة للكثير من الرجال في حياتي". كانوا مازالوا يتحدثون عن جمالها الذي لا مثيل له. عندما وجدوها على كرسيها، تتابع القناة التلفزيونية نفسها منذ ثلاثة أسابيع. نصف مفترسة من قبل قطها الجائع. ولكن دائماً مع الأحذية المصنوعة من جلد التمساح ذات الكعب العالي.

اذهب يا جوني.

هيا.

كان هناك أيضاً خبازنا، إتيان، إذا لم أكن مخطئاً. كان يعيش ويعمل في منزل في الزاوية أمامنا. كان مصاباً بالربو فعلاً عندما أصيب بحساسية من الدقيق. "كان يجب أن يحدث لي هذا! مرة أخرى، إذا كانت هناك حساسية من الفراولة أو من الفول السوداني. لكن لا. من الدقيق!. أنا الذي أحب عملي كخباز. هل هناك أي شيء أكثر جمالاً وأفضل من لفائف الخبز المستديرة المطهوة جيداً؟ أو كعكة الزبدة مع الزبيب؟ أو لفافة من الخبز السميك المغمورة في القشدة الطازجة بدلاً من كريمة الزبدة؟ كان

جدي بالفعل خبازاً وفي حياتي لم أتعلم أي شيء آخر أو أريد أي شيء آخر. وها هو حالي الآن".

حاول التمسك بضعة أشهر أخرى، لكن في الصباح الباكر في أحد الأيام في مخبزه، كان هناك صوت سعال وحشرجة في الحنجرة، مما جعل زبائنه يشكون في أنه لم يكن يعاني من الحساسية ولكن من السل. وقد تأثرت إيرادات المخبز بسبب ذلك. في وقت توقيع أوراق استئناف التجارة، كان يبكي كالطفل. لقد قطع على خليفته وعداً بأنه لن ينقص أبداً من تشكيلة المخبوزات التي تخرج من المخبز. "من حلوى الماستيل إلى فطائر اللوز الملكية!". لم يعد أبدا للتحقق مما إذا كان الوعد قد تم الوفاء به أم لا.

كان هناك فيلومينيك دو بري. جسم صغير مستدير مثل الكرة، يحمل المعنى الحرفي للكلمة، رأسا دائرياً يشبه الكرة والذي كان يضحك دائماً. خديها حمراوان مثل التفاح، وعيناها تتألقان بفرح الحياة وروح السخرية. لقد ضحى زوجها، وهو رجل متين البنيان مثل البلوط، للزواج منها بحياته المهنية كبحار لمسافات طويلة. عمل لمدة عامين لدى "نيكو، مصنع المفاتيح والمقابس الكهربائية". ثم قال ذات يوم: "لقد سئمت من المقابس الكهربائية. لدي ساقا بحار. إذا كنت تشتاقين إلي، فقط عليك شراء كلب". لكي تغيظه، اقتنت فيلومينيك كلب شيواوا. "شيواوا! صاح الزوج، أهذا هو الكلب الذي تقارنينني به"؟ "بالطبع لا، قالت ضاحكة، لكن لم يكن هناك شيء أصغر، يا عزيزي". ولكن مركب زوجها قد هلك بكل ما فيه من بشر وبضائع قبالة سواحل السنغال. بكته لمدة عام، وأعطت اسمه لثاني كلب شيواوا تقتنيه واستمرت الحياة.

تحت مئزرها العريض من النايلون، كانت ترتدي الفساتين الملونة المطرزة بالزهور الصغيرة. كانت تعمل في صناعة النسيج، ولكن بعد وفاة زوجها، أصبحت تغطي نفقاتها الشهرية عن طريق بيع توقعات كرة القدم.

كانت هناك علامة مضيئة معلقة على واجهة منزلها الصغير والذي كان يعتبر مقر

عملها أيضاً: "توجد هنا التوقعات دائماً.. التوقعات الأولى". كانت تومض ليلاً ونهاراً. كان هناك دائماً شخص ما في المنزل.

كانت تقول لكل عملائها وهي تضحك: "هذا الأسبوع سوف تفوز، أشعر بذلك. ولكن عليك أن تلعب بحظك بدقة. الذي لا يخاطر بأي شيء يخسر دائماً!" لم يربح أحد في الحي أكثر من مائة مرة رهانه، ولم يراهن أحد أكثر من مائة فرنك. كانت الناس تلعب لتفرح الأرملة وليس للفوز. هي نفسها لم تكن تلعب. "من يلعب دائماً يخسر"، اعترفت هي بذلك يوما ما وهي في حالة سكر. عندما تشرب، تختفي ضحكتها وتصبح سخريتها لاذعة وعنيفة. خلال كل تلك السنوات، ربحت مع عمولتي أكثر مما كسبته جميعاً من خلال بطاقات الاقتراع التي يملأها بشكل خاطيء. حفنة من الأغبياء. حفنة من الفقراء!".

كانت هذه هي المرة الأولى التي تخسر فيها هي نفسها. نصف عملائها. لقد هزت كتفيها العريضتين، واصلت الضحك، وباعت الشهر التالي تنبؤات أكثر من الشهر الماضي. وكانت في هذه الأثناء، تشرب على الأقل كأساً في الحانة. أصيبت بمرض السكر وفقدت بصرها وكلبها وثلاثة من أطرافها قبل وفاتها. ظلت العلامة المضيئة معلقة على الواجهة لسنوات عديدة. دون أن تومض مرة أخرى.

كان هناك مصفف شعر، بيير، المدعي، الذي كانت رائحته ما بعد الحلاقة أكثر اختراقاً من رائحة عملائه من الإناث. كان قد فاز بجائزة أفضل مصفف شعر في بلجيكا، وكانت صورته دائماً في الصحف، ولكن، ما قد تسبب في يأسه الشديد هو أنه كان قد أنجب ثلاثة أطفال كانوا مُغطين بالإكزيما من الرأس إلى أخمص القدمين. وجد أطفال بوسو لابوريو (الكادح)، بوبوس 1، بوبوس 2، بوبوس 3، أخيراً فرصة للسخرية من شخص ما. عندما كان أطفال مصفف الشعر الثلاثة، مرة أخرى، مغطين بالقشور، كان الناس ينصحوهم واحداً تلو الآخر: "ربما يجب أن تذهب لتسأل والدك عما إذا كان لديه شامبو ضد قشرة الرأس".

كان هناك إدي، رجل الجرائد. كان يستيقظ ست مرات في الأسبوع في الساعة الخامسة، ويضع شحنته من الجرائد في صندوق دراجته، سواء كان الطقس جيداً أو سيئاً، كان يبدأ جولته التي ستأخذه إلى كالو ويعود مرة أخرى وقت الظهيرة. يوم الأحد، كان يستيقظ أيضاً في الساعة الخامسة، ولكن لكي يذهب بدراجته يصطاد الأسماك من بحيرة أوفرمار - دونك. معظم الوقت، لم يكن يصطاد أي شيء، ومع ذلك، كانت جرائده تفوح منها رائحة السمك. باستثناء أيام الآحاد المخصصة للصيد، كانت زوجته تستيقظ معه، لكنها لا تذهب للتسوق قبل وقت قصير من عودة زوجها. قطعة فيليه من اللحم البقري لكلبها البودل ورطل من نقانق الخنزير لزوجها. "كنت أود أن أفعل العكس، لكن كلاهما سيكون غير سعيد. عندما يأكل الكلب النقانق، فإنه يتقيأ، أما معدة زوجي، فلا تتحمل الفيليه الصافي. لكل ذوقه". أما ذوقها هي، فكانت تحب لحم خنزير بارما وقطع الكلاوي. إذا تبقى من هذا شيءٌ، فهذا يجعل كلبها يتقيأ أيضاً. كان لها ولإدي ابنة، أذهل جمالها الجميع. ("لم ترث من أمها سوى لوح الكتف ومن أبيها جسمه المستدير"). عندما انفصلت هذه الطفلة الجميلة، وهي في سن العشرين، بعد خمس سنوات عن صديقها الأول، جاء هذا إلى الباب عند حلول الظلام. كان الأب والأم بالفعل في السرير، لأنه كانت هناك النزهة في صباح اليوم التالي. لذلك كانت الطفلة الجميلة هي التي فتحت. باكية، أفرغ صديقها الصغير طلقتين من بندقيته في وجهها. ثم حاول الانتحار، ولكنه كان قد أفرغ محتوى بندقيته وأطلق الرصاصتين بالفعل. شغلت القضية الصفحة الأولى في الصحف لعدة أيام. خلال هذا الوقت، لم يعد إدي يخرج إلى نزهته. ثم، بعد ذلك، استأنف المسار المعتاد لحياته.

"ماذا كان هناك لنفعله؟".

خلال حياته المتبقية، لن يضيف أكثر من ذلك.

كان هناك أيضاً، كيف ننسى ذلك، سيدوني بيك دي ليفر (سيدوني شفة الأرنب).

لم تذكر القصة المحلية، كيف تحولت من أمر مؤقت إلى الأبدية. في المقابل، إذا تحدثنا عن سيدوني بيك دي ليفر (سيدوني شفة الأرنب)، فإننا لابد لنا أن نتحدث عن مظلتها ورقصتها تحت المطر.

أولاً المظلة. في أحد الأيام، عند الظهيرة، اندفعت سيدوني في منتهى الغضب داخل متجرنا وكانت تصرخ، رافعة فوق رأسها ذراعيها اللتين تحيطان بمسبحة وكأنها تطلق منها اللعنات والشتائم. لغتها، التي تشبه إلى حد ما لغة أمها البربرية، تجعلها إلى حد بعيد صعبة الفهم. "أين مظلتك؟"، سألها أبي بعد فترة قصيرة محاولاً قول أي شيء. فهمت سيدوني ما قيل لها وحاولت أن تتخلص من قاموس الإهانات لديها شيئاً فشيء، كما هو الحل في الألغاز، بدأ الجزار وعملائه في تخمين كلماتها وتجميع قطع الأحجية معا.

لقد بدأوا يفهمون أخيراً. كانت سيدوني تتجول حول الرصيف دون قلق، وتوقف هذا الشخص الغريب الودود إلى جانبها في سيارة شيفروليه حمراء. فتح الرجل نافذته وسألها عن الطريق إلى المحطة. كانت سيدوني على علم أن ليس كل شخص قادر على فهم لغتها التي تنطلق من شفتها التي تشبه شفة الأرنب، فأرادت أن تكون يداها حرة لتستطيع توضيح تعليماتها بشكل أفضل باستخدام الإيماءات. لذلك، علقت مظلتها على مقبض باب شيفروليه وبدأت في رطانتها المؤلمة: "ستأخذ أول طريق على اليمين (ترفع إصبعا وتشير إلى اليمين)، ثم الثالث على اليسار (ترفع ثلاثة أصابع وتشير إلى اليسار)، ثم تمشي مستقيما حوالي مائتي متر (ترفع يدها كلها في الهواء)، وهكذا، تصل إلى هناك يا سيدي"! أجابها الرجل بعدما كان صامتاً ومندهشاً: "سوف أجد الطريق بنفسي، يا سيدتي". سيدوني: "لقد رحل هذا الوغد هكذا فجاة ودون أي سابق إنذار! مع مظلتي المعلقة على بابه"!.

ثانياً رقصها تحت المطر. من خلال تنفيذ هذه الخطوة، احتفلت بنجاح مالي في أحد المقاهي التسع في منطقتنا. في الوقت الحاضر، لا يزال هناك واحد فقط، مقهى

دو توريست (مقهى السائح) عند زاوية ش - راباستريت (ش - اللفت). لكن في ذلك الوقت كانت التسع مقاهي مزدهرة، حتى أصغرها، لدى ويفينا. عرين بني داكن مع تلبيسة على الجدران، وموقد من الحديد الزهر في وسط الغرفة مع أنبوب انحنى على رؤوس العملاء قبل أن يجدوا أخيراً مخرجاً في الجزء العلوي من مدخنة عند الركن. في فصل الشتاء، انجرفت غلاية من على الموقد حيث كان يتم تحميص بعض الكستناء.

ويفينا، أرملة أهلكتها الحياة، كانت تدير المقهى بطريقة مبتكرة وكانت تريد أن تفعل ذلك بمفردها. "جرسون هي كلمة أخرى لقول لص". كانت وصفات حسائها وسلطاتها التي كان اللحم من عناصرها الثابتة، مشهورة في كافة النواحي، لكن المشروبات الكحولية؟ لم ترفض فقط تقديم البيرة المشهورة وغالية الثمن ولكن أيضاً رفضت دفع المكوس على المشروبات المسكرة مثل العرعر، الكونياك، مشروب التوت الأحمر، السفرجل أو حتى منقوع البطاطس. كانت تحصل على كل ما تريد من لدى مصانع الكحوليات المجهولة وتخفي ببساطة قنانيها من الخمور والمشروبات الكحولية في سلة من الخوص معلقة على حامل المعاطف بالقرب من المدخل. وإذا جاء أحد ما من إدارة الجمارك والمكوس في يوم من الأيام، فإنها سوف تتفاخر بأنها بريئة. "كحول؟ في حقيبة التسوق؟ شخص ما قد نسيها هنا، يا سيدي، لا أستطيع أن أقول لك من".

يوماً ما، لإزعاجها، قام عدد قليل من زبائنها المنتظمين مع بعض الزملاء الذين أتوا من هام بتفتيش المكان وكانوا يرتدون زيا رسميا قاموا باقتراضه من أحد المحلات. اقتحم أربعة منهم المكان، بدأوا يتصرفون ويتحدثون ويصرخون مثل موظفي إدارة المكوس واتجهوا مباشرة إلى حقيبة التسوق. وجدوا فيها ثلاث زجاجات من الكحول المهرب، بالكاد، كانت آتية اليوم. "ما هذا يا سيدتي؟ هل تخرقين القانون؟ سوف يكلفك ذلك عشرة سنتات!" مرتجفة الساقين، قالت لهم ويفينا إجابتها المعتادة: "لقد ترك ذلك شخصاً ما هنا. لا أستطيع أن أقول لك من". وعند ذلك الحين، قال لها، المحرض على هذا المقلب، جون دا بوب فينوبر: "ولكن في النهاية، ويفينا! إنها

حقيبتي. أنت تعرفين ذلك، أليس كذلك؟ وهرب مع الحقيبة والزجاجات، تاركا ويفينا منهارة في وجود موظفي الجمارك الأربعة.

استمرت في همها وشعورها بالصدمة، طويلاً، حتى بعد ما اعترف لها الجناة، الذين أصابهم الندم، أن الأمر كله كان مقلباً. انتهى بهم المطاف بدفع مبلغ من المال واستطاعوا أن يجمعوا مبلغاً كبيراً من المال يكفي لكي يشتروا لها نصف دستة من الزجاجات. رفضت ويفينا أن تأخذ الأموال منهم. أغلقت بابها أمامهم وأغلقت قهوتها بعد شهر.

ولكن، حسناً، كان الأمر يتعلق بسيدوني. كانت في مقهى لا فيراندا وهي ترقص مثل هندي حول نيران المعسكر على اللوحة الخشبية التي يتم وضعها في المساء على طاولة البلياردو. الحقيبة في يد، والمظلة في اليد الأخرى، ترفع ركبتيها بالتناوب في حركة بغيضة، وتنبعث منها صرخات الانتصار. لقد كسبت في توقعات كرة القدم.

"يا له من حظ رائع!" كانت تصرخ من وقت لآخر وكانت، بالفعل في حالة سكر شديدة. لم تكن تعرف شيئاً عن كرة القدم، لملء اقتراعها، حصلت على مساعدة من فيلومينيك، التي نصحتها بألا تخشى الرهان على بعض النتائج المبالغ فيها. وأخيراً، أصبحت سيدوني محظوظة في حياتها. "يا له من حظ رائع!".

"ولكن، ماذا تقول في صياحها؟" سأل وافد جديد أحد رواد المكان الدائمين. كانا يجلسان على البار ويشاهدان رقصتها الهندية. "يا إلهي، يا له من حظ رائع!"، أجابه الزبون المعتاد، الذي كان يعرف سيدوني ورطانتها لفترة طويلة. بعد ذلك بقليل، مرت سيدوني، تاركة طاولة البلياردو، من أمامهما، وهي تقوم بوصلة أخرى من الرقص، وقد دفعت ثمن وصلة أخرى من الموسيقى وطلبت من ابن صاحب المكان أن يضع النقود المعدنية في صندوق الموسيقى لعزف مقطوعات موسيقية أخرى تناسب مزاجها الخاص. كانت تتحرك بجسدها مثل الراقصة بالعصا، تلوح بمظلتها وتصنع دوائر بحقيبتها. السعادة تعطي الجرأة.

لقد أخذت تصيح في وجه كل الموجودين:"إني مثيرة، إني مثيرة، من يريد أن يقبلني؟"، "والآن؟ ماذا تقول الآن؟" يسأل الوافد الجديد. يكذب الزبون المعتاد قائلاً: "حسناً، لا أعرف أي شيء عن ذلك". لكن سيدوني، التي توقفت مؤقتاً عند البار لأخذ رشفة من رودينباخ - غرينادين، تخبرهم بذلك الآن مباشرة. في وجوههم، وهي تلهث بشكل حاد وناعم: "إني مثيرة، إني مثيرة، من يريد أن يقبلني؟". "آسف يا سيدوني، قالها الزبون المعتاد، أنا لا أفهم حقاً ما تقولينه، يا ابنتي. كرريه، ربما نفهم قليلاً".

كررت سيدوني الجملة خمس أو ست مرات. لم يستسلم الرجل: "آسف، يا ابنتي، يجب أن أتماسك قليلاً، لقد احتسيت 12 زجاجة بيرة صغيرة". هزت كتفيها، استدارت واستمرت في الاحتفال. "إنه لأمر مخز"، قالها الوافد الجديد متتبعاً سيدوني بعين متعاطفة: "بالتأكيد"، قال الزبون المعتاد. إذا كانت فقط أصغر قليلاً وليست ثملة إلى هذا الحد. يا الهي، ربما ستقابل أمورا رائعة، شفة الأرنب هذه".

في اليوم التالي، لم تجد سيدوني بطاقتها. كان عليها أن تدخر شهوراً حتى تتمكن من تسديد ديونها في مقهى لا فيراندا. كانت هناك أيضاً الأم والابنة. الأولى في الثمانين من عمرها والثانية في الخمسين، وقد أعطت كل منهما بعداً جديداً لمفهوم القيل والقال في الحي. كان لديهما القليل من الأشياء باستثناء الحبال الصوتية والمفردات الأساسية، ولكن هذا كان كافياً لتظهر بقوة كراهيتهما المتبادلة. امرأتان سليطتا اللسان من دون رجل، أب أو ابن، من دون أطفال أو أي شخص آخر، تركا نفسيهما ينعزلان في محيط وسط البلد، امرأتان عجوزتان حقيرتان، لم يكن لديهما أي اتصال مع أحد، لم يرتادا أي متجر أو أي مقهى، كانتا تسكنان بجوارنا في منزل صغير، لم نر أحدا ما يغسل لهما البلاط أو يكنس الرصيف أمام المنزل، لم نر أحد يرن على بابهما فيما عدا محضر أو بائع موسوعات متفائل. على أي حال، لم يفتحا لأي منهما أو لأي أحد غيرهما. كانت ستائرهما رمادية اللون من القذارة، ولم يكن يمر عليَّ شهر إلا وأنا أصلي، مرة واحدة على الأقل، من أجل أن تنزف هذه الستائر دمهما، ترسم بقع

الحبر التي تعبر عن فرحتي، لأنهما قتلا في النهاية، ويا حبذا إذا كان ذلك بفأس حاد ومنشار صدئ. كانت نزاعاتهما تستمر لمدة يومين وليلتين، ولا شيء يوقفهما ولا وعكة صحية ولا تناول الوجبات، كنا نسمعهما تصرخان في القبو، في العلية، في المرحاض، في الفناء الداخلي الصغير، يمكننا متابعة رحلة كل منهما من خلال نبرة صوتهما المزعجة، فعندما يبدأ النزاع وتبدأ أصواتهما الغاضبة، يستمر ذلك لأكثر من ربع ساعة في المرة الواحدة، ومع صوتهما المزعج، لا بد لك أن تسمع صوت ركل الأقدام، رمي الأطباق، الأكواب، والزجاجات الفارغة، طبعاً بلا شك سماعك لصوت أشياء يتم رميها ولكنك لا تستطيع تحديد ما هي بالضبط، لأكثر من نصف ساعة، حيث تبدو أصواتهما كأجراس لا تتزعزع، ولكنهما في كثير من الأحيان، تختارا أن تتنقلا من سجل الصياح إلى سجل فحيح الأفاعي، حتى تسقطا أخيراً من التعب، لكن حتى أثناء نومهما، شخيرهما الثمل، صوتهما الذي يبدو كصوت الخنزير يقاد إلى غرفة الذبح، يبقينا مستيقظين، وخاصة أنا، فغرفتي كانت بجوار غرفة الفتاة، حيث يقع معظم الصراخ، على الأقل - إذا كان لا يزال يستحق اسم الصراخ - كانت اختبارات شفهية للقوة، تتفاعل مع ردود مليئة بالإهانات واللعنات المتكررة، تتخللها أحياناً ضحكات مجلجلة جوفاء، تقليد امرأة مجنونة من امرأة مجنونة، كان الأمر برمته تعدد الأصوات الجامحة لروحين مجنونتين، كانت كل منهما تريد أن تخنق الأخرى بكل سرور، وهذا ما كانتا تعدان به بانتظام، ولكنهما، لم يفعلا ذلك لأنهما لم تعرفا ماذا تفعلان بوقتهما دون بعضهما البعض.

تصيح الأم على سبيل المثال: "ارحلي، ارحلي، ارحلي". ألف مرة، بإيقاع لا تشوبه شائبة، على كل نغمة يمكن تخيلها. تجيب الفتاة، مرات عديدة وبقدر كبير من البراعة، بصوت منخفض ثم بصوت أعلى، بنغمة جافة ثم بنغمة أكثر صرامة: "اخرسي، اخرسي، اخرسي". الأم: "تفعلين ذلك من أجل من هذه المرة؟ تفعلين ذلك من أجل من هذه المرة؟ تفعلين ذلك من أجل من هذه المرة؟". الفتاة: "كلارك جابل. كلارك جابل. كلارك جابل". أو: "القادم الأول. القادم الأول. القادم الأول". الأم: "أين

معاشي؟ أين معاشي؟ أين معاشي؟". الفتاة: "في مؤخرتي. في مؤخرتي. في مؤخرتي". الأم: هذا كل شيء، تودين أن ترمي والدتك أسفل الدرج! هذا كل شيء، تودين أن ترمي والدتك أسفل الدرج! هذا كل شيء، تودين أن ترمي والدتك أسفل الدرج!". الفتاة: "سأستريح وأحصل على السلام! سأستريح وأحصل على السلام! سأستريح وأحصل على السلام!". خلال هذا الوقت، كنت مستلقياً على سريري، وكانت أصابعي مغروسة في أذني: "غدا امتحان اللاتينية، غدا امتحان اللاتينية، غدا امتحان اللاتينية".

حاولنا الانتقام، أولاً في الليل، أثناء حوارهما. نصرخ بدورنا بجميع الأشياء، ونضرب في الحائط الفاصل بيننا حتى يصيب الألم قبضاتنا العارية. لا يوجد أي تأثير. ثم بعد ذلك، نهبط إلى الشارع لنصرخ تحت نوافذهما، ثم نضرب على مصاريعها المغلقة. نبدأ بقبضاتنا، ثم بالنعال ثم بالأحذية التي نستخدمها في تسلق الجبال والتي حصلنا عليها من العلية. نظل نضرب ونطرق ونصيح حتى يخرج الحي بكامله، وبعد بعض التفسير، يقلدوننا بحماس في الضرب وفي الطرق وفي الصراخ. لا يحدث أي تقدم. بالرغم من كل شيء، تستمر المرأتين في الشجار، بلا أي تراجع، حتى ننسحب نحن مرتجفين من البرد وشاعرين بالإحباط بشكل مضاعف بسبب فشلنا.

في اليوم التالي، بينما كنا نفترض أنهما كانتا في سبات بسبب ما فعلتاه خلال الليل، قمنا بتوصيل جهاز الترانزستور الخاص بنا وتلفازنا وكافة أقراصنا الموسيقية وواجهنا مكبرات الصوت إلى الجدار الفاصل بيننا أو حتى لصقناها عليه، قمنا بذلك، حتى أتى جيراننا الذين يسكنون في الجهة المقابلة، يشكون، بسبب صوت الموسيقى النشاز وبسبب تداخل أصوات إديث بياف والبيتلز.

لقد انتهى الأمر بنا باستدعاء الشرطة. كان أول من جاء هو شرطي الحي، وكان رجلاً كبيراً وسميناً. عندما جاء، وجد نفسه أمام لوحة مرسوم فيها عائلة كاملة في رداء النوم وفي رداء الحمام، هيئتهما تدل على الهزيمة والانكسار، واللغة المستخدمة منهما تدل على منتهى الغضب، وكان هذا أمرا مثيرا له للغاية، لدرجة أنه كان يحضر زملاءه

بانتظام إلى غرفة المعيشة الليلية لدينا. في نهاية العام، كان كل فرد من أفراد الشرطة البلدية قد مر لدينا بالفعل، ونحن عرفانهم وعرفنا أسماءهم الأولى. لقد اعتادوا على المجيء من تلقاء أنفسهم، حوالي منتصف الليل، سواء كانت هناك ضوضاء أم لا، لأنهم كانوا يعلمون أنهم عندما يأتون، سوف يحصلون على شراب وشريحة من الخبز مع اللحم المفروم والبصل الصغير في مقابل تعاطفهم الصادق معنا. ولكن ليس لعلاج بؤسنا، لا، لم يتمكنوا من ذلك: وفقاً للإجراء الوارد بالديسيبل، لا يمكن وصف الهدير بأنه ضوضاء ليلية وأكثر من ذلك، عندما كانوا يقرعون باب المرأتين الشريرتين، كانت هاتان المرأتان تقوما بالفعل بفصل الجرس.

لم يحدث شيء. أتذكر أنني كنت طفلاً، ذهبت إلى السرير مرتدياً خوذة حربية ألمانية، والتي فزت بها في حفل مدرسي، على أمل أن تكون أذناي أخيراً محمية بشكل مناسب من خلال غطاء الأذن المطوي، وكان الهدف منه هو احتواء السماعات العتيقة التي تحل محلها هنا الجوارب الرياضية الملفوفة ككرة. بالإضافة إلى ذلك، ثمة رائحة.

استيقظ والداي من صوت ضربات إيقاعية لم يسمعوها من قبل ويبدو أنها كانت تأتي من غرفة الفتاة. بحثاً عن أصل الجلبة، انتهى الأمر بوالدي في غرفتي، جالساً على سريري، متأرجحاً إلى الوراء وإلى الأمام، كالمصاب بالتوحد وضارباً بخوذتي الحائط الفاصل بيننا بإيقاعي الخاص للمشاركة معهما في تعدد أصواتهما البدائية: "اخرسا، (بام) يا أيتها الفاسقات العجائز (بام). اخرسا، (بام) يا أيتها الفاسقات العجائز (بام)". شعرت والدتي بالارتياح لأن الجحيم الليلي المتكرر لا يمكن أن يكون له تأثير كبير على تطوري الذهني.

وقد اقتنعت بذلك بشكل قاطع وبكل تأكيد في الليلة التي ظهرت فيها أصوات من نوع مختلف من غرفة الفتاة. كان الصوتان متشابهين، لكنهما الآن يرددان أغنية لا نهاية لها تجمع ما بين الشخير، الضحكات المكتومة واللهاث. كان اللهاث يرتفع تدريجياً، ثم يختفي، ليعود أكثر كثافة وترتفع نبرة الصوت إلى آفاق هستيرية. كانتا لا

تزالان تصرخان، لكن الصوت أصبح الآن أكثر حزناً، وتضرعاً، وضعفاً، وأصبحت كلمة "نعم" هي الكلمة المركزية التي تظهر في أغلب الأحيان. أولاً، الفتاة: "نعم! نعم! نعم! نعم! نعم!"، وبعد لحظة الأم: "نعم! نعم! نعم! نعم! نعم! نعم!" من وقت لآخر، تصرخ إحداهما: "كلارك جابل! كلارك جابل! كلارك جابل!".

أخرجت من الغرفة بواسطة والديّ اللذين تبادلا النظرات المتشككة. صنعا لي فراشاً من الوسائد المتراصة والبطانيات القديمة في حوض الاستحمام الكبير، وذلك لأن الحمام كان الغرفة الوحيدة الأكثر بعداً عن الجدران الفاصلة بيننا وبين هاتين المرأتين. تمت دعوة ضابط الشرطة المناوب، الذي رأى النور في المكان والذي جاء لينهي جولته الليلية بمشروب صغير وشريحة من الخبز، لشغل مقعد لدينا، كما لو كان يستمع إلى فرقة موسيقية فريدة. سمعته يقول، مندهشاً: "حسناً، هذا كل شيء! أم مع ابنتها!". في الخلفية، ما زال الصوتان يصرخان بوصلتهما غير المنتهية من كلمة "نعم". قال أخيراً لأمي: "لا مانع عندي في تناول المشروب الصغير، لكن بالنسبة لشطيرة اللحم مع السلطة، فأعتقد أنه من الأفضل أن تتناولها هي بنفسها، فمعدتي لا تتحمل ذلك".

(رأيته مؤخراً. كان قد تقاعد منذ عشر سنوات، ولكن لا يزال قوياً مثل البلوط، وقد أصبحت لحيته وشعره باللون الأبيض، وأصبح وجهه أكثر تجاعيداً، لكنه كان لا يزال هو نفسه. كان هو الذي بدأ الحديث: "لقد رأيت الكثير من الأمور في حياتي المهنية، ولكن هاتين المجنونتين اللتين كانتا تسكنان بجوار والديك").

كانت القضية قد أثارت اهتمامه هو ورجاله لدرجة أنهم كانوا يراقبونهما خارج ساعات عملهم، خلال الجولات القليلة التي كانت تقوم بها. في الليل، كانت تأخذ سيارتها فولكس واجن بيتل القديمة للذهاب إلى أنتويرب في منطقة الحانات التي تقدم الكوكتيل في حي الميناء، والتي كان يرتادها البحارة الآسيويون والسائقون الفقراء. "لم يتمكنوا مطلقاً من استيقافها، لقد عملت دون قواد، علاوة على ذلك، لم تطلب حتى المال. بدت بالفعل سعيدة لأن شخصاً ما يريدها. من الواضح أنها لم تكن أبداً

جميلة، ولكن في سن الخمسين، بالتأكيد، لم يجدها أحد شهية. كانت في بعض الأحيان تقف فقط تحت شجرة في الشارع بينما تنتظر سائق الشاحنة ليتوقف وتصعد إليه، وتذهب معه، الله يعلم أين. مرة، ذهبت للتحدث معها مباشرة، وكانت في واحدة من هذه الحانات. أخبرتها أنهما عليهما التعامل بشكل أفضل من ذلك، هي وأمها. فما تفعلانه، ليس الأسلوب الأمثل للحياة وكذلك هما يزعجان جيرانهما وأطفالهم. هل تعرف ماذا فعلت؟ جلست على كرسي البار فاتحة ساقيها على مصراعيهما. لم تكن لديها ملابس بالأسفل، أقسم لك على ذلك. وقد قالت لي: "أحبني. أحبني ولم نتحدث بعد ذلك مطلقاً".

كانت هناك أيضاً الفئران. كانت تغادر في وقت محدد من المجاري القديمة المتداعية والضيقة للغاية. وحوش قارضة مشوهة، لونها بني داكن، وحجمها ضعف حجم خنازير غينيا التي كان يبيعها صديقنا صاحب محل الحيوانات الأليفة، ذلك المحل كان يبيع "من الببغاء حتى المهر".

كانت كل عاصفة ليلية تجلبها. في بضع دقائق، تصبح شوارعنا بيضاء. كانت قطرات كبيرة من المطر تسقط، كان الثلج يغطي السيارات، وكانت مظلتنا ترفرف بشدة، وكان ظهور المارين المندهشين المصابين القشعريرة من شدة البرد والصقيع. كان هؤلاء المارة يصيبهم الخوف أكثر عندما تنفتح أغطية البالوعات والمجاري المصنوعة من الحديد الزهر بسبب العاصفة، وتخرج الفئران قطعانا، والتي كانت تدور في مسارات وتأتي تحت أقدامهم، وتسير على الأسفلت المغمور بالماء مثل المنقذين المضطهدين، وتحيط به قطرات المطرالمستديرة كالبالونات، وكانت عندما تسير، تترك وراءها طريقا أنيقا رسمتها ذيولها العارية. كانت الفئران تبحث عن مأوى خلف عجلات السيارات وعلب القمامة، لكن تمت مطاردتها وصيدها من قبل كل الأوغاد وجميع الكلاب في جميع الأنحاء، وتتلقى المساعدة من أكثر زبائن الحانات

جرأة وثمالة والذين لم يهتموا بالتضحية بأنفسهم ضد هذا الكم الهائل من البشر الغاضب تجاه هذا الوجود، هذا العدو غير المسموح به، هذه الفئران الملعونة، هذه الحيوانات، هذه الناقلة للأمراض والكوراث والتي يمكن أن تنقلب ضدك في مطاردة تامة والأنين غير المحتمل وتصيبك في الحلق أو في الساقين. هذا التهديد، الذي يتكرر دائماً ولم يثبت مطلقاً، مختوماً مسبقاً بالإعدام.

تحت البرق والصواعق، تحت صراخ المتفرجين والمشجعين وبينما تستمر الحافلات في السير بأقصى سرعة بإطاراتها الكبيرة وستائرها الملوثة بالماء القذر والذي يختلط أكثر وأكثر بدماء الفئران، يتم التطهير العرقي باستخدام عصي البلياردو والمقشات، في بعض الحالات باستخدام كعب الحذاء ومرة واحدة فقط، وكان ذلك بسبب ذعر صاحب مقهى لا فيراندا، باستخدام كرات البلياردو التي عثر في نهاية الأحداث، على خمس كرات منها فقط من أصل ست عشرة.

"كلبي، كلبي"، فيلومينيك دو بريور، يتصبب منها العرق مثل طبق الحساء الساخن، تركض في الشارع وتنظر حولها. لم تعد عيناها ساطعتين، ولكن محترقة من الغضب. "هذه الفئران الأوغاد، إنها تمثل ضعف حجمه! هل رأى أحد ما كلبي؟". نظر اثنان من زبائن مقهى لا فيراندا إلى بعضهما البعض. لقد فكرت جيداً، أحدهم يهمس شاعراً بالذنب وهو يمسح بمنديله عصا البلياردو المتسخة، إن الفئران تبدو غريبة هذا العام، مع هذا الذيل القصير وهذه الأقدام الصغيرة الملتوية المضحكة".

كان هناك أيضاً صرير الفرامل، أنين الإطارات وصوت آلات التنبيه الذي يصم الآذان. مفترق الطرق لدينا، والذي تم احتلال زواياه من قبل خباز مصاب بالربو، مقهى عند ويفينا، متجر للحيوانات الأليفة وجزار شهير بأطباقه الباردة وكروكيت الجبن، كان يعرف هذا مفترق الطرق باعتباره واحدا من أخطر مفترقات الطرق في المدينة. على الرغم من أن رصيف أنتويرب ما زال موجوداً في وسط المدينة، يدعوك هذا الرصيف إلى وضع ألغاز: فهو مستقيمٌ، واسعٌ وممهد جيداً، كان مسار سباق جيد

طوله نصف كيلومتر ولكن مع مفترق طرق خادع، ليندا ستارت، وش - الزيزفون، الذي يبدو أنه اغتصب اسمه. مثله مثل ش - أكاسياس، وش - قصر هيتريس وش - دي بولو، لا يحتوي على شجرة واحدة.

كان الخطر بلا شك بسبب واجهاتنا، التي لم تكن مضاءة بالألوان أو بأي طرق ابتكارية، بحيث بالخداع البصري، يبدو الأفق مستمرا بلا انقطاع، كأن ش - الزيزفون غير موجود ولكن الحقيقة كانت: عدة مرات في اليوم كان على سائقي السيارات التوقف المفاجئ لتجنب الاصطدام بسيارة كانت تعبر الطريق ومرة واحدة في الأسبوع على الأقل، كانت السيارات الكبيرة التي تنقل الورق المقوى يمكن أن تتسبب في كارثة حقيقية. وقد تم احتلال الزوايا مرة أخرى من قبل شركة إصلاح سيارات، مغسلة سيارات، وحدة طوارئ، وجراح تجميل.

في تلك السنوات، كانت أحزمة الأمان أدوات باهظة الثمن لم يستخدمها أحد. كان العديد من الركاب ينجرفون عبر الزجاج الأمامي، وليس وراء غطاء محرك السيارة في أفضل الأحوال. كان التعساء أكثر يطيرون أبعد ويهبطون بالجروح والكدمات لأقل من متر، يخدش الأسفلت أيديهم، ووجوههم، وكل الجزء الأمامي من أجسادهم. أو ما هو أسوأ من ذلك: يندفعون إلى الأمام وتتخبط رؤوسهم في جانب من الشاحنة التي اصطدموا بها للتو. وكانوا في الغالب أكثر حظاً من سائقهم الذي انسحق بعنف في عجلة القيادة الخاصة به. مع الوجه (الأسنان مكسورة، بالأعلى أو بالأسفل أو كلاهما) أو مع القفص الصدري (ضلوع مكسورة، غشاء بريتوني ممزق).

ذات مرة، دخلت سيارة فيات داخل متجر خبازنا. تحطمت واجهة العرض إلى ألف قطعة، توقف غطاء السيارة على بعد شعرة من طاولة البيع، الزبون كان وحيداً سليماً ولكنه كان مغطى بشظايا الزجاج وكان في حالة صدمة لمدة يومين. مرة أخرى، انزلقت سيتروين دي إس مع أزيز إطارات مهدد باتجاه مقهى ليدي ويفينا.

لقد توقفت بأعجوبة، الزاوية الأمامية اليمنى في فتحة الباب التي كانت على وجه التحديد واقفة فيها ويفينا، فقد كانت تستعد للخروج والذهاب للتسوق في الصباح وكانت ممسكة بمقبض الباب. استغرق الأمر عشرة دقائق للتخلي عن المقبض ومرت نصف ساعة قبل أن تتمكن من قول أو فعل أي شيء متماسك. "أعطوني كأس كونياك مضاعف (دوبل). على حساب سائق صفيحة القمامة هذه".

أثناء انتظار الشرطة وسيارة الإسعاف، تم نقل الجرحى إلى متجرنا. الآلية، لم يفكر أحدٌ في ذلك. "الجرحى؟ أحضروهم إلى متجر الجزار". هنا في متجرنا، تم نصحهم بأن يجلسوا على أحد مقاعدنا الهشة، على أن يرجعوا رؤوسهم إلى الوراء وأن يمسحوا شفاههم المشقوقة، وأنوفهم الدامية وجباهم الممزقة بمنشفة نظيفة كانت تستخدم لسنوات لتنظيف الدم.

أعطاهم الجزار كوباً من ماء الصنبور، وربتة خفيفة على الكتف الأقل تضرراً، والتأكيد على أنه "نظراً للصدمة، لقد قمت بعمل جيد". نصحتهم الجزارة بتناول حساء لحم البقر لمدة أسابيع. "إن هذا يقوي الجسم والأعصاب". (كانت هي، تضمد جروح كل كائن يحتاج إلى المساعدة، بغض النظر عن أصوله وإصاباته).

في ليلة عيد الميلاد في الستينيات، انزلق ثلاثة أشخاص من الزجاج الأمامي لبضع دقائق. "في يوم العيد، نحن دائماً نفعل أكثر من ذلك بقليل"، كان هذا التعليق من أحد زبائننا، الذي تسمر في مكانه وتحدث باقتضاب وهو يتأمل المشهد من نافذة العرض الخاصة بنا. إحدى الضحايا، سيدة أنيقة في سيارة بي أم دبليو، لم تترك الكعكة المثلجة من سيريمي فرانسوا، كوسادة هوائية قبل الرسالة، والتي كانت تحملها بيديها المشدوتين. كان وجهها ممتلئاً بشظايا الزجاج، لكن بعد ذلك، بعد جلوسها على مقعدنا، لم تكف عن البكاء على الكعكة المثلجة التي سحقت ما بين صدرها والأسفلت. "ما الذي سنأكله للحلوى الليلة؟ ستكون حزينة، وجبة العيد هذه". كان هذا حتى رفعت عينيها نحو المرآة في نافذة العرض ورأت وجهها لفترة وجيزة فوق

طبق من شرائح اللحم. لقد انزلقت من على المقعد، واستلقت على الأرض، مغمياً عليها. أمام طاولتنا للبيع مباشرة، حيث يكون الحشد كبيراً للغاية في أحد أيام السنة!

كان من الواضح، أنه بالنسبة للمسعفين، كان ذلك أيضاً وقت الذروة. بقيت المرأة مستلقية لأكثر من نصف ساعة، وقد وضعنا تحت رأسها وسادة هوائية وغيرنا مراراً وتكراراً المناشف لكي تكون نظيفة وتستطيع أن تمسح بها وجهها. لقد استغرق الامر طويلاً حتى عادت إلى رشدها، لكن الجميع نصحها بعدم التحرك. "ابقي مستلقية، سيدتي. لقد سقطتي بما فيه الكفاية لهذا اليوم". حولها دون انقطاع ودون احتفالات تدور الطقوس السنوية: يأتي العملاء بأعداد كبيرة لجمع طلبات عيد الميلاد الخاصة بهم. الأطباق الباردة، كروكيت الجمبري، اللحم البتلو اورلوف، الديك الرومي مع الخضروات والطماطم المحشوة. فلابد للحياة أن تستمر.

أخيرا أخذت الزبونة بعيداً وتم خدمة بقية الزبائن الآخرين وتم غلق باب المتجر وهنا بدأ وقتنا العظيم، حفلة عيد الميلاد الخاصة بنا. للحظة، بدا المصنع العائلي وكأنه على وشك الإنهاك، بعد تحضير وتعبئة مئات الأطباق من الكروكيت، وعشرات من شطائر اللحم والخضار، عشرات الديوك الرومية، السمان المشوي مع الكمثري المطهوة، ستيك اللحم، قطع العظم مع البطاطس المحشوة، لسان الجاموس مع الصلصة أو البطاطس المهروسة.. ولكن مع تنظيف طاولة العمل لدينا وتجهيزها لعيدنا الخاص، مع أفضل الأطباق التي نقدمها وأكوابنا الكريستالية، ترتفع الشجاعة ومع الشجاعة، يرتفع المزاج والشهية. خمس أطباق لاثني عشر مشاركاً هي الحد الأدنى. كوكتيل من الروبيان، حساء الاستاكوزا، فطائر لحم الحمل وعيش الغراب من باريس، لحم الخنزير المطهو باللبن مع صلصة برابانت *كقطعة أساسية*، المثلجات والحلويات. كل ذلك مع النبيذ المناسب، النكات البالية والهدايا غير الملفوفة. (وبعد أسبوع، عشية رأس السنة الجديدة، وبعد يوم آخر من العمل الشاق، كان هناك

الاحتفال نفسه. مع وجود العديد من المشاركين، قائمة طعام أخرى، لا توجد هدايا ولكن النكات البالية كانت هي نفسها). (في اليوم التالي، رأس السنة، مرة أخرى عشاء ضخم). (جاءت سيدة الكعكة المثلجة بعد شفائها لإحضار باقة كبيرة لدرجة أنها بالكاد تمكنت من حملها بين ذراعيها. قال أبي بصراحة: "لم أتعرف عليها في البداية، مع كل هذه الندوب. لم تصبح قط زبونة بهذا الشكل").

بالطبع كان هناك أيضاً والدي. دائماً في العمل، من الساعة السادسة والنصف صباحاً وحتى المساء متأخراً. حتى يوم الأحد، يوم العطلة، كان ينظف، كان يزيل العظام. غفوة في فترة ما بعد الظهر، قيلولة صغيرة بعد وجبة المساء، وهكذا تسير الأمور على الدوام. إلى الأبد يقطع، يفرك، يفرم اللحم باستخدام مفرمة اليد. لاختيار الحيوانات في المسالخ وحجز أماكن للحم هناك، كان بالكاد يقضي ساعة واحدة فقط خارج متجره. وبخلاف الوقت الذي قضاه في مقهى هملريجك، لكي يشتري المنزل الذي وجد مكاناً لتجارته، لم يستسلم يوماً واحداً. لم يغلق متجره مرة واحدة، إلا في أيام الأحد والأعياد أو لحضور حفل زفاف أو دفن الأقارب، حتى الدرجة الثانية، ولكن ليس أكثر من ذلك. الإنفلونزا، سيلان الأنف، نزلة برد على الصدر، كدمات على الذراع، ألم في العنق، كان يتجاهل كل ذلك. يجب أن يستمر العرض. عن طريق قوة الشخصية، من خلال العادة وبقليل من المساعدة. خلال أبرد أيام الشتاء، كان القليل من المساعدة يعني جرعة جيدة من الكونياك في قارورة الترمس، قبل أن يملأها بالقهوة السوداء مثل القطران، التي بالكاد تكفيه خلال اليوم. خلال الموجة الحارة، وخلال كل الساعات التي يقضيها في العمل، كان يقضي بضع دقائق لكي يشعر بالانتعاش في غرفة التبريد حيث توجد درجة حرارة مقبولة وهدوء لطيف وحيث كان من الجيد أن تستريح بين أرباع اللحم البقري بعروقها البيضاء، وقطع الدجاج بالذرة مقطوعة الرأس، منزوعة الجلد بلونها الأصفر ونصف مطهوة، والأواني المرتبة بعناية، المليئة بالعصيدة وبالحساء والتي كان يصلي من أجلها لكي لا تحمض ويصبح طعمها مراً. (يبدو أنه يمكن للمرء أن يسمعها، اللحظة المصيرية، الجزء من الثانية،

عندما يفسد الحساء لا محالة. "تينج!"، ويذهب سدى الاستثمار الخاص بك. لقد كانت واحدة من المرات القليلة التي كان فيها سعيداً لأن يكون نصف أصم في أذن ويسمع بصعوبة بالأخري. لا شيء أكثر حزناً من حساء الهليون أو الفطر الذي فسد).

كان احتمال وجود عطلات من شأنه أن يجعله عصبياً. كيف لزبائنه أن يفكروا به؟ أنه ليس بحاجة إلى العمل بعد الآن. يمكن للعميل الغاضب أن ينتقل بين يوم وآخر، إلى جزار آخر، إذا كان يعتقد أن الأخير لديه حاجة أكبر إلى ماله أكثر منه، هو العربيد الثري الذي أغلق متجره للذهاب والاستمتاع بكل وقاحة على أحد الشواطيء المشمسة. الغيرة، إنها تبدأ بسرعة كبيرة. وسيكون هناك ما يكفي من المنافسين في الحي.

حتى وقت متأخر من مسيرته المهنية، كانت إجازته الوحيدة تتألف من ثلاثة أيام في عطلة نهاية الأسبوع خلال شهر يوليو عندما كان يغلق المتجر كل يوم سبت عند وقت الظهيرة بالتحديد. في الساعة التالية، جاءت مجموعة من الزبائن المعتادين والمندهشين من غلق المتجر في هذه الساعة وظلوا يقرعون الباب الخلفي. لقد خدمهم دون تذمر وحتى أنه اعتذر لهم بمنتهى الأدب. أما بالنسبة للرحلات خلال فترة الإجازات، فكانت الرحلات ذاتها كل عام. الكل يتكدس في الفوكسهول كريستا، ومعنا بيت جيرمين وويكي، للذهاب إلى التسوق في فترة ما بعد الظهر. الأسبوع الأول في أنتويرب (مائير)، ثم في بروكسل (شارع نوف)، ثم في هولست، على الجانب الآخر من الحدود (المحلات التجارية هيما ويلكينز). كانت رحلة هولست التي كان يفضلها، حيث كان بإمكان الأطفال السباحة في حمام السباحة الخارجي في أكسل، بينما كان بإمكانه أخذ غفوة على بطانية على العشب بجانب البركة، بعد ذلك يمكننا أن نلتهم بلح البحر المستورد من الفلبين، "مدينة بلح البحر الاولى". ومع كل هؤلاء الهولنديين الذين يتحدثوا بصوت عالٍ وواضح، يعطيك سكان زيلاند فلاندرز الانطباع بأنك خلال أيام السفر كأنك في منزلك. "لا يتطلب الأمر الكثير لتشعر أنك بالخارج، فقط المايونيز الحلو والبيرة المتوفرة إلى حد ما (تقول هي بعد المعارف التي اكتسبتها في الدورات المتقدمة والتبادلات المسرحية). وعند العودة إلى المنزل، يمكننا تهريب بعض

كيلوجرامات من الزبدة. بنصف السعر، كيف يصنعون "رؤوس الجبن" الهولندية هذه؟ يتحدثون مع بعضهم البعض، على ما أعتقد").

عند الظهر أيضاً، كان يرفض إغلاق المتجر. الزبون ملك والملك يستحق الخدمة وفقاً لرغباته وأهوائه. ومع ذلك، غالباً ما يتجسد هذا الملك المدلل متقلب المزاج في ربة منزل متقاعدة يمكن لها أن تتسوق في تمام الساعة العاشرة صباحاً أو الثالثة بعد الظهر، ولكن التي تختار أن تأتي لتختبر صبره كتاجر في الساعة الثانية عشرة والنصف بالضبط. كان قد جلس أخيراً لتناول حساء منتصف النهار، عندما رن جرس المتجر اللعين ليستدعيه ليكون على طاولة البيع ويستقبل الزبون القديم، لقد كان يقف على طاولة البيع كمن يقف على منصة الإعدام، فقد نهض وهو ينهض بمنتهى نفاد الصبر، أزاح الستار قليلاً عن الباب الزجاجي، وقد تعرف على معذبته "يا آلهي، هذه الكلبة، العاهرة مرة أخرى"، وأدخلها إلى متجره وهو يبتسم لها بمنتهى اللطف: "آها! سيدتي الماركيزة صاحبة السعادة! قولي لي يا جميلتي. ما الذي يجعلك سعيدة بالإضافة إلى المليون جنيه وجسم يشعرك بقوة وبشباب كأنك في العشرين من عمرك؟".

بالنسبة للرجال، كانت الابتسامة عريضة بنفس القدر: "آها! سيدي نائب الغرفة الجوية! ما الذي يجعلك سعيداً بالإضافة إلى السيارة الجديدة وفتاة تبلغ من العمر عشرين عاماً؟" عندما عاد لتناول الطعام، كان حساؤه بارداً ومزاجه متعكر للغاية. لكن هذا لم يكن إلا لخمس دقائق فقط. لا يحتج المرء على مصير اختاره هو بنفسه.

لم يرغب أبداً في تقديم استراحة الغداء، ولا حتى لمدة ربع ساعة. كان يعتبر ذلك غير لائق وعادي مثل بيع سلعة ما، أو ما هو أسوأ من ذلك، تقديمها مجاناً. ثلاث أوراك دجاج بسعر اثنين؟ مائة جرام أكثر عندما تشترى سلطة الكابوريا؟ كان يرى ذلك سيئاً للغاية. بالفعل يومي الجمعة والسبت قدمنا لأولئك الذين دفعوا نقداً عدداً مضاعفاً من طوابع الادخار في بنك فالوا. كان ذلك تنازلاً كافياً للإرادة الشعبية. "الجودة لا تحتاج إلى الحيل الإعلانية. إن هذا يشوه سمعتك فقط".

ومع ذلك، تصفحنا تتبعنا كل المنشورات الإعلانية لكي نستطيع أن نصل إلى المتاجر الكبرى مثل سارما أو باريما، أو إذا لزم الأمر لدى كوب، أو لدى هذه الشركات الاشتراكية الفاسدة التي تبيع دائماً تحت السعر، حبوب البن لدينا أو مسحوق الغسيل لدينا لأن ذلك سيكون أكثر فائدة، ثلاثة فرنك أقل في القطعة مقارنة بالأسعار لدي مارسيل ومارسيلا، الزوجين الذين يعملان بقالين في حينا. كان علينا أن نخرج هذه المشتريات غير القانونية بأقصى سرعة من صندوق السيارة وتهريبها إلى الباب الخلفي، لوضعها في صناديق من الورق المقوى دون أي علامة أو نقوش لإخفاء المحتويات عن العيون الثاقبة للجواسيس في الحي.

أحياناً، كان الأطفال في العائلة هم من يلعبون دور الجاسوس، الصغار أولاً لأن البراءة هي أفضل تنكر، ووفقاً لإخوتي وأختي، لا يمكن لأحد أفضل مني أن يبدو بريئاً إلى هذا الحد. كان أبي يفضل أن يرسلني كمخبر سري لدى المنافسين. كان أقرب المنافسين لنا يعيش بجوار بوسو لابوريو (الكادح) وأبنائه والذين كنا نسميهم البوبوس. لذلك اضطررت إلى تكوين صداقات مع أحد البوبوس هؤلاء حتى أتمكن من إلقاء نظرة على نافذة عرض جاره، لمعرفة مقدار ما تجرأ هذا اللقيط على طلبه الآن مقابل كيلو من نقانق لحم العجل أو شرائح لحم الحصان المدخنة. كانت اللحظة الأكثر إحراجاً لدى هذا الجزار الأجنبي، وهو نسخة متطابقة مع أبي ولكن بشكل غير لائق، بالمئزر نفسه والأيدي نفسها المليئة بالندوب، ولكن على رأسه غطاء رأس من القطن مثير للسخرية يضعه مائلاً إلى حد ما، عندما تعرف علي هذا الخائن وبدأ يظهر لي بطاقات أسعاره، كان يشير لي بإصبع كبير ذي ظفر كبير، السعر أولاً ثم المنتج المقابل له في نافذة عرضه.

عندما كانت ترسلني هي إلى مهمة تجسس، لم يكن الإحراج أقل. كانت تستهدف متاجر الأحذية والملابس وكانت تنتظرني وراء الزاوية بينما كان علي الذهاب لأسأل صاحبة المتجر: "سيدتي، هل تقدمون بلا شك طوابع ادخار مزدوجة لرابطة العائلات الكبيرة؟" كانت المرأة المعنية، وهي صورة كاريكاتورية لأمي هذه المرة، تتأملني بعين

حانية، ولكنها أضافت بمرارة في صوتها: "طلبت والدتك هذا من أجل أختك الصغيرة العام الماضي. منذ ذلك الحين لم نغير رأينا. ولكن يمكنك أن تخبرها أننا أيضا ننتظر كل عائلتها في نهاية موسم المبيعات. فيجب احترام التقاليد".

ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من أن أهز لها رأسي وأن أترك متجرها التجاري في صمت؟ شاعراً بالخجل وبعيون نارية تحدق في ظهري.

وبعد ذلك، كان هناك، بالطبع أنا، جوني. بالإضافة إلى أبي وويفينا، الفئران والحوادث. أنا عندما كنت أبلغ صفر إلى عشرين عاماً. ماذا سأقول عن هذا "أنا"، في بحر الأحداث التي غمرت مفترق طرقنا، الأحداث التي ميزتني كالحصبة وكالجديري؟

خلال السنة الدراسية، كنت أستيقظ بعد نصف ساعة من والدي، حوالي الساعة السابعة، لإعداد وجبة الإفطار. في الليلة السابقة، كان هو قد أعد بالفعل المنضدة، واضعاً عليها الكؤوس مقلوبة وعلبة الزبدة التى لازالت مغلقة. أعد القهوة، أطهو البيض وأضع الصحيفة على المنضدة من أجل أمي، كان عملي لا يتضمن أكثر من ذلك. في ذلك الوقت، كنت الطفل الوحيد الذي أقيم في المنزل، وكان الباقي قد رحل، منهم من تزوج، ومنهم من ذهب للدارسة ومنهم من انتقل إلى بيت آخر. خلال النصف ساعة قبل استيقاظي، كان أبي في المتجر قد تلقى جميع الطلبات المكتوبة التي تركها العمال، والذين قد تقلص عددهم بالفعل إلى حد كبير، لأن الأزمة ضربت صناعة النسيج بكل قوتها، والإفلاس أصبح شائعاً، والمصانع قد انتقلت إما للاستقرار في المناطق الصناعية على حدود المدينة أو للانتقال المفاجيء إلى بلدان بعيدة. كان بقية العمال يأتون دائماً بحثاً عن الفطائر المحشوة لوجبة الغداء ظهراً وشرائح اللحم لوجبة العشاء في المساء، لقد كان هذا الأكثر واقعية وربما الشكل الوحيد للاشتراكية الحقيقية في منطقتنا الغنية. ولكن الآن كانت الساعة السابعة بالكاد، وأرى أبي يركع على ركبتيه في غرفة المعيشة، أمام موقد أطلقنا عليه اسم المتواصل لأنه كان من المفترض أن يحترق دون انقطاع، من أوائل الخريف إلى أواخر الربيع، في كتلة النار الدائمة في العام

التالي، كانوا يذهبون إلى التدفئة بالغاز، لكن حتى ذلك الحين، كان إله النيران، المعبود الحديدي، لا يزال يتعين صهره كل صباح، كان من الضروري صب فحم الأنتراسيت من الأعلى إلى فمه المفتوح وفي الأسفل، كان علينا تنظيف درج الرماد وإفراغه في الصندوق الحديدي، إذا عادت النيران فيه، وهذا لن يكون مهماً طالما ظل الغطاء مغلقاً. المهارة التي تمكن والدي بها في كل مرة من إحياء هذه الشعلة، هي استخدام قضيب صغير واثنتين من الرافعات الصغيرة المتصلة بالشبكات التي تتحرك أفقياً في أحشاء موقده المتواصل، بدا لي هذا العلم المتمثل في الحرارة التي يتم التحكم فيها وفن إحيائها في وقت واحد مرتبطاً بشكل مباشر بأكثر الأعراف البشرية استخداماً. قم بتغطية النار في كل مساء وحرك الجمر في اليوم التالي، راقب اللهب دائماً، كل ذلك من شأنه في النهاية أن يحيي طائر الفينيق من رماده.. كان يفرك هنا، يقلب هناك، ينفخ هنا مرة أخرى، وجميع تحركاته معاً. إضافة الفحم من الأعلى، وإزالته من القاع والبحث، والعبث، والهز، والغربلة، والنفخ في الوسط، كل هذا كان يشكل صلاة صباحية دون كلام، ترنيمة إيقاعية، ترنيمة لموقد الفحم، والتي تعلن عن قدوم يوم جديد. لم تنته الصلاة بـ "آمين" بل مع صرير حذر لباب صغير يغلق مثل الخيمة. ثم توهج فحم الأنثراسايت مرة أخرى، أحمر داكن وأسود عند الحواف، خلف النوافذ المعدنية الصغيرة، ما أحلى هذا الدفء الذي لا يضاهى، لنار الفحم التي تنتشر في غرفة المعيشة لدينا، للحصول على أكبر شرف وأكبر مجد خلال غدائنا الصامت.

في صباح أحد الأيام، نزلت ولم أر أحداً أمام الموقد المتواصل. كانت لا تزال النوافذ المعدنية مظلمة وميتة. من خلال نافذة الباب الداخلي، ألقِيت نظرة على المتجر. لا أحد. فتحت الباب الخلفي، ولا أرى أبي في الأفق في الشارع أيضاً. ومع ذلك، فقد بدأ جرس المتجر يطلق بالفعل صوته المزعج، فقد جاء العمال لتقديم طلبهم كما هو الحال دائماً. أين هو إذن؟ في الليلة السابقة، ذهب هو وخوسيه للعب الورق في منزل فرانسوا ليل دو فيري وجانيت دي لا بوست، اللذان كان بإمكانهما أن يبتلعا بسهولة نصف برميل من الشراب في ليلة واحدة. من المؤكد أنه لم يترك جزءاً منه للقط، لكن

من الواضح أنه لم يكن مخطئاً، حيث لم ينم أحد على الأريكة في تلك الليلة. قبل نصف ساعة، كنت قد سمعت صوت المنبه في غرفتهما. ثم سمعته ينزل ويصطدم في درج السلم الضيق. وقد تسبب في الكثير من الضوضاء على الرغم من السجاد على الدرجات، ويشير هذا إلى أنه ربما لم يكن متيقظاً تماماً. ولكن بعد ذلك، أين هو؟ في غرفته الباردة؟ كعلاج ضد الصداع الشديد، هذه المرة؟

انتهى بي الأمر باكتشافه في المتجر. مع حلق جاف، ولكن في الواقع، مع وجود ابتسامة ضخمة على شفتيه، لأنه وجد أخيراً، بعد سنوات عديدة، الحل الذي يسمح له بالتوفيق بين واجبه كتاجر دؤوب وعطشه لبضع دقائق إضافية من النوم. كان يتكئ على الأورمة الضخمة المصنوعة من قطع الخشب البيضاء والتي كان يستخدمها للتقطيع، وهنا كان يستغرق في النوم، حيث كان يتعرض لعيون كل الذين يدخلون كما لو كان هو نفسه حيوان تم ذبحه. كان لا يحتاج إلى وسادة هوائية صغيرة ليستقر عليها بشكل مريح.

كان يستلقي على جانبه، وجهه نحو العملاء المحتملين، ويمسك بخده بكلتا يديه مستريحاً على بعضهما البعض، كما يفعل الراعي الصغير البدين، في لوحة جاكوب جوردان.

كان ينظف هذه الاورمة كل يوم بفرشاة معدنية ويمسح نشارة الخشب المسحوقة بخرقة أصبحت لزجة.

كان يفركها بأقوى شكل ممكن حيث أن الدم كان يخترق بعمق الخشب النهم. وهكذا، على مر السنين، تشكل تجويفان صغيران على السطح. كانت منحنيات جسده تتناسب مع ذلك تماماً. كانت بالنسبة له مريحة مثل أريكته تماماً. كان ينام في منتهى السلم، وكان يصدر أصواتا ضعيفة من الشفاه، كانت تنم عن منتهى الرضا الذي يشعر به. كان إذا استلقى على ظهره، فهذا يمثل مشهد موته، بعد عدة سنوات.
"اللعنة، أنا في الموخرة، يا ولدي. هو، هو، هو".

كانت هذه الأورمة للتقطيع تعد جوهرة تاجنا. بطول مترين وعرض متر واحد. وراء، كل هذا الطول، فتحة تظهر منها مقابض السكاكين، مثل صف من السيقان السوداء مقطوعة منها أزهارها. في الخلفية تقف لوحة زخرفية ثلاثية، من الخشب الأبيض نفسه بقية الأورمة. حواف هذه اللوحة مزخرفة بضفائر من الأرابيسك وفي الوسط رأس خنزير محنط. جميع الزخارف الأخرى في الأورمة كانت من النحاس، مثل مفصلات الزوايا، وزخارف أخرى على شكل خراطيش وحلقات كبيرة تستخدم كمقابض للأدراج. بالإضافة إلى تنظيف الغبار أسبوعياً لمئات المعلبات والغسيل اليومي لعشرات من صحاف اللحوم وأطباق التقديم، كانت تتمثل مهمتي التقليدية في مصنع العائلة في تلميع هذه المفصلات الحديدية، الخراطيش والحلقات بقطعة من سلك ستانلس ستيل حتى تلمع بما فيه الكفاية حتى أتمكن من رؤيتها، برأس مشوه، وبعيون الضفدع المنتفخة وبخدين متورمين.

عندما كنت لا أزال أصغر من أن أشارك في أي جزء من العمل، كان بإمكاني أن أنظر إلى الجزء العلوي من الأورمة عن طريق الوقوف على أطراف الأصابع، ومع ذلك، كنت أتأمل بإعجاب السهولة التي قطع بها والدي قطعة لحم العجل، ففصل اللحم أولاً بواحدة من السكاكين الرفيعة ولكنها حادة للغاية، ثم أخرج فأسه من فتحة الأورمة لتقطيع العظم لقطعتين متساويتين في الحجم. كنت أحب الضوضاء.

أحببت الانسيابية وهو يعمل بالفأس، فقد كان مازال يسوي قطعة لحم العجل قليلاً، وكأنه يعانقها، لا يقوم بضربها. في ذلك الوقت، لم أحلم سوى أن أكون قادراً على التقطيع بنفسي لهذا اللحم الوردي. أن أكون قادرا وكأني أظهر من العدم وذلك بفضل آلتنا الكهربائية شرائح رفيعة من لحم الخنزير، ووضعها على شكل مروحة على ورقة التغليف ذات الوجهين وأرميها من بعيد على الميزان قائلاً بنبرة ساحرة: "هناك أكثر من ذلك بقليل. لقد وضعت لك، يا سيدتي". لقد مارس أيضاً درج النقود الكبير جاذبية سحرية بخزائنه المنفصلة: على اليسار، خمسة وعشرون وخمسون قرشاً، بجانب الفرنك، ثم العملات المعدنية المكونة من خمسة فرنكات وأكثر، وأخيراً

الأوراق النقدية المرتبة من الأصغر إلى الأكبر. الأقل جذباً، كانت الروائح المنعبثة منها، روائح لا مثيل لها. رائحة الجيب الداخلي، رائحة العرق، المحفظة، الجشع، رائحة الأيدي غير المغسولة، رائحة الطعام، باختصار الروائح الجسدية لمئات العملاء الذين تلقوا هذه الأموال من مئات الأشخاص الآخرين. من قال أن المال لا يمكن أن تنبعث منه رائحة كريهة؟

"توقف عن العبث في هذه العملات القذرة، (يوبخني أبي وهو يهم بمسح يدي بمنشفة مبللة). لدي شيء آخر لك، هيا". لقد جرني إلى الأورمة وقطع بواحدة من أكبر السكاكين شريحة رقيقة جداً من اللحم البقري. ثم نحا السكين جانباً. لقد كانت الشريحة موضوعة بمنتهى الرقة على أورمتنا الجميلة.

في حركات قليلة، مثل البرق، قطع الشريحة الصغيرة إلى قطع أصغر، ثم بسكينه، التقط أصغر قطعة من الشريحة المفرومة. ثم أخذ يدي المتحمسة بيده الحرة، رافعاً راحة أيدينا إلى الأعلى. وببطء شديد، فقد مسح شفرة عريضته على يدي، مع الحرص على أن الحافة لا تمسني. شعرت بالصلب البارد وهو يداعب جانب يدي، حيث كان اللحم المفروم الطازج يتراكم طبقة بعد طبقة. "يجب ملء معدة الطفل جيداً. تذوق ذلك. حسناً، هاه؟".

هي الكلمة. هو الجسد.

أخيراً، لا تقلق، جوني، توجد الكرنفالات، تنزيل الأسعار، ولائم النقانق، أسواق الأحد. لم يكن جسر أنتويرب دائماً مسارا للسرعة. يمكن أيضاً إغلاقه عند كلا الطرفين بحواجز من ماركة نادار باللونين الأحمر والأبيض، إشارة توقف وإشارتين للمرور تومضان باللون البرتقالي. على جانب واحد من هذا الممشى المؤقت تم بناء المنصة المغطاة التي، تستقبل مساء كل يوم سبت فرقة موسيقية والتي كانت تغني المقطوعات القديمة والحديثة. كان عشاق الرقص يرقصون أمام المنصة على أرضية خشبية. كانت هذه المنصة محاطة بأعمدة الطرق التي كانت تتأرجح فيها أكاليل

المصابيح الملونة. وقد أولى النائب لدينا والذي كان يأمل في إعادة انتخابه، اهتماماً كبيراً لعطلة الأعياد. بعد ظهر اليوم التالي، تمت تغطية منصة الرقص بكراسي وطاولات قابلة للطي مع مسرح أو مكتب خشبي جزئه الأسفل مصنوع من الحديد. جاء الأجداد الفخورون للاستماع بعاطفة إلى "البحث عن المواهب" على غرار تلك التي عرفوها في وقتهم. الآن كان أحفادهم هم الذين تم الإعلان عنهم بضجة كبيرة من قبل مقدم برامج متحمس، محرر في جريدة واس الحرة، مرتدياً بذلة سهرة واضعاً زهرة بيجونيا بيضاء في العروة. كان الأطفال الصغار يغنون على أطراف الأقدام وبأعلى صوت ممكن. يفضل طبعا الأغاني الشعبية، على أمل الحصول على المزيد من النقاط من هيئة التحكيم والمزيد من مصروف الجيب من الأجداد. قبضات مشدودة وعيون تائهة وأسئلة أمام الميكروفون، وصغير قد نسي نصه، على الرغم من كل المجهود الذي بذله لكي لا ينساه. قبل أن ينفجر في البكاء أمام الجميع، سأله مقدم البرامج ما إذا كان لا يعرف أغنية أخرى. أضاء وجه الطفل المليء بالنمش: "النشيد الوطني البلجيكي!" مدير الحفل (مندهشا، يتساءل عما إذا كان هو نفسه، المحرر السياسي، يعرف كل الكلمات جيداً): "النشيد الوطني البلجيكي؟" الصغير يؤمي رأسه بقوة، يغني على الفور: "بعد قرون من العبودية/ خرج البلجيكي من القبر/ استعاد فطائر الجبن الخاصة به/ بطاطسه المقلية وبيرته في براميل".. كان هو من تلقى معظم التصفيق في ذلك اليوم، لكنه انتهى في المركز الأخير. حصلت هيئة التحكيم على شيء ما: صرخات الاستهجان والكؤوس الفارغة من الورق المقوى التي ألقاها مثيرو الشغب الأكبر سناً الذين كانوا ثملين.

في الطرف الآخر من الممر، كان هناك كشك يحتوي على نوافذ عرض كثيرة زجاجية، كان يستخدم سابقاً في الكرنفالات الأخرى تحت مسمى قصر الجليد، وكان هذا الكشك تحت رعاية من قبل آخر مصنع جعة محلي لدينا حيث تم القضاء على كل مصانع البيرة الأخرى في المنطقة بسبب هذا المنافس الشرس في لوفين. في هذا الكشك، تم عقد الطمبولة الكبيرة في الكرنفال صباح أحد الأيام العائلية، مع تقديم

جوائز عينية "بدافع التعاطف"، كما قلنا، من قبل التجار المحليين، الذين كان بعضهم أكثر سخاءً من الآخرين. "متى سيفتح المرور بعد كل ذلك، تذمر موزع لأكياس الأسمنت والعوارض المعدنية، هل تعتقدون أن زبائني يأتون سيراً على الأقدام"؟ لم يقدم أي تبرع للطمبولة. من يريد الفوز ببلاطة، في رأيك؟".

في اليوم الأخير من حفل الحي، نظمنا سباقا ما بين قصر الجليد والمنصة. سباق صناديق الصابون. ثم فككنا كل شيء وبعد بضع ساعات كانت الحافلات مرة أخرى تسير على الطريق. فقط الكئوس التي تم سحقها في الشوارع والشاحنات الأخيرة المليئة بالطاولات والكراسي لا تزال تذكرك بخفة الصيف الذي انتهى للتو. لذلك، كان من الضروري الانتظار حتى الربيع، جوني، في بداية مايو، حتى تكون هناك علامات على نشاط احتفالي جديد. كان هذا وقت ظهور الضجة الاشتراكية وبعد فترة أصبح هذا وقت ظهور ضجة الانسجام الكاثوليكي. يتبع كل فرقة ناديها الرياضي، وقدامى المحاربين في الصدارة، ثم الفتيات، ثم الصبيان، ثم النواب في مجلس الشعب، المستشارين المجتمعيين، ممثل العلاقات المتبادلة وبعض معاقي الحربين المتصلتين بالعائلة السياسية. وراء كل هذا الجمع، كانوا يتقافزون فرحاً جميع الذين تقل أعمارهم عن اثني عشر عاماً وما زالوا غير محددين أيديولوجياً.

الليبراليون لم يكن لديهم أي ضجة. كانوا فقط يشتركون في سباق الدراجات. لإظهار أنهم على الأقل، حتى لو كان ذلك يوم الأحد من الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى الساعة الرابعة عصراً، يمكنهم أن يشلوا حركة المرور أكثر مما يحدث على جسر أنتويرب في هذا الوقت. كان الجمهور ضعيفاً، لكن المجموعة نفسها كانت هي عامل الجذب.

بدا الأمر بمثابة جسد مضغوط ينزلق، حركة للهواء على عجلات هشة. سحابة هائلة من الأجسام البشرية التائهة، الرؤوس الصلبة، ألوان الملابس الرياضية الملفتة للنظر، السراويل السوداء، الإطارات والأشعة البراقة. كانت الدراجات تمر كالعاصفة،

فلا تترك على شبكية العين سوى قطع صغيرة من الصور الملتوية، من السيقان المثنية، المؤخرات الكبيرة ولوحات الأرقام التي تدل على تأمين جيد، 217174883. لقد كان الضجيج المثير للإعجاب قبل كل شيء، لطيف إلى درجة الإرباك كالعنف المركز. لقد اندمج الانزلاق السلس للغاية لعشرات السلاسل في ترنيمة رائعة من الطاقة المستعرة، ها نحن نسمع هدير سرب ضخم من الحشرات السعيدة، مع أعلى صوت لعشرات الإطارات التي تمتص الإسفلت بحماس وتتركه بعد أن تطبع قبلة عليه في النهاية. ظهرت أصوات أخرى في هذا النشيد السماوي، إلى جانب الشتائم المتفرقة، النحنحة المستمرة، كنا نستمع إلى صوت التنفس عالياً وكذلك نسمع طقطقة الأصابع من أحدهم. من وقت لآخر، كان السرب يلفظ أحد العناصر التي تشكل نواته الأساسية. كان يتبع مساراً رائعاً ثم يرتد بعد ذلك على أرصفتنا بصوت أجوف ووحشي. علبة فارغة. كنا نلتقطها ونحضرها إلى المنزل، لكننا لم نجرؤ على استخدامها. كان هناك الكثير من القصص عن النظام الغذائي للدراجين.

وبقدر ما انخفض عدد التجار في شارعنا الرئيسي والذي يعد من أغنى الشوارع سابقاً، انخفض عدد الأسواق والمعارض التي كانت تقام في الشارع. تم تدمير آخر معرضين بسبب المطر. قلت الضجة أكثر وأكثر، أصبح الانسجام فتنة وعداء، اختفى سباق صناديق الصابون وحتى كل المعايير سقطت. أولاً، لأن المتسابقين رفضوا تغيير ملابسهم في قاعة الاحتفالات بالمؤسسة والتي كانت تعرف مسبقاً باسم المقهى التجاري، وأصبحت الآن تحمل اسما غريبا "الحفرة المخملية الصغيرة". لن تكون هناك سخرية أكثر من ذلك. وأخيراً لأن الحكام لم يعودوا قادرين على العثور على متطوعين أكفاء لنشرهم في كل منعطف وفي كل زاوية.

في النهاية، حتى لوسيانكه المجنونة قد حصلت على شارة ثلاثية الألوان يتم تثبيتها في مقدمة الذراع. كانت تلوح في اتجاه الجميع، بما في ذلك المتسابقين، شارتها الصغيرة دائرية الشكل وحمراء اللون، في نهاية أحد أكمامها، وعلى كل جانب خط

أبيض عريض. في نهاية السباق، رفضت إعادتها، وكانت لا تضحك كعادتها، ولكن على العكس من ذلك، كانت تبكي بشكل لا يطاق: ”هذا مضربي للبينغ بونغ! هذه هدية حصلت عليها“!

حسناً، جوني، هذا يكفي. كان هذا أقل أو أكثر من لوحة جدارية. حول مجموعة كاملة من الحقائق الرسمية والتقاليد الخاصة، ومجموع ما يمكن العثور عليه في ساحة حياتين، حياتي وحياة الراكبة معي دون كلام. أخذتها إلى طبيبها للأسنان في سيارتي الإيطالية، وكنت آمل بشدة، أن تجد في مواجهة بيئتها القديمة، كل الصيغ التصويرية التي كانت تستخدمها لتتغنى بهذه البيئة المصغرة. كنت لا أطلب الكثير. أود أن أقنع نفسي بواحدة من الحكايات التي ذكرتها للتو، وأعيدت إلى الوجود ببضع كلمات رئيسية. جملة واحدة مكونة من عشرين مقطعا متقطعة عندما مررنا بمكان ذكرها بمغامرة كانت مثيرة للغاية.

ثلاث كلمات غير مترابطة تكفي. حتى لو كلمتين فقط. كنت حتى سأكون راضياً لو حصلت على ذكرى واحدة.

فلأمنحها، حتى لا تمنحني أقل من ذلك.

ابتداءً من شارع لو بوتيت سولي وأكثر من ذلك على جسر بليناسترييت الذي سيصبح قريباً جسر أنتويرب، بدأ يظهر عليها القلق. كانت عيناها تقفز أكثر وأكثر من اليسار إلى اليمين. من المستحيل تخمين طبيعة هذا القلق. فزع؟ مفاجأة؟ ندم؟ أو، مع ذلك، رغبة ملحة في الكلام؟

مررنا على السكة الحديدية وتجاوزنا السنجل، كما كنا نسمي شارعنا الدائري.

منعطف آخر ونصل إلى الخمسمائة متر من الإسفلت في خط مستقيم والتي لا يزال في منتصفها يوجد مفترق الطرق ليندستريت. مفترق الطرق، مع الآن متجر لبيع الرقائق والبطاطس المقلية، لا يزال هناك الخباز ومتجر الحيوانات الأليفة. في هذه الزاوية الأخيرة، يوجد مقهى لو توريست. في الماضي، كان يعيش هنا بوسو لابوريو

مع أولاده إلى جانب منافسنا، الذي كان يمثل محاكاة غير لائقة لأبي. تم هدم هذين المنزلين وتم بناء مبنى سكني متواضع بدلاً منهما. لقد سرنا بهدوء على هذا المنعطف.

يظهر جسر أنتويرب أخيراً أمامنا في الأفق.

هنا في أحد الأيام أنهيت سباق صناديق الصابون، وكنت في المركز الأخير وشعرت بمنتهى الإهانة، بكيت بحرقة وقد سخر مني الجميع. أنا الآن في هذا المكان، أقود سيارة حقيقية، لكن ببطء شديد مع والدتي بجواري.

بماذا تفكر؟ ما الذي يدعو إليه هذا الجزء من الطريق أمي لتفكر به؟ ماذا تريد أن تحكي لي؟ ما هي القصة التي لا أعرفها بعد أو نسيتها تماماً؟

أنا لا أسمع أي شيء. ألقيت نظرة عابرة.

نحن حتى لا نرى ما إذا كانت شفتاها تتحرك أم لا.

كانت تحمل حقيبتها الصغيرة المسطحة بكلتا يديها أمام وجهها مثل المشتبه بارتكاب جريمة قتل في مواجهة المصورين. لا يزال عدد قليل من جيرانها القدامى على قيد الحياة ومن بين الأشخاص الذين يعيشون هنا الآن، فهي تعرف القليل فقط بالاسم. لكنها لا تريد أن ينظر إليها أحد. كانت تشعر بالخجل مما صارت عليه. مما أصبحت عليه. هي من بين كل شيء، خوسيه فيربيك، التي تختبئ! هي التي تحاول أن تتلاشى! هي لا تريد أن تكون هنا. إنها لا تريد أن تكون أي شيء باختصار. أم هو العكس؟ ربما تريد تجنب هذه النظرة؟ ربما تريد أن تنقذ نفسها من آلام الاضطرار إلى النظر فيما خسرت ولن تتمكن أبداً من استعادته مرة أخرى؟

الحقائق تبقى كما هي. سرنا في الشارع حيث عاشت وعملت لمدة أربعين عاماً وهي تحمل حقيبة يدها أمام وجهها. سواء بسبب الخجل أو الرغبة في حماية نفسها، ما الفرق؟ كانت لا تريد النظر ولا تريد أن يتعرف عليها أحد في الحي الذي تربيت فيه. كانت والدتي تخفي وجهها مثل المجرم.

بالنسبة لأسنانها، كان كل شيء على ما يرام.

من أجل العودة اخترت طريقاً آخر.

بعد شهر من ذلك، رأى المعالج أنه من أجل شفائها، يمكنها قضاء بعض الوقت من النهار في عطلة نهاية الأسبوع في المنزل. هي وزوجها ببساطة، كما كانا يعيشان معاً من قبل، في شقتهما الصغيرة. يمكن لبيئة مألوفة مع آليات الحياة المنزلية أن تسرع من عملية الشفاء. كان هذا يعد بمثابة اختبار. إذا مر أول يوم بسلام في المنزل، فستكون هناك أيام أخرى. يمكن تمديدها إلى نهاية الأسبوع بأكملها، ثم إلى ثلاثة أو أربعة أو خمسة أيام. وأخيراً يمكننا أن نخطط للعودة النهائية.

كان هذا التفاؤل يستند على أساس. لقد حققت تقدماً، وحده، الكلام هو الذي لم يتطور كثيراً. لم تعد بحاجة إلى مساعدة في ارتداء أو خلع ملابسها، في تناول الطعام أو في إجراء حركات العلاج الطبيعي. حتى أن ترتيب غرفتها أصبح هوسا لديها. كانت تنزع عن طيب خاطر المكنسة والمماسح من أيدي الخادمات حتى تشعر بأنها مفيدة أو لتقوم بعملهن كما ينبغي، حيث دائماً ما تكون هؤلاء النساء الأجنبيات في كثير من الأحيان كالمهرجات كثيرات الهزل، قليلات العمل بشكل جدي. كانت دائماً ما تشير إلى فم وإبطي الخادمة في إيماءة توحي بأنها تتأفف من رائحتها الكريهة. أو تمرر الإصبع على عتبة النافذة ثم ترفعه في الهواء بإيماءة تدل على أنها سيدة البيت، وبتعبير على الوجه يدل على الاشمئزاز والغثيان، كما لو كان أصبعها لم يكن مغلفاً فقط بالغبار ولكن ممتلئ بالبراز. كل هذا ترافقه رطانتها التي لا معنى لها مع بعض القطع المتناثرة من الإنجليزية والفرنسية، والمذهب الخاص بها "قليلاً" وبعض الأصوات والكلمات النادرة الجديدة.

" يجب ألّا نحبطها"، يقول المعالج. لقد رأيت الحالات التي تحقق تقدماً أبطأ بكثير، ولكنها استردت عافيتها في النهاية. وحتى، حتى دون الكلام، ربما تكون الحياة تستحق العناء؟".

خرجت من السيارة أمام باب شقتها كما لو أن شيئاً لم يحدث، كما لو أنها لم تغب إلا لبضعة أيام فقط، كما لو أنها لم تغب إلا لمدة يوم واحد أو لمدة بضع ساعات فقط. كأن كل شهر في بيفرين كان نزهة صغيرة لها وليس الأربع والعشرين ساعة القادمة في هذا المسكن المألوف. في الطريق، لم تتوقف عن الهذيان، متحمسة مثل تلميذة في رحلة. كالعادة، لم يكن هناك الكثير نستطيع أن نستخلصه من كلامها المضطرب ولكن على الأقل هذه المرة، لم تُلقِ نظرات خاطفة فيما حولها. لم تكن تبدو خائفة من أي شيء، ولم تضع حقيبتها أمام وجهها. على العكس من ذلك، كانت تنظر مباشرة وبمنتهى الحرية في جميع الأنحاء، وأحياناً، كان يبدو عليها أنها تحاول أن تتعرف على الأشخاص، فكانت تشير بيدها باتجاه واحد أو آخر مجهول تماماً يسير على الرصيف. حياها معظم هؤلاء الناس في المقابل بإيماءة مترددة نوعاً ما، خوفاً من إحباط قريبة أو صديقة في السيارة التي تمر أمامهم.

كانت كل تحية تجعلها تضحك بفرح.

كان مزاجها جيداً وواضحا لا يمكن الخطأ فيه. يجب أن تكون قد أدركت أن الحاجز قد أزيح، وأنها في النهاية يمكنها العودة إلى المنزل. لكن، هل تدرك أن هذا ليس إلا مؤقتاً فقط؟ وأنها سوف تضطر إلى العودة إلى المؤسسة في اليوم التالي؟ وماذا سنفعل إذا لم تكن تدرك ذلك؟

بالكاد، فتح الباب واندفعت هي على الدرج، تاركتنا وراءها أنا وأبي، في الردهة الصغيرة بزهورها الغريبة المورقة على الجدران والسقف. حملنا أنا وهو حقيبتها للسفر وبقية حقائبها إلى الطابق العلوي، حيث وجدناها في المطبخ، تقوم بالتحقق من محتويات الثلاجة، بينما تنطلق في منتهى السعادة في أفضل رطانة لها. لقد سحبت منها كل ما لم يبدُ طازجاً بما يكفي، أو ببساطة لم يعجبها، طبقا أو طبقين مع بقايا طعام وعلبتين من علب الثلاجة من نوع تبروار مع بقايا أخرى. تتذمر دون توقف ولكن بابتسامة على وجهها، تضع جميع بقايا الطعام في طبق، ثم تضع الأطباق

الأخرى وعلب الثلاجة في غسالة الأطباق وتذهب إلى الحمام مع طبقها الممتلىء. لقد تبعتها بنظرات متسائلة، ونحن لا نعرف ما يجب القيام به، التدخل أو تركها؟

ألقت كل القطع والبقايا في المرحاض ثم شدت السيفون. ثم أعطت الطبق الفارغ لزوجها المندهش. حتى أنه تلقى غمزة لطيفة وتربيت على جمجمته الصلعاء، كأنها تريد أن توبخه بلطف: "ماذا يمكن أن يفعل رجل مثلك من دون امرأة مثلي؟" مرر لي الطبق حيث أنها كانت تتحرك بالفعل بقوة نحو هدفها التالي، غرفة النوم. ترددت للحظة، هل يجب أن أذهب معهما أم يجب أن أعيد الطبق إلى المطبخ أولا؟ احتفظت بالطبق وتابعت الحركة.

لقد وقفت أمام خزانة ملابسها المفتوحة وسحبت منها الملاءات النظيفة التي تركتها تسقط على الأرض. حاول منعها، ولكن فجأة ومع تصنع الاستياء، ضربت يده التي تحاول إيقافها وذهبت باتجاه السرير. لقد رفعت الملاءات وجعلتها على شكل كرة ثم ألقت بهذه الكرة ما بين ذراعي زوجها.

بابتسامة ساخرة، أخذت الطبق المتسخ من يدي، ووضعته جانباً، وانحنيت لالتقاط الملابس النظيفة من على الأرض ودفعتها ما بين ذراعيِّ. هي بنفسها قد أخذت مجموعة من المناشف التي كانت مكدسة بدقة في خزانة ملابسها وأمسكت بها بإحكام بين كفيها كأنها تحمل بينهما مجموعة من الفطائر مخبوزة حديثاً.

"هشة وخفيفة مثل الريش!" (هي، تكشف في كل مرة سرها بالرضا نفسه). ننتظر أن تصبح صحفة الفطائر ساخنة، وبعد ذلك فقط، وقبل الطهو مباشرة، نضع نصف زجاجة من المياه الغازية مع العجين. يجب أن نقلب جيداً، الشيء المهم هو أننا يجب أن نستخدم المياه الغازية".

" تعالوا"، قالت هي بعد ذلك. كلمة واضحة ومعبرة. لمة واحدة بعد ذلك، ولكن في اللحظة المناسبة، بالضبط في وضعها الصحيح، لأنها كانت تريد منا أن نتبعها: "تعالوا". وها نحن واحدٌ تلو الآخر، كل منا مع مجموعته من الملابس، نهبط الدرج

باتجاه غرفة الغسيل الصغيرة في الطابق الأرضي. في غرفة الغسيل، أدخلت كومتها من الغسيل في الغسالة وطلبت منا بالإيماءات والكلام المتداخل أن نضع حمولتنا من الشراشف وأغطية الوسائد في سلة الغسيل الفارغة، هناك، نعم هناك! نعم!

أطعناها ولكن كنا نتبادل النظرات من وراء ظهرها. هل ستقوم الآن بغسيل الملابس؟ لكن نعم. بقيت خبراتها ومعارفها كربة منزل سليمة. إنها لا تزال تعرف مكان وجود سلة الغسيل، في الخزانة الصغيرة، أسفل المغسلة القديمة. وجدت من دون تردد الدرج الصغير الذي نضع فيه المسحوق. لقد وضعت الكمية المناسبة من المسحوق دون أن يسقط منه شيء. ولقد أغلقت باب الغسالة كما ينبغي أن يكون. لقد وضعت زر التشغيل على الوضع الصحيح. وكما كانت تفعل دائماً، كانت تؤكد على كل عملية بإيماءة صغيرة راضية.

بدأ المحرك يعمل وحلة الغسالة تدور. أخذت تنظر إلينا كلا منا بدوره، ثم تنظر إلى الغسالة، ثم إلينا مرة أخرى، ثم إلى باب الغسالة، الذي حالياً يدور وراءه الغسيل، والذي يصبح أكثر بللاً كلما مر الوقت، وفي حركة أكثر تنظيماً. أخذنا نحن الثلاثة نتأمل في هذا الأمر كأنه ميلاد سعيد لبعض القطط البرية العمياء في صندوق من الورق المقوى المليء بالخرق. "تعالوا"، قالت هي فجأة مشيرة لنا لكي نتبعها. في طريقها، بلا شك، إلى الوظيفة التالية، التي تحتفل من خلالها بعودتها، والتي تريد من خلالها تحديد حدود أراضيها المفقودة مرة أخرى. قادتنا إلى الأعلى ونحن نتبعها بكل طاعة.

وفجأة، حدث ذلك في مطلع الدرج. ودون أن يحدث ما ينذر بذلك، استدارت وضربت زوجها بعنف، ضربة صدمتني أنا أيضاً. توقفنا نحن الثلاثة في منتصف الدرج الخطير. كنا مندهشين. هي أصابتها الصدمة وشعرت بالخوف. يبدو أنها تعتقد أننا نريد أن نعترض طريقها، وأننا نريد عزلها هناك، وحتى هنا، في المنزل، لن تكون قادرة على المجيء والذهاب كما تريد.

في غضون لحظة، تحول الأمر إلى ذعر. مرة أخرى، تنطلق النيران من عينيها،

تنطلق من فمها أعتى الشتائم وكذلك سخريتها اللاذعة، وقبل أن نتمكن من الفهم أو القيام بأي شيء، رمت نفسها من أعلى درجة. مع القوة العمياء المحمومة من مجنونة. في أقل من ثلاث ثوان، عادت إلى السلوك الذي كان موجوداً قبل بضعة أشهر.

لم يستطع روجيه سوى أن يحمي نفسه ضد ضرباتها. رفع ذراعا فوق رأسه وبالآخر، حاول أن يمسكها من خصرها. لتهدئتها أو ربما سيكون لديها صعوبة أكبر في ضربه إذا أمسكها بإحكام، مثلما يفعل الملاكم المتمرس مع خصمه. ربما قبل كل شيء، كان ذلك رد فعل ينم عن المودة. الترجمة المأساوية لعدم فهمه.

في الحقيقة، عندما أمسك بها، زاد ذلك من غضبها. كان تحرك جسدها في كل الاتجاهات، في محاولة للتحرر. استمر في احتضانها. في هذا الموقف، كلاهما فقدا توزانهما وسقطا متشابكان ومترابطان، درجة واحدة لأسفل. وقد دفعني بعنف. كان يجب علي أن أقاوم حتى لا نسقط نحن الثلاثة من أعلى الدرج. أمسكت بيد الدرابزين وباليد الأخرى الحائط. التحمنا ببعضا البعض، حيث ندفع ونضغط ونقاتل ونحمي بعضنا البعض. ثلاثي غير متوازن وغير مستقر على درج ضيق. كل منا يصرخ ويتوسل دون الاستماع للآخرين. تعددت الأصوات، مرة أخرى، ولكن هذه المرة، كان يعبر عن الغضب والعجز. في الدرج الصغير المغطى بالكامل، من الأرض إلى السقف، بالزهور الوحشية، والأفواه المتضاربة والساخرة على خلفية بلون الفحم.

ليست هذه هي المرة الأولى في حياتها التي تفقد فيها لغتها، ولكن في المرة الأخرى فقدت صوتها فجأة أيضاً. بعد اندلاع الحرب مباشرة - لم تبلغ العشرين من عمرها - هي في القطار، في طريقها إلى العمل في مصنع لوكيرين لقماش الجوت، حيث كانت تعمل سكرتيرة تنفيذية متدربة، عندما استهدفت القوات الجوية مصنع لوكيرين.

خط السكك الحديدية، المصنع، والجسر فوق نهر الدورم.

رأت كل هذا من نافذة مقصورتها.

"هذا شيء لا أنساه أبداً".

بادئ ذي بدء، سقطت طائرة يونكرز يو 87 من السماء مثل القذيفة التي تم إطلاقها، لا شيء سوى الضجيج الذي تحدثه يمنحك القشعريرة، ثم في اللحظة الأخيرة، فقط عندما تفكر: لقد سقطت الطائرة في حقولنا للبنجر، استقامت، ثم ألقت قنبلتها على حظيرة للطائرات، استدارت وذهبت، وبعد هبوطها ثانية، تزأر من جديد، لكن هذه المرة، تطلق مدفعيتها الرشاشة على كل شيء يتحرك، رجل، حيوان، بارجة، حافلة، كل ما يمكن للمرء أن يتخيله، مع اهتمام خاص، من قبل هذه الطائرة الخسيسة بكل من يخرج من حظيرة الطائرات أو يجرؤ على البدء في إطفاء النار". (كانت تسرد هي الواقعة وهي في منتهى النشوة، وفي كل مرة تقريباً بالمصطلحات والإيماءات نفسها، لم تضف إلا اللفتات القليلة حتى تحسن من ملحمتها، حتى تحصل على المزيد من التأثير، كل هذا ولم تفقد القصة بريقها، كما كان الأمر في المرات السابقة، كما كان يفعل في الحضارات التي اختفت وتم اكتشافها من جديد).

"هذا العواء من الجحيم للطائرات! وفي الوقت نفسه جمال هذا السقوط. رائع، بمنتهى البساطة.

يمكننا أن نقول ماذا يعني أن تكون ألمانياً، ولكن في الحقيقة هم يعدون عرقاً بمفردهم. كانت طائراتهم الأخرى، قاذفات هينكل، أقل أناقة، لكنها دائماً ما تعطي انطباعاً بالجمال الرهيب. أولاً، تحوم هذه الطائرات بتكاسل وتلمع في السماء فوق الانفجارات عديمة الجدوى من دفاعنا ضد الطيران، ولكن فجأة تسقط على المرتفعات كحزمة سوداء كبيرة. شيء مربع. شيء يبدأ في الهبوط بسرعة جنونية وينقسم فجأة. اعتقدنا أولاً أنه الكتاب المقدس! كان كتاب الصلاة الذي انقسم إلى مائة ورقة صغيرة! وفي هذه اللحظة فقط، بدأنا نسمع صوت الصفير، كأن مئات الأصوات تصفر معاً، لنرى ما هو عليه حقاً. كل واحدة من هذه الأوراق الصغيرة كانت قنبلة.

وقبل أن تدرك ما يحدث، انفجرت الأولى بالفعل.

وأنت ترى ذلك يحدث، هناك على مسافة بعيدة، في المدينة حيث تأمل في

بناء المستقبل. كانت تنفجر بقوة ملقية قطع من المنازل، من الأراضي ومن الأجساد البشرية في الهواء. قوة بدائية تهز قطارنا على القضبان وترج النوافذ في أطرها. ولكن هذا لم يبطيء من قطارنا، ولم يكن هناك أي مجال للتوقف. بل إنه قادنا مباشرة إلى المكان الذي تصفر فيه أوراق كتاب الصلاة القاتل، والتي تزرع في كل الاتجاهات الدم والنار والمعاناة والخراب. لم يفكر أحد في دق جرس الإنذار، فالجميع مشغول للغاية بالصراخ والإشارة والندب والصلاة. الجميع إلا أنا. أفتح فماً كبيراً مثل الآخرين، وأريد أيضاً أن أصرخ بكل قوة رئتي، لكن لا شيء يخرج من حلقي. رفضت حبالي الصوتية إسداء أي خدمة طالما كنت خائفة. استمر ذلك على مدار يومين، قبل أن أنطق بكلمة مرة أخرى".

خلال سنوات الحرب، استمرت في العمل في مصنع لوكيرين، المصنع الذي أصبح في هذا الوقت تحت السيطرة الألمانية وتم دمجه في صناعاتهم الحربية. لقد أصبحت سكرتيرة المدير الخاصة وحتى المسئولة عن الحسابات. لقد كانت منذ البداية في مهنة مخصصة لعدد قليل من النساء من جيلها عندما كانت بالكاد في العشرين من عمرها.

"لكن حسنا، الأمور تتغير. أولاً تزوجنا في منتصف الحرب. بالنسبة للحفلة، حصلت العائلة من جانب أبيك تصريحاً بالوصول من تورهوت وميدلكيرك إلى واس، وكان هذا الأمر فريدا من نوعه في هذا الوقت. ولحسن الحظ، جدك وعمك جاستون، جزار هو أيضاً، بفضل اتصالاتهما، تدبرا هما أمر الطعام. الجميع ادخر أو ساهم في حفل روجيه. كانوا جميعاً متعاطفين معنا، زوجان شابان أُجبرا على الزواج عندما كان العالم مشتعلاً. لقد تلقوا بعض البيض الطازج، ولحم الخنزير من هناك، وصندوق فطر أتى من مكان آخر من فلاح، كان يرد إليهما الجميل.

في المجزر، تم حلب الأبقار التي كانت تنتظر من الليلة الماضية للمرة الأخيرة، تحت بصر وسمع المراقبين المساعدين في العمل الذين كانوا لم يعرفوا شيئاً عن الحيوانات، وكل ذلك للحصول على ما يكفي من الحليب والكريمة من أجل كعكة الزواج. هل

تدرك ذلك! في حين لم نتمكن من شراء المواد الغذائية دون تذاكر الحصص والناس يصطفون أمام المتاجر نصف الفارغة، تمكنا من تقديم أربعة أطباق لحوالي خمسين ضيفاً وحتى كوباً أو كوبين من النبيذ ولكل واحد قطعة من الخبز الأبيض، وكوب من القهوة وحتى كوب من البراندي، شخصٌ ما أخذه من عمته الكبرى، وهي فتاة بلجيكية عجوز أرادت الاحتفاظ بزجاجتيها من كورفواير نابليون من أجل التحرير، ثم وجدت أن الزوجين الشابين لا يجب أن يفوتهما شيءٌ بسبب الألمان.

"لقد ذهبنا في رحلة شهر العسل مع نادي كرة الماء الذي كان والدك لا يزال عضواً فيه في ذلك الوقت. في بداية الأمسية، لعب مباراة وفي المساء، حصلنا على الغرفة لنا بمفردنا. رافق الحب اللاعب أثناء السفر. كان ذلك في تورناي، التي قصف نصفها بالقنابل. الآن، لم نكن نعد نعرف وجهتنا ولكن، كانت هذه الأنقاض، بمثابة جنة بالنسبة لنا.

ثم بدأت الحقيقة. عملت لمدة عام آخر في مصنع لوكيرين، فقد عرضوا علي زيادة كبيرة لكي أبقى، وأكدوا لي أنه يمكنني أن أكون مديرة المصنع، ولكن حسناً.

هكذا هي الحياة. أنت حامل ويجب عليك أن تأخذي هذا القطار كل يوم للذهاب إلى العمل، في أي طقس، حتى في حرارة الصيف كما كان في ذلك الوقت. وسرعان، ما تم الحساب. بالإضافة لذلك، كدنا نفلس بسبب الأولاد الجزارين والخدمات في المتجر. قبل فترة وجيزة من ولادتي الأولى، كنت قد اتخذت قراري. روجيه، قلت له، هل أنت جالس بشكل جيد؟! سأتوقف عن العمل في لوكيرين وسآتي لمساعدتك في المتجر. قال: أنا لم أجرؤ على أن أطلب منك ذلك. أعرف، قلت له. ولكني، أخبرته، لدي شرطان. هذا لا يفاجئني، قال لي. تسمح لي بأن أحاسب، وتطرد هؤلاء البنات. أنت أخذتني بعيداً عن مسرحي، يجب أن يكون لدي شيء أعبر فيه عن نفسي. أنا أعلم ذلك جيداً، قال لي. وأنا أفهم ذلك أفضل من أي شخص آخر، إلى جانب أنني لا أريد ذلك، قال لي. أنا يمكن أن أتخلى عن كرة الماء التي ألعبها. وهكذا، تم تسوية القضية".

ما الذي لم تحكه، هو ذلك الجزء الخاص بغضب عائلتها بخصوص هذا الاختيار. حسناً، ربما لم يكن هذا تحقيراً، أو ربما كانوا يعتقدون أو كانوا خائفين؟ إننا سنجعلها تبدو مجنونة لأنها تركت نفسها تتساقط من رتبة مساعد تنفيذي إلى رتبة جزار، وليس حتى في متجر مهم للغاية. ربما لم تستقر أبداً مع نفسها.

كان هذا هو السبب في أنها أظهرت بعض الغضب عندما تجرأنا، لا لشيء، إلا للحصول على المعلومات، كان اهتمامنا فقط لإرضاء الفضول، أن نسألها بعد ذلك، وبشكل محترم، لم تكن تفضل مواصلة العمل في مصنع الجوت هذا، مع احتمال الحصول على وظيفة أكبر؟ "إنه سؤال غير مطروح"، أجابت هي، مغلقة هكذا المناقشة حتى قبل أن تبدأ.

لكن مرة واحدة فقط، كشفت أن الفكرة مازالت تداعب رأسها، أجابت قائلة: "كنت قد تقدمت جيداً الآن. ذهب كل هذا القطاع من هنا. ما الذي يجب علي فعله؟ أتحرك معهم؟ وأترك كل شيء ورائي؟ في بلد مليء بالنصف صينيين الذين يصنعون الآن كل ما فعلناه من قبل، ولكن أرخص بعشر مرات؟ لقد توقفت بمبادرة مني، في حالة أخرى، كان يجب عليهم أن يلقوا بي في الشارع. لقد وفرت على نفسي هذا العار. لم أكن مضطرة أبداً أن أقول شكراً أو ألوم أحداً على المسار الذي اتبعته. أبداً!".

لم تكن تفتقر إلى الحماس للشروع في هذه الحياة الجديدة. جزارة؟ كل شيء يمكن تعلمه. ونحن نعتاد على كل شيء. حتى على أمعاء الخنزير المغسولة، والتي تأتي معبأة في الملح الخشن، والتي تكون محشوة باللحم المفروم، والتي سوف تصبح نقانق بعد ذلك. هناك شيء واحد لن تفعله مطلقاً، وهو مرافقة روجيه إلى المجزر. اختارت أن تتجاهل الموضوع بصمت، مثل كل من يحب الحيوانات، ولكن أيضاً يحب معاطف الفرو وشرائح اللحم.

من ناحية أخرى، فإن ما وصفته غالباً لاحقاً، مطولاً ودائماً مع لمسة من الدهشة، هو العائلة الجديدة التي هبطت عليها. الوظيفة؟ لا مشكلة. لكن البطريرك؟

"ما زلت أتذكر جيداً: أول مرة دخلت عندهم، في محل الجزارة الذي كان جدك لا يزال يعمل به في شارع فيرموغن، وهو متجر متعدد الأقسام مع عدد كبير من الزبائن. لقد قيل لي: أنه بالخلف، يتناول وجبة خفيفة. فكرت: يا لها من مفارقة، سوف أزعج هذا الرجل وهو يتناول طبقا من الحلوى أو طبقا من الفراولة. انس هذا! كان يجلس على الطاولة، ويقرأ في جريدته صدى البورصة، للتحقق من حالة تصرفاته، كان يحتفظ بالجريدة في يده اليسرى، وبيده اليمنى يحمل شرائح لحم الضأن المشوي إلى فمه. واحدة تلو الآخرى. كان يبتلع الشريحة في قضمة واحدة ويضع العظم الصغير جانبا دون توقف عن القراءة. أربع قطع من اللحم الضأن إجمالاً. لقد أحصيتها. كنت هناك وكنت أشاهد. كان يقرأ ويأكل كما لو كنت غير موجودة. أقسم لك على ذلك. أربع قطع من اللحم الضأن. أحصيتها بالفعل. كانت هذه فكرته عن الوجبة الخفيفة. في الصباح يأخذ ست بيضات مع لحم الخنزير المقدد، اثنتي عشرة في الشتاء. بعد ذلك، شريحة من شحم الخنزير وفي فصل الشتاء، كان يضيف بعض الشرائح من اللحم البقري المشوي. لم يكن أحد عنده فكرة عما كان قد التهمه عندما بدأ يصاب بالتخمة. أنا، كنت هناك، مسمرة على الأرض، لقد أحصيت القطع، وكنت مندهشة لرؤية والد حبيبي قد وجد فمه بهذه السهولة، نظراً لأن له لغود كبيرة، فذقنه كبيرة ورقبته كبيرة جداً.

عندما مات، حصل والدك على خاتمه. عندما كنت تضع ذلك في راحة يدك! كان أمراً لا يصدق. لقد وجدنا: أنه ليس خاتما، وإنما حلقة من التي توضع في أنوف ثيران السباق حتى تكون قادراً على جرها بالحبل أمام لجنة التحكيم. لقد كان كبيراً وثقيلاً ومن الذهب، هذا الخاتم. ملحوظة: كان جدك يرتديه في خنصره، لأن الأصابع الأخرى أصبحت أكبر من اللازم. حسناً، أنهى أخيراً وجبته الخفيفة، عملاقنا هذا كما أنهى قراءة جريدته صدى البورصة فطوحها بيديه الكبيرتين، ثم مسح فمه الرفيع الصغير الموجود في منتصف خديه الكبيرين بمنشفة ورفع رأسه. نحوي. يا إلهي، كان لدي انطباع بأنه يتم تقييمي كقطعة لحم، ولكن الحمد لله، كان الحكم في صالحي. قال

شيئاً يبدو وكأنه مرحباً أو تقديرا أو شيئا بينهما. لم أفهم كلمة. لم يتحدث أبداً سوى لغة الغرب الفلمندي. فيما عدا في البنك، في مكتب صرف العملات أو اثناء سباق الخيول في أوستند. الآن، كان يتحدث بالفرنسية. رددت له التحية بمنتهى اللطف وتركته وانصرفت. ولكن كان لدي فكرة في رأسي. إذا أصبح لرجلي مثل هذين الخدين الكبيرين والرقبة الكبيرة، لوضعته في الخبز الجاف والماء".

كان بطريركنا يدعى "نوح". بالإضافة إلى اسمه وقلنسوته التي لا تنفصل عنه، كان يمتلك أيضاً كل ما هو ضروري ليكون بطريركاً. زيادة الوزن، ازدراء جاره، مزاج سيء دائم، وعشيقة، امرأة قوية وجميلة، كانت تعمل كخادمة في المنزل حيث كان يعيش مع زوجته، جدتي، والتي كانت بدورها امرأة شجاعة هشة، وكان لا يظهر عليها أنها تعاني من تكليف خادمتها، إلى جانب بقية الأعمال المنزلية، بالحب وكل ما يصاحب ذلك.

لم يكن لدى أي من المرأتين الوقت الكافي لرؤية الرب والسيد، لأنه، كان بجانب أنه بطريرك فلمنكي، كان أيضا مربياً للحمام. في أسبوعه، كان يقضي وقتاً أطول بكثير في بيت الحمام الذي دائماً ما كنت تسمع منه صوت هديل الحمام، كان هذا البيت قد بناه البطريرك، في حديقة منزله، وهو مبني من الخشب الصلب المجلوب من الكونغو وهو منصوب على مسامير صدئة، وكان يقضي فيه وقتاً أكثر من الوقت الذي يقضيه في منزله، حيث يقوم بالحسابات، مراجعة الحسابات، أو تخمين ما قد يكون عليه من التزامات إذا باعها قبل الموعد المحدد.

كان يقضي بقية وقته في اختيار الماشية وفي الجدال مع مربيي الخنازير أو كبار المزراعين، سواء بسبب طريقتهم غير اللائقة في لعب الورق أو في التحدث معهم عن التعقيد اليائس للحياة السياسية البلجيكية. في مناقشة هذا الموضوع الأخير، يكون قد غش كثيراً في اللعب. إذا قرأ في الصباح مقالاً في صحيفة لابير بلجيك (بلجيكا الحرة)، حول مشروع قانون من المحتمل أن يثير اهتمام أصدقائه في الحانة، كان يقطعه

ويطويه في محفظته، وبعد ذلك، أثناء لعب الورق، كان يتناول القضية كأن الامر قد حدث بالصدفة. فقط عندما تتصاعد نبرة النقاش وتوحي بالانفجار، عند هذا الوقت، كان يظهر قصاصته من الجريدة.

"هنا، اقرأ! هذا مكتوب في الجريدة، يا أحمق! عليك أن تعرف ما الذي تتحدث عنه قبل أن ترغب في تعليم رجل مثلي!". كانت زيادة وزنه تحفظه من الوقوع. هذا مع لغته العتيقة، الغامضة، السحرية، المليئة بأصوات الغناء من نباح الحنجرة المزمجرة، الفلمنكية الغربية، التي كان يتباهى بأنها أقدم وأفضل وأكثر جمالاً من أي لغة في هولندا. كان يحملها بكل فخر مثلما كان يفعل بعض العسكريين مع ميدالياتهم أو الندوب على وجوههم. "إنها لغة العبقري، جيدو جيزيل"[35]، كثيراً ما كان يقول ذلك بمنتهى الكبرياء. لكن لغة الغرب الفلمنكية البحتة كان ينطقها "هويدو هيزيل المبارك" وبالكاد يمكننا التوقف عن الضحك عندما نسمعه يقول ذلك. "هويدو هيزيل المبارك"، "هويدو هيزيل المبارك"، كنا نصيح بذلك من وراء ظهره. كان أصما أكثر من ابنه الأصغر.

فقط قبل الهجوم الأخير بالغاز في الحرب العالمية الأولى، في نهاية عام 1917، تلقى نصيحة عاجلة بالتخلي عن كل شيء، المقهى والنزل الخاص به، ورشته للحدادة، محل جزارته ومسكنه، للفرار مع فيضان اللاجئين، تجاه أنتويرب. مع عربته وحصانه ومع الضروريات اللازمة، بما في ذلك امرأته والخادمة. وأصبح من كره الحشود مساويا للآلاف من الهاربين الآخرين، ومعظمهم لم يعد لديه ما يسد به رمقه، هو الذي طرد طواعية من ممتلكاته، هو الذي كان عندما يعود إلى منزله، يمد يده إلى المتسولين، ها هو يضطر إلى التسول من أجل الحصول على كوب من الماء من أجل طفله المريض والحصول على الخبز مقابل قرط من اللؤلؤ خاص بزوجته.

فكر للحظة في الهجرة إلى الأبد، إلى شيكاغو عبر أنتويرب. بقي عالقاً في الطريق إلى سان نيكولاس. بعد سنة، بعد الهدنة في 11 نوفمبر، أراد أن يذهب لرؤية ممتلكاته

35) كاتب وشاعر بلجيكي.

بالقرب من إيبر، كان على أحد الأصدقاء الذي يعمل مساحاً أن يرشده في المنطقة المدمرة.

"كان يوجد هنا تقريبا الإسطبل والمقهى الخاص بك".

كانت كل البلدة خربة، متفحمة، مجرفة، غارقة بالدم وبالنفايات وبغاز الخردل. لذلك باع أراضيه المدمرة، وعاد ممتلئاً بالمرارة إلى المدينة التي هبط فيها كلاجئ، حيث سيصنع في وقت قصير ثروة من بيع اللحوم خاصة شرائح اللحم البقري المشوي. ولكن حتى إذا ظل لقبه هو "اللاجئ"، حتى في السنوات التي هبطت عليه فيها ثروته، فإن تلك الثروة التي يدعي أنه فقدها خلال الحرب في ويستهوك، مقارنةً بازدهاره حالياً، كانت تبدو ضئيلة للغاية. "لولا الحرب العظمى كنت سأكون مالتي مليونير. كان رجلا له رأي في المنطقة كلها، في المكان الذي ولد فيه. وما هو الآن؟ مهاجر. رجل من المدينة. غريب. لاجئ إلى الأبد".

كان لديه ابنان. عمل معه الأول في تجارته وساعد الآخر في فتح متجر آخر. إن المال الذي يمنحه لأخيه الأصغر لبدء العمل أعطاه الحق في المشاركة في كل شيء، حتى عندما تم سداد الديون منذ فترة طويلة. مرة واحدة في الأسبوع على الأقل، يأتي البطريرك على دراجته المصنوعة من الحديد المطاوع، مع إطارات تكاد تكون أكبر من حجم عربة، ليصب تعليقاته السلبية على كل شيء يراه ويدركه بعينه كجزار. اللحم المفروم رقيق جداً، والنقانق محشوة جداً، لحم العجل رطب جداً، يتم توفير الدجاج النيء والمطهي من قبل تاجر طيور يضع سماً، لحم الخنزير يدخن من قبل المحتال وورق التغليف يتم توفيره من قبل عصابة من رجال العصابات في بروكسل الذين هم على وشك الإفلاس، إذا كنا نعتقد فيما يكتب في جريدة صدى البورصة، وإذا كان هناك أي شيء يجب تصديقه فهو جريدة صدى البورصة وليس الله وكهنته. لم يكن أي شيء جيداً في عينيه. المحادثات بين أمي وبينه كانت بالغة الصعوبة. كلاهما عزا هذا إلى لهجة الغرب الفلمندي.

ومع ذلك، كان يمد يد المساعدة، بشكل لا جدال فيه. ليس هناك من هو أكثر مهارة منه مع أداة ترقيق اللحم. كان لحم الخضار المعد للسلق الذي يقطعه ليصنع منه رولات اللحم، جيداً جداً في الطهو. حتى أن خوسيه نفسها كانت تعترف بأن رولاته المعدة للسلق، عندما كانت توضع في طبق من الخزف وتزين بأوراق الكرفس، تصبح ذات خصائص فنية وأشياء جذابة تباع بشكل جيد وبشكل غير متوقع. إذا اندفعت مرة لمصافحته، فقامت بمجاملته، فإنه ينظر إليها كما لو كانت تهينه. "ولكن ماذا تعرفين عن الجزارة، طفلتي المسكينة؟" كان لا يتفضل باعطائها أي كلمة حول هذا الموضوع، كان يلوذ بالصمت، كان يجر قدميه نحو باب المتجر، ويفتحه ويخرج منه كما دخل. مع بطء، يدير الباب مرة أخرى بحذر ليفتحه ويغلقه، صارخاً بصوت عال: "لا، لم يكن" (إيكا) بصوته الجهير. "هذا أنا": هذا ما يجب أن يقوله كل فرد من العائلة عند دخوله أو الخروج منه، حتى يدرك الموجودون في المتجر أو في غرفة المعيشة أن من يرن الجرس هو واحد من العائلة وأنه ليس من الضروري أن يظهر هذا الشخص نفسه عند طاولة البيع. لديه هذه (الإيكا) كانت لها رنين خاص:"أيكووووووووووو"، حيث أنه كان ينطقها ببطء بسبب عمره وزيادة وزنه. كنا هنا أيضاً، نقوم بتقليد جدنا، دون أن يلاحظ ذلك، لأنه لم يكن ماهراً فقط في صنع رولات اللحم وإنما كان ماهراً في أمور كثيرة. "أيكوووووووووووو"، كنا نصيح لنحصل على مزيد من المرح، وكنا نصيح بذلك ببطء كما كان يفعل. "أيكوووووووووووو"، وكان بطريقة ما يثير غضب زوجة ابنه، والدتنا. كانت لا تحتمل أن نسخر منه. "من السهل أن نسخر من كبار السن. انتظروا، سوف ترون ذلك، عندما تكونوا كباراً في السن".

كانت هذه المرة الوحيدة التي قالت فيها ذلك. على العكس من ذلك، فهي مستعدة دائماً لانتقاد كبار السن من الرجال الذين كانوا يستغلون بكل أريحية امتيازات الكبر في العمر. كنا نشك في أن لديها رغبة فظيعة في السخرية من والد زوجها، ولكن لإخفاء هذا الدافع، كانت تردعنا فيما نفعله بكل صرامة. وللسبب

نفسه، دعنا نفترض، كانت لا تتسامح في أننا نسخر من خادمة بطريركنا. لقد فاجأناها ونحن في غاية السعادة، عندما كشفنا لها عن الاسم الذي أعطيناه لهذه المرأة. فلورا موستاش (شوارب). لقب واقعي بالمناسبة. فلورا كانت امرأة مرحة من إحدى المدن الساحلية، وهي دائماً تصدر دوياً كالرعد ودائماً متألقة. مع شعرها الدهني الذي تم لفه إلى الأبد في كعكة في مؤخرة رأسها وعينيها الضاحكة، تذكرنا بشخصية جنكيز خان في صور مجلة أرتيس - هيستوريا الخاصة بنا. كان لدى فلورا هذه شعر تحت الأنف والذقن، كما هو الحال في الرجل الذي لم يحلق لمدة يوم أو يومين. إنها تحبنا جميعاً كما نحن، كانت تصيح بذلك كلما أتينا للزيارة. في حين، أننا كنا لا نحب أن نرى أن كل ما تفعله جدتنا الهادئة، أنها تجلس على كرسيها بالقرب من النافذة، تراقب فلورا تحياتنا بانصباب، التي تردد اسم كل منا بصوت عال يكون له صدى يمكن أن يصل إلى العلية، وبعد ذلك، كانت تأخذنا في حضنها العملاق كحضن الدب، وللرعب، كانت تلحق بكل منا قبلة تهبط مباشرة بجوار الفم. كنا نشعر بالشعر الكثيف الذي كان تقريباً ينتزع جلدنا. كنت الأصغر، وبالتالي الأكثر تقبيلاً، كنت أبدأ بالبكاء من التفكير فيما سيحدث لي، وكان هذا يزيد من حنان فلورا علي وبالتالي يمنحني جزءاً إضافياً من القبلات التي كانت تمنح بقوة. كانت تقول لي هذا كيبي الكبير، معتصرة خدي بيدها."ها هو! ها هو! كبيتجي! كيبكيند!" ما يجعلني أبكي أكثر، حتى بعد أن أوضحت لي أن كيبي تعني حبيبي في لغتها، تلك التي تعلمتها بعيداً عن هنا، في منطقة زوين. أنا لا أعرف أين هذه المنطقة؟ "زوين؟ على مقربة من البحر؟ بجانب كنوكه. زوين. زوين. زوين".

خلال كل هذا الوقت، كانت فلورا تواصل بلا هوادة إشعاع السعادة وكرم الضيافة. فقط عندما نجلس على ركبتي جدتي الهادئة، يبدو أن هناك نوعاً من الحزن يتسلل إلى عينيها وإيماءة غير مجدية لمسح أيديها في مئزرها المنقوش بالزهور. ولكن بعد لحظة، تبدأ في الصياح والحديث بأعلى صوت. تقول أنه يمكننا الجلوس على الطاولة، ولا حاجة لانتظار بطريركنا."سأذهب لأناديه! تخبرنا ذلك بسعادة. إنه مع

حمامه مرة أخرى، هذا المجنون".

بعد وفاة جدنا، لم نعد نراها. كانوا يهمسون أنها قد توفيت بعده بفترة وجيزة. من الحزن ولأنها ليس لديها هدف في الحياة.

توفي البطريرك في نومه في منتصف الليل، مائة وخمسين رطلاً، وكما هو الحال دائماً، كان كان يرتدي غطاءً على الرأس، كان جالساً ومستنداً على خمس وسائد. تحت سريره تم العثور على حقيبة بالية محشوة بالأسهم. معظمها من اتحاد التعدين في كاتانغا، الكونغو. كانت هناك حتى بعض الأسهم الآتية من روسيا قبل ثورة أكتوبر والتى نجت من هجرة ويستهوك. ولكن، سواء القادمة من روسيا أو من الكونغو، كانت قليلة القيمة. أخيراً، لم تكن صدى البورصة على صواب دائماً.

جميع الاستثمارات الخاسرة للاجئ كانت مكتظة في حقيبة تحت سريره! تم بيع كل شيء لأحد هواة جمع الأوراق المالية التي أصبحت بلا قيمة.

من أجل إنزال البطريرك الميت إلى الطابق الأرضي ونقله إلى القاعة بواسطة الدرج الضيق والممر الضيق أيضاً، تم الاستعانة بابنيه وحفيديه. حتى وهم أربعة، كان لديهم صعوبة في حمله. لجعل عمل النقل أقل كآبة، وضعت ملاءة على الجثة. لأخذ منعطف على الدرج، يحمل الأبناء أباهم من الرأس والكتفين، والأحفاد يحملون جدهم من الساقين، جثة الجد تنثني. فجأة، دوت من تحت الملاءة صوته الجهير الذي لا يزال يصيح: "أيكوووووووووو". تملك الأبناء والأحفاد الخوف، تفلت الجسد بسبب زيادة الوزن، وسقط البطريرك إلى أسفل الدرج، مارا بين وفوق أحفاده في سقوط فوضوي، القدمان أولا ثم تضرب الرأس بشدة في كل درجة. توقف في الرواق. دون ملاءة.

قال متعهد الجنازات: "إنها ظاهرة طبيعية، فالهواء الذي يبقى في الرئتين مضغوط ويتم طرده والحبال الصوتية تفعل الباقي، فهي مصنوعة من أجل ذلك، الحبال الصوتية، التي تحدث لنا غالباً هذا النوع من الأمور. "ولكن إذا لم يكن ميتا؟

الموت الظاهر؟ أو كيف نسمي ذلك؟ يسأل أحد الأبناء نفسه، لا يزال شاحباً كرجل ميت. يقول متعهد الجنازات "إنه الآن ميت بالتأكيد. حتى رقبة من هذا العيار يمكن كسرها".

لم نسقط من على الدرج لدينا، بعد عدة سنوات فيما بعد. أمي وأبي وأنا. تحت مظلتنا من الزهور الوحشية في الغابة البكر. نصيح ونصرخ ونكافح ونفقد التوازن.

بطريقة غير متوقعة كما بدأت، انتهت معركتنا الصغيرة. توقفت عن النطق بلهجتها الجهنمية وانزلقت بهدوء بيننا. دون وقوع إصابات، دون ضرر. ومرة أخرى تابعناها إلى غرفة الغسيل الصغيرة في الطابق السفلي. حكم علينا أن نلعب دور الممثل الصامت في أول يوم من الحكم، في أول يوم تخرج فيه إلى منزلها السابق، على أمل أن يتبع هذا اليوم أيام أخرى كثيرة. رؤية ما تفعله في غرفة الغسيل جعلنا نبتلع أملنا. لقد سحبت كالمجنونة مقبض باب الغسالة التي قد بدأت في التشغيل للتو. كانت تدير الزر بشكل هستيري، وتضرب الجزء العلوي من الجهاز براحة يدها، كما كنا نفعل مع أحد تليفزيوناتنا الأولى، عندما لا يصدر صوتاً إلا بعد ضربه عدة ضربات عنيفة. حتى أنها ركلت ركناً من الماكينة وتأذى كاحلها، لبضع لحظات، بدت مثل شخصية كرتونية صغيرة، تقفز حولها غاضبة، تنحني وتمسك كاحلها بكلتا يديها. حاولنا أنا وأبي منعها من السقوط، كلينا كان يشعر بالحزن، بالانزعاج وبالقلق بالقدر نفسه. في ظل غضبها الملحمي، لم تلاحظ ذلك. وها هي بعدها تظهر لغتها من جديد. هذا العار، هذه اللعنة، هذا الخدش في طبلة أذني وفي روحي. لغة العدم، لغة الفوضى، لغة مزيفة، لغة ليست لغة، لغة عسيرة الفهم، لغة اللاشيء، لغة مهجورة، لغة مضادة، لغة تحتية، لغة منقوصة، لغة بائدة، لغة ذكورية، لغة ضائعة، لغة فرعية، لغة طفولية، لغة تبث الرعب. لا أستطيع سماعها بعد الآن. ولا أستطيع أن أرى ذلك بعد الآن. أخيراً، أوقفت الآلة عن العمل ونجحت في فتحها. أخرجت منها نصف الغسيل وحملته، وكانت تتصبب عرقاً، بأيديها حتى العصارة. أغرقت نفسها بالمياه وتدفقت خلفها عدة لترات من مياه الغسيل على الأرض.

بأيديها المبللة، حاولت أن تمسك بفيشة العصارة وحاولت وضعها في القابس المتهالك الذي لم ترغب في إصلاحه أبداً. "أنا لست لوسيانكي المجنونة، أنا، يجب أن أنتبه إلى ما أقوم به". بعد دقيقتين، فتحت الغطاء وأرادت أن تخرج الغسيل دون أن تقطع التيار الكهربائي عن الجهاز الذي لا يزال قيد التشغيل. لقد احتجت عندما حاول روجيه منع ذلك وأزال الفيشة من القابس، الفيشة التي سقطت على الأرض وسط بركة المياه. لقد عادت إلى مواصلة ذلك. مواصلة هذه اللغة، هذه اللغة.

التدهور غير المقبول لهذه اللغة.

"وسألني هكذا، فجأة: أتأتين معي إلى السينما؟ (هي، في هذا الوقت، لازالت تتلو إحدى ملاحمها الصغيرة).

بالكاد عرفته، كان على دراجته وكان ذلك في يوم صيفي جميل. إلى السينما؟ قلت. كيف تجرؤ أن تطلب مني ذلك، أيها الفتى؟ لماذا؟ قال، عمري سبعة عشر، كم عمرك؟ أنا أيضاً في السابعة عشرة، قلت (تضحك هي). كذبة صغيرة لسبب وجيه، كنت فقط في الخامسة عشرة من عمري. كنت أصغر منه بسنتين، ولكني كنت أتعامل معه كطفل! ألا تشعر بالخجل؟ قلت له، اذهب وحيداً إلى السينما، أو خذ كلبك الصغير!

لكنه أصر. كل يوم كان هنا، على دراجته الصغيرة. أتأتين إلى السينما؟ أتاتين إلى السينما؟ في وقت لاحق كان: أيمكنني أن أعطيك قبلة؟ أيمكنني أن أعطيك قبلة؟ لم يكن أجمل ولد، ولكن كان لديه رأس جميل مليء بالشعر المجعد في ذلك الوقت وفم صغير جميل، فم مثير للغاية. وكل يوم كان يمر، كنت أذوب أكثر. شعرت وكأنني لدي نادي من المعجبين. في حياتي، لم أقبل قط رجلاً آخر".

بإصرار حنون، دفعني والدي إلى الخارج، خارج غرفة الغسيل وحتى خارج المنزل."سوف أصلح ذلك بنفسي، يا صغيري. وغداً سأعيدها أنا بنفسي إلى بيفرين. لا تقلق. سيصبح كل شيء على ما يرام. في غضون أسابيع قليلة، ستعود إلى المنزل مرة أخرى، كما كان الحال من قبل، سيكون الحال دائماً".

وأغلق الباب بإيماءة لطيفة ولكنها حاسمة.

مستبعدني من الجحيم الذي كان يحدث وراء ظهره.

ما هو الفرق بين أن تكون شاذاً وأن تكون زنجياً؟ هذه مزحة سمعتها في إفريقيا، في كيب تاون، حيث يتوافر هذين النوعين من الناس بكثرة. أنت تطرح السؤال مرة أخرى، لتجعله يتغلغل بشكل أفضل في بساطته الساحقة. "ما هو الفرق بين أن تكون شاذاً وأن تكون زنجياً؟".

أخذت استراحة قصيرة ثم قدمت هذه الإجابة: "إذا كنت زنجياً، فلا يتعين عليك أن تخبر والداك".

لكن، في المقابل إذا كنت شاذاً أو سحاقية، فأنت تعلم أنه في يوم من الأيام ستأتي اللحظة الحاسمة والساخرة في الوقت نفسه، حيث سيكون عليك إجراء مع والديك واحدة من أكثر المحادثات إحراجاً، لكلا الجانبين يمكن أن يدخل فيه الإنسان مع والديه. فأنت نتاج التبادل الجنسي بينهما ويجب عليك، والأخطر من ذلك، التحدث عن الجنس معهما. تجربة لا يحترق شوقاً أي ابن لفعلها. سيتعين عليك أن تشاهد الدهشة أو اليأس الذي لا مثيل له والذي سيرتسم على وجهيهما، لأنهما لن يكونا مستعدين تماماً لاعترافك، لأنك أنت الذي يمكنك اختيار مكان ووقت الإعلان. الأفضلية هي الميزة الوحيدة التي ستكون لديك، ما لم تكن غبياً بما يكفي لكي تسمح لهم بمفاجأتك، والبنطلون مع الأحذية لدى ابن الجيران.

سيكون من الضروري أن تختبرهما، أن تقارن بين حبهما لك وآمالهما التي يضعانها عليك، بين أحكامهما المسبقة وبين ثقتهما فيك. بين العقلية الأكثر تحرراً والتي سنحت لك فيها الفرصة للنمو والعصر الحجري حيث كان عليهما أن يصلا إلى مرحلة النضج مع كل العادات والمفاهيم الأخلاقية في وقتهما. قد تبدو هذه، في هذه الأثناء، قد عفا عليها الزمن، لكن ليس بالنسبة لهما، فلقد تشكلا في إطارها وعلى هذا الأساس، في مرحلة الشباب، على هذا الإطار المرجعي، لذلك، لا يمكن أن يتغيرا أبداً. منذ كنت

صغيراً، وأنت تعلم أن مثل هذه المحادثة ستحدث، كما تعلم أيضاً أنه دون هذه المحادثة، لا يمكنك أن تكون الابن الجدير بوالديك، اللذان علماك دائماً أنه يجب عليك قبل كل شيء أن تكون صادقاً وشجاعاً ولا تخجل أبداً مما أنت عليه. ومع ذلك، فأنت تدرك بالقدر نفسه أن هذين الوالدين نفسهما، خلال هذه المحادثة، سوف يعضان أصابعهما من سوء الأخلاق، حيث أنهما، خلال تربيتك، لم يسلطا الضوء على مزايا النفاق الساحر والاعتدال الجنسي. أنت تعرفهما جيداً بما يكفي لتعلم أنك جرحتهما، لكنك تعلم جيداً أنك لست أنت، لكن مفاهيمهما الخاصة وماضيهما هما اللذان ألحقا بهما هذا الجرح. لا يهم، سيأتي الجرح، وأنت الشخص الذي وجهت هذه الضربة لشخصين قريبين من قلبك. ما الذي سيفيد إذا كان ما تفعله هو مجرد أوهام وأنت تقوم بتفكيكها إلى ألف قطعة؟ لقد حملتها وتحملتها حتى ذلك الحين. حتى أنك لم تطلب من أحد أن يساعدك في تأجيج هذه الأوهام. هذا لم يغير شيئاً، فقد حافظت عليها وتركتها تنمو منذ بداية سن البلوغ.

الآن، لا يمكن الجرح وخيبة الأمل أعمق من ذلك. "ربما"، لأن النتيجة غير مؤكدة حتى النهاية. إنك الآن تخاطر بالخصام طوال الحياة، ولكن، بالقدر نفسه من الخطورة، فأنت تخاطر بأن يتم استقبالك بهز الكتفين، اللامبالاة والتنهيد: "هذا كل ما في الأمر؟" أو "لقد كنا نعرف منذ فترة طويلة". الأمر الذي يبعث السخرية على كل سنواتك من التردد، على كل خططك الإستراتيجية، يبعث السخرية على شجاعتك ويبعث السخرية على ثقتك بهما. لذلك، مهما حدث، لن يكون هذا جيداً أبداً. لذلك، فقبل أن تصل إلى هذه النتيجة، يجب أن تكون حازماً بما يكفي، حتى تستطيع أن تتخطى ومن دون ضعف العاصفة، القوية بقدر سخافتها، وأن تخرج بأقل الأضرار لجميع المعنيين بالأمر. الألم، السعادة، الارتياح، القلق، الهستيريا، اللامبالاة، لا شيء يستطيع تدميرك، إحباطك وكسرك، إلا بإرادتك أنت. خاصة إذا كنت تتعامل مع أم، تحمل بالتحديد لقب وتتمتع بسمعة ممثلة تراجيدية من الدرجة الأولى وأيضاً صعبة المراس.

كنت مستعدا بشكل يثير الإعجاب لتنفيذ ما أردت بعد تردد دام طويلا. بلغت بالفعل اثنين وعشرين عاماً، وطالباً في غنت. كان ديسمبر 1980 قد بدأ للتو. قبل العام الجديد، كان علي أن أنهي الأمر. وكان على أن أفعل ذلك، قبل أن ينتهي هذا الشهر الأخير من العام الأخير من هذا العقد الجديد. سيكون عام 1980 عاماً إلهياً! كان ذلك في الوقت الذي تحطمت سيارة أخي الأكثر صعوبة في التعامل الهوندا بسبب شجرة وكسرت رقبته. لذلك، بدت اللحظة غير المناسبة للتحدث حول الجنس مع والدي. يمكنني أن أنتظر قليلاً.

"قليلاً"، أصبحت سنوات عديدة. لكن بشكل غير مباشر، في تلك اللحظة، كانت وفاة أصعبنا في التعامل هو الذي قدم لي الوسيلة التكتيكية التي استطعت بها أن أهدم باب خزانة كنت أقف وراءه وكادت أن تخنقني.

كان عيد الميلاد عام 1980 حدثاً مظلماً ويائساً. لقد احتفلنا بميلاد المسيح بأيام قليلة بعدما كنا في جنازة ابن وأخ وأب شاب. في الأيام التي سبقت الدفن، تم وضعه للوداع الأخير على منصة في صالة لاستقبال الجنازات لدى جف، متعهد الجنازات في منطقتنا، وهو الذي صنع له النعش أيضاً، لأنه كان أولاً وقبل كل شيء نجارنا المحلي. تم عرض أكثرنا صعوبة، حتى يتسنى لهؤلاء الذين سيفتقدنوه فرصة أخيرة لرؤيته قبل أن يختفي بشكل نهائي في تربتنا الرملية. لقد كان هذا في الواقع، بعد سنوات عاشها في مدينة أجنبية، حيث عاش كما كان يعيش لدينا. وقد حاول أن يستفيد من هذه الحياة بأقصى قدر ممكن دون أن يخطط بما يكفي لهذه الحياة.

ومع ذلك، كان بالرغم من تقدمه في العمر، كان مازال يدرس بجدية حتى حصل على شهادة في علم السمعيات والتخاطب. "إنها وظيفة لا توجد حتى في بلجيكا المتخلفة"، كان يتفاخر بالقول أنه كان يعمل في هولندا، في مستشفى غير بعيد عن الحدود. بالكاد تصدق، كان الأمر متروكاً له، متروك لهذا الفارس الدي جي، لتحديد مدى الضرر السمعي للمرضى الآن! كان من ضمن مهامه أيضاً كشف المحتالين

السمعيين في الضمان الاجتماعي. وفقاً له، كان هؤلاء المحتالين مناسبين جدا لهذه المهمة.

"يزعمون أنهم قد أصابهم الصمم كأواني، على سبيل المثال من خلال العمل مع آلات ثقب الصخور. وقد كان هذا تجربة قاسية بالنسبة لهم. يمكننا ضرب مطرقة على جرس وراء ظهورهم، وهم مع ذلك لا يرفعون رؤوسهم من على جريدتهم. ما نحتاج إليه أولاً هو أن نبهرهم، أن نفاجئهم بضوضاء ثم نباغتهم في أكثر اللحظات غباء. على سبيل المثال، نستقبلهم بكل احترام، نمنحهم جولة بصحبة مرشد للمجمع بأكمله، ونتحدث بوضوح وبقوة مفرطة مشددين على مخارج الحروف، مع العديد من الإيماءات، نعرض لهم جميع الأجهزة الخارقة للصوت التي لدينا. المقصورات عازلة للصوت. مئات الأزرار التي ينتج كل منها صوتاً مختلفاً، بدءاً من الموجات فوق الصوتية وحتى أدنى صوت دوي يمكن أن تسمعه. الإبر التي ستسجل جميع الأصوات على لفافة لا تنتهي من ورقة الرسم البياني والتي تسجل في الوقت نفسه، ردود أفعالهم، مثل كاشف الكذب. يمكن أن تستغرق الزيارة ساعة واحدة على الأقل. في الوقت الذي يشعرون بالعصبية بما فيه الكفاية، يتم تركهم وحدهم في المقصورة مع السماعات على آذانهم. عندما يستعدون ويتملكون أعصابهم. يجلسون مثبتين على هذه الإبر لجهاز كاشف الكذب. إنهم ينتظرون سماع مجموعة من الأصوات، مثل الصفير والأزيز. ثم نقول لهم بصوت عادي: "اختبار، اختبار. أنت مستعد؟"، تسعة في المئة من الغشاشين سيجيبون عن طيب خاطر: "نعم". "نهاية الاختبار".

لقد رفضت الذهاب لرؤيته في نعشه المفتوح. لم نجرؤ على اقتراح ذلك على خوسيه. لم تظهر حتى في الحفل الذي أقيم في كنيسة رعيتنا، كنيسة آباء القلب المقدس. مبنى حديث من طوب أراجوني اللون مع قبة فوق المذبح مع تمثيل المسيح على خلفية لوحة ذهبية تُظهر قلبه المشرق، وهي الصورة التي كان فيها بالعمر الذي صلب فيه. بالمصادفة، كان هذا العمر الذي مات فيه أصعبنا في التعامل عندما نام وطار بسيارة الهوندا الخاصة به.

كان الأب جالسا في الصف الأمامي، منهاراً وصموتاً أكثر من المعتاد. في النهاية، محاطاً ببقية أبنائه، يمد يده إلى كل من غادر الكنيسة ويشكرهم على قدومهم، "إن هذا لدعم كبير".بقيت الأم في المنزل، في سريرها فوق الجزارة المغلقة، مخدرة بشدة من قبل طبيب الأسرة ومطمئنة لوجود زجاجة من الكحول في متناول يدها. لم تكن ترغب في الحفاظ على أي قدر من الوعي وابنها قد توفي ودفن.

خلال الأيام القليلة التالية، أبقت المهدئات والكحول في متناول اليد. في المتجر، رفضنا أي طلب جديد لعيد الميلاد أو الديوك الرومية أو الكروكيت أو غيرها، وألغينا نصف الطلبات التي تم تسجيلها بالفعل. تم المثل بالنسبة لطلبات نهاية العام. أظهر العملاء التفاهم وذهبوا ليشتروا من مكان آخر. بالنسبة لولائم العشاء التي كان يتم تنظيمها من قبل مرتين خلال أسبوعين، وكنا نتناول فيها لحم العجل أورلوف أو أي طبق من اللحوم الباردة، لم يتبق منها الكثير. تم استبدالها بعشاء متواضع وصامت في دائرة صغيرة، والتي كانت تتوقف في كل مرة قبل منتصف الليل. لم تعد تظهر حتى وراء طاولة البيع. لم تخرج من الفراش إلا بعد الظهر وبعد ساعة إما أن تكون منهارة بالفعل أو في حالة سكر أو كليهما معا. لم تعد تقرأ الصحيفة. أصبحت أيام العزلة أسابيع. حاولت أن أشعر بالتعاطف، لكن ما شعرت به، وعمري لم يكن قد تجاوز العشرين بعد، لم يكن حتى سوء فهم. لم ينتج عن كل هذا سوى الكراهية. رأيت شخصاً متشابكاً جداً في رغبته في تشكيل حزنه، هذا الحزن نفسه الذي كاد أن يفقد قيمته.

لم تتمكن من العثور على نموذج مسرحي مناسب للتعبير عن آلامها. كانت هدا جابلر برجوازية للغاية، فان بيميل في مسرحية سيريل بيسي سلبية للغاية، ومارثا في مسرحية من يخاف من فرجينيا وولف؟ مبتذلة للغاية. ما تبقى لها كان كوكتيلا من اختراعها الخاص، أغنية بجعة بشعة تجمع ما بين الشفقة على الذات والحكايات الخرافية. الكثير من الحبوب، الكثير من الشراب، ولكن القليل من الدموع وعدم الاحترام الكامل لرجلها.

مرة أخرى، كان عليه أن يتحمل كل شيء منها. لقد اجتهد بشدة في تقديم الرعاية المنزلية مع الإبقاء على المتجر مفتوحا. كانت تمر بجواره، في حالة من فقدان الوعي التام، كأنه غير موجود. كما لو كان هو سبب حزنها. لو لم يكن قد صنع هؤلاء الأطفال، لما عانت من فقدان واحد منهم. كانت تنام وحيدة في فراش الزوجية. هو في الطابق السفلي على الأريكة، ليلة بعد ليلة بعد ليلة.

كانت لها مواقف مدهشة، يجب أن نعترف بذلك. طوال النهار، كانت تحاول تقليد حياتها من قبل، كانت تنظف النوافذ ونوافذ العرض، وتخدم العملاء بحماس مزعج وطاقة مخيفة، مما يتركها مرهقة ومحبطة تماماً في الليل، وقد تصبح منهارة تماماً وتبدأ في لمس الزجاجة والحبوب، وتصبح مستعدة لأسبوع آخر من فقدان الوعي. خلال أحد أيام عودتها إلى الحياة بعد الموت وهي النادرة إلى حد ما، لاحظتها عن طريق الصدفة، دون أن تراني، كانت غارقة في هذا الغضب المرعب المتمثل في تجدد الحياة، وأخذت ترتب البيت. في هذه الأثناء، سقطت على حقيبة صغيرة كانت بها ملابس غير مغسولة لابنها الأصعب في التعامل. لقد تعرفت عليها على الفور، وأصبت أنا أيضا بالصدمة. من بين كل هذه الملابس، لم نستطع إلا تمييز قطعتين. قميصه الرياضي الذي كان يستخدمة في لعبة البولو وهو شاب، وقميصه باللون الأزرق الفاتح والمكتوب عليه مشجع كرة القدم الأبدي. الرقم 13، هو أصبح معه جيرد مولر، المدافع قاذف القنابل، بطل العالم مع منتخب ألمانيا لكرة القدم عام 1974. في بعض الأحيان، كان يترك شاربه ينمو وتكون لديه لحية صغيرة ليشبه ذلك الألماني بشكل أفضل، حيث كان يمتلك التكوين نفسه والطريقة في الحياة، قصير وبدين ومتفجر، وكان أيضاً سارقاً للأهداف في أيام المجد في إكسلسيور في منطقة سان نيكولاس.

سقطت على ركبتيها، فمها يرتعش ويداها تعجنان هاتين القطعتين من الملابس بلا كلل كما لو كانت تريد غسل كل شبر منها، هنا، دون ماء. أخذت تنظر حولها، دون أدنى كلمة، ولم تصدر أي صوت سوى التنفس غير المنضبط، وصوت الأشياء التى كانت

تعجنها بين أصابعها. وأخيراً، قربت هذين القميصين من وجهها. وأخذت تشمهما. لا تزال على ركبتيها، تشمهما كما يفعل أي حيوان. في هذه اللحظة فقط، عندما غمرتها بقايا رائحة ابنها، أطلقت صرخة. رقيقة، منخفضة الصوت ومطولة. هنا أيضاً، الصرخة التي يمكن أن نتوقعها من أي حيوان.

اختفت كراهيتي وحل محلها سوء فهم بسيط.

(لم أخبرها أبداً أنني رأيتها تبكي على ركبتيها، وتشم الملابس التي تلاشت منها رائحة ابنها الأصعب في التعامل وهو طفل ويستلقي الآن تحت التراب. كان الحدث حميميا للغاية. مرة واحدة، ومع ذلك، مرة واحدة، تحدثنا عن الآباء الذين يجبرون على دفن ابنهم في يوم من الأيام.

- هي: "لن أكون قادرة على ذلك. هذا ليس طبيعياً".

- أنا: "في الطبيعة كل شيء ممكن، حتى لو كان ذلك قاسياً. القطط والتماسيح قادرة على أكل أطفالها وهناك أيضاً الذئاب التي تربي الجراء وحتى البشر الصغار".

- هي (تهز رأسها للدلالة على الحسم): "إذا كنت تأخذ الغابة كمثال، يمكنك إثبات أي شيء. أنا أتحدث عن المسار الطبيعي للأشياء. أحببت أن أكون أماً، لكن لو علمت مقدماً أنني سأخسر واحداً من خمسة، هل تعتقد أني كنت سأقول: شكراً، لا. من الصعب جداً أن تفقد ابناً. في حياتي القادمة، لا أريد أن يكون لدي واحد").

أتى ربيع 1981. ما زلت لم أجرِ المحادثة حول الجنس مع والدي. عموماً، لم يعد لي حديث معهما على الإطلاق. تسبب الحداد في البعد. وكذلك الألم.

أغلق القبر منذ عدة أشهر، لكن والدتي كانت تواصل بكاءها على ابنها الأصعب في التعامل بحزن مسرحي، مع أيام للعودة إلى الحياة بعد الموت وأسابيع من فقدان الوعي وغيبوبة السكر. العملاء، الذين عثروا على جزار آخر لعيد الميلاد والعام الجديد، لم يعودوا جميعاً إلى الإسطبل القديم الساخن والذي أصبح بارداً الآن. هناك بعض الذين عادوا إليهم، حتى لا يكسروا الرابط مع دائرتهم المألوفة، مع شرنقتهم

في الطبقة الوسطى. الذين عادوا، وجدوا جزاراً وحيداً صامتاً، يحمل قدرا كبيرا من اليأس، ولكن لم يعد لديه الوقت أو الرغبة في المزاح والدردشة معهم، باختصار، الذي لم يعد لديه الصبر للاستماع إلى هرائهم أو شكواهم والتي كان مولعاً بها فيما مضى.

ينهار المتجر، يموت الجزار، ولا تظهر زوجته أبداً.

في صباح أحد أيام السبت، في الساعة التي كانت أكثر ازدحاماً من قبل، دخل ابنهما الأصغر إلى المتجر الفارغ. "هذا أنا"، لا إجابة. دخل إلى غرفة المعيشة، إلى غرفة الصالون الصغير: لا أحد. فتح الباب الذي يطل على الدرج الضيق: في الجزء العلوي، لا يزال باب غرفة الوالدين مغلقاً، لذا فإن الأم ما زالت في السرير، تتعاطى الأدوية أو في حالة سكر. في المطبخ الصغير والحمام، لا أحد. في الورشة، لا أحد. في النهاية، فتح الباب الثقيل لغرفة التبريد. كان هناك، الأب. في البرد الذي يريحه، بين قطع اللحم وقدور المرق، منديل تحت الأنف. وفجأة، أفرغ حقيبته بطريقة غير اعتيادية بالنسبة له. "لم أعد أستطيع". "يجب أن يتغير ذلك". "وإلا سوف نموت على حد سواء". "والمتجر أيضاً".

الدين لم يكن في دائرة الضوء في متجر الجزار. لكن في الأسبوع السابق، اقترح كاهن أبرشية كنيسة القلب المقدس القيام بزيارة دينية مع نائبه، لأن كلاهما قلق، بسبب بعض الشائعات المتعلقة بالأم المختفية والتي تم ذكرها، كيف نصيغ ذلك؟ محنة عميقة، ظهرت، للأسف، بالفعل في الجنازات الدينية، والتي كانت توفر الراحة التي، للأسف، كان عليها الاستغناء عنها. باختصار، كانوا يعرضون أن يأتوا إلى المنزل لفترة من الوقت ليقدموا لها عبارات التشجيع المسيحي، باسم الرب، على مرور العصور.

بناءً على نصيحة من ابنه الأصغر، يتصل الجزار بالسيد الكاهن، الذي يوافق على زيارة منزلية في اليوم التالي للغد، حتى يكون لديه الوقت الكافي، في الليلة نفسها، لكي يقنع زوجته حتى توافق على ذلك. لم يهمه ما أضافته كتحذير: "أفعل ذلك من أجلك،

وليس من أجل شيء أو من أجل أحد آخر". كان سعيداً للغاية، لأنها استجابت، حتى ولو لمرة واحدة لدعوة من جانبه.

وماذا عن هذه الزيارة الدينية؟

إذا لم تكن جيدة، فإنها أيضاً لن تضر.

ارتدت ملابس متواضعة، باللون الأسود من الرأس إلى القدمين، وبالمناسبة، في هذا الوقت، ظلت واعية وعاقلة منذ الليلة السابقة. لم ترد أن تتناول الحبوب. لقد جعله ذلك سعيداً في البداية، ولكن بمجرد دخول كهنة القلب المقدس إلى غرفة المعيشة، أدرك أنها تريد أن تكون واعية حتى تتحلى بروح قتالية خالصة. كانت هناك تسوية حساب مع كل منهم، وقد وصل الأمر إلى أقصى حد ممكن.

ستكون هذه هي ساعتها للحقيقة، وهي فرصة استثنائية للمواجهة التي تكون أقرب إلى قلبها من الأكاذيب والوعود الحلوة لقداس الوداع.

لقد وافقت على أن يجلس الكاهن ومساعده على استحياء على أريكتها. وجلست هي على الكرسي وهي تشعر بالمعاناة وتتظاهر بالمعاناة. وافقت بصمت أيضاً، بناءً على طلب من روجيه لها، أن يحتسي السيدان كأسين من الكرز، لكسر الجليد وتقريب اللغات. رفضت، في الوقت نفسه، الكوب الصغير الذي قدمه لها زوجها، لكي تحافظ على سمعتها أمام رجال الدين وتبقي رأسها صافياً. ولكنها لن تكف بإصرار عن شكر زوجها. لمنحها هذا المشروب، على الرغم من كل الإهانات وسوء سلوكها في الأسابيع الماضية. لقد تأثرت بهذه الحركة من جانبه. لقد تأثرت بإخلاصه، بصراحته وبأمله. ولكنها كبتت مشاعرها. يجب أن يكون انتباهها مركزاً على ممثلي الرب الأعلى. كانا يحتسيان، ويشيدان بالنبيذ الجاف الذي، في هذا الوقت من الربيع، لا يزال أفضل فاتح للشهية ممكن، ولكنه أقل حلاوة من البورتو، على سبيل المثال، الذي يرتفع سريعاً إلى الرأس والذي يذهب تأثيره سريعاً، وخاصة، إذا كنا نسير بالسيارة. تناول كل منهما حبة أخرى من الفول السوداني وشريحة من النقانق الجافة، ثم أخيرا بدآ

في الهجوم وتوجها مباشرة إلى ربة المنزل، والتى جعلهما صمتها ونظرتها عصبين إلى حد ما.

أولاً وقبل كل شيء، أعربا مرة أخرى عن أعمق تعاطفهما، وأكدا لهما على أن قداس الجنازة كان جميل للغاية وجذب الكثير من الناس، "كانت أجمل جنازة حضرناها في كنيستنا منذ شهور"، وأن الخطب التي ألقيت كانت رائعة، ومن بينها، خطبة رئيس ابنهما، "علينا أن ندعهم يفعلون ذلك، بالنسبة إلى الهولنديين، إنهم يعرفون كيفية التحدث في الأماكن العامة، وفي جميع الظروف يجدون الكلمة الصحيحة والنبرة المناسبة"، إلخ. كانا يتنافسان فيما بينهما لذكر التفاصيل والأرقام. "نادراً ما وزعنا على عدد كبير من المشيعين بهذا الشكل". وأخيراً، فإن الكاهن هو الذي تحدث طويلاً. لقد كان ذلك لأكثر من ربع ساعة في هذه الغرفة، وجهاً لوجه معها. لقد سعل ثم قال: "سيدتي، هناك شيء واحد يجب أن تحاولي فهمه. لا، يجب أن تتعلمي قبوله. "إن الأمر يتعلق بمقطع هام للغاية في الكتاب المقدس". توقف عن الكلام قليلاً، ثم قرر أن يقوله: "الرب يأتي أولاً لمن يحبهم أكثر".

على أثر ذلك، نهضت أمي من على كرسيها، فتحت باب غرفة المعيشة على مصراعيه وطلبت من الرجلين المتشحين بالسواد أن يغادرا منزلها على الفور. "أي نوع من الآلهة ذلك الرب الذي يصيب بقسوة من يحبهم أكثر. أجد ذلك جاحداً وجباناً، سيدي. لن أفعل ذلك أبداً ولا أريد أن أكون تحت سقف واحد مع الأشخاص الذين يوافقون على ذلك وينشرونه. أحييكما. إنني لم أعد أريد أن أراكما هنا مرة أخرى".

وقبل أن يخرج الكاهنان، اللذان أصابتهما الدهشة والصدمة، من الباب الخلفي وقبل أن يعود زوجها، الحزين والمحبط إلى غرفة المعيشة، كانت قد اختفت. في غرفتها، حاملة زجاجة الكرز.

(خلال ما تبقى من حياتها، كانت تحضر بنفسها الورد أو ترسله ليوضع في كنيسة القلب المقدس المبنية من الطوب، حيث عرض ابنها لآخر مرة قبل أن يختفي تحت الأرض. في بعض الأحيان كانت تقطع كل أزهار الرودودندرون التي تنمو بجوار كوخها، وتقوم بوضعها، ملفوفة في أوراق الصحف القديمة، على عتبة الكنيسة، كما لو كانت تتخلى عن اللقيط. كان الكهنة يعرفون جيداً من الذي أتى بالزهور وكانوا يخصصون لها أماكن مميزة، أمام تمثال القديس أنطونيوس أو أمام المسيح في جانبه الدامي أو على تاج الشوك.

لقد تلقوا كل الأزهار التي كانت تجلبها بكميات وفيرة. اعتذاراتها، لا، لم تقدمها أبداً).

بعد عشرين سنة، انتهت رحلتها الأولى والزيارة التي قامت بها إلى شقتها القديمة بشكل جيد. على الأقل، وفقا لمحاميها وملاكها الحارس الذي قال على الهاتف: "لقد أعدتها إلى بيفيرن دون أي مشكلة، وقد وضعت على الفور البدلة الرياضية لكي تركب على الدارجة الرياضية، وقد اشارت لي بيدها لكي أرحل.. ماذا؟ أوه نعم، هذه القصة في غرفة الغسيل. لقد كانت لحظة غير سارة إلى حد ما. كان هذا لا مفر منه. لقد ساعدتني في ترتيب كل شيء وتم تسوية كل شيء".

حتى أنه ادعى أنهما بعد ذلك، قد قضيا أمسية صغيرة جميلة سوياً. أكلنا سوياً وشاهدنا التلفزيون معاً، ولم نذهب إلى الفراش إلا متأخراً جداً، وكان كل شيء كما هو الحال دائماً. كان من الممتع حقاً عدم الاضطرار إلى البقاء وحيداً في الشقة. أما بالنسبة لي، فإنها يمكن أن تعود في غضون أيام قليلة. فقط، لم نحل الكلمات المتقاطعة في جريدتها. خشيت أن يكون ذلك مبكراً بعض الشيء".

لقد تحققت أمنيتها. يمكنها الخروج مرة أخرى وأصبح عدد مرات مجيئها متكررة للغاية. كانت إقامتها تمر من دون متاعب، كان يقول ذلك دائماً فيما بعد. ومع ذلك،

كانت كل عودة إلى عهدها السابق لم تمر دون اضطراب. كانت النصف ساعة الأولى هي الأكثر صعوبة.

بمجرد أن يفتح الباب، تندفع إلى الداخل، وتتسلق الدرج وتبدأ الأعمال المنزلية بغضب كأنها لا توجد وسيلة لتهدئتها.

ولكن، إذا كان الأمر يتعلق بإزالة الستائر أو السجاجيد، وهي أثناء ذلك تشير إلى أنها تحتاج إلى قدر كبير من المساعدة وهي لا تتوقف عن الكلام أو الإيماءات حيث أن الستائر والسجاجيد، يجب أن تذهب إلى التنظيف فوراً، أو عندما ينقل الأثاث الأكثر ثقلاً حتى تتمكن من تنظيفه أو تلميعه أو التنظيف تحته، فإنها تقطع الحركة في كل مرة قبل أن يتم أي شيء. يجب تعليق الستائر والسجاجيد التي تم إزالتها والتي تركتها جانباً فوراً دون أن يتم غسلها. عند عودتها من الحمام، كانت تتأمل أولاً الأثاث المنقول بمنتهى الدهشة، ثم تطلب، وهي تدبدب بقدميها على الأرض، أن يتم إعادته إلى مكانه الأصلي، دون أن يتم تنظيفه أو تلميعه أو حتى تنظيف الأسطح الفارغة تحته والتي اتضحت بعد أن تم تحريكه. ثم تهدأ، كما لو أن العمل الرتيب الذي كان لا بد لها من أن تقوم به قد تم إنجازه. لقد أصبحت تستهويها البدايات الجديدة بمظاهرها، غير مكترثة بعواقب الأمور وبواطنها. ليس المهم، هو غسيل الأغطية حتى تكون نظيفة. وإنما الغسيل في حد ذاته هو المهم. كذاكرة غامضة، التزام لا معنى له. الغسيل كعلامة على الفقد.

ومع ذلك، التقدم الذي تواصل إحرازه لا يمكن إنكاره. لقد فكر المعالجون الآن إنه قد حان الوقت لإجراء أول نزهة لها في الأماكن العامة، بشرط أن يكون ذلك بسبب مناسبة معروفة لديها، أمر قد شاركت فيه من قبل، ويفضل أن يكون ذلك في بيئة عائلية وفي دائرة صغيرة من الأصدقاء الحميمين. لا غرباء ولا مفاجآت ولا زيارات كبيرة.

والدي كان سعيداً للغاية بذلك. لقد اقترب موعد العشاء التقليدي للاحتفال بعيد

ميلاد شقيقته التي يقترب عمرها من التسعين عاماً. لا تضم هذه الوجبة أكثر من عشرة أشخاص، من بينهم، أظهر أنا وأختي العجوز المحبة للحياة، والتي لم تنجب أبداً. المكان هو نفسه منذ اثني عشر عاماً. مقهى ريفي، افتتح ذات مرة من قبل أخي الأكبر ويقع في ضاحية تمتلئ بالأشجار ما بين سان نيكولاس وبيفرن. تم تسميته على اسم قلعة بطل الرواية الفلمنكية العائدة للقرون الوسطى فان دين فوس رينيردي، ولكن وفقاً للتقاليد الفلمنكية الجيدة، يقدم في الغالب كلاسيكيات المطبخ الفرنسي.

طلب مني أن أشرح لأمي ما سيحدث. وأن أساعده في هندامها. لقد اعترف بأنه قد ينزعج هو نفسه من كل هذه "المراوغة"، علاوة على ذلك، فهي لا تحب أن يشاهدها وهي ترتدي ملابس غريبة بذوق غريب. كان يموت خوفاً من أن يكون سبباً لهجوم عدواني آخر، وتحديداً بعد أن أصبحت هذه الأزمات ترتبط أكثر وأكثر بالماضي.

لقد قلت بسرور وفخر أنني سوف أساعد والدتي في مكانها.

ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي تظهر فيها نفسها للعالم الخارجي في احتفالية كبرى. وتتطلب روح الوقت والمجال اللغوي الذي تضطر أنت وأنا للعيش فيه أن أذكر هذا المكياج الأخير وهذا اللبس الأخير وهذه الخروجة الأخيرة في بضعة أسطر بعبارات أكثر رصانة، وفقًا لشعار "الأقل هو أكثر" الذي اتخذ مثل هذا المكان الحاسم في أدبنا في العقود الأخيرة حتى نتمكن من التحدث بالتأكيد عن متلازمة باسم، فقدان الشهية الأدبية العصبي.

يؤسفني كثيراً، ولكني أقول لا للكتابات شديدة التقيد والبخل. وليس حتى على سبيل المهنة أو الدافع العقائدي. أقول لا لأن فقدان الشهية في الكتابة سيكون خيانة لموضوعاتي وبيئتها. من الواضح، أنني شخصياً كنت أستفيد من هذا المزاج الذي لم أرثه من أحد. لا أرى مصلحة الاسترضاء القسري في تقديم عاصفة أو سيمفونية، أنا لست متحمساً للعوز الذي يُفترض أن ينقل الرقة، واستخدام ظلال الباستيل وعلم

الجمال الهش للتعبير عن اللحم الحقيقي والدم الحقيقي الذي يمتصني. إذا كان الجميع يفعل أو لا يفعل ما يريد، وخاصة الشخص الذي، في يومنا هذا، لا يزال يجرؤ على المغامرة في فن الكتابة النبيل، ولكن إذا كان هناك عشر مصطلحات للتعبير عن ظاهرة واحدة، فلماذا يستخدم شخص مثلي واحداً فقط بدلاً من العشرة؟

يجب أن نتوقف عن استخدام صيحة الحرب للمعلم المتحذلق، هذه الصيغة المتعبة: "ولا كلمة أكثر من اللازم". القول المأثور، الذي ينبغي علاوة على ذلك، النطق به مع هيئة الشخص الذي ابتلع للتو وعاء كبيرا ممتلئا بالخل. "ولا كلمة أكثر من اللازم". في دليل التعليمات الخاص بسماعات الأذن وفرش الأسنان الكهربائية، بالطبع، لا يتطلب الأمر كلمة أكثر من اللازم. يجب أن يكون شرح التعليمات الخاصة باستخدام كل شيء يدخله الإنسان في الأذن، وفي الفم، وبالتالي في جميع الفتحات، وأنا اتفق مع ذلك، جافا ومختصرا. ولكن إذا كان الأدب لا يطمح في المقام الأول إلى الجمال بل إلى الحقيقة، حتى لو كان، لهذا الغرض، فإنه يجب أن تنفجر مفاصله، تصرخ، تتصدع وتصيح. لذلك، من أجل الله، لا تأتوا وتزعجونني طوال الوقت وفي كل الأوقات بهذه الجملة اللعينة: "الأقل هو أكثر"، والتي أعطت، لدى بعض السادة العظام، أعترف عن طيب خاطر، كتبا رائعة، نصوصا خالدة، روائع تجعلك متواضعا، ولكن، بغض النظر عن ذلك، يتم استخدامها بشكل مسيء من قبل العاجزين وغير الموهوبين لإخفاء التمكن غير الكافي للمواد التي يقدمونها ويكتبون عنها.

أقل، ماذا سيكون سخيفاً أكثر من ذلك؟ يؤسفني أن أعود إلى موضوع الطعام - على الرغم من أنه ليس من قبيل الصدفة، فكل ما نأكله وما نقرأه، ليس هناك إلا فرق في السعرات الحرارية، ولكن لماذا لم يكن المطبخ الجديد ناجحاً في النهاية، وحتى في المؤسسات البلجيكية، لم ينجح أي شيء على الإطلاق؟ نظراً لأن القطع كانت صغيرة جداً، الخضروات نصف مطهوة وشرائح اللحم مغطاة دائماً بقليل من الصلصة. على

الرغم من أن المطبخ الجديد قد تم اختراعه في فرنسا، فقد تم تصميمه خصيصاً لمعدة الكالفنيين[36] والإسكندنافيين الآخرين. ليس لدى سكان الشمال مطبخ، بل لديهم طعام فقط. الشخص الذي قال ذلك هو ليون داوديت، الذي لم يشتهر بالكثير من الأشياء الأخرى خارج هذه الجملة، باستثناء سمعته باعتباره معاديا ضد "دريفوس أرد" وملكياً في ظل الجمهورية الفرنسية. التي أكسبته رغم ذلك عامين من النفي السياسي في بروكسيل ماركس وملتيولي.

مترجمة بحرية، إليكم فكرة داودت: الشخص الذي يسمح لنفسه أن يقاد طواعيةً من قبل كالفن يعرف فقط الغذاء وليس ثقافة المطبخ. من روضة الأطفال وحتى أرذل العمر، يتعلم سحق طعامه حتى لا يعرف مم يصنع. إنه يأكل كروكيت لحم العجل من آلة أوتوماتيكية، والنقانق والتي يمكن للنباتي أن يدمنها، لأنها لا تحتوي على أي ألياف من اللحم، ولكنها مصنوعة من الورق المقوى الذي تمت إضافته بطعم غير مؤكد بمساعدة المكونات الكيميائية للصلصة بنية اللون.

(مرة واحدة، ذاقت ذلك، خوسيه المتشككة، كانت كبيرة في السن ولكن ما زالت في عنفوانها، عند الغسق في قلب أمستردام، في كوخ الإنسان الآلي في لايدسسترات: كروكيت لحم العجل، لأن بقية الطعام المعروض خلف الزجاج قليل الدسم ويبدو أكثر بؤساً. لقد قضمت طرف هذا الكروكيت، مضغته مرة واحدة بالدهشة، وباشمئزاز، ذهبت لبصقه في القمامة الصغيرة التي كانت تمتد إلى الذراعين. كما قامت برمي بقية الكروكيت وهرعت في حالة يأس لتمنعه من القيام بذلك مستخدمة حركة تعليمية من إصبعها السبابة. من ناحية أخرى، قامت بتعبئة خمسة جلدر في يد "هذا الصبي"، وأمرته بأن يذهب ليشتري شيئا أكثر صحة ليأكله، وبالمرة، يذهب إلى الحلاق. استخدمت اللفظ الفلمنكي للتحدث عن الحلاق خشية أن يسيء فهم كلمة

36) الكالفينيّة (والمعروفة أيضاً باللاهوت المصلح) هي مذهب مسيحي بروتستانتي يُعزى تأسيسه للمصلح الفرنسي جون كالفن، وكان هذا الأخير قد وضع بين عامي 1536م و1559م مؤلّفه (مبادئ الإيمان المسيحي) والذي يعتبره الكثيرون من أهم ما كتب في الحركة البروتستانتية.

”مصفف شعر“ فيهرع بجلدراته الخمس إلى تاجر للعثور على نفسه بعد ساعة بإبرة في الذراع. (هي): ”للتجول في فونديلبارك، بينما في هذه اللحظة بالذات يمكنه البحث بسهولة عن عمل مناسب، حتى يتسكع في شوارع وسط المدينة لأنه، بيننا، لن يكون هذا ترفاً في بعض مناطق ما يسمى بأمستردام الرائعة. ولكن مهلاً، إن هذا يأتي من كل هذا الكروكيت، هاه. عدد قليل من المعادن ومن الفيتامينات صفر. يا إلهي يا إلهي.. أنت تعرف ما طعم ذلك؟ ما يسمى هذا الكروكيت للحم العجل الخاص بهم؟ في الإسكيمو، في كوخ قبيح بائس، كان هناك امرأة عجوز قصيرة القامة تفتح كيساً من شوربة ريكو بالفطر سريعة التحضير، لقد بصقت بداخله، المرأة العجوز قصيرة القامة بلا أسنان، تضع إصبعها السبابة الذي لم تغسله منذ عشرين عاماً داخل الكيس، يا ترى ماذا تفعل مع هذا العجينة الصغيرة اللزجة؟ لقد فردتها وحمرتها. هذا هو طعمها، هذا“).

أحيانًا يكون ”الأقل“ ببساطة ”أقل“. بالطبع، بشكل محدد سلفاً ولا يمكن إصلاحه، أصبحت أنا مميزاً لأنني فرع من ثقافة ”أنا وضعت لك أكثر قليلاً، يا سيدتي“. لكن حتى دون ذلك، بكل صدق، تعد ”أقل“ كذبة. ”أقل“ هو أساس الجبن، الخداع المريح الكسول، الهبوط إلى الحد الأدنى. الحياة ليست عبارة عن معرض مرسوم من أعلى إلى أسفل بلون أبيض معقم، ولكن مع وجود منظر شتوي تكعيبي معلق على الحائط، أو قطعة من البراز تدور في نهاية سلك معلق من السقف، أو مع حوض أسماك منفرد يقوم فيه مخلوق صغير فقير بتقطيع نفسه إلى النصف، أو أي شيء آخر يتم ترقيته اليوم إلى رتبة ”الفن التذكاري الحديث“، إذن، اذهبوا واعملوا في مجزر، بجوار قطع السجق المسكينة المثيرة للشفقة، وشاهدوا إذا كان بإمكانهم قضاء أسبوع واحد، براتب ضئيل بدلاً من عشرة ملايين لكل حيوان.

الوجود؟ إنه بالأحرى ما يجرؤ بعض الفنانين الرسامين على إظهاره. الفوضى كما هي. ثكنة لإطلاق النار مع عدد لا حصر له من الدمى الصغيرة المستهدفة. ليست المسألة مسألة وفرة، بل مكب نفايات سحري يميل ويصب محتوياته على هاوية بلا

قاع والتي يكون تدفق القذارة فيها، لا نهاية له أيضاً. ومع ذلك، فإننا لا نرى هذا التدفق في مجمله. قبل أن تختفي تماماً من مجال رؤيتنا، ترى في هذا البازار المخمر هنا نجفة شرقية الطراز، جثة كلب ميت، هناك أيضاً قطعة مكسورة من سيارة، وكذلك أحد الطيور وهو محنط، بجانب صندوق موسيقي، مع لمبات نيون ومشيمة في كيس خبز. جوهر هذه الظاهرة هو أن سياق كل هذا لا يختفي. هذه الكائنات متداخلة داخل بعضها البعض. دون السياق، يفقد الفن خصائصه ويصبح بارداً في حد ذاته.

مصاصة طبية ذات تركيبة عقلانية، حيث من المتوقع الحصول على لحم عضوي وخام ومازال دافئاً أو خبز الزنجبيل مع قطع زجاجية أو رأس زنجي بالشوكولاتة بسلك شائك أو أي شيء آخر، أنت لا تدرك المعنى على الفور، لأنه لا توجد إرشادات للاستخدام مرفقة. هناك شيء واحد تخشاه، إنه لا يمكن أن يصيبك بل يجعلك تموت، لكنك تأمل في أن يحميك، ولو لمدة خمس ثوان فقط، من كل العلل التي تعتقد بالفعل أنك مصاب بها. وإذا كان هذا لا يمكن أن يجلب الشفاء لأمراضك - والذي، على أي حال، لا يُتوقع - إنها على الأقل سوف تفجر الذكريات التي تتفكك وتصدع في رأسك، والتي تستهلكها الغرغرينا، ولكن أنت لا تريد أن تترك أي شيء يبتر أو يستأصل الأطراف. لأنه، على الرغم من كل هذا القيح، إلا أنه مكلف للغاية بالنسبة لك للسماح لها بالعيش، فقط كألم شبحي على طراز فني بدلاً من الألم الحقيقي.

الأقل هو الأقل. هذا كل ما في الأمر.

بابتسامة سعيدة، تجلس أمام طاولتها المزدوجة من خشب البلوط، وعلبة المكياج مفتوحة أمامها. لم تختر أكثر ملابسها المسائية روعة، لكن لا يمكن وصفها بأنها ترتدي ملابس رصينة، مع غرزها الذهبية وأكمامها المزينة بأوراق فضية صغيرة على خلفية من الحرير الأسود، وكل ذلك مقترن بـوشاح من الحرير لونه بيج لامع. أرادت ارتداء قبعتها من ريش النعام أولاً، لكنني تمكنت من ثنيها عن ذلك.

قامت حفيدتها بتصفيف شعرها، هذه الحفيدة، التي دون النساء الأخريات، هي التي ساعدتني في اختيار الفستان وساعدتها أيضاً في ارتداء ملابسها الداخلية. كانت حفيدتها هي الأخرى التي ساعدتها على اختيار حذائها والحقيبة المناسبة من العرض الوفير، نتيجة عقود من الادخار والتردد على المحلات وقت تخفيض الأسعار. الأحذية التي اختاراها معاً سوداء اللون، مع شرائط صغيرة حول الكاحل بكعب عالٍ. الحقيبة كانت صغيرة ولونها بيج مثل الوشاح. في غرفتها، ترددت لفترة طويلة أمام خزانة قبعاتها. كانت هذه الخزانة مجهزة بشكل جيد، وممتلئة بالقبعات التي تذكرك، في معظمها، بالأدوار التي لعبتها في المسرح. بعد العروض، اشترتها مرة أخرى بتخفيض أو حصلت عليها بمنتهى البساطة من مصمم الملابس. هنا، قبعة شرقية صغيرة تعود إلى مسرحية المنزل الريفي الصيني، وهذه المسرحية تعد أول نجاح صغير لها. هناك صحن طائر للأرملة الأمريكية من مسرحية أجاثا كريستي. أو قبعة الفنانة غريبة الأطوار التي كانت ترتديها في التفاحات لحواء، المسرحية التي لعبتها ليوبيلها، حيث أدت سبعة أدوار، وكان هذا انتصاراً كبيراً. من أجل التسلية، لم تضعه على رأسها، بل على رأسي أنا الحجاب الأسود الذي ارتدته في مسرحية بيت برناردا ألبا. كل هذا، حتى نقول في النهاية، أنها كانت ترى نفسها في المرآة وترى طريقة تصفيف شعرها، فإنها بلا شك مع هذه الطريقة للتصفيف، لم تكن محتاجة إلى القبعة اليوم. لمرة واحدة فقط، كان شعرها مصففا بمنتهى العناية، وهي لم ترد أن تفسد كل ذلك.

المرحلة الأخيرة من تحضيراتها، طلاء الأظافر، الماكياج، اختيار المجوهرات، لن تنجزها في غرفتها أمام طاولتها للزينة، ولكن وفقًا لتقاليدها الخاصة، في غرفة المعيشة، على الطاولة التي أمضت عليها، ربما، معظم حياتها، الطاولة التي كانت تقوم عليها بكي الملابس، التي كانت تضع عليها دفاتر حساباتها، الطاولة، التي كانت تضع عليها جريدة قديمة فوق القماش المشمع لكي تنظف الخضروات، تقطع البصل وتقشر البطاطس. لم تعد هناك جريدة قديمة فوق القماش المشمع ولكن ينتشر بكل

فخر على الطاولة مفرشها من الدانتيل. كما هو الحال دائماً، يوجد على جانب النافذة نوعان أو ثلاثة من النباتات المزروعة في أصص مصنوعة من مادة ديلفت الزرقاء، في المنتصف، يوجد طبق من القصدير يحتوي على فاكهة، على اليمين وعلى اليسار، بعض منافض السجائر، قواميسها المصححة، المنبه القديم الذي اشترته ذات مرة من متجر هيما في هولست، وأخيراً، كما ذكرنا أعلاه، صندوق تجميلها المفتوح، الممتليء حتى حافته. داخل الغطاء، تم لصق مرآة صغيرة لتنظر فيها عن قرب.

لقد طلت أظافرها بالفعل بلون أحمر قاني. لقد تم إنجاز هذا العمل الدقيق بشكل ملحوظ. لم تمنع نفسها من تقديم عرض صغير، مدركة تماما لوجود جمهور، متمثل في حضوري أنا، أنا الذي كنت أنظر إليها في أول الأمر بمنتهى القلق، وهي تستخدم المبرد، ثم الأسوأ من ذلك، محاولة فتح غطاء زجاجة طلاء الأظافر. لم يكن لي الحق في مساعدتها، صفعت أصابعي بسخرية. لحسن الحظ، لم يبد عليها أي قدر من الاستياء أو الإحباط، وإنما بدا أنها مستمتعة كثيراً.

هل كانت مخيلتي أم أنها بالغت حقًا في الأناقة التي حملت بها غطاء الفرشاة بين الإبهام والسبابة وهي ترفع إصبعها الصغير في الوقت ذاته؟ هل كانت تبالغ في النغمة المضبوطة التي كانت تعيد بها الفرشاة في كل مرة إلى عنق الزجاجة الصغير، ثم تسحبها نصف ممتلئة من رقبة الزجاجة، وبيد واحدة ثابتة، تطلي ظفراً تلو آخر بالطلاء السميك؟ من القاعدة إلى حافة الظفر، وليس أبدا في الاتجاه الصحيح، في ضربات مستقيمة جميلة. كان من المفاجئ أن نراها تتولى هذه المهمة بثقة وترى كم كانت تستمتع بخوفي الوارد في هذا السياق. لم يكن هناك سوى ظفر واحد، من أجله، استخرجت من صندوقها للتجميل، كرة قطنية وزجاجة لإزالة طلاء الأظافر، لقد أشارت إلي بأنها ستزيل الطلاء الذي وضعته على هذا الظفر. لم تكن ضربة الفرشاة مستقيمة بدرجة كافية مقارنةً بالتسع الأخر. كان الوصول إلى حد الكمال هو هوايتها المفضلة. والآن، وهي تنظر إلى نفسها في المرآة الصغيرة، بدأت بالمهام الأكثر أمانا.

لقد نجحت في وضع البودرة لنفسها دون أدنى مشكلة. إنها تشبه بومبادور[37] في "زمن الباروكات"، وهي تتعامل بطريقة مضحكة مع فرشاة البودرة، كما لو أنها غطت نفسها بقطعة ريش مصغرة مليئة بالدقيق. إنها حتى قلدت نوبة من السعال وطاردت بيدها المرتجفة سحابة من المسحوق، كل هذا بحركات صامتة أكثر مما قد يحتملها أي ممثل كوميدي. ثم بعد ذلك، أمسكت بأحمر الشفاه وبقلم العيون. من جانبها، كانت تشعر بخوفي يتنامى، لكن ذلك لن يغضبها أو يزعجها، فعلى الرغم من ذلك، كانت سعيدة للغاية. تقوم بإدارة الأنبوب الصغير بإيماءة حازمة وتجعل اللون الأحمر يظهر، كانت تمط ذقنها، مما يجعل شفتها السفلى تميل إلى الأمام. بدأت من زاوية واحدة من فمها، وهي تسحب أنبوب أحمر الشفاه بحركة بطيئة ولكنها حاسمة في اتجاه الزاوية الأخرى. ممتاز. الآن، الجزء الأعلى. ها هي. تم الأمر بنفس السهولة. لقد وضعت أحمر الشفاه على شفتيها، الواحدة تلو الأخرى، نظرت باتجاه المرآة، أدارت رأسها الصغير نحوي، طبعت قبلة في الهواء، بل وغمزتني. ثم أدخلت العصا الحمراء داخل الأنبوب وأغلقته بإحكام. استغرق هذا الأمر دقيقتين فقط. والآن، يأتي دور قلم الكحل.

وجهها قريب من المرآة الصغيرة. كانت تريد رسم خط على الجفن السفلي لكلتا العينين، من الداخل، في الجهة المقابلة للرموش. بطرف إصبع تحت الجفن الأول، تسحب الجلد إلى الأسفل، وتبدو مقلة العين مع القزحية تختلط فيها درجات اللونين الأزرق والرمادي مع أوعيتها فجأة عارية وضعيفة على نحو مرعب، جنبًا إلى جنب مع اللون الوردي الداكن للجفن والوردي الفاتح للأغشية الرقيقة بين العين والجفن. لم أفهم حتى اليوم كيف يتم ذلك على هذا النحو، فهناك أشياء كثيرة في عين واحدة يمكن أن تتأذى. ظفر واحد ممكن أن يكون كافيا لصنع كافة أنواع الإصابات. فقط قبل

37) - بومبادور مصطلح يشير إلى تسريحة شعر قديمة تعود إلى القرن الثامن عشر نسبة إلى الأرستقراطية مدام دي بومبادور (1764-1721)، عشيقة الملك لويس الخامس عشر على الرغم من أن هناك اختلافات نمط بين النساء والرجال، المفهوم الأساسي لها يرفع فيها خصلات الشعر من وجه مرتد إلى الوراء ويترك عالي فوق الجبين، وأحيانا يرفع من الجانبين وكذلك الظهر.

أن تبدأ في الزاوية الداخلية للعين، لمحت أنها قد نسيت إزالة الغطاء المعدني للقلم.

كرد فعل لما يحدث، أردت أن أمسك بمعصمها، ولكني، ترددت للحظة، لأنني أدركت مدى خطورة ذلك. إذا شعرت بالخوف، وكان ذلك بسببي، فإنها يمكن أن تغرس الغطاء في عينها! لقد لاحظت إيماءتي المتقطعة وأخافها ذلك بالفعل، إلى درجة توقفها عن أي حركة. مرة أخرى دون أي أثر للغضب. كان هذا يوما للسلام والفرحة. ترى الغطاء وتسحبه، تضحك على نفسها ومن نسيانها لذلك وهي تكحل عينيها!

تخفض جفنها مرة أخرى بإصبعها، ومرة أخرى تبدو العين عارية بشكل رهيب. أرى ذلك الآن، لقد فقدت يدها القوة منذ وقت مبكر عندما كانت تطلي أظافرها. كانت يدها ترتجف أكثر وأكثر. حافة القلم، السوداء مثل الفحم، حادة بما يكفي للجرح، ترتجف في الفراغ، في انتظار اللحظة لتكون قادرة على النزول وإيجاد أرضية صلبة. هذه الحافة تؤدي رقصة غير مستقرة في اتجاه زاوية العين، في حين أن قزحيتها اللامعة والضعيفة تنظر إليها عن كثب.

قررت عدم التدخل. كان هذا يوم للسلام والمجازفة. كانت المسألة بالنسبة لها ليست فقط رسم خط صغير. وإنما هي توقيع أسفل شهادة التعافي المؤقت، جرة قلم لفترة من التعاسة والعجز. هذا التوقيع، يجب أن تضعه هي بنفسها، هي التي يجب عليها بنفسها أن تجر القلم.

لم يكن الأمر سيئا بالنسبة لهذه العين. بالنسبة للأخرى، انحرفت قليلاً، لحسن الحظ إلى الأسفل، بعيداً عن مقلة العين. وضعت القلم بعيدا ونظرت مرة أخرى إلى المرآة. أزعجها خلل الخط في العين الثانية، وكان هذا متوقعاً. رغم ذلك، تصنع وجهًا مهرجاً مع صرخة الإحباط المناسبة: "أووووه!" لذلك، بحثت في أسفل حقيبتها لليد عن منديل رفيع للغاية، بللت زوايته بالقليل من اللعاب وسلمته لي. أظهرت لي هذه العين. أنا الذي لي الحق في أن ألمسها مرة أخرى. بدا لي هذا الأمر وكأنه امتياز. إنه لأمر مؤكد، نظراً لأنها بدأت في البحث في قاع صندوقها للتجميل، سحبت ملقاطاً

مذهباً، حشرته في يدي، وأظهرت لي شعرة صغيرة متمردة لا تريد أن تكون بجانب حاجبيها المحلوقين. كنت أنا من يحق له أن ينزعها. وبدا لي هذا تكريم لا أستحقه.

كان علي أن أعود بالملقط ثلاث مرات لإزالة هذه الشعرة الصغيرة اللعينة. لقد تحققت من النتيجة في المرآة وأثنت بصمت بإيماءة تدل على الإعجاب المبالغ فيه بأدائي. ثم أخذت صندوق المجوهرات الخاص بها من المكان السري حيث تخفيه، وهي مساحة صغيرة أسفل الطاولة، تجويف في الآلية تسمح بإطالة الأثاث عن طريق تحريك الألواح. لقد اكتشفت فيما مضى هذا المخبأ عندما لجأت تحت الطاولة أثناء القصف وكانت على قناعة دائماً بأنه لن يجدها أي لص في هذا المكان.

اخترنا معا القطعة التي تتكون من ثلاث ساعات رائعة ستضعها على المعصم، اخترنا أيضا الأقراط، والأساور والبروش (وقد اختارت المفضل لها، بروش كاميه بلونين) وأخيراً اخترنا الخواتم. في السنوات الأخيرة، أصبحت كل المجوهرات واسعة للغاية، لكنها كانت مترددة في إنفاق الأموال لجعلها ملائمة. تحت كل خاتم، غير مرئية للمشاهد، تم لصق قطعة صغيرة من ضمادة بلون اللحم، وهذه القطعة كافية حتى لا تدور الجوهرة حول إصبعها، ومن يدري، قد تسقط دون أن تلاحظ ذلك. كانت تمتلك خاتماً مرصعاً بقطعة ياقوت صغيرة، وآخر مرصع بقطع ماس صغيرة. قررت أن ترتدي كلا منهما.

وضعت قطرة من العطر خلف كل أذن ونظرت إلى نفسها مرة أخرى في المرآة الصغيرة، من زوايا مختلفة، وأحياناً، كانت تلوح بيدها بجانب وجهها في المرآة. أنهت هذا العرض بإيماءة رأسها المعتادة. إنها جاهزة. لقد اجتزت الاختبار ببراعة. كنت أجلس بجانبها وأنظر إليها. إذا كانت تستطيع أن تفعل كل هذا؟ إذا كانت تحتاج إلى القليل من المساعدة؟ فإن المعالجين على حق. باب الشفاء الكامل موارب. يمكنها أن تصبح كما كانت من قبل. سوف تصبح كما كانت من قبل.

لكن عندما نظرت إلى نفسها مرة أخيرة في المرآة، أمسكت فجأة ومن دون تفكير،

ميكانيكياً، كما لو كان من اللمسات الأخيرة، المنبه الذي اشترته من متجر هيما الكبير. إنه أداة من الألمنيوم قديمة الطراز، معلق ومثبت على الأرجل، مع عقارب صلبة وأرقام واضحة للغاية تتوهج في الظلام. يعلو بطن الساعة جرسان تضرب بينهما مطرقة صغيرة في لحظة الاستيقاظ. متأملة دائما نفسها في المرآة، امرأة تبلغ من العمر ثمانين عاماً، بنظرة شبه حميمية تظهر بشكل كبير، بدأت تصفف شعرها بضربات خفيفة، بالمنبه!

في البداية، لم أدرك الأمر جيداً. ثم شعرت بطعنة في قلبي. أمي التي تتزين للحفل، تمشط شعرها بالمنبه. لحسن الحظ، بالجهة الملساء، والزجاج المستدير الذي يضم العقارب. بقت خصلات شعرها سليمة. طارت أمالي بالتعافي في الهواء. أمي تمشط شعرها بالمنبه.

لقد تم تناول الوجبة في فندق مالبرتوس في جو مفعم بالفرح إلى حد ما. لقد دخلت الي غرفة الطعام بمنتهى العظمة، وكانت مثلما كانت من قبل، مركز الاهتمام. حيت وقبلت أصحاب الفندق كما لو كانوا أصدقاء مقربين لم ترهم منذ زمن طويل. كانت الأولى التي رفعت النخب بكأسها من الشمبانيا. من وقت لآخر، كانت تدخن سيجارة بأناقة. لقد تناولت القليل من الوجبة الشهية، كما هو معتاد في السنوات الأخيرة. "مع هذا الفتق الدموي الدماغي، إني آكل أقل من عصفور. هذا سيء بالنسبة للمال المدفوع، ناهيك عن كل هذا الطعام". ووفقاً لهذه العادة الحديثة، فإنها تخرج من حقيبتها الصغيرة بعضا من أكياس التجميد التي من دونها لم تعد تذهب إلى المطعم والتي كانت تعبئ فيها علنا، تحت أعين الأصدقاء والنوادل الساخرة، أفضل البقايا، وتضعها إلى جانب مناديلها الورقية ومحفظتها، جنباً إلى جنب مع مكعبات السكر والبسكويت التي تستجديها من كل من يتناول القهوة في وجودها.

على الرغم من أنه لا يكاد أي شخص يفهم ما تتحدث عنه، إلا أنها أمسكت بكل فرح، الطبق المخصص للحلوى. لقد حيت أكواما من الغرباء، وكانت تضحك عندما

يلوحون إليها في المقابل. كانت تستفزني وتدفعني إلى المزاح معها، وكانت مهتمة بأبي، وكانت تتصرف بكياسة ولبقة. بعد أسبوع، أصابتها نوبتها الثانية.

وكانت هذه بداية لسلسلة كاملة.

لقد عدنا لقبل ذلك بعشرين عاماً. بعد ما طردت آباء القلب المقدس من منزلها، أصبح حال زوجة جزار الزاوية من سيء إلى أسوأ. لم تعد تخرج من الفراش، إلا للشرب، ولم تعد تخرج من منزلها، إلا لشراء الحبوب المهدئة من الصيدلي الذي كان يزداد تحفظاً وانتقاداً في كل مرة تشتري منه الدواء. عندما نصحها بالاستشارة للحصول على المساعدة، غيرت الصيدلية.

استمر الجزار، ليلة بعد ليلة، في النوم في الطابق السفلي، على الأريكة، حيث تم تكريمه من كل نسله في كثير من الأحيان كقيصر استبدادي لأمراض الطفولة وحيث تظاهرت زوجته ببعض النوبات القلبية لجلب هذا النسل نفسه إلى الطاعة. كان صامتاً في كثير من الأحيان كأنه سيصمت للأبد واستمر في العمل كما كان يفعل دائماً. حتى اليوم الذي ارتكب فيه ما لا يمكن تصوره.

دعيها ترى أنه يغلق باب المتجر.

لقد نزلت بعد وجبة منتصف النهار، شعرها منكوش وغير مغتسلة، في حالة سكر شديد وتلهث للغاية حتى أنك تعتقد أن صوت لهاثها يسمعه الناس في طوكيو، وقد رأته وهو يجلس على الطاولة، في مكانها، ويقرأ جريدتها. عندها فقط أدركت أن: في هذا الصباح، خلال كل تلك الساعات التي قضتها ما بين النوم واليقظة، لم تسمع جرس باب المتجر يدق ولو لمرة واحدة. "ما الذي ليس على مايرام؟" هي الجملة الوحيدة التي تبادرت إلى ذهنها.

أدهشته بلاغتها، والتي تزداد قوة على الرغم من أنها في حالة سكر وتيه لكي يرد عليها بشيء. كان عليه أن يكرر في رأسه لساعات ما يريد أن يلقي به في وجهها. علمها درساً بهدوء ولكن بقسوة. إنه العالم رأساً على عقب. إنه يتكلم، وهي تتنهد، إنه لا

يحتاج حتى إلى الغضب لإعطاء القوة لكلماته. كان ضعفه أمامها لا يحبطه فقط وإنما كان يشعره أيضاً بالحرج، كان صوته المنخفض لا يساعده على مواجهتها، لذا، فإنه في هذه اللحظة، كان يستغل دقائق صمتها حتى يستكمل خطابه. خلاصة اتهامه هو أنه لا يريد إعادة فتح محل الجزارة إذا كانت هي غير مؤهلة للتعافي. لم يعد أي منهما يحتمل الآخر. إنه لا يريد التقليل من شأن ألمه أو عدم تقديره، سيكون هذا مستحيلاً بالنسبة إليه، إنه يشعر بالألم نفسه. ولكن يجب أن يحدث شيء في النهاية، ولديه اقتراح يقدمه لها. كان يريد أن تستمع من الألف إلى الياء، هذا الاقتراح، قبل الإجابة بنعم أو لا.

اتصلت زوجة عمر السباك هاتفياً، وتحدثت عن ابنة عمها التي فقدت هي الأخرى ابناً لها. أصغر بكثير من ابنهما الأصعب في التعامل، ولكن أيضاً بسبب حادثة غبية، في حمام سباحة غير خاضع للإشراف غرق فيه هذا الطفل الصغير للأسف. لفترة من الوقت كانت الأم يائسة، ضائعة تماماً، وكانت بعيدة عن الانتحار قيد أنملة. ولكن، من خلال لا نعرف من، أصبحت على اتصال مع وسيطة روحانية ساعدتها على نحو رائع حتى وصلت للتعافي. وهذه الليلة بالتحديد، تعطي هذه الوسيطة الروحانية جلسة في القاعة الصغيرة في مقهى جرانمات في الميدان الكبير. ستذهب زوجة السباك وابنة عمها إلى هناك وهو، روجيه، يريدها أن تذهب أيضاً. من دونه. واعية. وترتدي الملابس بشكل مناسب. ومن البديهي، ألا تكون عدوانية كما في المرة السابقة مع آباء القلب المقدس.

كان هناك الصمت بعد ذلك من جانبها، تهز رأسها فقط وهي تنظر إلى السجاد، تحرك ساقيها، ترتعش في رداء للحمام، ويبدو وكأنها على استعداد للهجوم أو الانهيار. لم تفعل هذا أو ذاك. رفعت رأسها باتجاهه، نظرت إليه في عينيه، وأومأت برأسها علامة تدل على الموافقة، ثم ذهبت إلى الحمام وبدأت في الاغتسال وترتيب هندامها ووضع المكياج، لأول مرة منذ فترة طويلة. لقد قبلت اللوم والاقتراح. ولكن لا داعٍ لتأكيد ذلك بالكلمات. لابد أن تكون الإيماءة من الرأس والمضي قدما إلى العمل أمراً كافياً.

اكتفى هو بذلك. كان لا ينتظر شيئاً أكثر من ذلك. فتح متجره وعمل حتى المساء، بمفرده. كان لا يريد أن تساعده. كان يريد أن يدعها تعرف بنفسها ماذا تفعل بوقتها. في حوالي الساعة الثامنة والنصف، أتت له، ولكن بوجه متألم، لتخبره بأنها ستغادر. كان الآن دوره ليهز رأسه دون كلمة. على عتبة الباب، رآها وهي تغادر دون أن تلوح له بأي إشارة لكي تودعه. كانت هذه هي المرة الأولى منذ أشهر التي تقود فيها السيارة. الحمد لله، هناك حركة مرور قليلة في هذا الوقت.

تبعها بعينيه حتى دارت في الزواية. ثم عاد وتناول شريط كاسيت صغير، لا يستطيع الاستماع إليه عندما تكون حاضرة أو حتى عندما تأتي. إنه تسجيل للخطاب الذي ألقاه في الجنازة مدير المركز السمعي الهولندي. هناك الكثير من الصدى ولكن إذا كنت تستمع جيداً وإذا كنت تعرف أكثر أو أقل الكلمات المنطوقة، فلا تزال تسمع ما يقوله هذا الرجل والكاهن من بعده. كان يستمع إليه بانتظام عندما يكون وحيداً. في هذه اللحظات أيضاً، يكون قادراً على تحريك شفتيه وترديد الكلام الذي يقال في كل خطبة. كل حيوان يصلي بطريقته.

في حوالي الساعة العاشرة، عادت زوجته. مفعمة بالحياة، بالطاقة وبالقوة، امرأة أخرى. لقد قالت، بل غنت: "لقد تلقيت رسالة منه. إنه سعيد ويشعر بالرضا هناك. إنه يقول لنا أنه لا داعٍ للقلق. طلب منك فقط أن تأتي معي في المرة القادمة".

لم تعد تلامس حبوبها أو شرابها.

لهذا السبب، كان سعيداً بمرافقتها في المرة القادمة.

بالنسبة لامرأة ناشدت دون كلل الفطرة السليمة، فإنها لم تكن غريبة على الافتتان اللاعقلاني ولديها رغبة لا يمكن السيطرة عليها للارتقاء والارتفاع. لقد حولت أطباء العائلة العاديين إلى نصف آلهة. لقد عزت إلى وصفاتهم البسيطة في كثير من الأحيان قيمة العلاجات المعجزة، حتى لو كانت أقراص فيجنين (الشيء الوحيد الذي يعمل عندما يسيل أنفك) أو أنبوب من مرهم إنيتول (ضد الحروق، البثور الصغيرة، تشقق

جلد الأصابع، لدغات الحشرات، تهيج في الأرداف للأطفال"، باختصار، ضد الكل، مرهم سحري حقيقي). على الرغم من هذه الثقة التي لا تتزعزع في الأطباء الذين اختارتهم، فقد ظلت دائماً حساسة لقراءة خطوط اليد وأوراق التاروت كمكملات لفوائد الطب الحديث. مثلما لم تكن تستطيع تثبيت لوحة على الحائط دون إضافة بعض المسامير الإضافية. الأكبر والأطول أولاً. "إن هذا لأكثر أماناً".

كان من بين قواميسها مجلد متعفن إلى حد ما تم فصل غلافه، معجم لعلم النبات كتب بلغة شعبية مفهومة.

كتيب يتحدث عن حياة وردجي، دكتور النباتات، الذي كان بمثابة ظاهرة فى أرض واس والذي كان أيضاً مشهوراً بأنه ساحر، عندما كانت الكلمة شيئا مازال له معنى، لأن الناس لم يكونوا جميعهم متصلين بعد بالماء الجاري. من خلال الركض في أرض قاحلة ذابلة مع عصا البندق، كان بإمكان وردجي أن يشير إلى أفضل مكان لحفر بئر. مع بندوله - سلسلة صغيرة بها كرة بالكاد أكبر من أجمل قبعاتنا التي أطلقنا عليها "خراطيش"، ولكن من الفضة - لم تكن الأرض الجافة ولكن النساء التي كان يستكشفهن على فراش مرضهن. كان يؤرجح البندول على بطونهن العارية وكان يقرأ في تذبذبات "خرطوشته" الفضية إذا كان الأمر يتعلق بورم خارج الرحم أو جنين يحمل اليدين والعينين والفم حسن التشكيل. إذا دارت الكرة في اتجاه اليسار، كان الجنين أنثى، وإذا درات في اتجاه اليمين، كان الجنين ذكراً. إذا لم يدر البندول، يطلب الكشف من ناحية الحوض.

هي، خوسيه، كانت تمتلك أحياناً أيضاً مواهب التنبؤ هذه فيما يتعلق بالإنجاب البشري، وذلك بفضل أحلامها المستبصرة إلى حد ما. في بعض الأحيان، تكون تنبؤاتها خاطئة. ذات يوم، في متجرها المليء بالناس، كانت تهنئ إحدى الجيران على هذا الحدث السعيد الذي كانت تنتظره، حيث كانت هذه المرأة، التي تشعر بالقلق والغضب، خارجة من معاناة، بينما كشف لها عملائها أنها قد خاضت تجربة طلاق

صعبة وكنتيجة لذلك، كانت تلتهم فطائر الشوكولاتة والكريمة، وربما يعطي هذا تفسيراً أكثر دقة لوزنها الزائد مؤخراً. سرعان ما تم نسيان هذه الإخفاقات لأنها لم تكن لها ثقلاً أمام النجاحات. بالإضافة إلى ذلك، بعد عامين، جاءت امرأة الشوكولاتة حاملاً من عشيقها الخفي. وبالتالي، لم تكن النبوؤة خاطئة تماماً.

كل صباح، وهي تقرأ جريدتها المفضلة، تخبرنا عن أكثر الصور غرابة التي زارتها في أحلامها في الليل، مضيفةً المعنى الذي استخلصته منها. مثل هذا العرض يمكن أن يستمر نصف ساعة. على مر السنين، بدت لديها ذكريات أكثر دقة عن الحياة المزدوجة التي كان دماغها ينسجها لها في الليل. "هل تعرفون من رأيته مرة أخرى؟ روكين ستريمنز. يأتي إلي في ملابسه الداخلية قائلاً: أنا أبحث عن جوسكي بونبون! أنا أبحث عن جوسكي بونبون"!

كنا نهز رؤوسنا ونضحك، غير مصدقين.

ولكن، يا إلهي! تصل في اليوم نفسه الأخبار التي تحملها أفواه مئات العملاء، عن وفاة جوسكي بونبون، ويعلم المرء أنه صديقه القديم وشريكه في البطاقات، روكين ستريمنز، قد وجد، هذا الرجل المسكين غارقاً في حمامه. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن التجمع الشعبي الذي جلس أمام طاولة البيع كان يتسائل منذ أسبوعين بالفعل عن المكان الذي يمكن أن يكون فيه جوسكي بونبون، يبدو أنه قد اختفى من على سطح الكرة الأرضية، حتى صديقه المفضل، روكين ستريمنز، لم يكن يعرف شيئاً.

"هل تعرف ماذا حدث في تلك الليلة بشكل غير متوقع؟"

كان يرتدي كمهرج، ويرقص كفارس قوقازي ويلعب بالطبلة فوق ساحة الرقص كما كان يفعل في مسرحية خادم لسيدين؟ ويلي فيربريت. كيف سارت الأمور معه؟ أشهر لم نره! اللعنة: أتعرف من وقف في الظهيرة أمام المتجر في سيارة رياضية؟ هيا، خمن! عداء في تنورة نسائية حتى خط العودة؟ متأنق دائماً في اختيار جواربه، يأتي كجنتلمان في الوقت المناسب؟ برونزي اللون دائماً وذقنه نصف حليقة، مع

وشاح أبيض حول عنقه، حتى لو كان قميصه مفتوحا للسرة؟ اللعنة، بالطبع! ويلي فيربريت. ولكن تجدر الإشارة إلى أن ويلي يأتي للزيارة كل ربيع، من اللحظة التي يستطيع فيها فتح سقف سيارته، وعندما لا يعرف على الفور إلى أين يذهب لإظهار أنه متاح للجنس الأنثوي.

الأمر يشبه كثيراً ما يكتب في برجها اليومي في جريدة هيت لاتست نيوس (آخر الأخبار) وما يكتب في صلاتها الصغيرة التي تؤديها إلى القديس انطونيوس. "إذا كان هناك شيء لا تجده على الفور، عليك أن تصلي إلى القديس انطونيوس صلاة صغيرة وستجده. إذا لم يكن اليوم، فسيكون غدًا".

لا أحد يستطيع أن ينكر، تدعي هي، أن في هذه الوسائل البسيطة للغاية يختفي عمق مذهل من الحقيقة والكفاءة. "ومتى تقرأ سمات شخصية برج العذراء؟ إذا كنت أريد أن أكون صادقة مع نفسي، فسأقول أنها ليست خاطئة تماماً". وليس لأننا سنلعب كرة القدم قريباً على سطح القمر، فهذا معناه أنه قد تم توضيح كل أسرار العالم. إن الأمر حتى في صالح الكنيسة الكاثوليكية. هذا البابا بكل ما لديه من ذهب وممتلكات وجواهر؟ لا ليس هذا ما نتحدث عنه. كل هذه الأنواع من الكرسي الرسولي قد سرقت ما يكفي من المال لإنشاء بنك، في البعثات الأولى، وفي الأيام الخوالي أيضاً في فلاندرز الفقيرة لدينا، مع مبيعاتها من الغفران، الآثار المقدسة، الأوشحة الدينية وجميع ما لديهم من حيل النصب الأخرى". ومع ذلك، في الكنيسة الكاثوليكية هناك أيضاً قديسون حقيقيون لا علاقة لهم بهؤلاء المنافقين من الفاتيكان. إلى جانب معجم النباتات لوردجي، دكتور النباتات، كان لديها كتابان مفضلان. سيرة الأخ إيسيدور دي لور، المهووس ببيفيرن[38] وسيرة الصغيرة تيريز دي ليسيو. في وجودها، لا يمزح المرء مع الأب داميان، بطل مولوكاي [39]، رسول مرضى الجذام. وعندما اشتريا سيارتهما الأولى، ولأجل مزيد من الأمان، ذهبا طيلة السنوات العشر الأولى إلى كنيسة دون

---

38) مقاطعة في بلجيكا.

39) جزيرة تقع في أرخبيل هاواي وتتبع ولاية هاواي الأمريكية.

بوسكو الجديدة، حيث أمضى الكاهن بعد ظهر يوم كامل في الربيع ليبارك بمرشته للماء المقدسة واحدة تلو الأخرى السيارات الآلية باسم القديس كريستوفر، راعي النجارين والرسامين والحجاج وبائعي الفاكهة ومجلدي الكتب وسائقي السيارات. بعد هذه المباركة المتواصلة، يمكننا أيضاً أن نشتري من الكشافة حزمة من السعف يتم ربطه بمرآة الرؤية الخلفية أمام الزجاج الأمامي، حتى نكون متأكدين تماماً من السفر بأمان وسلامة لمدة عام كامل. كانا كل مرة يشتريان حزمتين، حتى إذا ضاعت واحدة، استخدما الأخرى. "أنت لا تعرف أبداً ما يجب القيام به معها".

في هذه الحالة الذهنية، ذهبت إلى هذه الجلسة في غرفة جرانمات الصغيرة. كان هناك عشرون أو ثلاثون شخصاً مبعثرين، يجلسون على الكراسي. كان من الواضح من كان هناك لأول مرة ومن لا. كان الجدد مكتئبين ومنطفئين مثلها. يجتذب القدامى أطراف الحديث مع بعضهم البعض.

رسوم الدخول كانت ضئيلة. لقد طمأنها ذلك، فقد قرأنا الكثير من قصص المحتالين الذين صنعوا حزم من الأموال على حساب البائسين. بالإضافة إلى ذلك، كانت الوسيطة تفعل كل شيء بنفسها، بدءاً من تذاكر البيع وحتى إغلاق الأبواب في بداية الجلسة. وسرها ذلك أيضاً. هذا النشاط البسيط لدى شخص يمكن أن نراه مشتتاً وبعيداً.

ما أعجبها أقل لدى الوسيطة هو تصفيفة الشعر الأشعث، العيون المحددة بقلم كحل بلون الفحم، كثير من القلادات من مواد عضوية وكومة الأساور الرنانة، باختصار مظهر فتاة الهيبز القديم.

كانت ملابسها إلى حد ما لائقة: من القطن الذي يطفو في ظلال باهتة، واسعة للغاية وتفوح منها رائحة البتشول[40]. كان التوازن مواتياً مرة أخرى إذا نظر المرء

40) البتشول أو الباتشولي أو البطشولي (الاسم العلمي: Pogostemon cablin) هو نوع من النباتات يتبع جنس البتشول من الفصيلة الشفوية. يعرفه الناس منذ قرون طويلة وهو أشهر بخور عرف في أمريكا منذ 1960 ويستعمل زيت النبات في صناعة العطور أما طبياً فيستعمل بعد نقعه في الماء، في علاج الإسهال

نظرة مباشرة للعيون الزرقاء والضحكة الواسعة والصريحة والنبرة العامة التي تقول: "ليس هناك مزاح في الأمر!". قالت ضاحكة أنها تسمى لودوينا. لكن ويني بالنسبة لها جيدا أيضاً، بل إنها تفضله. ويني، مثل ويني الدب أو ويني مانديلا، لا يهم، الأمر متساوٍ لديها. هكذا، بدأت جلستها.

بعدما ترحب بجمهورها بحرارة، وتتحدث معهم بشأن لقبها وتطفىء أنوار القاعة، تأخذ مكانها على الطاولة فوق المنصة الصغيرة.

قبل البدء حقاً، حذرت ويني الجميع، وخاصة القادمين الجدد، من التوقعات العالية للغاية والرغبة في الإثارة.

"لا أستطيع الوعد بشيء. أنا فقط وسيطة. ليست لدي أي سيطرة وبالتالي لا سلطة على الكيانات. هكذا أطلقت عليها: الكيانات. وأوضحت أن الأرواح لا توجد إلا في الرسوم الكاريكاتورية والرسوم المتحركة، ولكن ليس لديها. "دوري كوسيط هو فقط إعطاء الكيانات الفرصة للظهور من خلالي. إذا أرادت ذلك وعندما تريد ذلك. لا أحد يستطيع إجبارهم. ولكن يمكننا أن نطلب منها ذلك بلطف. هذا ما يحلو لها بالمناسبة". دعوة الكيانات غير الملموسة لإظهار نفسها في جرامات، تحتاج ويني إلى بعض الأشياء الملموسة. إنها تمرر سلة صغيرة من الخوص، حيث يطُلب من الجميع إيداع شيء يخص الشخص العزيز السبب في الحضور إلى الجلسة. خاتم، نظارة، ساعة. يمكننا وضع صورة في السلة.

كانت الأم مستعدة لذلك. أصرت زوجة السباك على ذلك في الهاتف. "أحضري

والزحار ونزلات البرد والقيء والغثيان. أما الأوراق فيتم طحنها وتوضع على الحروق فتساعد على التئامها كما يستعمل الزيت المستخلص من الأوراق موضعياً في علاج المشاكل الجلدية مثل جفاف وتشقق الجلد والالتهابات الفطرية وحب الشباب ويستعمله الأطباء المتخصصون في العلاج بالعطور كمهدئ للأعصاب وكفاتح للشهية وكمزيل للعرق كما يستعمل أيضاً الزيت ومنقوع الأوراق لعلاج قشرة الرأس وحساسية الجلد والإكزيما وفي بعض الدول العربية واليابان والصين كان يعتقد أن استعمال الزيت الباتشولي يمنع الأمراض التناسلية ولكن لم يتم دراسة هذا التأثير رغم أن زيت النبات ممكن أن يكون مفيداً في قتل البكتيريا والفيروسات.

شيئاً، أي شيء". لقد أضاعت الكثير من الوقت بين ترتيب هندامها ومغادرة المنزل في التردد حول الشيء الجيد الذي يمكن أن تحمله معها. ماذا إذا حدث مكروه لهذا الشيء؟ لقد فقدت بالفعل الكثير من الأشياء التي تخصه. لقد فقدت خاتمه للزواج وساعته اللذان كانا عزيزان عليها. صوره أيضاً. مع ألم شديد في صدرها، سلسلة المفاتيح، التي أصبحت عديمة الجدوى الآن، لابنها الأصعب في التعامل. حتى مفتاح السيارة القاتلة كان موجوداً بها.

بعد لحظات، كان هذا هو أول كائن تخرجه ويني من السلة. من بين كومة صغيرة من الخواتم، من القلادات ومن صور العطلات التي تبتسم فيها الوجوه الغريبة في أوقات أفضل.

"يجب أن تكوني هنا"، قالت هي ذلك، مشعة، كالتي اهتدت من جديد، وفي وقت لاحق، مشعة من جديد، حكت في غرفة معيشتها المقبولة، في مسكنها المريح، ما حدث لزوجها الذي كان يستحق المودة من جديد. "لقد حكت ويني هذه أشياءً عنه، عن عمله، عن أطفاله، أشياء لا أحد يستطيع أن يعرفها سوانا أنا وهو فقط. ثم نقلت لي رسالته. لقد شعرت بالعناية الإلهية. لم أجرؤ على تصديق أن هذا صحيح. لاحظت ويني ذلك، لذا أتت إليّ وقالت أنها لم تتلقَ مثل هذه الرسالة الواضحة والقوية. وتتساءل عما إذا كانت تستطيع رؤية صورة له. لحسن الحظ، كانت معي واحدة. عندما رأت الصورة، أصبحت شاحبة كالثلج. سيدتي، قالت هي، يجب أن أكون صادقة، ولابد وأن هناك خطأ ما. الكيان الذي رأيته للتو لديه لحية وابنك ليس لديه سوى شارب. لا يمكن أن يكون هو، انسي ما قلت لك، أنا آسفة حقاً. كانت تريد أن تعيد الصورة إلي، ولكني لم أستطع التقاطها. كنت أرتجف على مقعدي، وأبكي وأضحك في الوقت نفسه. لقد تخففت من كل أثقالي. شكوكي، مخاوفي، حزني. هواني في الأشهر الأخيرة. عزيزتي ويني، أخبرتها عندما أصبحت قادرة على الكلام، هذه الصورة من العام الماضي. لقد مات بالفعل بلحية. وبينما أقول ذلك، شعرت بالسعادة الخالصة. لقد كان الأمر مؤلماً تقريباً، كانت السعادة التي ملأتني قوية

وحادة، كما هو موضح في سفر الرسل، كما تعلمون، في يوم الأحد من عيد الخمسين، عندما يتمكنون من الوعظ فجأة بكل لغات العالم. ما زلت أشعر بالأسف الشديد لأنه لم يعد هناك. لكنني، كنت سعيدة لأنه مات بهذه النصف لحية الفظيعة. كان لأمر جيد أنه قد تحدث".

الجزار، أيضاً، أصبح كالمهتدي حديثاً. من المرة الأولى، يشارك زوجته في الحماس. معاً، تركا أنفسهما يسترشدان بعالم التعزية الجديد.

بالإضافة إلى جلسات مع الأشياء، هناك أيضاً جلسات حول المائدة المستديرة. في كل جلسة، يضع عشرات الأتباع أطراف أصابعهم العشرة على الطاولة. هنا، تصل الرسائل حرفاً بحرف، وهي تأتي مباشرةً من الكيان شخصياً. تتلو ويني الحروف الأبجدية، وفي كل مرة، تنطق بالحرف الصحيح، تقفز الطاولة قفزة مائلة صغيرة ثم تسقط على قدميها مصدرة صوتاً. يمكن في منتصف الكلمة، يتم تخمينها من قبل ويني أو من قبل المتلقي. إذا تم ذكر الكلمة بالضبط، فإن الطاولة ترتفع مرة أخرى بشكل غير مباشر وتعود بالصوت نفسه للتأكيد.

هناك أيضا جلسات الزهور. كل واحد يجلب زهرة، يتم جمعها في إناء يوضع أمام الجمهور، ويصل خلال المساء، عبر ويني، موكب الموتى غير المرئيين الذين يقدمون، مع كلمات التشجيع إلى كل شخص من الجالسين زهرة من تلك التي أحضرها الآخرون، وهكذا، حتى يذهب الجميع إلى منزله وكل منهم معه زهرة. زهرة، بالنسبة للباقي، تبدو طازجة لفترة أطول من المعتاد. عندما سئلت عن ذلك، كانت ويني تبتسم بتواضع. إنها لا تستطيع تأكيد أو إنكار أي شيء، كانت تقول هي ذلك. هذا ببساطة ليس مسئوليتها.

هناك أيضا الجلسات التي تفشل. لا يظهر أي كيان، مما يجعل مزاج ويني أكثر كآبة وأكثر إحباطاً من أتباعها. أو إذا هرج أي من المشاركين، بأنه أعطى خاتم الزواج الخاص به أو محفظة صديقه الذي يحتسي الخمر على طاولة المقهى. تعاقب ويني

بسرعة وصرامة هؤلاء المهرجين. يتم إحراجهم بشدة عندما يتلقون رسالة من موتاهم أو عندما يتم الكشف عن خطوة كاذبة لم يعترفوا بها لأي شخص، فيتم كشف النقاب عنها الآن في ضوء خطأهم. تتجنب ويني ذكر تفاصيل مؤلمة للغاية، لأنه حدث لها ذات يوم أن هددها زائر بالموت. لقد هدأته بطريقة جافة بينما كانت تنظر إليه مباشرة في عينيه ضاحكة: "هل تعتقد أنني خائفة من الموت يا سيدي؟ افعل ما تريد. لكنني سأكون حذرة من بذل الكثير من الجهد. يوجد هنا بجانبي أحد أفراد عائلتك مات بسبب الغضب بنوبة قلبية".

في بعض الأحيان، يوجد هناك بين الجمهور أحد الصحفيين الذي جاء بقصد أن يفضح سرها. ما يحدث هو أنها هي من تفضحه. "سيدي، هناك؟ نعم أنت. مع مفكرتك الصغيرة. يوجد هنا بجانبي كيان يدعي أنك تكتب لصحيفة". إنها لا تتجنب الحديث الصحفي معه، بل على العكس، فهي تخصص نصف جلستها لذلك. "أنا لست عرافة، كانت تجيب بلطف على إصراره المثير للغضب. ليس لدي سوى هدفين يا سيدي. تخليص الروحانية من سمعتها السيئة. وإثبات أن هناك حياة بعد الموت".

لدى الزوجان الجزاران، تحول الحداد الثقيل الذي استمر لعدة أشهر إلى مزيج من النشوة والتبشير. ظهر هذا الأخير خصوصاً لدى الجزارة. بالنسبة له، إنه بالفعل سعيد للغاية لأنه وجد زوجته كما كانت من قبل، ولديه في النهاية المزيد من الفرص لتذكر ابنه، وليس بالوسيلة الوحيدة المتمثلة في هذا الشريط المنهك. هي في المقابل، لن يهدأ لها بال إلا إذا اكتسبت الإنسانية جمعاء هذا الايمان الجديد. لقد توقفت عن التدخين للمرة العاشرة. لكن هذه المرة، الأمر نهائي، تقول هي. إنها لا تريد المزيد من وصمات العار التي تلوث صحيفتها البيضاء.

لم تبالغ ويني عندما زعمت للصحفي أن أحد المحرمات لا يزال يثقل كاهل الروحانية، إنهم يرونها الآن على أجساد المتوفين. توقفت المحادثات فجأة في دائرة المعارف، في المسرح، في المتجر، وخاصة أنها كانت تتغنى بمديح ويني، وتذكر كلمة

تلو الأخرى بنبرة في غاية التحمس من الرسائل التي تلقتها مؤخراً من ابنها الذي كان الأكثر صعوبة في التعامل، والتي كانت تكرر دائماً أنه يشعر بالرضا، وأن والديه هنا يجب ألا يشعرا بالحزن وأن الآخرة ليست على الإطلاق بائسة أو غامضة، على العكس من ذلك، فإن الإقامة ممتعة وسلمية.

لقد تمكنا من وضع هذا الطريق للخلاص في متناول يد بعض الأرواح التي تبحث عن التعزية والواقعة في شرك المحنة كما كانا هما من قبل، وإذا عادت بعض هذه الأرواح إلى الاكتئاب أكثر مما كانت عليه قبل مغادرة منزلهم، هذا لأنه من الواضح أنها لا تستطيع استقبال مثل هذا النور. أما بالنسبة للآخرين، الأصدقاء، العملاء، المسافرين التجاريين وزملاء مسرح الهواة، فإنهم يقدمون رداً على إشارات الثناء الخاصة بهما بالصمت احتراماً للصداقة أو بالصمت للشعور بالانزعاج. في حين أنهما، ينتظران على وجه التحديد التهاني المتحمسة وشهادات الدعم الدافئة. لم يتمكنا بسهولة طرح بطاقات عضوية جمعية ويني، وهي رخيصة، على الرغم من جهود خوسيه فيربيك لإحياء حلمها القديم كمحامية.

وأخيرا، تبادرت إلى ذهنهما رسالة لم تأت من كيان ميت. على العكس من ذلك، فالحكمة الشعبية الحية هي التي ألهمتهما، هذه الحكمة التي ساهمت لقرون في ملاحظة أنه من الجيد أن نعيش بين الأحياء في بلادنا: "كل شخص لديه قناعاته. ونحن لا نتحدث عن ذلك بيننا بعد الآن".

إن تبشيرهما استهدف بحماسة قلب الأسرة، بدءاً من النسل المتبقي. في البداية، تم دعوة ويني في كثير من الأحيان إلى الخروج من الغرفة الصغيرة في حانة جرامات. كانت تظهر في الوجبات العائلية، في حفلات الشواء وفي العروض المسرحية الأولى. كان الزوجان الجزاران الذين يشعرون بالامتنان يمنحاها الثقة العمياء التي خصصاها من قبل لطبيب العائلة الوحيد.

بالإضافة إلى ذلك، تؤسس والدتي تدريجياً مع لودوينا نفس النوع من الارتباط

بين النساء، الودي والحميم، الذي ستعقده لاحقاً، عندما تصاب بفقدان القدرة على الكلام بسبب السكتة الدماغية، مع بعض ممرضاتها في بيفرين. ما عزز هذا الارتباط أيضاً هو أن ويني لم تظهر أي اهتمام بالمال أو الفوائد المادية في أي وقت: إنهما اثنان من رفقاء الروح الممتلئة بالبوهيمية الإبداعية. وعندما يتم تقوية التعلق بينهما، حيث أن الروحانية تتواجد هي الأخرى على المنصة أمام الجمهور. الجانب الفني من الجلسة هو ختم معاهدة الصداقة بينهما. ويني في الوقت نفسه صديقتها، كاتمة سرها، مرشدتها، ملجأها ومخلصتها.

وتقول أن هذا هو بالتحديد السبب في الجرح "كأم لابن ميت"، أن أطفالها الآخرين لم يطلبوا المشاركة في الجلسات مع ويني، حتى أقلها غرابة، جلسات الزهور. حاولت إقناع كل عضو من نسلها بذلك مستخدمة كل ترسانتها من طغيانها الأنثوي. فوفقاً لها، لا يجب علينا أن نتخلى عن أخينا. بابتعادنا بهذا الشكل، فنحن ننكر أنه كان موجودا في أي وقت مضى. لقد كسرناها هي وأملها وقوة الحياة التي استردتها. بسبب خطأنا، فإنها قد تسقط مرة أخرى في الاكتئاب، ومعها يسقط أبونا هو أيضاً. هل هذا ما كنا نريد؟ هل هذه هي مكافأتها؟ هذا كل ما يجب علينا أن نقدمه كتشجيع بعد كارثة بهذا الحجم؟ رافقني ولو حتى لجلسة واحدة، مرة واحدة فقط، هل كانت تطلب الكثير؟ ربما، رجاء التضحية ولو حتى بحضور أمسية واحدة. قم بذلك على الأقل لأمك، إذا لم تتمكن من فعل ذلك لنفسك وأخيك".

كانت ويني نفسها هي التي وضعت حداً لهذا الابتزاز. بمحض الصدفة. أثناء زيارة الكوخ، سمعت والدتي تصرخ بي في المطبخ بصوت محشرج ومن ثم فعلت شيئاً لم أر أي شخص آخر يقوم به. دون أن تعلن عن نفسها، دخلت المطبخ ووبخت أمي. ولم تقاوم أمي ذلك. هكذا. وإن كانت قد برطمت قليلاً. لذلك، فعلت ويني المخلصة أكثر من ذلك. ذكرت والدتي بأن لديها أطفال آخرين لا يزالون على قيد الحياة. ليس فقط الموتى الذين يستحقون السفر مرتين في الأسبوع، قالت هي. وثمة وجهة نظر أخرى للأم مفاداها أن الحياة ليست مصنوعة سوى من الذكريات وومضات من الماضي.

وقد أخذتني أنا كدليل على ذلك.

كنت ما زلت في العشرين من عمري فقط عندما أخذت صديقة العائلة، الوسيطة الروحية، رأسي بكلتا يديها بحضور والدتي. مع لفتة غير متوقعة ولكنها لطيفة للغاية، وضعت يديها على شعري القصير. لم أجرؤ على التحرك. لا أعرف لماذا سمحت لها بذلك. من بعيد، كنت أسمع الكلاب تنبح. في مسافة أقرب، كنت أسمع صوت الشرشور[41] يغرد "تيريلي تيريلي"!

هزت رأسي بلطف، من اليسار إلى اليمين، في حركة كحركة لعبة النحلة، كما لو كانت حوضاً مليئاً بمياه الصحون، كنصف جوز الهند مليء بالحليب الذي يجب تحريكه. كانت أساورها تصنع رنينا خجولا. "يا إلهي"، قالت هي. بعيون مغلقة. على جفونها مكياج صاخب، بنفسجي وأخضر. كان لديها طابع الحسن على خدها. "آه، أهذا الطفل كل ما لدينا، خوسيه! إنه لا يزال بحاجة إليك، بحاجة إلى دعمك. ما هذا الضغط الداخلي، كنت أشعر بيدي وكأنهما في النار! أه، إنه ليس ابناً لأخرى!" ما زالت عيناها مغلقة. "مازال يفاجئك، أليس كذلك؟ ومنذ فترة طويلة. يا إلهي!" لقد سمحت أمي لنفسها بالاسترخاء وقد هدأت قليلاً.

تحول تحفظها إلى بداية فخر.

ببطء شديد، كما يحلو لويني أن تفعل. لقد تركت رأسي وأخذت أمي بيد من الذقن، في لفتة من العتاب اللطيف. ما حدث من ويني، لم أره يحدث من أي شخص آخر من قبل. لقد تحدثت بلهجة حاسمة ولكنها ليست تعليمية. "ما قلته له هنا للتو، لا أحد يستطيع أن يطلب ذلك. من أحد. ليس الكل مستعداً لذلك، لتلقي هذه الرسالة.

41) الحسون الظالم ويسمى أيضاً عصفور ظالم أو الصغنج أو الشرشور (الاسم العلمي: Fringilla coelebs) (بالإنجليزية: Common Chaffinch) هو طائر ينتمي إلى شرشوريات (فصيلة: Fringillidae)، شائع جداً في جميع أنحاء أوروبا والمغرب، ويتواجد في غرب آسيا وشمال غرب أفريقيا وجزر الكناري وجزر ماديرا. وعلى الرغم من أنه شائع في الحدائق والأراضي الزراعية، لكنه يفضل الغابات المفتوحة، وهو يبني أعشاشه في الأشجار ويزينها بحيث تصبح أكثر تمويهاً، ويضع حوالي ستة بيضات. يترك الحسون الظالم المناطق الباردة في فصل الشتاء، حيث تغادر بعض الإناث، ويبقى الكثير من الذكور.

إذا كان عليكي أن تتعلمي شيئاً مني، فهذا هو: تخفيف الضغط، تغاضي عن الأمر. دعي كل شخص يفعل ما يريد. الأشياء هي ما هي عليه".

لم أذهب قط إلى أي جلسة. لكن منذ ذلك اليوم في المطبخ الصغير، عرفت شيئاً واحداً. لقد وجدت الأداة التي من شأنها أن تساعدني على فرض ميولي الجنسية. كان لديها طابع الحسن وتفوح منها رائحة البتشول والزهور الطازجة إلى الأبد.

"تيريلي تيريلي؟".

في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها أمي لزيارة شقتها الخاصة، أحضرت لها اثنين من المسعفين. كنت أنا الذي اتصلت بهما بينما هي لا تدري بما يحدث حولها، في غرفة المعيشة، وهي تعاني من نوبة جديدة مع هذيان وتشنجات لدرجة جعلت اللعاب يسيل على شفتيها. لقد قلبت الكراسي وكسرت طبقاً كان موجوداً على الطاولة. لقد كسرت كوبا أيضاً وانتشرت شظايا الطبق المكسور والكوب في كل الزوايا. كان يمكن أن تؤذي نفسها. كان من المستحيل تهدئتها طالما كان لديها شخص ما في مجال رؤيتها وكانت على وشك أن تسقط أشياءً أخرى. التماثيل. جهاز التلفاز. خزانة الخزف الصغيرة وزجاجها أرجواني اللون. الكأس أمام لوحة رؤساء الزنوج لأختها ماريا الفنانة. كان هناك الكثير من الأشياء التي يمكن أن تتحطم في شقتهما الصغيرة.

أغلقت باب غرفة المعيشة ورائي واتصلت بخدمة الإسعاف من غرفة النوم حيث لجأنا أنا وأبي.

لقد قضت نوبتها الثانية، قبل أسابيع قليلة، على كل التقدم الذي أحرزته وفي الوقت نفسه على كل آمالنا في التعافي. وجدتها الممرضة الليلية بجانب سريرها، على الأرض، تقريبا فاقدة الوعي، يسيل اللعاب على شفتيها، تحرك عينيها، تصدر دمدمة رتيبة. مرة أخرى، دمدمة الذئبة.

يبدو أن الدمار الناجم عن الجلطة الثانية في دماغها قد محا بعض الوظائف مرة أخرى. بعد تعافيها من السقطة الليلة ومن صدمة السكتة الدماغية نفسها، قارن كبير

الأطباء هذا بنوبة صرع، وربما كان ذلك جزءاً منها، فهي لأول مرة في حياتها كانت تعاني من مشكلة في المشي. علقت بشدة على أحضان صديقاتها الممرضات الشابات، والتي لم تتعرف عليهن خلال الأيام الأولى. لم تظهر نظرتها إلا بعد أسبوع، لكن لم يكن من الواضح دائماً ما إذا كانت تعرفت عليك أم لا. كانت إحدى يديها تهتز، بينما كانت الأخرى مشدودة أحياناً مثل المخلب، حتى عندما كانت تمسك بها لتناول مشروب أو حتى لكي تصافحك. لقد تم زيادة الجرعة اليومية من الأدوية.

بعد فترة من الوقت، توقفت يدها اليسرى عن الاهتزاز، وأصبحت يدها اليمنى هي المشدودة كالمخلب وتمكنت من المشي مرة أخرى دون دعم، ولكنها أبداً لم تصل إلى السرعة التي كانت عليها من قبل. لقد فقدت مرة أخرى الكلمات الجديدة التي اكتسبتها بصعوبة بالغة خلال الأشهر السابقة. بصورة نهائية، كما سنرى لاحقاً. الأقارب الذين يظهرون في صور ألبومها أصبحوا مجهولين مرة أخرى. كانت تنظر إليهم بلامبالاة، وحتى إن تم عرض الصور عليها مرات عديدة مع ذكر أسماء الأشخاص. لقد حذرنا الطبيب من ذلك. لقد افترض أنه منذ تلك اللحظة سيأتي المزيد من الجلطات الصغيرة تأتي لتخترق دماغها. في فكري، كنت أرى سهلاً تسقط فيه نيازك، تزرع الخراب، تاركة وراءها صحراء مهجورة مليئة بالحفر الصغيرة. خلال آخر شهر قضيته في بيفيرن، وقبل أن تبدأ في التردد على المؤسسات التي تعالج الحالات الأكثر صعوبة، عرفت بعض لحظات الراحة، كما كانت خلال الأشهر التي كانت بها تكثر من الشراب ومن تناول الأدوية، في فترة حدادها التي لا معنى لها بعد وفاة ابنها الأصعب في التعامل. في إحدى تلك الصباحات المليئة بالأمل والطاقة الجديدة، غادرت غرفتها بعد أن قبلتها على جبينها. كانت في مزاج جيد، وقد قدمت عرضها الكلاسيكي الصغير مقلدة الثلاثة رجال المسنين الجالسين على مقاعد أمام غرفتها وهي تصفق على ظهر يدها. كانت تلوح لي وداعاً على عتبة الباب وفعلت نفس الشيء بعد لحظات قليلة في نافذتها في الطابق الأول ولوحت أنا بذراعي أيضاً قبل دخول سيارتي.

في اليوم نفسه عند الظهر، تلقيت مكالمة هاتفية. هل يمكن أن آتي على الفور إلى بيفرين؟ لقد اعتدت على عاملة نظافة، ثم أغلقت ستائر غرفتها ولم يتمكن أحد من الاقتراب منها، ولا حتى أصدقائها الممرضات. لقد دخلت غرفتها في ضوء خافت وقد أعددت نفسي لما هو أسوأ. ومع ذلك، شعرت بالخوف عندما رأيتها وسمعتها. كانت تجلس على رأس السرير، غير مستندة تماماً على مسند الظهر وتحتضن وسادة على بطنها. كانت تتأرجح بلطف ذهاباً وإياباً في انتظام مستفز. كان وجهها مخيفا أكثر من ذي قبل. يبدو وكأنه قناع يوناني، قناع اليأس. فمها مفتوح على مصراعيه، ويصدر منه أنين ممل، لا تبكي، وعيناها مثبتتان، ترى فيهما الإنهاك بوضوح. مع التجاعيد العميقة لوجهها، والتي لا تزال معززة بظلال الستائر، وبعيونها المنتفخة وشعرها الفوضوي، فإنها تذكرنا بصور الأمس: هي نفسها في دور القاضية في المسرحية الطليعية الحكم. لكن هنا المسألة ليست مسرحية. إن ما تجسده هنا، دون الرغبة في إظهاره أو تفسيره، هو القاع النهائي لحياة، لنهاية قدر. ربما هي فقط الآن فهمت تماماً ما حدث لها. لا أعرف ما الذي تنظر إليه أو ما الذي تفكر فيه. إنها تعطي الانطباع بأنها لا يمكن المساس بها. كان العرض لا يطاق، ولكني لا أجرؤ على الحركة. بقيت متحجراً لمدة عشر دقائق، ربما خمس عشرة. أخيراً، توجهت إليها وأخذتها بين ذراعي. إنها لم تتعرف على الإيماءة أو أن ذلك لم يؤثر بها. إنها لم تغير من وضعها أو من حركتها. لا يزال فمها مفتوحا على مصراعيه مثل فم القناع مستمراً في إطلاق أنينه الممل، كأنني لست هنا.

لم تعد إلى شقتها بعد اليوم الذي أخذتها فيه. لم يكن هذا بسبب قلة المحاولات. يبدو أن عنادها الشجاع يزداد كلما زاد انهيارها. في مرة، تغلب الخوف على موظفي بيفرين. لم يتم العثور عليها. ليس في غرفتها، وليست في صالة الألعاب الرياضية، وليست في الكنيسة حيث كانت تجلس في بعض الأحيان في صمت وهي تحدق في شيء ما. لم يتم العثور عليها حتى اللحظة التي انتبه فيها شخص ما أن في الطابق الثاني هناك نافذة مفتوحة تطل على سطح مستو. نعم، كانت هناك، لا تشعر بالانزعاج

من الدوار أو الطقس البارد. كانت تمشي بطول السطح، وكانت تنظر إلى الأسفل بلا خوف وبصورة واضحة تستعد للنزول من خلال التشبث في ماسورة الصرف. تمكنوا من إيقافها في الوقت المناسب وإعادتها إلى الداخل. لم تعترض. تركتهم يضعونها في الفراش وأكلت حساءها كما لو لم يحدث شيء.

مرة أخرى، عند الغسق، طرقنا باب الشقة الصغيرة في سانت نيكولاس. كان أبي وحيداً، وكان يلتهم الوجبة التي اشتراها من المطعم الصيني الجديد في الزاوية، نظر إلى ساعته مندهشاً، وفتح الباب الذي يؤدي إلى الشرفة على جانب الشارع وكان خائفاً حتى الموت. كانت هناك بالأسفل، تنظر إليه بعينيها الميتة، وبجوارها يقف ضابطا شرطة بالقرب من شاحنتهما التي تعطل محركها. في بيفرين، تمكنت من التسلل إلى الخارج عبر المدخل الذي كان محروساً على الرغم من ذلك، في معطفها الصغير بياقته المصنوعة من فرو الثعلب، مرتدية قبعتها الصغيرة والبسيطة، ولكنها كانت تعرج في حذائها الرياضي. لا أحد يعرف كم من الوقت كانت تتجول. ما حدث هو أنها على بعد أكثر من خمسمائة ياردة، في الميدان الكبير، اقتربت عبثاً من المارة بلهجتها الجهنمية، وفي حالة من اليأس، افترشت الأرض، وسط الميدان، ناظرة حولها، تتثائب، متشردة وسط صخب الليل، فشلت في التمرد والحصول على مكان، في ساحة مليئة بالغرباء. أبلغ أحد المارة المتعاطفين معها الشرطة، وهرع أحد الضباط للبحث عن محفظتها في حقيبتها وبداخلها، وجد عنوانها الرسمي.

أتصل بي والدي، لا يعرف ماذا يفعل، خائفاً وشاعراً بالذنب. نصحته بأن يشرح الموقف للشرطيين وأن يطلب منهما أن يعيدوها إلى المؤسسة. ليس من المنطقي أن تبقى في المنزل كما يقترح؛ وحده، لا يستطيع السيطرة عليها كما أنها تحتاج إلى تناول أدويتها. إذا كانت تريد حقاً العودة إلى المنزل مرة أو أخرى، فسنقوم بذلك لاحقاً، قلت أنا، ولكن ليس الآن. لاحقاً! عند إغلاق الخط، كان كلانا يعرف أن "لاحقاً" هذا لن يأتي أبداً.

بعد خمس دقائق، أتصل به باكياً. لطمأنتي، قال لي. لقد تركتهم يدخلونها دون أي تذمر إلى سيارة الشرطة التي سترافقها حتى المؤسسة. صعد أحد الشرطيين على السلالم لمنحه المال الذي كانت تملكه في محفظتها. "ليس الأمر آمنا يا سيدي، في حالة خروج زوجتك مرة أخرى إلى الشارع، وهي في هذه الحالة".

اليوم الذي اضطررت لإخراجها من شقتهما لم يكن بهذا السوء. نسخة شاحبة من أول خروج لها، ولكن نسخة على أي حال. باستثناء ذلك، فإنها بعد دخولها، لم تقو على صعود الدرج بمفردها، وإنما صعدته بشكل مؤلم بمساعدتي أنا وأبي، أنا كنت أدفعها من الخلف وأبي كان يسحبها من يدها باتجاه الأعلى. عندما وصلت إلى الأعلى، لم تسرع محمومة للقيام بالأعمال المنزلية. لقد أخذت تنظر حولها بعين منهكة، أو مشوشة إلى حد ما. لقد اختفت السعادة المصطنعة التي ظننت أنني رأيتها أثناء الرحلة بالسيارة. مستاءة، خلعت معطفها، وتركته يسقط على الأرض ثم ذهبت إلى المطبخ. بدأت في إفراغ الثلاجة، بينما كان أبي يعلق معطفها. وضعت على الحوض كل ما وجدته في الثلاجة. ثم نظرت حولها، متأملة، وفتحت الخزانة الموجودة في المطبخ ووجدت بها سلة الخبز وبها كيس خبز نصف فارغ. فتحت الكيس، وتناولت كسرة من الخبز، تذوقتها وتجهمت. مع لفتة اتهام تظهر لأبي الكيس الورقي المفتوح، جسم الجريمة بسبب إهماله، وكانت قد بدأت في إطلاق مصطلحاتها الجهنمية، وقد استنتجنا من ذلك، أنها وجدت الخبز غير طازج.

ومع ذلك، بخطوة بطيئة، حملت هذا الخبز إلى الطاولة، وأومأت برأسها. ثم بدأت بإعداد المائدة، وأكلنا نحن الثلاثة سوياً، قبل مغادرتي أنا وأبي من هنا وقبل مغادرة أمي إلى بيفيرن. وقد تركناها تفعل ذلك. وبالمثل عندما ذهبت لأخذ ثلاثة أكواب من الكريستال في الخزانة الخزفية الصغيرة. وبالمثل عندما نقلت إلى الطاولة كل شيء أخرجته من الثلاجة. كلفها ذلك عدة مرات من الذهاب والمجيء وكانت تفعل ذلك بشكل مؤلم، عندما تظاهرت أنا وأبي برغبتنا في المساعدة، لم تسمح لنا، وقامت بإطلاق وصلتها الثانية من لغتها التي ليست لغة، وكان ذلك أعلى وأعنف من

أي وقت مضى. بصوت كالنباح، تأمرنا بالجلوس على الطاولة، من الواضح أننا يجب أن ننتظر حتى تحضر كل الأطعمة والمشروبات المحفوظة. يستغرق هذا بعض الوقت. وقد تركناها تفعل ذلك.

في النهاية، أصبحت جاهزة وعامرة بكل شيء. إنها تضع آخر جرة مربى بجانب سلة الخبز، وتتأمل ساحة المعركة وتتناول هذه الجرة الصغيرة الأخيرة بين يديها. رفعت الغطاء ووضعته على الطاولة بجانب الجرة. ثم فعلت الشيء نفسه مع جرة الشيكولاتة القابلة للدهن. ثم مع جرة القهوة القابلة للذوبان. وهكذا، حتى تم فتح جميع الجرار، الحقائب والعلب، صناديق الحديد والكرتون، ورق التغليف والزجاجات الصغيرة. تركناها تتصرف. كانت الطبيعة الميتة المتوحشة والمثقلة بالأعباء تطل على طاولتنا. بين الطعام والجرار الصغيرة، مازال هناك بعضاً من نباتاتها وتحفها.

ثم أتت اللحظة التي انتهى فيها هذا النشاط المهووس بفتح الحاويات. خيم الصمت بعد ذلك. كانت لا تزال واقفة، ونحن جالسان. كنت أنا وأبي ننظر من أعلى إلى ساحة المعركة. كنت أراه يهز كتفيه. لا نعرف ماذا ينتظرنا. ينظر إليها، يدير عينيه إلي ثم ينظر أمامه إلى السلة التي تحتوي على الخبز غير الطازج. ترتفع يده تلقائياً تقريباً لأخذ شريحة من الخبز. بما أننا هنا، أمام المائدة المعدة؟ وبما أن كل الأشياء التي يمكنك وضعها على شريحة الخبز موجودة هناك؟ في اللحظة التي تمس فيها يده الخبز، أطلق العنان للجحيم.

في انفجار جديد لصفيرها اللفظي الذي لا معنى له، طوت نصف طبيعتها الميتة وألقتها على الأرض. انتزعت شريحة الخبز من أبي، المذهول. انقسمت الشريحة إلى نصفين، ولم يتبق في يده سوى القشرة. بينما تستمر في التجول، رمت بقية الشريحة على الأرض، وداستها ثم بدأت في التشدق. بسهولة مدهشة، قلبت الكراسي واحداً تلو الآخر. ظللنا جالسين، متحجرين أمام العرض ومازال أبي يحتفظ بقشرة الخبز في يده.

الآن، هي تمسك بطبقي أمام أنفي، وقد رفعته عالياً فوق رأسي، وهي لا تزال تتحدث بلغتها المضادة، ثم كسرته على طبق أبي الفارغ.

تطايرت شظايا الطبقين المكسورين، تحطم أحد الكؤوس الكريستال أيضاً، انقلبت علبة اللبن المفتوحة على بعض الزجاجات الصغيرة، انتشر اللبن والبيرة على الذي تبقى من هذه الطبيعة الميتة.

بينما، خلف ظهورنا، يستمر الإعصار يزأر، أخرجت أبي من غرفة المذبحة. لقد سمح لي بحمايته، كما هو الحال دائماً.

كانت هي نفسها قادرة على انتقاده مباشرة أمام الجميع، ولكن إذا تجرأ أحد على قول كلمة مهينة أو كلمة قاسية لرجلها، فهي تهرع لإنقاذه دون أي تحفظ.

خلال السنوات الأولى من زواجهما، حاول مواصلة ممارسة هوايته، كرة الماء. لم يكن الأمر سهلاً، مع المتجر وإنجاب طفلين بالفعل. في السوق، أصيب بعدوى خطيرة في الأذن، وكان يجب ثقب طبلة الأذن للسماح بتدفق القيح. أصبح نصف أصم مع ألم حاد في هذا الجانب أثناء السباحة وخاصة في وقت الغطس.

خلال مباراة ودية، بعد هذه العملية بفترة وجيزة، شعر الفريق بالإزعاج والسخرية من لاعب من الدرجة العليا. حتى الجمهور انتهى الأمر به بالغضب من هذه المعركة غير المتكافئة بين فريقين من الهواة، خلال يوم الاحتفال، الذي لم يكن مخصصاً للمباراة، وإنما لليانصيب. لكن اللاعب النجم المتعجرف استمر في تسجيل هدف بعد هدف. لذا، بصفته أفضل مدافع، فإن والدي كان المسؤول عن القضاء عليه. لقد قام بمهمته بشكل جيد إلى حد ما، لأن الفضول لم يكن عيبه الوحيد، ولكن لأنه لم يعلمه أحد كيف لا يهتم بالعالم وكيف يراوغ بالحيل الصغيرة. ومن ثم، التصق بالرجل الآخر ولم يترك له شبراً واحداً. كان يلعب في درجة أقل منه، لكنه كان يعرف كل شيء عن العرقلة. بدفعة من الكوع على الكتف، وضع رأس المهاجم تحت الماء في اللحظة نفسها التي وصلت إليه الكرة. وقد قام بشد نصف لباس السباحة الخاص به تحت الماء. فوق الماء، أدلى بتصريحات ساخرة بشأن خطيبته ووالدته، مخترعاً قصصاً

على ما يبدو أنه قد جمعها كلها من قيل وقال العملاء. باختصار، لم يسجل الرجل أي هدف بعد ذلك.

لكن عندما غادر والدي غرفة تغيير الملابس، بعد انتهاء المباراة، كان الرجل في انتظاره وتلقى قبضة غير متوقعة في منتصف وجهه. شعر بالألم يسري حتى أذنه التي أجرى بها العملية. تدفق الدم من أنفه وشفته المشقوقة، انتشر على البلاط الأزرق المخطط في حمام السباحة، وامتزج بالماء المكلور.

قبل أن يتمكن الخصم من الضرب للمرة الثانية، خرجت هي من لا مكان وبدأت بمهاجمته. مع حذاء في اليد، حذاء بكعب حديدي مدبب. ضربته بشكل مباشر على الجمجمة. لن يكون زوجها هو الوحيد الذي ينزف اليوم. لقد ضربت مرة أخرى على أذن الرجل. إذا أعطيت الفرصة للضرب مرة ثالثة، فإن الرجل كان سيفقد عينه. كان يمكن للرجل أن يدافع عن نفسه ولكنه هم بالهروب. كان علينا أن نهرع ونمسك بها، وإلا لكانت قتلته بحذائها.

بعد فترة وجيزة، تخلى أبي عن موهبته. "لم تكن هناك طريقة لدمج ذلك مع المتجر. ثم هذا الوجع في الأذن. وأراد الخصوم دائماً أن يعرفوا مقدماً ما إذا كانت والدتك سترافقني أم لا. قالوا إنه في هذه الحالة، سيرتدون خوذاتهم".

لم يطرق المسعفين الباب بعد، اتصلت بهما مرة أخرى على الهاتف. أرسلا لي رسالة نصية يخبرونني فيها بأنهما قد وصلا، نزلت لأفتح الباب. والدتي في غرفة المعيشة صامتة مرة أخرى، وقد توسلت لأبي كثيرا حتى يبقى في الغرفة. لقد أردت أن أجنبه كل ما قد يحدث.

"هل تعرف الشروط؟"، تسائل أحد المسعفين. كان هو المتحدث الرسمي. اكتفى الآخر بالملاحظة بشكل فضولي، وكان يمضغ علكة بطعم النعناع، إذا كنت استطعت أن أخمن بشكل صحيح من خلال الرائحة. كان كل منهما يرتدي السترات الواقية من الفلورسنت الصغيرة. كانت شركة خاصة، لأن سيارات الإسعاف في المستشفيات يوم

السبت لا تتعامل إلا مع النقل داخل المدينة وليس بين التجمعات السكنية. هذا ما جعل اختصاصهم في حالات تبدو مماثلة لحالتي مثل الصدمات المتواصلة. كنا نقف نحن الثلاثة في الممر الصغير أمام غرفة المعيشة. كنا نتحدث بصوت منخفض.

"نحن لا نتحمل أي مسؤولية تجاه سلوك المرضى، وهذا منصوص عليه هنا، في هذه الورقة التي تعد في الوقت نفسه إيصالك، إذا أردت التوقيع؟" كان المسعف ماضغ العلكة يقرأ من فوق كتفي، فقد أراد التحقق من أنني سوف أوقع في المكان الصحيح. "شكراً. إن هذا سيكلفك مائتين وخمسين يورو".

دفعت المبلغ كاملا إلى كبير المسعفين. الأوراق كانت موجودة، بلا شك في راحة يده. لقد دفعت لطرد أمي من مسكنها الخاص. سألت: "لا يمكن أن يحدث مكروه لها؟" أسمع نفسي أتحدث وكأنني أبحث عن نوع من أنواع الحماية. ضد الخزي. ضد اليأس. "سيدي، ابتسم ماضغ العلكة، نحن محترفان. إذا كنت تعرف كل الحالات التي تقع علينا". "لا تقلق، قال الآخر، سيتم تسوية الأمر في أقل من ساعتين. لسوء الحظ لا يمكننا استخدام نقالة، يمكننا تقييد والدتك، ولكن هذا الدرج كارثة حقيقية".

"لكن، كيف ستسويان الأمر؟" أردت أن أعرف ذلك. في الوقت نفسه، كنت لا أريد أن أعرف شيئاً على الاطلاق.

دخلنا، وقبل أن تفيق من صدمة رؤية غريبين أمامها، حملناها أنا من الكتفين وهو من الساقين، ونزلنا على الدرج بأقصى سرعة. الباب في الأسفل كان مفتوحاً، وباب سيارة الإسعاف أيضاً. بمجرد وجودها في سيارة الإسعاف، أصبحت هادئة مرة أخرى. بيئة مختلفة تماماً، مع الأجهزة وكل ذلك. بالإضافة إلى حقيقة أنهما أدركا أن كل شيء قد مر. كل شيء وفي دقيقة. نصف دقيقة أخرى، إذا لم يكن هناك أي مضاعفات".

"شكرا جزيلا"، قلت أنا ذلك كأنني لابد أن أشكر على شيء ما. "ولكن، هل يمكن أن تنتظرا لحظة أخرى؟ أود أن أكون بجانب والدي عندما تفعلا ذلك. لا أريده أن يخرج في الردهة ويرى ذلك. لا أريده أن يأخذ هذا كصورة أخيرة لها هنا".

لقد أكدا أنهما يتفهمان. تصافحنا لكي نرحل. ثم، من خلال باب الممر الصغير، دخلت مباشرة إلى الغرفة. قبل إغلاق الباب، في نصف الباب الموارب، ألقيت نظرة أخيرة على الثنائي. كانا كلاهما يرفعان الإبهام.

"ماذا حدث؟"، كان أبي يقول ورائي. هل رحلت؟ هل لا يزال بإمكاننا فعل شيء؟".

أغلقت الباب وأخبرته بالحقيقة. لا تزال هناك حاجة إلى بضع دقائق من الصبر. كل شيء حدث بسرعة كبيرة. كان هذا أفضل لها، وله وللجميع. أومأ برأسه في صمت. صمتنا سوياً وكنا نجلس على حافة السرير. استمر الانتظار قليلاً. الانتظار، وماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك؟ فجأة، سمعت، وكنت متفاجئاً بعض الشيء، الباب يفتح فجأة. كان هناك تتابع لأصوات مختلفة، اشتباكات في غرفة المعيشة، اشتباكات في الممر، ثم على الدرج. وهنا، فجأة، متضخماً من خلال الصدى على الدرج، صوتها يتردد صداه للمرة الأخيرة في منزلها. وبشكل غير متوقع، وجدت كلمة. كانت تصيح بها بأعلى صوت، في عواء متقطع. اسم روجيه. كانت تصرخ باسمه بكل قوتها.

"لم أسمع شيئا"، قال أبي عابسا، موجها إلى الباب أفضل أذن في أذنيه المريضة والمزودة بسماعة طبية.

"هذا غير ممكن يا أبي، قلت له. لقد غادروا المنزل بالفعل".

كان علي الانتظار في خطواتي المجيدة في منتصف الثمانينات حتى أضع التصور النهائي لميولي الجنسية وأكون مستعدا لذلك تماماً. مع الحنين الفوري والذي استمر، انتقلت من غنت إلى أنتويرب، حتى أستغرق وقتاً أقل في السفر في هولندا، التي أستقر فيها في بعض الأحيان. أخيراً، بعد سنوات من المودة المخلصة والأوهام المتبادلة، وانفصلت عن المرأة التي كنت أحبها وتحبني بالرغم من هذا ولكن كان ذلك حباً مزيفاً من وجهة نظري. وفي أنتويرب، التي كانت تتمتع في النهاية بمزايا أكثر من مجرد القرب من روزندال والحدود الهولندية، وجدت الحب المناسب مع شعر في الصدر وشعر في الذقن.

كان حداد والدي على ابنهما الأصعب في التعامل قد أصبح أمراً معتاداً، وعلى الرغم من هذا لم يختف نهائياً. "هذا الحزن لن يزول أبداً"، (يظهر لديه على الأقل مرة في الشهر). الأسهل لنا من انتظار انتهاء حالة الحداد، هو أن نطلب من المحيط أن يختفي. تحول حماسهما التبشيري إلى تحفظ صامت. كنا عندما نتحدث معهما فقط عن الجلسات، كنا نحصل على إجابات موجزة. من وقت لآخر فقط، تحكى أن كياناً جديداً قد ظهر، عمها، معلمة، مرة واحدة، ظهرت أمها التى فقدتها وهي صغيرة جداً. لكن قصصها لم تعد فقط سوى دفاعات ضعيفة. إنها تبدو الآن مثل التفسيرات المتعرجة للأحلام التي تحكيها لنا على مائدة الإفطار، والتي لم تنته إلا بعد ظهور الكيانات الأولى في حانة جرانمات. واصل نصف المدينة الزيارة لها في نومها.

كان "توقيتي" رمزياً بقدر ما كان مدروساً. في خلال أسبوعين، سيتقاضيان معاشهما. يجب عليهما تفريغ المتجر ونقله إلى المشتري، وفي الوقت نفسه، ينتقلان إلى الشقة الصغيرة، طابق واحد أعلى. سوف تبدأ مرحلة جديدة من حياتهما؟ كان هذا الوقت الذي ينظران فيه لابنهما الصغير بنظرة جديدة. وهذا الانتقال المزدوج سيمنحهما وقتاً كبيراً ليفعلا ما يشاءان بما في ذلك هضم النظرة الجديدة. الانشغال هو أفضل علاج.

يوماً ما صار الكوخ الصغير هو الديكور، كان ذلك في أحد أيام شهر يونيو وكانت الشمس مشرقة. المناسبة: حفل شواء. كانت المسئولة عن كل الإجراءات في ذلك اليوم: ويني الدبة، المعروفة أيضا بويني مانديلا، لودوينا في السجل المدني. على مر السنين، أصبحت أكثر وأكثر صديقتهما ومستشارتهما أكثر من أن تكون وسيطتهما الروحية المثيرة للإعجاب في لقاءاتهم الأولى. لقد أصبحت مألوفة في المنزل لتقاسم أسرار عائلتنا الأكثر حميمية، لكنها لا تزال غريبة جداً ومخيفة حتى نرتكب الأخطاء أمامها، يلوم أحدنا الآخر أو تحدث مشاجرة في وجودها. حكمي المثالي على أرض وعرة. خاصة وأني علمتها واطلعت عليها من قبل. عندما نحيك مؤامرة، يجب أن نفعل ذلك بشكل صحيح. والوسائل كلها كانت موجودة في إدارة الحرب العائلية.

تم إعداد حفل الشواء كالمعتاد تحت القيادة العليا للدجاجة الأم. شارك الجميع، بما في ذلك الضيوف. تقطيع البصل، غسل وتجفيف الخضار، تقطيع الطماطم، تقليب المايونيز مع صفار البيض، الخردل وكمية كبيرة من الزيت النقي، تحضير صوص الكوكتيل عن طريق سكب كمية كبيرة من الويسكي، لف البطاطا غير المقشرة بالرقائق، وضع قطع لحم العجل والفلفل على الأسياخ الخشبية، وضع التوابل على جانبي الخروف، وخز نقانق لحم الخنزير مع إبرة ثم محاولة غريبة لشوائها! دهن قطع السلمون بطبقة رقيقة من شحم الخنزير المدخن، وخلال هذا الوقت، يتم إعداد المائدة، وعمل الجمر من قوالب الفحم وأخيراً فتح بضعة كيلوغرامات من بلح البحر بسكين المحار، دون أن يسقط العصير ووضع طبقة من الزبدة في كل قوقعة وبعض من الأعشاب على الرخويات الصغيرة، لتقديم أفضل الوجبات الخفيفة للمتعة في الهواء الطلق: طبق بلح البحر اللذيذ المطهو على طريقة طهي الحلزون. ستكون هذه الرخويات هي الأولى التي يتم وضعها على الشواية، برائحتها الذكية وهي ترتعش في قوقعتها، معلنة بداية كل الطعام الشهي الذي سيسري في الفم، ولكن لا يجب علينا أن ننسى أنه لا يزال هناك حلوى،"كعكة الأرز باللبن" بالسكر البني، وكعكة التفاح محلية الصنع.

تم تنظيم مأدبة الربيع حول طاولة لاثنى عشر ضيفاً على الأقل، تم زرعها في وسط حديقتنا بعد أن تخلصنا أخيراً من الفئران. وتتألف هذه الطاولة من طاولات أصغر من مختلف الأنماط والأحجام والأصول. كانت إحداها هدية تم استلامها عند إغلاق مقهى ويفينا، وكانت أخرى كائناً لقيطاً لم يكن أحد يريده في ميراث عمة، وكانت الثالثة مكافأة تم الحصول عليها من صالة مزادات أنتويرب عند شراء حامل المظلة. لقد فشلت الطاولات الثلاثة جميعها في الاندماج في التدفق العادي لشتات الأشياء. طوال فصل الشتاء كانت مكدسات في فوضى في سقيفة صغيرة، ولكن مع أول شعاع من الشمس تم جرها إلى الخارج ووضعها في خط مستقيم إلى حد ما على العشب، كمذبح ممدد ولكنه غير صالح. كل هذا كان محمي من جانب تحت شجرة

الكرز اليابانية، ومن الجانب الآخر، بمظلة بلاستيكية لونها أحمر زاهي، بمقبضها الأبيض وقاعدتها الخرسانية، والتي كانت تنتظر الضيوف الذين يريدون الحماية من الشمس. على جانبي هذه الطاولة المركبة، مجموعة مذهلة من الكراسي المختلفة، من الخشب، من البلاستيك، من الخوص أو من المعدن، عندما نضع وسادة على المقعد، لن يشعر أحد بالفارق. كانت المجموعة كلها عبارة عن قصيدة غنائية ارتجالية يتم عرضها بشكل عشوائي في وسط الطبيعة. ربما شاهدت القصيدة الغنائية هنا مسرحا في الهواء الطلق دون ممثلين، دون تجهيزات فنية ودون ترجمة.

تم دمج الطاولات الصغيرة لتشكيل طاولة واحدة كبيرة بواسطة لوحات على ثلاثة مستويات تم وضعها بالطول والمدعومة بالكتل الفرعية في المواقع الإستراتيجية، لتعويض الاختلافات في ارتفاع الطاولات غير المتطابقة. على هذه الألواح وضع بعد ذلك اثنان من مفارش المائدة، مختلفين تماماً في الألوان والنقوش، مربعات حمراء وبيضاء صغيرة وزهور زرقاء أو صفراء جنباً إلى جنب، أي شيء، لا يهم. في الوسط، حيث يتدخل المفرشين، تم وضع دلو الثلج وكان ممتلئا بشكل جيد، أما أطراف المفارش فقد تم الحفاظ عليها من هبوب الرياح بمشابك براقة أو بالأشكال الفنية الصغيرة التي يتم تعليقها: السلاحف الصغيرة التي تتأرجح أو الديوك الصغيرة المعلقة في قطن مفرش المائدة بواسطة مناقيرها المزودة بملاقط خشنة مزينة بالدانتيل. لا يزال لدينا الأطباق، أدوات المائدة والصحون، وتبدأ مأدبتنا.

إن أولئك الذين يأتون من الخارج إلى بلادنا للتفاوض على العقود التجارية أو لمناقشة الاتفاقيات الدولية لم يتوهموا قط. فالمحادثات الملموسة، والاتفاقيات الحيوية، ونيران العرض والطلب، كل هذا يمكن أن ينتظر حتى الحلوى، أو حتى بعد ذلك. لا تدع أعمال رأس المال تدمر وجبة جيدة، هذه هي قاعدتنا. يمثل المستويات العليا من سلمنا الاجتماعي ممثلون مثاليون لكيفية حدوث ذلك في جميع المستويات الدنيا والحميمة. الأكل أولا ثم نشرة الأخبار.

هذه هي الحالة التي تصدم الناس الملتزمة، شديدي التدين والذين يسيرون على خط مستقيم. ولكن الذي يسير على خط مستقيم، يصطدم أكثر منا في لغم أو في رصيف يظهر هكذا فجأة من وسط الضباب. في الحقيقة، من وجهة نظري، لا يعد السير في الخط المتعرج دائماً مضيعة للوقت، وفي بعض الأحيان، وقد يبدو هذا غريباً، فإنه يقدم أقصر الطرق. ها هو ديننا ونحن نؤمن به إيمان المتعصبين. يخلق الأكل والشرب معًا رباطاً من الثقة وجواً من المنطق، إن تم حتى احتساء الشرب بكثرة. بمجرد أن يمررون لبعضهم البعض الملح أو الفلفل أو يقدمون لبعضهم البعض حساء الطماطم والبطاطس المهروسة، حتى ألد الأعداء يدركون حدودهم الخاصة والمساواة التي تسود بينهم، إن لم يكن كمفاوضين، على الأقل كبشر. في النشاط المشترك لأولئك الذين يمضغون الطعام الطازج معاً، هناك شيء ما يشبه الحزن يدفع بهم إلى التواضع. وأخيراً، يتم التوصل إلى الحل الوسط بمنتهى السهولة مع معدة ممتلئة وكأس من الكونياك في اليد.

قد تبدو الصورة وكأنها مخادعة، ولكن في الجوهر، يبدو العشاء معاً وكأنه ممارسة فكرية خالصة. وبالتالي أيضا أفضل إعداد ممكن للمواجهة التي يمكن أن تكون شرسة.

(في المكان الذي نشأت فيه، كان يعيش رجل مثلي وكان ذلك معروفا بشكل رسمي. لم يكن يعيش في محيط قريتنا الصغيرة في المدينة. وإنما كان يسكن في الخارج مباشرة، في الدور الذي يعلو المقهى الذي يمتلكه في شارع أنكرا، والذي كانت تحمل لافتته باللغة الفرنسية: في منزل وليام. يرتبط الفسق واللغة الفرنسية ارتباطاً وثيقاً مثل الشذوذ الجنسي في المقاطعات وحفلات التنكر.

كانت حفلته التنكرية، والتي تقام في السبت الأول والأخير من كل شهر، سلعة فريدة من نوعها في المنطقة بأسرها. كان يقدم عرضاً مسرحياً، يرتدي ثياباً باهظة الثمن، كان ينفق من أجلها كل ما تكسبه مؤسسته، ناهيك عن أنه كان عليه اقتراض

ثروة لدفع تكاليف التجهيزات. مرايا ملونة، كرات الديسكو وأضواء براقة، كل هذا ليس مجانياً. من ناحية أخرى، كان لدينا جودي غارلند[42]، ذي سينغينغ نون[43] وماي ويست[44] في وسط كل هذا. يقلد كل هؤلاء بسرعة، ولكن كانت فقرته الأكثر نجاحاً هي الفقرة التي يقلد بها داليدا [45] ثم فيما بعد أماندا لير [46]، وهما مغنيتان كان يدعي بلا توقف بأنهما كانتا في الواقع رجلين تحولا جنسياً. كان يقول وهو يغمز بعينه: "لدي مصادري". كان يقول كل شيء مع غمزة من عينه ويميل برأسه إلى الأسفل. عندما كان يصمت، كان فمه يشبه منقار البطة، كما لو كان يمتص ليموناً وهمياً. كان لديه أنف كبير وفم كبير. "ولكن ليس كل شيء يستحق مني غمزة كبيرة من عيني!".

لسنوات، كرهته من كل قلبي. لقد عبر شبابي كصورة لخطيئة مميتة. حتى الشفقة التي كنت أشعر بها تجاهه كانت تصيبني بالغثيان. تجاهه وتجاه نفسي.

كل يوم سبت، عندما كان يقدم عرضه، يكون مقهاه في حالة سكر تام، وممتلىء بأزواج بدناء من الطبقة المتوسطة والذين جاءوا لقضاء أمسية خاصة وصاخبة يشعرون بها بمنتهى الحرية، كل هذا مقابل سعر زهيد وفي مقهى يذكرك بمقاهى باريس. في كل مرة، خلال العرض، يكون هناك رب الأسرة، الذي كان في وسط فرح حاشيته لما سيقوم به، يبدل ثيابه في الحمام بالملابس النسائية التي كان يخفيها عند دخوله، أو يبقي على ملابسه كرجل، ويبدأ في إزعاج وليام في عرضه، عن طريق حثه بصوت صاخب عنيد على الرقص معه، أو إظهار ثدييه أو حتى إظهار عضوه الأنثوي. يواصل وليام تقديم عرضه. مرة واحدة فقط، أعطى هذا الشخص الذي يتحداه بلكمة من قبضته الممتلئة بالخواتم الكبيرة. لقد أصاب هذا الشخص في فكه، حيث لم يكن

42) مغنية أمريكية.

43) مطرب بلجيكي.

44) ممثلة أمريكية.

45) مطربة مصرية من أصل إيطالي.

46) مطربة فرنسية؟

أمامه سوى ذلك للتعبير عن انزعاجه، علاوة على ذلك كان هذا الشخص يرتدي زى مهرج وكان قصيراً للغاية.

في الحياة اليومية، كان وليام صاحب كلب وصاحب ماضٍ مظلم. عن الأول، كان يتحدث بصوت عالٍ وبكل حماس، عن الثاني، لم يتحدث مطلقاً. في أول محاولة انتحار له، شرب زجاجة من الأمونيا ولكنه بقي على قيد الحياة. لقد كان مضطراً لغلق مقهاه. حتى عرضه لم يعد ينجح كما كان من قبل. لقد نجحت محاولته الثانية للانتحار. لقد شرب زجاجة جديدة من الأمونيا، تم خلطها هذه المرة مع الحبوب ومع منظف للمجاري. في جنازته، وفقاً لرغبته الأخيرة، تم لعب أغاني ماريا دي كاليس، مطربة الأوبرا المشهورة.

(يبدو أن جميع الموتى في وازلاند قد شهدوا موتاً رهيباً، باستثناء والدي المحبوب: "في المؤخرة! هو هو هو!" ما كان لافتاً، على الرغم من الحقائق المرعبة، كان طابع رباطة الجأش هو الذي علق فيه الجميع في نهاية حياتهم. كنت طالباً بالفعل، لكنني كنت أعود بكل إخلاص إلى المنزل كل ليلة جمعة للمساعدة في المتجر في اليوم التالي، وهو يوم الذروة الدائم، وكان هذا يتيح لنا تناول وجبة العشاء سوياً على الأقل، وأحياناً تناول وجبة الإفطار بمنتهى الهدوء صباح يوم الأحد وبدردشة بيننا نحن الثلاثة. في معظم الوقت، كنت أستمع بحيرة إلى والدي، اللذان كانا يشكلان ثنائياً وهما يتحدثان عن كافة أحوال الأماكن في مدينتهما بل في العالم كله. "هل تعرف من مات؟" (تقول هي ذلك، وهي تقضم عظمة دجاجة، وكان هو يلتهم بكل شراهة كعكة الزبدة المغطاة بشريحة من الجبن). بائع الدجاج لدينا. أنت تعرفه، أليس كذلك؟ بقبعته. كانت رائحته الكريهة تفوح في كل الاتجاهات. حيوانات قذرة، الدجاج والديك الرومي. في النهاية، تقاعد الرجل وسلم كل أعماله إلى أبنائه وبعد أسبوع، استيقظ: "ولكن ماذا لدي هنا؟ بقعة سوداء فوق ظفر إصبع قدمي الكبير". بعد أسبوع، كانت قدمه بالكامل سوداء وتنشر رائحة كريهة أسوأ من جميع دجاجاته معاً. بعد أسبوع واحد تم قطع ساقه، وفي الأسبوع التالي تم قطع ساقه الأخرى وبعد

أسبوع آخر، اختنق أثناء نومه. كان لا يزال محظوظاً. كان يمكن أن يكون ذلك أطول بكثير".

أو، "هل تعرف من مات؟ ويلي فيربريت، يا له من ولد مسكين. لقد مر عام منذ أن كان في السرير في شقته آرت ديكو[47] في شارع شومين دو فير، مع التقرحات وكل شيء. أصيب نصف وجهه بالشلل وتم إزالة الرئة. ومع ذلك، مع الرئة التي تبقت له، لم يتوقف عن الصراخ ليلاً ونهاراً: "لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت!" كان على الجيران إرسال أطفالهم في إجازة عائلية في كمبين[48]، وإلا لكان أصابهم بالجنون. كان يضرب الممرضات اللائي جئن لترتيب فراشه ولمساعدته في الاستحمام. في كل الأحوال، كان ويلي مسكيناً! لم أر أي شخص يلعب بشكل أفضل دوره في مسرحية خادم لسيدين. محترفو المسرح بورلا في أنتويرب بالنسبة له لا يساوون أي شيء!".

أو مرة أخرى: "هل تعرف من مات؟" عمك هيرمان. في النهاية، لم يعد يدري بأي شيء مما يحدث حوله. في أحد الأيام، صاح في الراهبة التي تأتي للاعتناء به: "أعطني حبلاً! أعطني حبلاً!" هذه المرأة، اعتقدت أنه يريد أن يشنق نفسه، فأعطت له قطعة صغيرة من الحبل، لا تكفي لوضعها حول الرقبة. لكنه ألقى ملاءة سريره، وسأقولها بصراحة، لأن الأمر قد تم هكذا، أمام عيني هذه المرأة، فقد أمسك بعضوه الذكري وصنع له ضمادة. كان هذا ثعباناً! أخذ يصيح بذلك. "بالفعل هذا ثعبان، نجني منه!"

47) الفن الزخرفي أي آرت ديكو (بالفرنسية: Art Deco)، هو موجة تصميم شعبية بزغت في فرنسا على أعتاب الحرب العالمية الأولى، وراجت بين عامي 1920 و1939، أثرت بالعديد من الفنون كالعمارة، التصميم الداخلي، والفنون البصرية مثل الموضة، والرسم، التصميم الرقمي، السينما، وتصميم المجوهرات. جمع هذا الطراز بين العديد من الأشكال الفنية التي ظهرت في بداية القرن العشرين، خصوصا التكعيبية، الحداثية، والفن الجديد. بلغت شعبية الآرت ديكو ذروتها بالحقبة التي سبقت سنوات الكساد الكبير التي أصابت الولايات المتحدة في الثلاثينيات. كما بالنسبة للعديد من الحركات الثقافية والفنية التي تتأثر سياسياً أو فلسفياً بالأحداث القائمة، فإن الآرت ديكو كانت متاثرة بالموجة السائدة، حيث أبدى الناس وقتها ميلاً للنماذج والطرز الأنيقة والحديثة.

48) مدينة في شمال هولندا.

في اليوم التالي كان بارداً ومتيبساً، وعيناه مثبتتان على السقف. لم يكن يتنفس وكانت قطعة الحبل الصغيرة بجانبه على طاولة السرير.

(وطوال هذا الوقت، خلال هذه القصص، كنا نأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل ونأكل. ونأكل، ونأكل. ونأكل، ونأكل. في أي لحظة، يمكن أن يصبح تناول الطعام أمراً مرضياً؟ ليس الأمر شخصياً، ولكن هل في سيكولوجية الجماهير، يوجد عصاب جماعي؟ هل الأمر يتعلق هنا بطفولية منتشرة على المستوى الثقافي أم بطريقة لقمع الخوف العادي من الموت، وبالقلق الذي يتحول إلى حاجة إلى التهام "الأطعمة الشهية"؟ أم الأمر يتعلق بفراغ روحي يجب محاربته عن طريق الشراهة؟ همجية متحضرة يتم محاربتها بالشراهة المرضية المفرطة؟ حسنا، لقد حان الوقت للذهاب لتناول بعضٍ من الطعام، ثم الرجوع للاستمرار في البحث بشأن هذا الموضوع).

تتواصل نيران الشواء تحت الرماد. لقد تم تناول الحلوى بالفعل، وتم احتساء القهوة، الجو إلى حد ما جميل ولطيف، لقد قاربت الشمس على المغيب، ها هي اللحظة المثالية لتقديم عرض مسرحي. نظرت باتجاه ويني، أومأت برأسها، وبدأت أنا وهي في التخلص من الأطباق والصحون.

في المطبخ الصغير نفسه، حيث أخذت ويني أمي من ذقنها قبل بضع سنوات، سألتها عما إذا كان لديها دقيقة تسمح بها لي. لأن لدي شيء لأخبرهما به. لأبي ولها. أتمانعين، يا ويني، في أن تبقي هنا؟ عند طرح هذا السؤال، رأيت على وجهها أنه ليست هناك حاجة لإضافة أن هذا شيء مهم، وأفضّل ألّا يسمع الضيوف الآخرون، في الخارج، أي شيء بشأن هذا الأمر. لم يكن من المتوقع أن يكونوا هناك، هؤلاء، لقد دعتهم في اللحظة الأخيرة، بمبادرة منها. يعد هذا جيدا جداً بالنسبة لي. الآن بعد أن

وصلا إلى هنا، لدي ضمان إضافي: سيتم تقليل الدموع أو الصراخ إلى الحد الأدنى. إذا كان هناك شيء واحد نريد الحفاظ عليه قبل التقاعد، فهو المظهر اللائق. أن تكون الحياة سلسة للغاية دون أي تعقيدات.

في قلب كوخهما الصغير، في غرفة المعيشة الصغيرة بجدرانها من لحاء البتولا، والسقف المصنوع من صفائح الألياف الإسمنتية، سيجلسان كلاهما على الكراسي السلطانية هذه التي كانت رائجة في ذلك الوقت. هما جنباً إلى جنب، في زيهما الصيفي. هي في ملابس السباحة، حافية القدمين، مكتوفة اليدين. هو في سرواله الأزرق الواسع للغاية، قميصه الأبيض بلا أكمام، القدمين في جوارب رمادية وفي صنادل بنية. لقد وضع ذراعيه على مساند الذراعين، في وضع الانتظار. كان يبدو عليها أنها غير سعيدة مسبقاً، أما هو فقد بدا عليه الفضول والقلق. بقيت واقفاً، ويني تقف ورائي. الوضع واقفا يعطي الأفضلية في أرض الميدان وكذلك يشعر الشخص بالتفوق النفسي. لم أعط ويني الفرصة لكي تقول: "قل ذلك". لقد قلت ما أريد دون انتظار.

كان الأمر بسيطا بشكل مدهش. ويمكن القيام به بكلمات قليلة بشكل مدهش. ومما أثار دهشتي، أن أبي هو الذي تحدث أولاً: "أعد ما قلت، يا صغيري. إنه جهازي، حسناً!" بالسبابة، أدار في الأذن اليمنى، الزر الصغير لجهاز السمع. تم ضبط هذا الجهاز الآن على الحد الأقصى، علاوة على ذلك، يوجه هذه الأذن إلي، لذلك لست بحاجة إلى التحدث بصوت أعلى كما في اللحظة السابقة. كررت بهدوء مرة أخرى إعلاني. تبع ذلك صمت طويل. كان الجميع بلا حراك تقريباً. كان الصمت يعم المكان لدرجة أنك لو كنت قد ألقيت بدبوس صغير لكنت ميزت صوته، ما كان يعكر صفو هذا الوقت، هو نباح بعض الكلاب والذي كان يأتي إلينا من مكان بعيد.

قبل أن تقول ويني أي شيء، نهضت والدتي. نظرت إلي، ثم نظرت إلى ويني، ثم أومأت برأسها. لقد رأت الاستراتيجية، وعرفت أن الملك مات كما في لعبة الشطرنج. "حسناً، هكذا الأمر إذن"، قالت هي ذلك وخرجت رافعة رأسها. لقد تبعتها بالنظر،

حتى شاهدتها تنضم إلى بقية الضيوف، الذين يستمرون في الدردشة حول طاولة المذبح الكبيرة، التي هي عبارة عن لوحة جدارية إيطالية ممتلئة بالألوان في نهاية وقت الظهيرة. تحدثت بشيء أثار موجة من الضحك، صبت لنفسها كأساً من الكونياك وطلبت سيجارة من أحد المدعوين، أشعلتها واستنشقت بعمق. وكان ذلك لأول مرة منذ خمس سنوات.

(لم تتوقف عن التدخين حتى إصابتها بالسكتة الدماغية الثانية لها. من ناحية أخرى، انتهت صداقتها مع ويني ببطء. تدريجياً ولكن بثبات. انتهى بهما المطاف بعدم وجود مزيد من الاتصال. دون أي شجار أو لوم. لم تكن هناك جلسات أخرى. كانت تستمع إلى رسائل الكيانات في كثير من الأحيان لتبق مقتنعة بأنها دائما كما هي. ومع ذلك، استمرت في إضاءة شمعة كل مساء أمام صورة ابنها الأصعب في التعامل في جنازته، والتي تراكمت حولها صور لمتوفين آخرين في جنازاتهم).

بقي والدي ربع الساعة على كرسيه الصغير. نهض وهو يتنهد، حزين حتى الموت، مكسور بشكل واضح، مرهق بشكل لا يصدق. لم يجد كلمات أخرى غير كلمات زوجته. "حسناً، هذا كل شيء". كل شيء بدا واضحاً، تم قرار كل شيء.

لكنني سرعان ما غيرت رأيي عندما رأيتها من بعيد، تحتسي بشراهة الكونياك، تدخن سيجارة تلو سيجارة، تضحك وتسلي المجتمع. لم يمت الملك حقا. كانت نتيجة المباراة هي التعادل. كانت المواجهة الحقيقية لم تأت بعد.

في الوقت وعلى الأرض التي تختارها هي بنفسها.

من دون حكام أو شهود.

بمجرد مغادرتها المؤسسة في بيفرين، سارت حالتها بالتأكيد من سيء إلى أسوأ. كانت حالتها أشبه بالانهيار، صحيح أنه ليس سريعاً، ليس جوهرياً ولكنه مستمر. كل أسبوع، كنا نراها قادرة على فعل أشياء أقل، كل شهر كانت هذه الملاحظة تبدو أكثر وضوحاً. الأقل يصبح أقل. وقريباً، سيكون الأقل لا شيء.

لم تكن لغتها غير مفهومة فحسب، بل فقدت عدداً من المقاطع. في النهاية لن يكون هناك سوى هيكل عظمي للغة، كلمة من هنا ومن هناك، صوت، ثم لا شيء. أصبحنا حتى عاجزين عن تمييز ما إذا كانت صامتة عنداً أو يأساً. إنها تصمت كلوحة مرسوم بها منظر الثلج أو كالعرائس القماشية المحشوة بالقطن. لأنه لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك. لغة الإيماءات أيضاً، المحاكاة التي استخدمتها جيداً في بيفرين، حيلها المهنية التي استخدمتها مرة بعد مرة على خشبة المسرح، كل هذا ذاب، أصبح غامضاً، وأصبح يفلت منها شيئاً فشيء. لا يمكننا الاستمرار في الخسارة إلى أجل غير مسمى. في لحظة معينة، لن يتبق لنا شيء.

أصبح بصرها أقل وضوحاً، ولم يعد بإمكانها تثبيته على شيء ما، كما أنه لم يعد يعكس أي شعور أو شيء تريده أو تريد التعبير عنه.

في النهاية، بدت في بعض الأحيان أن لديها فقط ما يكفي من الوعي للتعرف عليك، دون أن تعرف حقا إذا كانت تعرفت عليك أم لا. إنك تريد ذلك حقاً. إنك تأمل في ذلك حقاً. بسبب هذا الأمل، كنا نرى أن الحاجب المرتفع أو الزاوية الملتوية في فمها تحمل المعنى نفسه كما كان في الأوقات السابقة. لوحة توجد في عين متفرجها وليس على القماش.

كنا كل يوم نزيد من قيودها خشية السقوط. في البداية، كنا لا نفعل ذلك في الليل. كإجراء للسلامة وضعنا على جانبي فراشها نوعاً من السياج، نسخة بالغة لما نراه أحياناً على أسرة الأطفال. كان هذا كافياً لاستفزازها. دفعتها روح الثورة التي لا تنتهي، وتمردها ضد كل ما لم تحب، إلى تسلق السياج في الليل، وقد سقطت من مسافة أعلى نصف متر مما لو كانت سقطت فقط من فوق السرير. بعد هذا الحادث، تم تقييدها أيضاً في الليل. وللمزيد من السلامة، ما زلنا نضع السياج. فنحن لم نعرف ماذا يمكن أن يحدث لها أو ماذا تفكر به وتحاول فعله!

خلال النهار، أيضاً، تم تقييدها أيضا بعد سقوط آخر؛ بسبب تشنج في العضلات

لا يمكن تفسيره، ارتفعت فجأة على كرسيها وسقطت للأمام. عندما أصبح المشي مشكلة أيضاً، استقرت من الصباح حتى الليل على كرسي متحرك، والذي قيدت به أيضاً بعد فترة من الزمن، حيث أنها تركت نفسها تنزلق من فوقه. لا أحد يعلم ما إذا كانت قد فعلت ذلك من باب التمرد أم لا. منذ وقت ليس ببعيد كانت لا تزال تستخدم كرسيها المتحرك كمشاية. كانت دائما ترفض أن تكون لديها مشاية حقيقية. لقد فضلت أن تسير، بخطوات بطيئة مستندة على مقابض الكرسي المتحرك، تدفعها كما كانت تتجول مع طيفها، أو بالأحرى، لا، يبدو أنها كانت تبحث عن رفيق حظه أسوأ من حظها، والذي كانت ستقدم له بكل سرور جولة صغيرة، تحت إشرافها وتحت أوامره. كان لكل شخص تقابله تحية صغيرة، مهذبة ومتحفظة من رأسها. إذ هي حتى النهاية، قد بذلت كل ما في وسعها للحفاظ على مظهر الحياة الطبيعية، وكل ذلك مع كل من تقابلهم من أشخاص من الطبقات المختلفة، لقد بذلت كل ما وسعها حتى لا تستسلم للانهزامية. حتى انتهى بها المطاف على الكرسى المتحرك، والذي بعد عدة جولات به، لم تعد تحيي أي شخص.

مثل أفراد الأسرة الآخرين، حاولت أن أجعلها تسير بعض الخطوات. "إن هذا لأمر جيد لحركة الدورة الدموية!" كانت تضع قدماً ببطء أمام الأخرى. كانت تستند علينا، متعلقة في ذراعنا. في المرات القليلة الأولى، كانت مسيرة منتصرة ذهاباً وإياباً في رواق المؤسسة (نقصد هنا مؤسسة أخرى غير مؤسسة بيفيرين). بعد بضعة أسابيع، كانت تتعلق بشدة على أذرعنا لدرجة أننا اضطررنا للاعتراف بأننا نحن الذين نجبرها على القيام بهذا التقليد من المشي معاً لأننا كنا نطمح بأن تستطيع القيام بذلك، ربما برغبة أكبر من رغبتها هي نفسها. كان يجب علينا أن نعترف أنه أصبح من الأفضل أن يتم وضعها على كرسيها المتحرك، ومقيدة لدواعي السلامة.

كان هذا فقط حتى سقطت فيما يمكن أن يطلق عليه شبه غيبوبة، فلم تعد بحاجة إلى القيود، فيما عدا الذراعين.

حتى في هذه الفترة من الانهيار كانت هناك لحظات جميلة كثيرة. لقد كانت تتعرف على الموزة التي تحضرها لها وتأكلها بشهية أمامك. ومع ذلك، سرعان ما لم تعد قادرة على تقشيرها بنفسها، ثم لم تستطع الاحتفاظ بها دون أن تسقطها أو دون أن تهرسها بيدها العنيدة الغاضبة. في هذا الوقت، تسمح لك بإطعامها بكل طاعة. بل حتى إنه تبدو عليها السعادة لأنك تقوم بهذا الدور. في بعض الأحيان، أثناء تناول الطعام، تقوم بإزالة طاقم أسنانها دون أي إحراج لتنظيفه بمنديلها وأنت، دون إظهار أي تذمر أو أي ملاحظة، يمكنك استبداله بمنديل نظيف. دون طاقم أسنانها، تبدو شفتيها في شبكة من طيات العنكبوت. تبدو الآن وكأن لديها 100 عام. قبل ذلك، لم تكن أبداً توافق على إظهار نفسها بهذه الطريقة، ولكن يبدو الآن أن الأمر أصبح متساوٍ بالنسبة لها. بعد ذلك، تعيد طاقم الأسنان إلى مكانه وتمضغ أو تتناول باقي الموزة التي تمسكها بيدك.

كان أكثر ما يسعدني هو رحلات الكرسي المتحرك التي تقوم بها معي في الحديقة القريبة، تلك التي أعطت اسمها للمدخل الشهير إلى سانت نيكولاس، شارع بارك أفينيو. في هذا المكان، يوجد شارع جانبي، يدعى موروستريت، الشارع الذي ولدت به. كثيراً أثناء هذه الرحلات، ما كانت تشير إلى منزلها الذي ولدت به، ولكن بسبابة غير متأكدة. بعد فترة من الوقت، أصبحت تخطيء في المنزل.

بالإصبع نفسه، كانت تشير إلى البط وإلى النافورة التي تتدفق في منتصف البركة أمام قلعة ولبرج الصغيرة. ولكن يجب ألا تستمر هذه النزهات لأكثر من نصف ساعة. تبدأ فجأة في التثاؤب دون أن تضع يدها أمام فمها، ثم تغفو على الفور وتصدر شخيراً. يصبح جسدها الهزيل في اتجاه من الكرسي ورأسها في اتجاه آخر. تماما مثل الطفل نائماً في عربة أبيه وهو يتجول.

هذه هي التي كانت بالنسبة لي أجمل لحظات تلك الفترة الماضية. رأتني أدخل ممسكاً بحقيبتها. لم تسحب منها واحداً من هذه الأكياس البلاستيكية الصغيرة التي لا

حصر لها والتي تحتفظ فيها بقطع من الشوكولاتة المتعفنة أو الحلوى أو البسكويت المتشقق، لم يأكلها أحد، ولا حتى هي، لكنها كانت تنفعل عندما نهدد بإلقائها أو باستبدالها، وفي نهاية المطاف، تركناها تحتفظ بها كما تشاء. ما كانت تبحث عنه الآن في حقيبتها هو جرابها الصغير. وضعته في يدي بمنتهى الإصرار، ثم أخذت تشير إلى ذقنها، إلى شفتها العليا أو حواجبها. تماماً مثل اليوم الذي كانت ترتدي فيه ملابسها وفي كامل هندامها في أخر نزهة عامة قامت بها، أخرجت الملقط الذهبي من الجراب وقمت بمهمتي النبيلة بامتنان. كنت لا أزال أمثل شيئاً لها. لقد قمت بإزالة الشعر، لقد قمت بنزع أصغر شعرة، كنت أعرف أنها ممكن أن تعتبرها زائدة أو غير مقبولة. في المرات القليلة الأولى، كانت لا تزال تنظر إلى النتيجة في مرأتها الصغيرة، ثم تخبرني أن أستمر. أنظر، ثم تشير إلى مكان ما. لا زالت قادرة بإيماءاتها وبرطانتها الشيطانية أن تلعنك. هنا، مازالت شعرة وقحة ترفع رأسها، أنظر! كانت تظهر لي فتحة الأنف والتي يخرج منها القليل من الشعر. أتدخل بملقطي، وأمسك بدقة الشعر الصغير وأنتزعه دفعة واحدة. "أي"، تصيح هي، عابسة وضاحكة في الوقت نفسه، بسبب هذا الوخز وفي الوقت نفسه الدغدغة التي تشعر بها عندما يتم سحب الشعر من أنفها. حتى أنها تعطيني لكمة مازحة، للدلالة على أن هذا اليوم كان يوماً جيداً.. يوماً جيداً. لقد رددنا ذلك في يوم من الأيام، حيث حاولنا أن نصدق على الرغم من كل ذلك ربما يوماً ما، من يدري، سيشكل نقطة تحول في هذا المرض. لم يكن هذا لشيء إلا أنها قد تناولت كل أدويتها؟

بعد بضعة أسابيع، بعد دخولي، اضطررت إلى إخراج الجراب الصغير من الحقيبة، ودون أن تطلب هي ذلك، بحثت أنا بنفسي عن الأماكن التي يجب انتزاع الشعر منها. لقد تركتني أفعل ذلك. بقيت بلا حراك، نظرتها مثبتة على نقطة واحدة من وجهي، لم تتحقق من أي شيء في المرآة ولم تعطيني المزيد من اللكمات المازحة. حتى "أي" قد اختفت، وقد حلت محلها تقطيبة صغيرة من الألم الذي تشعر به في وجهها. كنت أحاول أن أبدو راضياً بذلك أمامها.

كانت هناك أيضا لحظات مؤسفة وغير سارة. لقد حدث في بعض الأحيان أنها لا تزال تحاول الهرب؛ مستندة على الجدران، تبحث عن مخرج. خلال إحدى هذه المحاولات للهرب، تمكنت من الهبوط في المصعد إلى قاعة المدخل، حيث سقطت بشدة، التوى معصمها وحدث كسر في مفصل الفخذ. بعد أسبوعين، كان نصف وجهها لا يزال أزرق.

عندما بقيت عدة أيام، بسبب مزيج من الظروف وسوء الفهم، دون أن يزورها أحد، كانت مهملة للغاية. كان جلدها جاف وكانت غير مغتسلة. عثر أحد إخوتي على العفن في الجزء السفلي من طاقم أسنانها. اشتد غضبه وطلب نقلها إلى جناح آخر، مع الحصول على المزيد من الرعاية.

تحسنت الرعاية. استمر الانهيار.

ها هنا، قد وجدت أبي في هذا الجناح، متردداً أمام باب الغرفة. لقد جئنا بشكل منفصل، دون التشاور مع بعضنا البعض. لم أكن أعرف ما إذا كان يفضل أن يكون وحيداً معها في ذلك اليوم أم العكس. قررت الانتظار قليلاً قبل أن أظهر نفسي.

من فوق كتفه، من خلال الباب نصف المفتوح، رأيت زوجته، ومعبودته، خوسيه. النظر ثابت، النفس ثقيل، منهارة، والذراعان متدليان على جانبي الكرسي المقيدة به. على الرغم من باقة الزنابق الموجودة على طاولتها والرائحة الخفيفة لعطرها والذي يتم الرش منه لبضع قطرات في كل زيارة، لم تكن الرائحة المنبعثة من الغرفة لطيفة. كانت هناك رائحة عرق وربما رائحة بول أيضاً. كان لا يزال متردداً. رأيته يغمض عينيه ويتنفس بعمق، كما لو كان يمنح نفسه الشجاعة. في الوقت نفسه، رأيتها تغلق جفونها. لقد نامت.

لقد لاحظ ذلك أيضاً. تخلت شجاعته عنه. استدار، ولم يرني على الفور، وبقي بضع دقائق ويده على مقبض الباب، في حين كان الممرضات والزوار يمرون وهم يتحدثون بصوت منخفض، دون أن يوليه أحد اهتماماً. أخيراً ترك المقبض، ولم يدخل،

لكنه أخذ مكانه على المقعد المجاور للباب ورأسه بين يديه. تركته بضع دقائق أخرى للراحة والهدوء، ثم جلست بجانبه. ارتجف قليلاً، عندما رآني أظهر فجأة بهذا الشكل.

- "إنها نائمة"، قال هو ذلك بلهجة توحي بالاعتذار.
- "أنا أعلم"، قلت أنا، بلهجة حاولت فيها طمأنته.

(على الرغم من تدبرهما الاقتصادي، وميلهما إلى التوفير، اللذان كانا يسودان طوال حياتهما، إلا أن الأمر أصبح غريباً للغاية، وخاصة بعد التعاقد. كان هناك إسراف من العيار الثقيل. كانت هي من قدمت وعرضت عليه ذلك. طلبية نسائية. هدية يعبر بها زوجها عن حبه تجاهها. معطف رائع من فرو حيوان المنك، باهظ الثمن مثل السيارة المستعملة. كان هذا حلم كل حياتها الذي تحقق أخيراً. لقد دهشت عندما وجدت أن الحماس لم يكن عاماً. "حسناً يا أمي؟ لقد اشتريت معطفاً قصيراً جديداً. ليس المنك من الأنواع المهددة بالانقراض؟ هل يمكن بالفعل لهذا الحيوان أن ينقرض بسبب معطفك فقط؟".

"معطف، معطف!"، (كانت غاضبة وتصيح بصوت عالٍ). "أتسمي هذا معطفاً؟ إنه بالكاد تحت الركبة! مع طولي، يبدو كنصف معطف، جاكت. ثم هذه الحيوانات، يتم تربيتها خصيصا لذلك، بكل دقة وحصرياً لهذا الغرض. فالقوارض التي ليست سعيدة، يكون لديها ثقوباً في فرائها، وهم في ذلك مشتركين مع البشر. ولماذا علي أن أمنع مربي صالح من كسب لقمة عيشه؟ العالم كله يرتدي أحذية جلدية، حقائب جلدية، والساعات مع الأساور الجلدية. ومن منا اليوم لا يشاهد التليفزيون على أريكة جلدية، هاه؟ يجب أن يتم قتل قطيع من الأبقار من أجل ذلك. قطيع. وامرأة مثلي لا يمكن أن تسمح لنفسها بارتداء جاكيت قصير من الفراء؟ بالكاد، عند الركبة؟ كعزاء في شيخوختها؟ كنوع من أنواع الجنون؟ بعد فترة من العمل الشاق، لتربية خمسة أطفال، والمكسب القليل، وراتب تقاعدي صغير جداً لا يستحق حتى الحديث عنه؟ في الحقيقة، لا أريد أن أبدأ في الشكوى. ما أردت فقط أن أقوله: هو إذا رأى

كل منا أخطاءه وأصلحها قبل أن ينتقد الآخرين، هاه؟ سنكون أكثر هدوءا وسلاما في كل مكان".

(ارتدته بعد ذلك في دورين من ثلاثة أدوار احترافية صغيرة قامت بها بعد التعاقد. وقد ظهرت بمعطفها الجديد في حفلات توقيع وتقديم كتبي الأولى. كانت تحب حرارة الصيف، وكانت تحب التنزه في ثوب السباحة القديم، ولكن بعد أن تلقت هذا المعطف، أصبحت تنتظر فصل الشتاء بفارغ الصبر لكي ترتديه. عندما توفيت، ظل المعطف معلقاً، عديم الفائدة، في دولاب أبي، ثم في غرفته في منزل التقاعد حيث توفي. بعد ذلك، كان لا يمكن أن نبيعه لأي شخص حتى لو بسعر زهيد. متاجر الفرو لا تأخذ الفرو المستعمل ومتاجر المستعمل لا تتاجر في الفرو. إنه معلق الآن في دولاب حفيدتها التي ساعدتها في ارتداء ملابسها، وفي زينتها في نزهتها الأخيرة. ولكنها، لم تجرؤ على ارتدائه، خوفاً من ردود أفعال الأصدقاء والغرباء، ولا سيما طفليها اللذان يعشقان الحيوانات).

هو (بعد ما ألقى نظرة جديدة على غرفتها): "ما زالت نائمة".

أنا: "نحن بخير هنا يا أبي. بالقرب منها، على مقربة من بعضنا البعض".

(لقد تسببت في مقتل أمي عن طريق الهاتف. لم يكن لدي خيار، كانت هي من اتصلت بي. كان هذا بعد أسبوع من إعلاني لميولي الجنسية وقبل أسبوع من تقاعدهما. لقد كان التوقيت يعد دائماً من أفضل مميزاتي. لقد أمضيت ليلة صعبة إلى حد ما ولم أكن وحيداً. كان لا يزال حبيبي نائماً في الفراش. كانت هذه المرة الاولي، التي نتواصل فيها معا، أنا وهي، منذ حفلة الشواء في الربيع وإعلاني في الغرفة الصغيرة بجدرانها من لحاء البتولا والسقف المصنوع من صفائح الألياف الإسمنتية.

هي: أتصل بك لأتحدث معك بشأن ما قلته.

أنا: قلت ماذا؟ ومتى؟

هي: لا تتظاهر بالبراءة. أنت تعرف جيداً ماذا أقصد.

أنا: وأنت لا تتظاهرين بالغباء. عن ماذا تتحدثين؟

هي: عن ماذا أتحدث؟ ماذا تفعل بنا هناك؟

أنا: أقوم بتنظيم حياتي، كما علمتني.

هي: أنا علمتك الرذيلة؟ إن هذا لجديد حقاً.

أنا: أن نكون كما نحن، هل يمثل ذلك رذيلة؟

هي: لا يولد أحد بهذا الشكل. من حوله هم الذين يجعلونه هكذا.

أنا: هذا ما يقوله نصف الأطباء النفسيين.

هي: بالضبط.

أنا: يقولون أن هذا يكون بسبب خطأ من الأم.

هي: كنت أعرف أنك سوف تقول ذلك.

أنا: إذا كنت تعرفين ذلك، لماذا تتصلين بي؟

هي: لأن هذا ليس صحيحاً. هناك شيء يسمى الإرادة الحرة.

أنا: هذا شيء لم ألاحظه كثيراً في بيتك.

هي: هل ستشتكي مني الآن؟ هل تخجل مني؟

أنا: بقدر ما تخجلين أنت مني.

هي: وماذا يقول الأطباء النفسيون الآخرون؟

أنا: معذرة؟

هي: إذا كان ذلك لا يأتي من الأم، فمن أين يأتي إذن؟

أنا: لقد ولدت بهذا الشكل.

هي: ربما كان ذلك ممكناً.

أنا: بالضبط.

هي: إذن، كان يجب علينا أن نتمسك بأربعة أطفال فقط. بالنسبة لك، كان جسدي عجوزاً حقا.

أنا: ماذا تقصدين؟

هي: أقول أننا كنا سنصبح سعداء للغاية لو أنك طبيعي، ولست منغولياً.

أنا: أوه، لا، وأنت تشعرين بأنك قد خدعت الآن.

هي: مع المنغولي، كنا سنعاني من مشكلات أقل مما مع شخص مثلك.

أنا (ضاحكاً وضاحكاً، لأنني قادر على الضحك، لأنني لن أسمح لنفسي بأن أكون مرفوضاً بهذا الشكل، لأنه، منذ تلك اللحظة، سأكون قادراً على الاستمرار في الضحك، مهما قالت): سأذهب للبحث عن عاشق منغولي صغير. سوف يجعلك هذا أقل انزعاجاً.

هي: احصل على ما تريد، لكن لابد لك أن تعرف أنه لن يدخل منزلنا أبداً.

أنا: (لم أعد أضحك، على العكس، أغلي من الغضب ومنزعجاً لكوني غاضب، فلقد تمكنت من النيل مني): ومن قال أنه سيرغب في الدخول إلى كوخك؟ من قال أنني أنا نفسي أريد ذلك؟

هي: افعل ما يحلو لك. أنت من عليه أن يختار.

أنا: (كنت لا أمزح بعد الآن، كنت أشعر بالصدمة وبالذهول): هل تطردينني؟ هل تريدين قطع الروابط بيننا؟

هي: أهلاً وسهلاً بك إذا كنت وحيداً. وبالنسبة لنا حتى النهاية، لم نعد نتحدث عن ذلك مرة أخرى.

أنا: خسارة. لقد كان كل شيء على ما يرام.

هي: سيكون لديك حياتك ونحن لدينا حياتنا.

أنا: حقاً؟ ولماذا؟ هل تستطيعين أن تعطيني سبباً واحداً؟

هي: أعتقد أنك يمكن أن تجد ذلك بنفسك.

أنا (أعرف ما ستقوله): لا يا أمي! (أعتقد: لا، من فضلك، لا تقل ذلك). لا، أنا لا أعرف السبب! (أعتقد: الآن، بالتأكيد، إنها ستقول ذلك).

هي: أنت أسوأ شيء يمكن أن يحدث لأم.

أنا (مفكراً، لا، لا أريد الإجابة على ذلك، لا، ليس بهذا الشكل): نعم. هذا هو الأسوأ؟ (أعتقد: سوف أقول لها في كل الأحوال). ربما كان علي أن أصطدم بشجرة بسيارتي.

هي (بعد فترة من الصمت): أجد ذلك قاسياً من جانبك.

أنا: أنا أيضاً. لهذا السبب أقول ذلك.

هي: هل تعرف ماذا سأفعل؟ سوف يحل ذلك كل شيء دفعة واحدة.

أنا: أنا في غاية الشوق لمعرفة ذلك.

هي: سوف أشنق نفسي. لعل هذا هو الحل الأبسط للمشكلة.

أنا: هل تريدين مني أن أخبرك؟ (ضاحكاً مرة أخرى، لأنني أستطيع أن أضحك مرة أخرى): هذا صحيح، إن هذا لأبسط حل. اشنقي نفسك. وأبي في الوقت نفسه. (لقد شعرت بالصدمة مما يحدث وقد أدركت: يا إلهي، إني أفكر وأتحدث مثلها تماماً، أنا مثلها تماماً، أقول أي شيء لتكون لي الكلمة الأخيرة). إذن، اشنقي نفسك هذا الأسبوع، اتفقنا، حسناً؟ بهذه الطريقة سيكون علينا فقط نقل أغراضك مرة واحدة فقط. سننقلها إلى سوق وتجار الأشياء المستعملة، بدلا من نقلها إلى شقة ليزا هذه السمينة واللعينة. (لقد أغلقت السماعة بعنف لدرجة أن الهاتف انكسر).

- إذا كنت تريد، يمكنك العودة إلى المنزل الآن، يا أبي. سأتابع أنا سير الأمور هنا بدلاً منك.

- سوف نرى يا صغيري. دعنا ننتظر قليلاً.

(بصرف النظر عن المكالمة الهاتفية، لم يحدث أي شيء آخر ولن تنقطع بينا العلاقة بسبب إعلاني الذي أدليت به أمام أمي بين لحاء البتولا والألياف الإسمنتية. بعد أسبوع من المحادثة الهاتفية العنيفة، ذهبت، رابط الجأش، لكي أساعدهما في تفريغ متجرهما ونقل أغراضهما إلى الطابق العلوي. لم أفعل تجاهما أي شيء، وقد عاملوني بالمثل. أما بقية المصالحة فقد تكفل بها صديقي بعد ذلك.

بعد عرض مسرحي في أنتويرب، حيث بالمصادفة تواجدنا نحن الأربعة، اثنان اثنان، وما أثار رعبي خلال هذه المناسبة، هو أنه قد ركض نحوها بابتسامة كبيرة وبيد ممدوة. أحياناً، تكون الأخلاق هي بوابة الكون. مع وجود الكثير من الغرباء من حولها، لم تجرؤ على رفض يده، وعلى الرغم من أنه لم يذكر أي تفاصيل فيما عدا اسمه، إلا أنها كانت تعرف تماماً ما الذي يجري، وقد فهمت أنا ذلك من النظرة السامة التي رمتني بها. ولكن ها هي بالفعل، اشتركت معه في مناقشة ساخنة حول المسرحية والتمثيل وأدركت أنها لا تستطيع بشكل عنيف أن تضع نهاية مفاجئة لهذه المحادثة. بعد ساعة، كانت بالفعل واقعة تحت تأثير السحر بشكل كافٍ لكي تتركه يقبلها على خدها ليقول لها وادعاً. حتى أنها لم تسمح بذلك، لقد كان هو الذي فعل ذلك بكل بساطة. كانت النظرة التي تلقيتها منها في ذلك الوقت تتأرجح ما بين الاشمئزاز والتدلل. لم أتجرأ أبداً على السؤال عما إذا كانت محادثته لها هي التي سحرتها أو ذوقي الجيد فيما يتعلق باختياري لمثل هذا الرجل).

(بعد سنوات، كان هناك خلاف آخر. فيما يتعلق بحبيبي الثاني، رجل حياتي. كنت أنا وهو بصدد التوقيع، كأول زوجين مثليين جنسياً في بلجيكا، عقد مسجل رسمياً للحياة المشتركة، الخطوة الأولى نحو الزواج المثلي في المستقبل. كان الموضوع برمته رمزياً ومعروف إعلامياً، ها هم الصحفيين، ها هم السياسيين في ولاياتهم، طبعا كان البعض متغيباً عن الساحة، وها هما على الأقل شرطيين في حالة تأهب، ناهيك عن الزحام والضجيج. وهي، ومن فضلك دون هذا، التي أصبحت أكثر وأكثر سحرا برجالي، هي، التي كانت يمكن أن تدردش بالساعات مع رجلي الثاني، دون أن تعطيني

الفرصة لأنطق ولو حتى بكلمة واحدة، ها هي تتصل بي مرة أخرى وبشكل مفاجيء. عداونية، في منتصف الليل، بعد ساعات قليلة من علمها بمشروعنا:

- هل يجب أن تكون أول من يفعل ذلك؟ أليس الأمر سيئاً بما يكفي لأنك بهذا الشكل، هل لا يزال يتعين عليك أن تعلن ذلك على الملأ بلا أي خجل؟

- أنا فقط أفعل ما علمتني إياه. أنا أحارب فقط من أجل حقوقي.

- أنت تحارب من أجل لا شيء على الإطلاق. أنت فقط تريد التباهي وإظهار ما أنت عليه.

- كما لو كان ذلك أيضاً، لم أتعلمه منك!

- سيئ للغاية أن تتجرأ وتقول ذلك.

- وأنا أجد أيضاً أنه سيئ للغاية أن تنكري ذلك.

انحدار برجوازي صغير من جانبها، غضب برجوازي الصغير من جانبي، النتيجة: انتهت المكالمة في الوقت المناسب.

ولكن عندما جاء اليوم الذي لا ينسى وتم اختتام الحفل ("أيتها الأمهات، أنتن لم تفقدن ابنا، ولكنكن فزتن بواحد!") لقد رأينا أنها تتصالح بين نفسها وبين الدور الذي، على عكس توقعاتها، أثار الكثير من الاهتمام وأثار ضجة علنية بحيث أصبحت تدرك أخيراً أنه قد حان الوقت للتفكير في مصلحتها. الحقيقة أنها قدمت مجموعة كبيرة من الصور، عوضت عن العديد من الأشياء كذلك.

أثناء الوجبة التي تلت ذلك، ذهبت إليها الكاميرات التليفزيونية التي كانت تدور بين الطاولات، وهي إحدى الأمهات، وكانت تتصرف وكأنها ملكة جمال تزعجها أدنى الأصوات، ولكنها كانت راضية للغاية عن تسجيل إزعاجها للأجيال القادمة: "طالما كانوا سعداء، يا سيدي"، أو شيء من هذا القبيل. وكذلك بضع كلمات عن الفخر والأمومة. بعد ذلك، صدرت من يدها الأنيقة والتي ترتدي فيها خاتماً، لفتة تدل على رفضها للهدف وللفريق الذي يتلاعب به. كانت تريد أن تقول أن هناك أماكن أخرى

في العالم، بؤر الاضطرابات ومناطق الكوارث الحقيقية، حيث سيكون وجودهم أكثر فائدة من هنا. خاصة الآن بعد أن أصبح لديها رأي يجب أن تدلي به).

لقد نجحت أخيراً في إقناع أبي أنه لا جدوى من الانتظار لفترة أطول على هذا المقعد في الردهة. أريد أن تكون هذه الزيارة لحسابي. يحق له أن يأخذ فترة راحة وأنا سأتولى الأمور هنا. أومأ برأسه ثم غادر. ومع ذلك، انتظرت طويلاً بعد رحيله. حتى سمعت الأصوات تشير إلى علامات للحياة ورائي. علامات ضعيفة. بقايا حياة. سعال مختنق، تنفس ثقيل، حفيف ذراع يتحرك حركة خفيفة وصوت أظافر تخدش في جلد الكرسي. قررت الدخول. لقد جاءت لحظة المقابلة النهائية. الشيء الوحيد المهم حقا. كان أن كل الباقي سيذهب إلى العدم.

تعال يا جوني. اكتب هذا المشهد أيضاً.

دون كذب، دون حرج. انطلق.

قمت بفك قيودها، ساعدتها وساندتها تقريباً حتى باب الحمام، أحد ذراعيها لمس كتفي. هناك، حررتها من ملابسها الداخلية وحفاظتها، حاولت أن أفعل ذلك وهي واقفة في البداية، ثم أجلستها على المرحاض، وبدأت في غسلها. في الحقيقة، لم يكن الأمر سهلاً. كما أنها أيضاً كان لديها ميل إلى الانزلاق مثل الدمية الخاملة. لم يعد هنا أي مكان للتمرد.

كانت متعبة، بلا أي دفاع ولا قوة. كانت تتنفس عن طريق الفم، كانت الرائحة ليست محتملة. لم أستطع تفسير النظرة التي نظرتها لى. هل كانت مازالت تدرك ما يحدث؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فبم كانت تفكر؟ دائماً كانت حريصة للغاية على تجنب أي عدوى، متلهفة للغاية على النظافة والأناقة وحلاوة المظهر. لطالما كانت متزمتة تجاه الكلمات البذيئة وكانت ترى أن العري عديم الجدوى وحتى صادماً في الفن الحديث وعلى شاشة التلفزيون. كانت هذه المرة الاولى، التي أراها فيها دون ملابس. واحدة من أشهر اللوحات في العالم هي لوحة غوستاف كوربيت التي تظهر

امرأة مستلقية وفخذيها مفتوحين. نحن لا نميز وجهها، كان عضوها الجنسي المشعر بغزارة هو العنصر الرئيسي. عنوان اللوحة كان موحياً للغاية، أصل العالم.

ما أغسله الآن هو نهاية العالم. مع كل تجاعيدها غير القابلة للإلغاء، جسدها الناعم، خصلات شعرها رمادي اللون المثير للشفقة وفي الوقت نفسه ضعيف ومجعد. لقد شطفت إسفنجة الاستحمام عدة مرات في الماء الدافئ للحوض. في النهاية، رششتها بسخاء ببودرة التلك، التي طالما تغنت بفضائلها. ثم بعد ذلك، وضعت حفاضة أخرى أسفل الأرداف والتي كانت نحيفة بشكل مخيف. وطوال هذا الوقت، كنت أطرد انزعاجي وحزني بالتحدث معها دون توقف. ما كان يجعلني أشعر بغصة في قلبي أكثر، أنني كنت لا أتلقى أي إجابات. أصبحت آسفاً الآن على لغتها الشيطانية. لقد كان أفضل من هذا الصمت المقزز الذي يأكل روحي.

أنا: حسنا، أنا ذاهب لألقي بذلك في سلة المهملات، أتوافقين؟

هي:

أنا: انتبهي، لا تتحركي يا أمي. هيا، كوني حذرة، هل تفهمينني؟

هي:

أنا: هيا، حاولي أن تقفي، سوف أساعدك، تعالي.

هي:

أنا: لحظة أخرى. الصبر، الصبر، ها قد وصلنا تقريباً.

هي:

أنا: لا، لا تلمسي ذلك، انتظري قليلاً، قلت لك انتظري.

هي:

أنا: ارفعي ساقك الأخرى. هيا يا أمي. من فضلك.

هي:

أنا: حسناً، هذا جيد. ها نحن قد وصلنا. ها نحن قد انتهينا، يا أمي. حسناً.

هي:

بعد فترة وجيزة من هذا المشهد، سقطت في نصف الغيبوبة تلك التي لم تصحُ منها أبداً. ولأنها لم تعد قادرة على البلع، فقد تم إطعامها بواسطة أنبوب في أنفها. تسبب هذا في تهيج الأغشية المخاطية وفي التهاب رئوي. تم علاج ارتفاع ضغط دمها بواسطة علاجات قوية للغاية، بينما حالة دماغها كانت تبشر بحدوث سكتات دماغية صغيرة أخرى. كانت ترقد، هزيلة، على فراش الموت، على جانب واحد من جسدها المليء بالكدمات الناجمة عن السقطة المؤلمة التي حدثت مؤخراً. ومع ذلك، مازال ذراعيها مقيدان، بحيث لا تمزق الأسلاك والأنابيب بواسطة حركة مضطربة من الجسم. كان هذا المنظر يجعلني أبتسم رغما عني. دائما نفس التمرد حتى في الغيبوبة. ثائرة حتى النهاية.

الخطوة التالية كانت وضع أنبوب يخترق مباشرة المعدة. لقد اعترضنا على ذلك: أبناءها، العالم الذي كانت هي أصله. لماذا يجب أن نشعر بأننا مضطرون لإطعامها بالقوة بواسطة أنبوب في بطنها؟ والدتي ليست إوزة، وحتى مع الإوزة أجد أن هذه الممارسة همجية. لقد وجدت أن أنبوب بالأنف، أمر جسيم حقاً. هيا بنا نذبح شخصاً ميتاً؟ لا، سيكون من الضروري نقل الجسد.

مع أنبوب في المعدة، يمكن لها أن تتماسك لأسابيع، إن لم يكن لشهور. هذا ما أكدوه لنا. لكني، لا أصدق مثل هذه التأكيدات. يمكننا أن نقول كل ما نريد عن العصور الوسطى، بموتها الأسود، مع المرافق الصحية التي لم تكن موجودة، مع نوبات غضبها والنيران في كل مكان، مع متوسط العمر في ظل الحياة في هذه العصور، ولكن في ظل كل هذا، عندما يحين الوقت للرحيل، يمكننا أن نرحل كما نشاء. في هذا الوقت، كان الموت يعد أحد المعارف القديمة، وليس سببا للسقوط في الهستيريا. لم يكن العلم الوليد قد تحول بعد إلى وحش شره بشع قادر على الحفاظ على كل الآلام وزيادتها

بدلاً من محاربتها. وكانت لم تظهر بعد في العقل الباطن تلك الريبة المزعجة، لم يكن تأميننا الاجتماعي الرائع، المواسي للضعفاء، قد تحول إلى الجائزة الأولى التي تتهافت عليها صناعة الأدوية وفروعها؟ لقد أصبح الآن مرضانا الذين طال أمدهم كالبقرة الحلوب. كل يوم إضافي هو يوم لتحقيق الأرباح. وهذا يجعل توصيات الاستسلام والصبر أكثر ربحية من بيع المعاناة القصيرة.

أنا لا أقصد بكل تأكيد أن أتحدث بسوء عن خدام العلم، الأطباء، المعالجين وخاصة الممرضات. أنا لا أؤمن بالأبطال ما لم يسموا أنفسهم ممرضين/ممرضات. هم يعبرون عن الوجه الخفي للمحارب المغوار الذي يعرف معنى "كل شرارة في الحياة". إنهم يعرفون ماذا يعني ذلك في الممارسة العملية. إنهم يساعدون العجزة والمرضى على تحمل إذلالهم اليومي، من الطعام إلى التغوط. هذه الأشياء التي يفضل الجميع أن يكون صامتاً حيالها، بما في ذلك السياسيين والأساقفة. الطعام الذي ينقلب على الأرض على نحو غريب، زجاجات إرضاع الطفل بين أيدي المتسولين الدامعين، والآلام التي يتعذر علاجها، وأكياس البول المعلقة كشماعة بجانب السرير الذي لم نستطع أن نبتعد عنه أكثر من ذلك. كل هذا السجل المرير من القيء والقرف.

لم تعد تعاني، هذا صحيح. لم أستطع أن أعتبر ذلك تعزية. كانت من بين كل النساء عليها أن تفقد القدرة على النطق أولاً! والآن، عليها أن تفقد حياتها لأنها لم تعد تستطيع أن تأكل.

هل عامين وقت كبير؟ "دعوها ترحل، دعوا المرأة العجوز ترحل". ما زلت لا أعرف ذلك. لا أريد أن أفوت اللحظات الجميلة. لكنني كنت أحب أكثر محوا بأثر رجعي للأيام والساعات الرهيبة. من أجلها، في المقام الأول. لم أظهر لها أبداً المزيد من التعلق والاحترام إلا في اللحظة التي سمحوا فيها لها بالرحيل أخيراً. إن الرجل لا يدين حقا إلا لشخص واحد في العالم. كنت أعتقد أنني قد سددت الدين. ولعل الحب، لا يستطيع حقاً إلا أن ينجز شيئاً واحداً فقط. الموت من أجل الحب.

أنا

(أو: ماذا الآن؟)

لقد تم عرض جثمانها في نعش لدى وريث جف، متعهد الجنازات في منطقتنا، لقد بدا الأمر وكأنه مناسبة عائلية خاصة، دون أي رتوش أخرى أو مزيد من الأنشطة ذات الصلة. لم يُسمح إلا للعائلة المقربة بالحضور لزيارتها الأخيرة. "لا غرباء حول نعشي!" (كانت تقول هي ذلك في بعض الاحيان، وهي تتخيل جنازتها، بينما كانت تمسح يدها في مئزرها). على أي حال، يأتي الناس الذين لديهم الشوق للبحث المهووس عن أي شيء كئيب، حتى يتسن لهم بعد ذلك أن يحكوا، كم بدوت في نعشك متعباً ومتهالكا. "أنا لست ككعكة احتفال. عليهم فقط أن يتذكروني كما كنت وليس كقطعة من اللحم البارد يلبسها ويضع لها المكياج أحد الهواة".

لقد كنت أخشى الأسوأ، بسبب فترة احتضارها، بدت هادئة ومستسلمة في نعشها المبطن بالحرير الأبيض، الذي عُرض في غرفة صغيرة مزينة بورق حائط، ربما لأنها أصبحت مطمئنة أخيراً. مع أنها هزيلة وعيناها مغلقة، كان لا يزال وجهها الشمعي يعكس شيئاً من فخرها العنيد القديم. كما لو أنها أرادت أن تجعل الجميع يفهمون ولو لمرة واحدة أخيرة، وفي ظل كافة الظروف التي تم أخذها في الاعتبار (هيا، اعترفوا بذلك صراحة)، أنها قد عاشت حياة لم تكن سيئة وإنه لا يوجد شيء يمكن أن تخجل منه.

على رأس التابوت، كانت هناك شمعتان كبيرتان مشتعلتين بحجم الأذرع في الشمعدانات النحاسية التي يبلغ ارتفاعها مترا واحدا، آثار من عصر آخر، قطع رائعة كانت ستود معرفة سعرها إذا كانت على قيد الحياة، وكذلك اسم صالة المزادات التي لا يزال من الممكن الحصول منها على مثل هذه الأشياء. عند قدميها كانت هناك

أكاليل من الزهور على حوامل من الحديد المطاوع، مضاءة بعناية مهنية. كان الناس يتساءلون إذا كانت الزهور طبيعية، حيث أنها كانت مشرقة وكانت تلمع بالألوان الأخضر، الأزرق، الأحمر والأصفر. حملت أشرطة أرجوانية اسمها المكتوب بأحرف ذهبية.

واحدٌ تلو الآخر، كنا نهب للوقوف أمام نعشها، متظاهرين بأننا قد اخترعنا شكلاً من أشكال الصلاة العلمانية. ثم ذهبنا إلى جانب التابوت وربتنا على يدها وعلى جبينها، المغطيين بالندى البارد المكثف. في النهاية، وقبل نقلها إلى المحرقة مباشرة، تساءل والدي هل يمكنه أن يبقى وحيداً معها للحظة. انتظرنا في الردهة وسمعناه لمدة ربع ساعة طويلة وهو يتحدث معها في همس دون انقطاع، لفترة أطول مما كان يتحدث إلى شخص حي لم يكن زبوناً.

بين أصابعها كانت هناك مسبحة من اللؤلؤ، وصليبها الصغير يستريح على بطنها. في الأعلى، بين إبهاميها، تستقر صورة وفاة ابنها الأصعب في التعامل، والتي احتفظت بها دائماً في محفظتها. كان الورق المقوى قد تهرأ عند الحواف وكانت الصورة نفسها مصفرة قليلاً. بدت لي الصورة في مكانها، أما المسبحة فبدت لي كشكل من أشكال الفولكلور. لم أرها تصلي من قبل مع مسبحة، ولم يكن لديها الصبر، وفي رأيي، لم تكن لديها الإرادة أيضاً. لم يكن هذا أيضاً من الفولكلور، بل كان اكسسوار هابط في صناعة الجنازة الفلمنكية. نعم، كان لدى والدي أيضاً واحدة بين أصابعه المتشابكة عندما تم عرض جثمانه بعد ذلك بعامين عند متعهد الجنازات نفسه، في القاعة الصغيرة نفسها، بناءً على طلب منه على وجه التحديد. الصورة التي كانت لديه بين إبهاميه كانت صورة لزوجته. هو أيضاً بدا مسالماً، وحتى سعادة مؤثرة انبثقت منه. في كلتا الحالتين، كان عمل أناس محترفين. في تفصيلة واحدة. فالتحنيط يشبه تماماً رسم البورتريه. نحن نركز على الوجه، لكن الأيدي هي الأصعب في القيام بها. متصلبتان ومزينتان

بمسابح متشابكة، كانت الأيدي تفتقر إلى القوة والحجم، ولأكن صادقاً، فإنها تشبه في كلتا الحالتين مجموعة صغيرة من الهليون التي أصبحت رخوة. عندما رأيت ذلك لديها للمرة الأولى، انتزعت مني المقارنة ابتسامة. لم يكن الأمر مختلفاً معه.

ما زلت أعيش هذه اللحظة أثناء نثر الرماد الذي أعقب ذلك. وميض ابتسامة لا إرادية، قافية اخترعت بالصدفة نتعرف عليها بشكل ارتجالي. لقد كان يوماً خريفياً جميلاً، بلا ريح تقريباً، في المقبرة الجديدة للقديس نيكولاس، والتي تستطيع بشواهدها ومستنقعها الكبير، أن تكون بكل جدارة خلفية في أي فيلم أمريكي. وقد أدى الرجل الذي يفرغ الجرة من الرماد، العملاق ذو الرأس الكبير وملامح الوجه القبيحة، والمرتدي معطف واق من المطر طويل أسود مليء بخطوط ذهبية وقبعة مدببة كبيرة للغاية وقفازات جلدية، مهمته بنجاح. كان يتمايل مع الجرة بحركات الفلاح الخبيرة، حوالي عشرين سنتيمتراً فوق العشب، كانت كل حركة مقاسة في طولها وفي بطئها، كما لو كان يعلم مدى سيطرته على كافة العناصر ومدى رغبته في الوصول إلى الكمال. ومع ذلك، عندما رأيت النمط المربعي المعتاد الذي رسمه، لم أستطع منع نفسي من التفكير في فكرتين تبادرتا إلى ذهني. الفكرة الأولى: كان كل ما حدث تافهاً وبلا قيمة. في رأيي، لطالما اعتقدت أنها ستملأ العشب كله. الفكرة الثانية: بعد أن أحضر كل من الحاضرين سلة صغيرة من الزهور، وتركها في النسيم الرائع أو على العشب الجميل، وبعدما ألقوا تحيتهم الأخيرة بإيماءة من رأسهم، ثم ذهبوا بعيداً يتهامسون فيما بينهم أو يبكي أحدهم وهو يضع رأسه على كتف الآخر، قلت لنفسي إنها لم تكن ترغب في رؤية الحالة التي تركت بها في هذه الساحة الانفرادية الصغيرة. حيث كان رمادها ينتثر هنا وهناك بسبب الرياح الخفيفة، كما أن هذه الساحة الانفرادية الصغيرة كانت تحيط بها مجموعات غير منتظمة من الزهور. لي أن أراهن، أنها لو كانت قد رأت ذلك، لكانت ذهبت لإحضار المكنسة والجاروف وكذلك المكنسة الكهربائية. لا يمكن أن نقول حقاً أنها كانت نظيفة، مع كل هذا الغبار وكل

هذه الزهور المهملة على هذا العشب الذي تم تهذيبه بشكل جميل، إنها بهذا الشكل تستحق الحصول على لقب الحديقة الإنجليزية.

(لقد فاجأتهما كلاهما بهذا النوع من الغضب الغامض في التنظيف، ذات يوم عندما قمت أخيراً بتنظيم حفل شواء لصديقي في هذا الكوخ اللعين الذي تركاه وراءهما. تم الاتفاق على أنهما لن يتدخلا في أي شيء وأنني سأعد وأنظم كل الأمور. ولكن عندما وصلت بالسيارة إلى الممر الصغير، رأيتها، في ملابس السباحة، على السطح المائل الخطير، تجوب بين الألواح المموجة الوردية، والتي نمت عليها هنا وهناك القليل من الطحالب. (أنا، صارخاً بغضب): "هل تعتقدين حقًا أن أصدقائي سيتحققون من أن سقفك نظيف بما يكفي قبل البدء في حفلة الشواء في الحديقة؟" (هي تصيح بدورها): "نحن لا نعرف مع أي صديق أنت. هناك بعض منهم يعرفون كيفية التنظيف والخياطة أفضل مني". في هذه الأثناء، لا أحد يصدقني عندما أقول ذلك، ولكن هذا صحيح، كان أبي ينظف العشب بالمكنسة الكهربائية. هنا وهناك كانت هناك بعض الزهور الساقطة من شجرة الكرز اليابانية. هي: "إنني لو كنت سأفعل ذلك، كنت سأفعله بشوكة الحشائش، ولكن هذا كان سيستغرق فترة أطول، أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟" ولكن في كل مرة يدير ظهره فيها مع المكنسة الكهربائية، تسقط أزهار الكرز خلفه على السجادة العشبية التي تم كنسها حديثاً. اضطررت إلى قطع التيار الكهربائي، وإلا فقد يستمر في الكنس بالمكنسة الكهربائية، بأمر من خوسيه، بينما نحن جالسين على الطاولة).

(بما أنني أتحدث عن هذا وأن هذا الكتاب، الرواية أم لا، قد وصل أخيراً إلى نهايته، يمكنني إضافة هذا. نحن، أطفالهما، عالمهما الجديد، بذلنا جهوداً يائسة لإقناع كل منهما بمزايا العصر الجديد، مثلما هما قد نقلا لنا معارف عصرهما القديم. اشترينا لهما غسالة صحون للاحتفال بعيد زواجهما. بعد بضعة أسابيع، لم يستخدموها إلا لمرة واحدة. "إنها جيدة فقط من حيث استهلاك الماء والكهرباء (تقول هي)، وأكيد لن تكون نظيفة مثلما نغسل باستخدام اليد". لقد جعلناها تعدنا بأنها ستجرب هذا

الجهاز مرة واحدة على الأقل. وقد أطاعت. قامت أولاً بغسل الأطباق، ثم وضعت كل الفوضى في الآلة، ثم قامت بغسل الأطباق مرة أخرى. "بهذه الطريقة، أصبح الجميع سعداء!؟".

حاولنا أيضاً إقناعهما بتوظيف مدبرة منزل لمساعدتهما في العمل الشاق، تنظيف الأرض، غسل النوافذ ونوافذ المتجر. كانا يقومان بتنظيف وغسل كل شيء قبل وصول تلك المرأة، ثم يساعداها في تنظيف كل شيء للمرة الثانية. "لا أريد لهذه الفتاة أن تخبر الحي بأكمله أننا أشخاص قذرون".

بعد كل دفنة، كان هناك مآدبة دسمة لعشرات الأشخاص في المؤسسة التي تحمل اسم منزل فان دن فوس رينيردي، والتي قدمت على خشبة مسرحها، دورها في مسرحية "جميلة الحفل"، آخر ظهور علني لها. في كلتا الحالتين، كان ما تبقى من عائلة والدي الفلمنكية الغربية جاءوا بكل إخلاص من ميدلكيرك وتورهوت وما حولهما للاحتفاء بهذا الوداع مع وجبة من ثلاثة أطباق، بالإضافة إلى القهوة مع البراندي والحلويات.

ليس فقط البحث عن حل وسط ولكن أيضاً فإن الاحتفال بحياة مليئة بالرضا ينجح بشكل أفضل عندما تكون معدتنا ممتلئة، وكأس البراندي والسيجار في متناول اليد ونحن محاطون بألسنة صديقة تكشف وتروي القصص التفصيلية المطلوبة في يوم كهذا.

ومع ذلك، هناك تقاليد لا يمكن نقضها دون ندم. بقيت الزهور التي عادة ما يتم نقلها بعد كل دفن إلى المقبرة حيث يتم تركها على حافة الضريح، في كلتا الحالتين في كنيسة القلب المقدس المبنية بالطوب.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي، على الرغم من الغبار والرماد، كانت تدخل الكنيسة من جديد حيث تم الإشادة بابنها الأصعب في التعامل مرتين، مرة حرفياً ومرة من خلال كلمات رئيسه الهولندي. لم تستمع أبداً إلى شريط هذا الخطاب

الجنائزي. (في يوم من الأيام، تهشم الشريط. كان عالقاً، ولم نتمكن من إخراجه من الجهاز، ولما نجحنا في ذلك أخيراً، بدا أن الشريط المغناطيسي البني الضيق قد ترك صندوقه البلاستيكي وأصبح ملتوياً وملفوفاً في أحشاء قاريء الشرائط. هي، والدتي، بدت مرتاحة. وأكثر من ذلك فقد فشل روجيه، على الرغم من جهوده الطويلة في لف إحدى البكرات بالقلم الرصاص، في أن يعيد تشغيل الشريط. فانتهى به الأمر برمي الشريط بعيداً. على أي حال، كان يحفظ كل الكلمات عن ظهر قلب).

كانت جرتها على قاعدة التمثال أمام المذبح. نفس المكان الذي وضع فيه نعش ابنها قبل خمسة وعشرين عاماً. المكان نفسه الذي حمل، بعد عامين، جرة زوجها. منذ هذه الجنازات الأخيرة، وهذا بالتحديد ما أردت التحدث عنه، أصبح هناك عدد أقل من الأزهار في كنيسة القلب المقدس بشكل ملحوظ أمام تمثال القديس انطونيوس وتمثال المسيح بتاجه من الشوك وجانبه الدامي. بعد السكتة الدماغية الأولى، استأنف هو عادة زوجته في وضع الزهور كنزر للحصول على الشفاء. فقط، لم يحضرها هو بنفسه أبداً. في الحقيقة، لم يكن من الضروري سؤالهم عما يحتاجون، هؤلاء آباء القلب المقدس مع اقتباساتهم من الكتاب المقدس المضحكة.

كانت الحكايات التي أذكرها أثناء احتسائي الكونياك على مائدة العشاء التي كانت معدة للوداع، محاطاً بألسنة أخرى تطلق العنان لنفسها في الحكي، هي نفس القصص التي أرويها هنا، بعد سنوات، في كل مرة إلى حد كبير بنفس المصطلحات وبالإيماءات نفسها، لست أضيف إلا بعض القطع الصغيرة الحماسية، وذلك لأنني أسعى فقط للحصول على مزيد من التأثير دون أن تفقد القصة بريق الوقت السابق. كما كانت تفعل هي دائماً، أوه، هذا صحيح.

"جميع أصدقائي ومعارفي الذين قابلوا والدتي، بدأوا، على سبيل المثال، التحقق في وقت لاحق، بفضول أكثر شغفا من الأخرين، لمعرفة هل كانت مازالت تبالغ في الأداء المسرحي الدرامي؟ وذلك بدلاً من قول هل مازالت مثيرة للمتاعب؟ وهذا يسرني كثيراً

وأجد نفسي أجيب بصراحة: "ومرة أخرى، لقد رأيتموها في لحظة ضعف. عليكم أن تروا ذلك عندما تكون بأفضل حال!".

في بعض الأحيان، يجب أن أعترف بذلك، كانت في أفضل حال إلى حد ما كما كنت أتمنى. في حفلة بمناسبة عيد ميلادي في قاعة ماجوليكا في غنت، دخلت أولاً في نقاش حاد مع المسئولة عن الدي جي، لأن الموسيقى كانت عالية للغاية. "إنه أمر سيء لأذنيك، يا صغيرتي، إنني نفسي، لا أستطيع سماع نفسي". وعندما تجاهلتها هذه الصغيرة وأعطت لها ظهرها وهي تهز كتفيها، ما كان منها إلا قلب أحد مكبرات الصوت على حلبة الرقص، ثم قطع السلك الكهربائي في الجهة الأخرى. وعندما حاولت نهيها عما تفعله، وأتحدث بلهجة الاحتجاج التي يتحدث بها كبار السن مع الشباب، وضعت في كل أذن سيجارة مفلترة، وبدأت تتجول وتسير حول حلبة الرقص، وتمشي مثل المصري، مع وضع ما يشبه هوائيين لونهما أبيض على رأسها أو فتيل قنبلة عنقودية. تشكلت مجموعة من المعجبين حولها يصفقون لها وهي لم تكن قد شرعت في رقصتها بعد، وبفضل هذا النجاح ولتشعرني بمزيد من الخزي، نزلت لتستمر في مظاهرتها في المقهى الكبير المزدحم بالناس. وهناك، وضعت سيجارة في كل فتحة من فتحتي الأنف".

تدور أحداث ملحمية أخرى حول رحلة إلى جنوب إفريقيا تمكنا من القيام بها عندما كانا لا يزالان يتمتعان بصحة جيدة، لكنهما لم يعودا متعطشين للمشي، خاصة والدي مع قدمه المجنونة. ولقد رأيت من الحكمة أن يستخدما في المطار خدمة كبار السن، أي إنه يمكن أن يقودهما الموظفون بواسطة سيارة كهربائية أو كرسي متحرك من مكتب التسجيل إلى الطائرة وفي وقت لاحق من الطائرة إلى بوابة الخروج، مع إعطائهما الأولوية في فحص جوازات السفر وفي التحققات الأمنية.

تحدثت هي أولاً بغضب شديد: "نحن لسنا معاقين". غيرت رأيها عندما شاهدت فيلماً وثائقياً كانت تسافر فيه زازا جابور[49]، جالسة في سيارة كهربائية صغيرة، تتجول

49) ممثلة مجرية.

ما بين ممرات مطار أتلانتا، مع كلبها وصندوق أدوات تجميلها على ركبتيها وهي تلوح بيدها لمعجبيها. لم تكن بحاجة أكثر من ذلك كموديل على العجلات.

فجأة، بدأت تشعر بالحماسة وكان على روجيه أن يحذو حذوها. لقد وجدت أنهما يستحقان حقا العربات والكراسي المتحركة. وها هي ذي، تدخل إلى بهو مطار زافينتيم وتبدأ في سحب ساقيها وهي تئن من حين لآخر. هو فعل الشيء نفسه. أخذ نصف المسافرين في المطار يتأملوهما في شفقة وينظرون إلي بغضب: ماذا يدفعني إلى جر هؤلاء المعاقين ورائي سيراً على الأقدام إلى محطة الصعود إلى الطائرة؟ قدم موظفو المطار الذين استقبلوننا كراسي وكوب من الماء. شكرت الجميع، لاهثة، تبحث بكل قوتها عن الأكسجين، فمها مفتوح، مرتجفة، كما لو كانت ستصاب بنوبة قلبية حالاً.

تكررت القصة نفسها عندما هبطا من الطائرة. "روجيه"، تصيح هي، لأنه نسي كلمة السر ولم يعد يجر بشكل صحيح قدمه المجنون. في اللحظة التالية، بدءا في الأنين وفي العرج كما لو كانا مصابين في الساقين مثلما كانا فعلا في الليلة السابقة. وبفضل هذا، استطعت أن أنهي الإجراءات سريعاً وهذا لم يحدث لي قط عند الخروج من المطار.

في كيب تاون، تقابلا مع صديقتنا الكبيرة ماريان، أمنا الإفريقية السحاقية، التي تتميز بالسرعة والمصابة بالربو، خمسة وثمانون كيلوغراماً من اللحوم الجافة معلقة في خطاف، صحفية وممثلة كوميدية تقدم عروض ستاند أب، ابنة لأم برتغالية وأب من برلين، والذي خدم مرة واحدة في السلاح الجوي الألماني. ماريان وهي، افتتنت كل منهما بالأخرى. تشاركتا في السجائر وتحدثتا عن الحرب والقصف بمزيج من اللغة الإنجليزية والفلمنكية والإفريقية وحتى الألمانية. ثم تحدثت معها ماريان عن السينوجما، الأطباء السود وهذا جعلها تتذكر بوردجي، دكتور النباتات من واسلاند. ثم بدأت في الحديث عن شاي الروبيس الجنوب أفريقي، وقالت أنها لا تحبه وأنه لا يستحق كل هذه الشهرة، وأنها تفضل شاياً عشبياً مصنوع من نبات الربتينا وجذر الهندباء المجفف. "إذا كنتِ لا تنامين جيداً، يمكنك إضافة ورقة من المريمية على هذا الخليط".

ماريان أومأت برأسها بعلامة تنم عن إعجابها، وتشجيعها وتحفيزها لأمي. إذن ما الذي نتوقعه من والدتي؟ أمام هذه النمرة الأفريقية السحاقية. بدرجة الصوت التي تتحدث بها على أي شيء وكأنه شيئاً معتاداً لا يثير الاهتمام. «إذا عدت؟ في الحياة القادمة أو شيء من هذا القبيل؟ سوف أعود كرجل. لا أمزح"، تبتسم ماريان وهي ما بين الخوف والمتعة. هي: "لم لا. الرجل قوي. الرجل ذو نفوذ. الرجل مسيطر. أليس صحيحاً، روجيه؟" وأبي، الجالس بجانبها، يوافق على ما تقول. "بالطبع، خوسيه. بكل تأكيد، خوسيه. الرجل يسيطر على كل شيء".

لقد أتيحت لي في السابق فرصة لزيارة منتزه كروجر الوطني، أحد أكبر المنتزهات الطبيعية في العالم. لقد اكتشفت مكاناً مثالياً، يقطع الأنفاس بفضل جماله وهدوئه، ويقدم العديد من النباتات والحيوانات الساحرة. زرت المكان نفسه مع خوسيه النبية ونحن على وشك الدخول إلى جهنم. في أحد الأمسيات، هبت نار هائلة في جزء من السافانا. "هذا هو المكان الذي نذهب إليه"، كانت تقول. وراءنا، أغلقت البوابات بالفعل. سوف نقضي الليلة في المنتزه. "لكن لا، أقول أنا لأطمئنها، لا داعٍ للقلق، سوف نذهب جميعاً إلى الجهة الأخرى". "يا لها من مزحة"، تقول بثقة من لديه خبرة طويلة في تقلبات النيران.

"نحن سنتدحرج مباشرة إليها".

لقد كان معها حق. لقد تدحرجنا مباشرة نحو النار. قبل أن نحاط بالكامل باللهب، وصلنا إلى مخيم موجود وسط الأدغال، محاط بالمساحات الخضراء الداكنة بسبب الري الوفير والذي تحيط به خنادق للحماية من الحريق. الطريق الذي كنا نسير فيه بأقصى سرعة منذ خمس عشرة دقيقة فقط محاط الآن على كلا الجانبين بالنيران. ولكن، على الأقل، نحن الآن في أمان. أو هكذا كنا نفكر. لقد أحاطت بنا النيران أكثر، كانت تغضب وتزأر، كانت ترتفع عدة أمتار، تحولت الأشجار إلى مشاعل، تدوي الانفجارات، تنفجر القمم، دائماً الأقرب إلينا.

ثم كان هناك نوع آخر من الانفجارات، يصم الآذان أكثر، أكثر طولاً، قادماً أولاً من مسافة بعيدة، يدوي قبل أن يضرب. بدأ حراس المتنزه، الذين كانوا يحاولون بمنتهى القلق، إطفاء النيران، باستخدام الخراطيم الصغيرة المضحكة، التي يسقون بها الأشجار في الدخل، يرقصون من الفرح. هبت عاصفة مثل تلك المذكورة في الكتاب المقدس. ثم بدأت السيول، والنيران تحولت إلى بخار، والسماء أخذت تبرق وترعد. يتبقى فقط أن نأمل أن يسقط الدخان أو، على العكس من ذلك، يطير بعيداً أو أننا سوف نهلك بالاختناق.

انزلقنا إلى السرير بمنديل مبلل على الأنف، وقد بدأنا نسمع بالخارج صمتا مريبا. يبدو أن العاصفة كانت تدخر قواها لضرب ضربة حاسمة. حدث ذلك بعد منتصف الليل مباشرة فوق كوخنا. وميض من الضوء، يتبعه مباشرة انفجار مرعب. بعد ثانيتين: صرخة تقشعر لها الأبدان حتى نخاع العظام.

كان رجلي يغفو بسعادة، أما أنا، فقد هرعت إلى غرفة والدي لكي أطمئن عليهما. أبي، كان على حافة السرير، رأسه متدلياً وكان يبدو عليه النعاس. أما هي، فتقف في إحدى زوايا الغرفة، مرعوبة وتحمي رقبتها بكلتا يديها.

"لقد تعرضت للهجوم! قفز شيء ما على رقبتي! لقد نلت منه عند الحائط!" ننظر أنا وأبي إلى بعضنا البعض. كانت عيوننا تقول ما نفكر فيه. لقد قضيتِ يوماً صعباً، يا أماه. لديك خيال مفعم بالحيوية للغاية، خوسيه، خاصة عند النوم. عودي إلى النوم، اتفقنا؟

"سأثبت لكم ذلك"، قالت هي ساخرة، وبحركة سريعة، جرت سريرها من جانب واحد. وبالفعل. هناك، عند الزاوية، كان هناك شيء أسود. بدا ذلك مثل عنكبوت كبير حجمه في حجم يد طفل صغير، ولكن له جناحان صغيران ناعمان. لقد كان ذلك الشيء خفاش صغير. أتعرفون ماذا حدث، من بين كل الأجزاء في هذا المتنزه العملاق، الأكبر من حديقة البنلوكس، دوي صوت عاصفة رعدية فوق كوخنا مباشرة وسقط خفاش من السقف المصنوع من القش في الظلام. وأين سقط إذن؟ على رقبة والدتي.

شاعرا بالذنب، ذهبت للبحث عن وعاء ووضعته فوق الحيوان الصغير الذي أذهلته الصدمة وشله الخوف. في صباح اليوم التالي، عندما عدت لأخذ الوعاء، كان الحيوان الصغير قد مات. تطلعت خوسيه من فوق كتفي، كانت غير متأثرة ولكن لا تزال مع وشاح حول عنقها. "حيوان صغير مسكين. ولكن كان عليه ألا يسقط على رقبتي. ولكن للأسف، هذا ما حدث".

وهلم جرا.

هلم جرا.

كان يجب علي أن أتوقف منذ فترة طويلة. سامحوني لأنني لم أقم بذلك بعد. تستمر أصابعي في الكتابة على لوحة المفاتيح، وتستمر الكلمات في الظهور على شاشتي وعلى ورقتك. هل يجب أن أعتذر عن عدم اكتراثي؟ إذا كنتم ترغبون بذلك: فبكل سرور. لأنني، أنا المسؤول الوحيد. طالما أنني لم أضع نقطة النهاية في أسفل الصفحة الأخيرة، فإن هذا لم ينته لدي حقاً، وبالتالي، لم أستطع أن أرسم هذا الصليب الكبير مستخدماً الخطوط السميكة.

هذا الصليب عليها، عليه. على حيهما، على ماضيهما، على حياتهما. من فضلكم، أعطوني مهلة قصيرة. وكونوا مطمئنين. إن هذا سوف ينتهي قريباً.

لا يزال أمامي مهمتان متبقيتان.

أولاً سؤال. هل هذا الكتاب الذي يمكن أن أكرمهما به بشكل أفضل؟ هل هذا الكتاب الذي كانت تود قراءته والكتاب الذي أرادت مني كتابته؟ الكتاب الذي كرست نفسي لكتابته، الكتاب الذي انتظرتموه مني؟ أشك في ذلك. الكتابة تشبه التحنيط إلى حد ما. يمكنك أن تتظاهر، رغم كل الصعاب، وحتى أن تصدق ذلك، أن عملك ليس إلا مؤقتاً، فقد رسمت، رغماً عن هذا، بورتريه يحاول أن يرقى إلى مستوى الواقع، أو على الأقل يحاول الحفاظ عليه، ولو حتى لفترة قصيرة. يوجد تناقض هنا، وهو بكل تأكيد موجود في هذا الكتاب الذي هو قبل كل شي كتاب يتحدث عن الزمن

وعن أمور مرت. ومثل هذا الكتاب كان ينبغي أن يكون مختلفاً تماماً. لم أكن مولعاً دائماً بالفن التشكيلي الحديث، لكن الكتابة جعلت له مكانا في الخطة. قبول مؤقت، في اختيار المواد بالفعل. المزيد من البرونز ولكن أيضاً المزيد من الزبدة. المزيد من الرخام ولكن أيضاً قطع من الخشب المتعفن وشرائح لحم الخنزير والمطاط في طور التحلل. النفايات الموجودة على الشاطئ أو في حقل تم رشه بالمبيدات. المواد التي يمكن أن تختفي أو تكون قابلة للتلف والتي تشكل جزءاً أو حتى الجزء الرئيسي من العمل.

سيكون هذا الكتاب. الورق الذي يمكن أن يتساقط ويفسد عند القراءة. أو بالأحرى لا، الحبر الذي يتلاشى. هذا ما سيكون أجمل. تصل إلى نهاية الصفحة، والإبهام الذي تحمل به الكتاب في أسفل اليمين، أسفل الكلمة الأخيرة مباشرة، وتلقي نظرة على الصفحة التي قرأتها للتو وقد اختفى السطر الأول بالفعل بالكامل، لقد امتصه بياض الورقة. في وسط الفقرات، لا تزال واضحة إلى حد ما، كانت هناك الظلال، الغارقة الممتدة على طول الشاطئ، المحاصرة بالمياه التي تغسلها، فقط وجوههم، بطونهم وحواف أحذيتهم لا تزال مرئية، لكنها باهتة بشكل واضح، وتبتلعها الأوراق. وفي أسفل هذه الصفحة، أعلى إبهامك مباشرة، بدأت الكلمة الأخيرة تصبح لونها أبيض. لحظة أخرى، وبالاتفاق مع أسلافها، سوف تودعك. وحتماً، دون أن تترك أي أثر، يمكن إصلاحه. حذف، حذف، إلى نهر النسيان.

بعد السؤال، يأتي المشهد الأخير. الوداع الحقيقي. آخر مرة رأيتها تتنفس. كانت مستلقية في غرفة مغمورة بالشمس ولكنها باردة، بسبب تكييف الهواء. كانت البياضات البيضاء، والستائر البيضاء، والجدران البيضاء والشعر الأبيض على الوسادة البيضاء. كانت عيناها مغلقة، وجهها نحيف، فمها بلا طاقم الأسنان وجاف بشكل فظيع، وكان أنفها قد تشوه بسبب أنبوب الطعام. كانت لا تتنفس، بل تلهث. أخبرني الأطباء أن هذه الحشرجة طبيعية وليست مؤلمة ولكنها حتمية. تملأ رئاتنا بالماء. في جوهرنا، نحن الأسماك مع بعض الاختلافات. أجلس بجانبها، واضعا ساقاً على السرير. لم تلاحظ ذلك، واصلت الأنين. لا أحد يعلم كم من الوقت يمكن أن تتماسك. هذا

القلب العنيد، الصامد والقوي، الذي لا يريد الاستسلام، مازال ينبض. كانت يديها موضوعة على الملاءة. وضعت إصبعاً داخل أحد كفيها، على أمل أن تغلق أصابعها برفق قابضة عليه، وحتى إذا كان ذلك فقط لا إرادياً. شعرت فقط بارتجاف، ولكن القبضة لم تغلق. رأيت شعرة صغيرة جديدة تحت أنفها. أيمكنني انتزاعها؟ ولكن، من أين أحصل على ملقاط؟ هل أحاول بأصابعي؟ أليست أظافري قصيرة للغاية؟

بعد ذلك بقليل، دخلت إحدى الممرضات. إن هؤلاء النسوة تقمن بهذا العمل على أحسن وجه. قامت بفحص الكيس البلاستيكي المملوء بالسائل، ثم الأنبوب، ثم النبض، ثم العين، وهي تسحب الجفن باحترام، وأرى للمرة الأخيرة القزحية الزرقاء الرمادية. وأخيراً، خرجت الممرضة التي كانت تبتسم لي ابتسامة تنم عن اللطف والرحمة، أخرجت من جيب ثوبها، قفازين من المطاط. ارتدتهما بحركة روتنية معتادة.

ثم نظرت إلي مرة أخرى نظرة شك. ثم قامت بعملها على أي حال. وضعت بحذر إصبعي يد بين فكي المريضة وأبعدت بينهما. بالسبابة في اليد الأخرى، في المكان الذي كنت أعلم أنه مكان اللسان، أخرجت بعضاً من المخاط ومسحته بمنديل ورقي. وهذا، قد جعلني أقسم أنه من الآن فصاعداً، سيكون لدي مهنة واحدة وهدف واحد وواجب سخيف اخترته نفسي، لأنني لست قادراً على ذلك كثيراً من ناحية أخرى، لأنني لم أتعلم أي شيء آخر ولأنني لا أؤمن بأي شيء آخر. هذا الواجب هو: أين ومتى سأرى الفرصة، سأقاتل الصمت بصوتي، وسأحاول تحدي الفراغ بكلامي، وسأحارب كل ورق العالم بلساني. قد يكون هذا تمردي، ثورتي، ضد المخاط، ضد حشرجة الموت. برجاء، اتركوا لي هذا على الأقل كتمرد. لم يعد هناك وقت، لم يعد هناك المزيد من الأوراق، لم يعد هناك كتابٌ يتحدث بمائة ألف لغة، مما يزيد من المفردات. لن أكون صامتاً بعد الآن، سأكتب دائماً، سأتكلم دون كلمات.

دعوني أبدأ.

للنشر
والتوزيع

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007